تهميمة أنام

The Good Muslim

المسلمة الحسنة

ثلاثية بنجلاديش ٢

رواية

ترجمة: نورهان البدوي

عصير الكتب

مكتبة ياسمين

The Good Muslim

المسلمة الحسنة

في الأيام الأخيرة من حربٍ أهلية وحشية شهدتها بنجلاديش، يتعثر سهيل حق بمبنى مهجور في طريقه عائدًا إلى الديار. وفي الداخل يجد امرأةً شابة ستؤرقه قصتها وتطارده طيلة ما تبقى من حياته.

وبعد مُضي ما يقرب من عِقدٍ من الزمان، تعود مايا، شقيقة سهيل، إلى الديار بعد غيابٍ طويل لتكتشف مآل التحول الذي شهده شقيقها العزيز. وفي الوقت الذي تظل مايا مُتمسكةً بمُثلها الثورية، يتجنب سهيل حياته القديمة ليصير زعيمًا دينيًا مؤثرًا. لقد تعلمت مايا الكثير عن بلدها في أثناء عملها طبيبةَ قريةٍ ولذلك تجد عزاء شقيقها في الدين صعبًا للغاية.

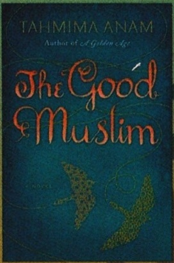

وحين يُقرر سهيل إرسال ابنه إلى مدرسةٍ دينية، ينشأ الخلاف بين الشقيقين ويصل إلى ذروة مُهلكة.

رواية "المسلمة الحسنة" قصة ملحمية تدور أحداثها حول الإيمان والعائلة، ونشأة أصولية الدين، والظل الممتد للحرب. خطّتها أنامل الروائية البنجلاديشية الحائزة على الجوائز تهميمة أنام.

غلاف: محمود هشام

t.me/yasmeenbook

9 789779 923512

عصير الكتب

www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb

The Good Muslim

المسلمة الحسنة

ثلاثية بنجلاديش ٢

عصير الكتب

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: The Good Muslim
- العنوان العربي: المسلمة الحسنة
- طُبِع بواسطة: Canongate Books
- حُقوق النشر:

Copyright © Tahmima Anam, 2011

- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

- ترجمة: نورهان البدوي
- تحرير: مصطفى رزق
- تدقيق لغوي: محمد عبد العال
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: يناير / 2024م
- رقم الإيداع: 26680/2023م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-351-2

يسعدنا انضمامكم إلى قناة

مكتبة ياسمين

معكم نكبر ونستمر بكل جديد

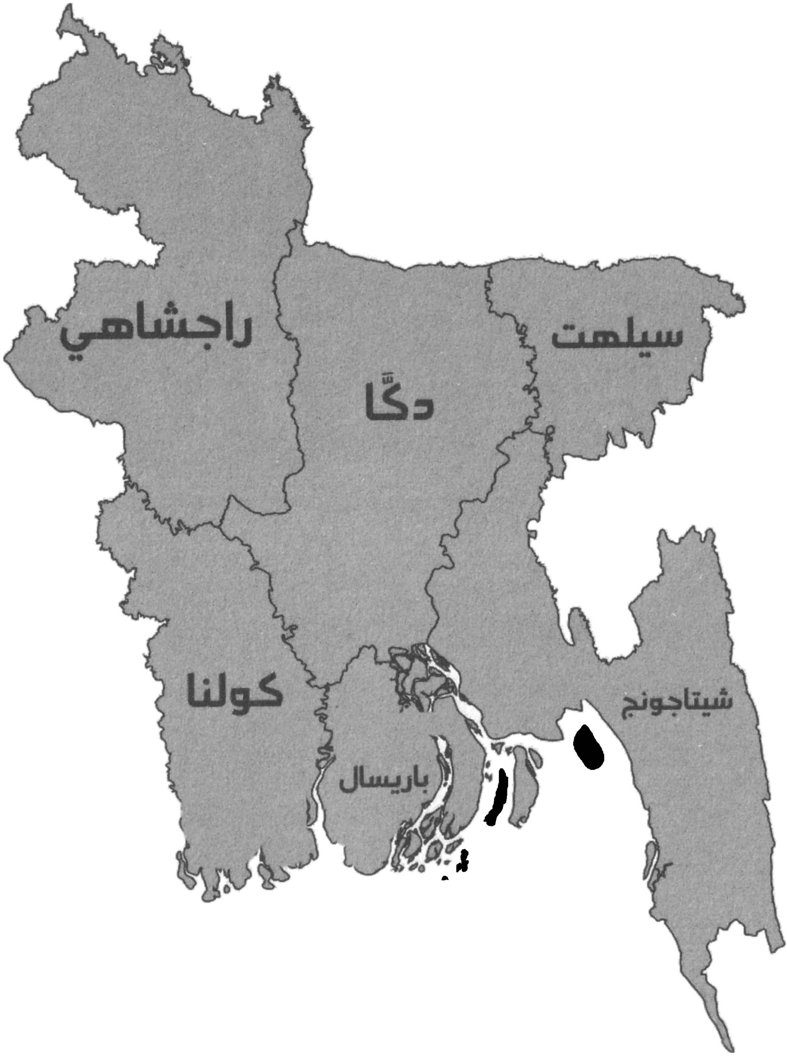
راجشاهي
سيلهت
دكّا
كولنا
شيتاجونج
باريسال

من أجل رونالد لامب.

تمهيد

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

1971

ديسمبر (كانون الأول)

بعد انتهاء الحرب بثمانية أيام، وقف سهيل حق وسط حقلٍ من نباتات الخردل الذابلة. جفَّت بتلات زهرة الخردل، حتَّى زارتها الرياح، وراحت تُوخز أنفه، لتُذكِّره برائحة اللحم الذي لم يذقه منذ أشهرٍ عديدة. ومن أسفل قدميه، تنزق الحشائش وتبكي؛ ومن فوق رأسه، تسطع شمسُ منتصف الشتاء الناعسة. كان يسير لأيامٍ طويلة، سالكًا الطريق الشريطي المُعبَّد، الذي يؤدِّي إلى الجنوب، نحو المدينة. وفي أثناء مروره بالقرى المهجورة، الواحدة تلو الأخرى، كان يأكل أوراق الموز ويشرب من الجداول المائية، يُقبِّل أسطحها، ويُغربل الطحالب من بين أسنانه. وفي اليوم الثالث، أخبره أحد المزارعين أن الحرب قد انتهت.

والآن، وهو في طريقه عائدًا إلى الديار، راح يُردد اسم بلاده على أطراف لسانه: **بنجلاديش**.

وفي الأفق، رأى بقعةً على الأرض المستوية.

كانت ثكنةً عسكرية. دار حول محيطها، مُحكِمًا يده الرطبة على زناد سلاحه. لا صوت.. لا حركة. أخذ يقترب، يسير برأسٍ منخفض، وجسدٍ

مسترخٍ في وضعيات الجندية، قوائمه على استعدادٍ للقفز، وعيناه ترقبان حدود المشهد، وإصبعه مُعلَّقةٌ على الزناد متأهِّبًا. لكن المبنى المعنيَّ كان مهجورًا.

لقد ترك الجيش المُتقهقر آثاره. اشتمَّ رائحة التبغ تفوح من الأثاث، ورأى الأزياء العسكرية تتدلَّى من حبل الغسيل. وجد أطباقهم مكوَّمة بعناية في إحدى الزوايا، وأحذيتهم تستقبل وجهةً بعيدةً عن مكة. رأى سجادات الصلاة، واشتمها، ففاحت برائحة الصابون والجير وطلاء الأحذية.

وعلى حائط دورة المياه، كتب أحدهم بالباكستانية «**البنچاب**[1] **هي موطني**». وجال بخاطر سهيل، كم كره هؤلاء الجنود بلاد البنغال، وكرهوا انغماس أقدامهم في الوحل، وكرهوا اختناق الهواء من حولهم كما تُكبَّل أيدي المجرمين، وكرهوا الناموس وتراشق أجسادهم بالمطر الذي لا يتوقَّف، والطعام الذي لا يُسمِن ولا يُغني من جوع.

وراح يتساءل الآن ما إذا كان يجدر به أن يضمر القليل من الشفقة على هؤلاء الرجال. فقد استشعر حضورًا مفاجئًا من نفسه القديمة، نفسًا ما تزال تحمل اللين بين أضلعها: دارس الجغرافيا، وليس الفدائي. وتحت مظلَّة روح التسامح، قرَّر أن يستلقي على أحد المضاجع، وفمه يحمل نصف سيجارةٍ مشتعلة. إنها النفس الأمَّارة باللين هي ما تقوده ليستكشف الغرفة خلف مخزن الأسلحة، ودفعته ليُزيح الباب المعدني الثقيل فينفتح أمامه، ويتحسس الحائط، بحثًا عن مفتاح الإضاءة -نفسه التي رأت مشهدًا سيظلُّ يحبس أنفاسه ما تبقَّى من حياته.

***

(1) عند انفصال الهند وباكستان، انقسم إقليم البنجاب إلى شقين. أحدهما ينتمي إلى الهند، والآخر إلى باكستان. والمقصود هنا هو إقليم باكستان. (المترجمة)

الكتاب الأول

«كلُّ ما في السماوات والأرض»

1989
فبراير (شُباط)

ما كانت العودة إلى الوطن ممكنة لولا وفاةُ سيلفي. هدأت أفكار مايا هنيهةً واستقرَّت على تلك الحقيقة، وهي تستوي على المقعد الخشبي في قاطرة الدرجة الثالثة، وتُوازِن على حجرها حقيبةً تجمع كل ما تملكه من متاع الدنيا: حقيبة ظهرٍ صغيرة تحوي ساريين، وقميصًا، وزوجًا من الأحذية الرياضية، وحقيبة طبيبٍ تحوي سمَّاعةً طبية، ومن أجل أمها، جلبت شجرة مانجو صغيرة. كان حزم الشجرة صعبًا؛ هي أثقل ممَّا تبدو عليه، وقد انتفخت بصورة غريبة حيث تمتد الجذور في التربة. أخبرها المزارع الذي باعها إياها أن «الشجرة لن تعيش. فأشجار «راجشاهي - Rajshahi» تنتمي إلى راجشاهي».

انسلَّت امرأةٌ عجوز تحمل حافظة طعام إلى جانبها. حدَّقت إلى مايا هنيهةً، ثمَّ حشرت حافظة الطعام بين ركبتيها، وأخرجت سُبحة صلاة وشرعت تُردِّد كلمة التوحيد[1] بصوتٍ خافت.

قالت باللغة العربية:

---

(1) تقصد بها الكاتبة الشهادتين في الإسلام. (المترجمة)

لا إله إلا الله، محمَّدٌ رسول الله.

من المؤكَّد أن الشجرة ستبقى على قيد الحياة؛ توجد بقعةٌ شاغرةٌ عند الحافة الغربية للحديقة، لو كان لأحدٍ أن يستميل ثمار المانجو لتزدهر على أوراق تلك الشجرة، فلن يكون أحدٌ سوى أمي. لكن سنين سبعًا قد انقضت، وما كانت مايا واثقةً حتّى من خلوِّ تلك البقعة.

دخل ثُلّةٌ من الرجال إلى القاطرة. وعلى الفور، شرعوا في الضحك والتدخين، متبادلين فيما بينهم عُلبةً من أعواد الثقاب وحزمةً من سجائر «ستار». قاومت مايا رغبةً في توبيخهم، وعوضًا عن هذا، ألصقت وجهها بالقضبان الأفقية على النافذة المفتوحة، محدِّقةً إلى أكوام القمامة المتناثرة على قضبان السكك الحديدية، ورصيف المحطَّة حيث يبيع الفتيان الفول السوداني والمشروبات الباردة، ومن بعيدٍ تتطلَّع إلى الرقع الخضراء المتناثرة، حيث تنتشر بساتين المانجو. ستفتقد حياتها بلا شك؛ المنزل ذو الحجرتين الذي استأجرته ينتصب الآن خاويًا، وأرضيته الخرسانية الخشنة كُنست ومُسحت. والشرفة، حيث تستقبل مرضاها، نُظِّفت هي الأخرى، وطاولة الفحص، والمنضدة التي كانت تُراص عليها أدواتها، والكُرسي الخشبي الذي يتدلَّى منه معطفها الأبيض في نهاية اليوم، وقلم الحبر الجاف المُعلَّق في جيب المعطف.

***

كان الأمر قد بدأ بحفناتٍ قليلة من الوحل. وحدَّثت نفسها أن الرياح لا بُدَّ ألقت بثمرة جوز الهند أو قطعة من الخشب لترتطم بجدران منزلها. وطوال ثلاثة أيامٍ، تجاهلت مايا الصوت.

وفي الليلة الرابعة، سمعت الضحكة. ضحكةً لا تُخطئها الآذان، فلتت من بين أصابع أحدهم وهو يقبض براحة يده على فمه. ضحكة شابٍ يافع، ضحكة متوتِّرة لا تليق سوى بالفتيات.

ركضت إلى الخارج وحدَّقت في الظلمة، لكنها عجزت عن رؤية أي شيء. فلم يكن هناك ما هو أشدُّ ظلمةً من ليلةٍ غير مقمرة في راجشاهي.

انتهى الأمر بعد أشهرٍ بنصل سكينٍ لامع. ها هي تتذكَّره الآن: حركةٌ طفيفة تشبه لعق قطٍّ لطعامه، هي حركة نصل السكين اللامع؛ ووميضٌ أبيض يجذب عينيها، هو طرف رداءٍ طويل يعلو كاحلَيْ رجلٍ على استحياء، وهذا الرجل

ينسلُّ خارجًا من الغرفة ثمَّ يختفي. اتجهت يدها إلى حنجرتها، حيث الندبة ما تزال واضحةً في موضعها، سوداء داكنة وغاضبة. لكنه لم يقطع حنجرتها، بل انسلَّ بسكينه أسفل رقبتها فحسب؛ كانت تلك طريقتهم في إخبارها أن بينهم عملًا لم ينتهِ بعد، وأنه قد يُعاود الظهور إليها في أي لحظة ليُنهي القصَّة.

أجل، ستفتقد حياتها. ستفتقد نازية والمنزل والمانجو والطريق المُحيط بالبِركة. لكن صوت لعق ذلك السكين، والنَّدبة على رقبتها، تعني أنها لن تعود مرَّة أخرى.

***

قُبيل انطلاق القطار، شغل طفلان صغيران المقعد المقابل لها. أمسكت الأم بأحد الطفلين وأبقته على حجرها، والآخر، الذي كان أكبر سنًّا، حشر نفسه في الفراغ الضيق بين والديه. ابتسمت الأم في خجلٍ؛ فخمَّنت مايا أن هذه هي مرَّتها الأولى على متن قطارٍ -قرطُ أنفٍ لامع، وزوجان من أساور ذهبية رفيعة يُحيط برسغها، هما جُلٌّ ثروتها.

صدقًا، لم ترَ مايا أيةَ مأساةٍ في وفاة زوجة شقيقها. فقد كانت مُجرَّد مواجهة سيلفي -وهي مُراءةٌ بالتقوى، بوجهها المُغطَّى بإحكام أسفل الخمار الذي لم يرها أحدهم من دونه منذ اندلعت الحرب- سببًا مهمًّا أدعى لابتعاد مايا عن ديارها. لا شك أن موطنها يضمُّ شقيقها سهيل أيضًا، وأمها، التي تخلَّت عنها لغضبها -غضبها والرائحة العميقة المُحفِّزة للكتب المحروقة، تلك الرائحة التي لم تتركها لحالها يومًا طوال السنوات السبع التي اختفت خلالها.

شقَّ القطار طريقه عبر راجشاهي، ثمَّ إلى «ناتور،» خلالها ظلَّ المشهد رتيبًا وجافًّا؛ تمتزجُ روائح حقول الأرز ونباتات الخردل التي تسطع صُفرةً، برائحة أقراص الروث المحترقة.

فتحت السيدة العجوز حامل الطعام، فانبعثت منه رائحة حساء الدال والقرنبيط المقلي. وعلى الجانب الآخر، حذت العائلة في المقعد المقابل حذوها، فأزالوا الغلاف عن طعامهم من الخبز ومُقبِّلات «الباجي[1]» المقلية

---

(1) باجي البصل هو نوعٌ من المقبلات المقلية الملفوفة التي ظهرت لأول مرَّة في المطبخ الهندي، تُصنع من الخضراوات الساخنة الحارة، وعلى رأسها البصل، والعديد من الخضراوات المتنوعة الأخرى. (المترجمة)

الملفوفة. غزا الجوعُ معدة مايا؛ كانت قد تجاهلت حزم أي طعامٍ لرحلتها الطويلة. قسَّمت الأم بحرصٍ رغيف الخبز إلى قطعٍ صغيرة للغاية ووضعتها في فم الرضيع. ثمَّ مرَّرت الباقي من الطعام إلى زوجها، متجاهلةً النظر إلى عينيه وهو يلتقط الحزمة المُغلَّفة بأوراق الصحف من بين يديها.

رفضت الفتاة الكبرى تناول الطعام، وراحت تشدُّ مرفق أمها وتهزُّ رأسها نفيًا. نقَّبت مايا في حقيبتها وخرجت بقطعتين من حلوى التمر هندي. وقدَّمت واحدةً منها إلى الفتاة، التي نهضت من مقعدها، وتسلَّقت إلى حجر مايا، ثمَّ أخذت قطعة الحلوى من يدها الممدودة. اعترضت الأم، لكن مايا أشارت لها بإهمال الأمر، وهي تقول: «لا بأس». رفعت الفتاة ركبتيها إلى صدرها وغطت في النوم. لا بُدَّ وأن مايا غطَّت في النوم هي الأخرى، لأنه حين فتحت عينيها، وجدت الفتاة تنام بثقلٍ بين ذراعيها والقطار على مشارف «محطَّة بهادر آباد[1]». شعرت مايا بلكزةٍ على كتفيها. كانت المرأة العجوز تشير إلى حامل الطعام، الذي كان يحوي نصف شريحةٍ من الخبز ومسحة من عصيدة الأرز.

قرصت العجوز خدَّ مايا وهي تقول: «كُلي. أنتِ نحيفةٌ للغاية. مَن سيقبل الزواج بكِ هكذا؟».

***

في بهادر آباد، استقلَّت مايا العبَّارة. حلَّت شمسُ ما بعد الظهيرة في الأفق، تتراقص على امتداد النهر الواسع. لوَّحت مايا بتذكرتها إلى البحَّار، وشقَّت طريقها نحو سطح السفينة، حيث كانت هي المرأة الوحيدة التي اختارت الجلوس تحت قيظ الشمس الحارق. التفَّت أمواج نهر «بادما[2]» حول العبَّارة برفق، واختفت مؤخِّرتها بقوَّة اندفاعها. راحت مايا تمضغ بشهيةٍ كيسًا من البسكويت، وهي تحاول أن تتذكَّر ما إذا كانت هذه العبَّارة هي نفسها التي حملتها إلى راجشاهي من قبل. كان للأخرى اسمٌ غريب. وهكذا نادت مايا صبيًّا صغيرًا يرتدي زيًّا رسميًّا: «مرحبًا! ما اسم هذه السفينة؟».

- **بادما.**

---

(1) بهادر آباد: مدينة في إقليم السند، باكستان. (المترجمة)

(2) نهر بادما هو نهر بنجلاديش الرئيسي. (المترجمة)

لا بُدَّ وأنها عبَّارة مختلفة. بدت لها تلك الرحلة -رحلة الهروب من الوطن- قد وقعت منذ عهدٍ بعيد. كانت مايا قد لجأتْ إلى صديقتها سلطانة؛ كانا قد تطوَّعا معًا في مخيمات اللاجئين في أثناء الحرب، وأذهلتْ سلطانة الجميع بقيادتها لشاحنة المؤن بنفسها. لم تنسَ قط ما قالته لها سلطانة ذلك الصيف الطويل قبل الاستقلال من أنها تمنَّت العودة إلى الوطن بعد الحرب، لا تقصد المدينة، بل العودة إلى قرية والدها. كانت تقول: «أريد أن أستشعر الأرض وهي تجذب قدمي إليها».

بعد حادثة حرق الكتب، حين قرَّرت مايا أنه لم يعد أمامها سوى الرحيل، هاتفت صديقتها، وسألتها الرغبة في الذهاب للإقامة لديها. أخبرتها سلطانة أنها قد تزوَّجت مؤخَّرًا بشابٍّ كانت تعرفه منذ الطفولة، وصار طبيبًا الآن، وأنهما يعملان معًا في عيادة في «تانجيل»؛ ثمَّ أضافت أن بوسعها المجيء؛ ويمكنهما الاستفادة من مساعدتها.

أقامت مايا لديهما طوال ثلاثة أشهر، لكن تانجيل مدينة شديدة القرب من دكَّا. وفي كل يومٍ، تُحدِّق مايا إلى الحافلات التي تنطلق إلى المدينة، متحدِّيةً نفسها أن تستقلَّ واحدةً منها وتعود إلى مسقط رأسها. زِد على ذلك أن سلطانة وزوجها كانا عروسين جُددًا؛ لمحتهما مايا يتبادلان القبلات في المطبخ، فارغي الأفواه، ويدا الزوج تغزوان شعر سلطانة.

هكذا غادرت مايا، تهيم على وجهها في البلاد، تتنقَّل بين القطارات والعبَّارات وعربات الريكاشة، وأخيرًا وصلت إلى المستشفى الجامعي في مدينة راجشاهي. فتطوَّعت مجدَّدًا، ثمَّ تقدَّمت لتُنهي فترتها التدريبية. وبعد عامين في المشفى مُنحت ترخيصًا بافتتاح عيادتها الخاصَّة. كانت هذه فكرةُ نازْية -المرأة التي قطعت طريقًا طويلًا إلى المدينة على ظهر عربة ريكاشة، وجنينها عالقٌ في وضعية المقعدة- واحتجَّت مايا بأنه مُحالٌ على النساء أن يُسافرن كل هذا الطريق إلى المشفى ليضعن مواليدهن.

وفي لحظةٍ ما خلال مسيرتها، قرَّرت أن تصبح طبيبة نساءٍ وتوليد بدلًا من جرَّاحة. كانت قد لاحظت تغيُّر وجوه النساء حين يدخلن إلى الحجرة، واسترخاء قبضاتهن على طاولة الفحص. في ذلك الوقت، حدَّثت نفسها أن الأمر مسألةٌ عملية؛ يمكن لأي أحدٍ أن يصير جرَّاحًا، ولكن طبيبة نساءٍ، طبيبةً يمكنها المساعدة في توليد الأطفال، وخياطة جروح ما بعد الولادة، وتوعيتهن بأمور تحديد النسل. هذا تحديدًا ما كُنَّ بحاجةٍ إليه. لم تفكِّر مايا فيما تُسدِّده

من دين، وأن كل مولودٍ يُولد في هذا العالم على يديها قد يُحصى عدده يومًا مقابل مَن مات على يديها من أطفالٍ بعد الحرب.

لم تحظَ نساءُ القرية بأي عيادة داخل قريتهن من قبل. أذاعت نازية الخبر، مُبيِّنةً لهُنَّ كيف أنقذتها مايا هي ورضيعها من موتٍ مُحقَّق، وكيف كانت تُلقي بأوامرها على الممرضات في المشفى، وكيف أوغلت الإبر في ذراعها بمهارة.

في ذلك العام، وقبل هبوب الرياح الموسمية، علَّمت مايا كل مَن في القرية كيف يصنعون سائل الإرواء الفموي: بعضٌ من عسل السكر، ورشَّة من الملح، وإبريقٌ من ماء مغليٍّ. وهكذا مرَّ الموسم دون حالة وفاةٍ واحدة لطفل. وفي العام التالي، حين نجحت في تقديم التماسٍ إلى البلدية لتبني المدينة لهم بئرًا أنبوبية، ظنَّت مايا أنها فازت بقلوبهم.

ثمَّ رُزقت نازية ومسعود بطفلة أخرى، سمَّياها مايا.

***

خيَّم الظلام مع وصول العبَّارة إلى رصيف السفن في «چاجانتاجانچ». تطلَّعت مايا إلى ساعتها، وتساءلت ما إذا كان الوقت قد تأخَّر لتلحق بالقطار الأخير. أثقلت الشجرة ذراعيها، والغصون تُوخز كتفها. لكنها قرَّرت المحاولة؛ كان من العسير أن تجد فندقًا هنا، علاوةً على استرسالهم في الأسئلة: لماذا تسافر بمفردها؟ لماذا لا يرافقها رجلٌ، زوجًا كان، أو أبًا؟

في محطَّة القطار، رأت مايا المرأة العجوز التي التقت بها في القطار آنفًا، وحامل طعامها مفتوحٌ أمامها. اتجهت مايا نحوها ولوَّحت إليها، تغمرها بهجةٌ غريبة لرؤية العجوز. فأشارت إليها العجوز لتقترب. وقالت: «كُلي، كُلي».

قالت مايا: «جدتي، كيف لحاملة طعامكِ أن تكون ممتلئة دائمًا؟».

أجابتها العجوز بابتسامةٍ، تكشف عن صفٍّ من أسنانٍ ضئيلة مُلطَّخة ببقايا أوراق التنبول. غمست مايا قطعةً من الخبز في حساء الكاري الذي قدَّمته إليها العجوز، حين باغتها الجوع يعصر معدتها.

بعد ساعاتٍ، وتحت جناح الظلام الدامس، توقَّف قطار الليل في المحطَّة، فساعدت مايا العجوز لتستقله. ثمَّ همست إلى نفسها: خمسُ ساعاتٍ للوصول

إلى دكًا. وراحت تُردِّد أسماء المحطات: «سيراچجانچ»، «ميمنسينج»، «جافارجون». خمسُ ساعاتٍ أخرى فحسب.

***

ظنَّت مايا أن شعور القهر قد يغزوها على مرأى من دكًا. وتصوَّرت أمواج الحنين تندفع بداخلها، مُجبرةً إياها على تذكير نفسها بأهمية ابتعادها طوال السنوات السبع الأخيرة. تصوَّرت خروجها من المحطَّة إلى ما بعد ظهيرة أيام فبراير الباردة، والسُّحب تتسابق فوق رأسها، مسترجعةً كل تفصيلٍ حدث في حياتها القديمة - كل أيامها التي قضتها في الجامعة، وجولات الريكاشة إلى حديقة «رامنا بارك»، وسينما «مودهميتا سينما»، ومضمار «ريسكورس»، نادمةً على الأعوام الأخرى في الريف. ولكن ما إن تقدَّمت بخطواتها إلى خارج محطَّة «كامالابور،» حتَّى رأت أن المكان تعمُّه الفوضى والضجيج، كما لو أن أحدهم قد مدَّ يدًا ورفع صوت المذياع. تعبق المدينة برائحة العرق والقمامة والسُّخام. تراءى لها كم ازداد ارتفاع كل شيءٍ حولها -بعض المباني وصل ارتفاعها إلى خمسة أو ستة طوابق- وكم جاهد سائق الريكاشة التي استقلَّتها ليجتاز أحراش السيارات في «ميربور روود»، ونفير الأبواق في نفاد صبر. رأت لافتاتٍ للديكتاتور[1] في كل مكان، نقوشٌ جدارية تُنصِّبه «رئيس أركان قلوبنا» «ومُخلِّص البنغال»، ترتفع لافتاتٌ طويلة لشخصه لعشرة وعشرين قدمًا، تُميِّزها جبهته الشامخة، وشاربه الرفيع ذو الهيئة القانعة.

***

بعد مُضي ساعة بأكملها، كانت مايا تقف على أعتاب منزل طفولتها، رقم 25، قابضةً على حقيبة ظهرها وتتساءل عمَّا ستجده في الداخل.

تكيَّفت عيناها على المخطَّطات الجديدة للبناء، لكن حالة التقوُّض التي وصل إليها كانت أسوأ تمامًا ممَّا تصوَّرت. هنا، صبغات خيطية رمادية تمتدُّ على مؤخِّرة المنزل، حيث رشح أنبوب الصرف من قبل؛ وهناك، أساسات المنزل التي تغوص شيئًا فشيئًا بمرور السنين، كما لو أنه يعود إلى الأرض؛

(1) يُقصد به رئيس أركان الجيش البنجلاديشي «حسين محمد إرشاد» الرئيس العاشر لدولة بنجلاديش في الفترة ما بين (1983-1990) وفي ذلك الوقت، عده الكثيرون ديكتاتورًا عسكريًّا. (المترجمة)

ومن أعلى، تجمَّع العشش الذي شكَّل الطابق الأول، بناها شقيقها من خليط من الطوب والقصدير وألياف القنَّب، فبدا المشهد كأنما هبطت قريةٌ بأكملها من السماء وحطَّت على سطح البيت.

استوطن قلبَها حبُّ هذا البيت ذات يوم؛ كان المكان الوحيد الذي أمكنها فيه استحضار ذكرى والدها -مرفقيه المستندين على طاولة العشاء، وخطوات قدميه على أرضية الشرفة، وانزلاق قدميه من قبقابه وصعودهما إلى الفراش. رائحة بدلته الصوفية في يومٍ رطب- يسكن في أحشاء هذا المنزل وجدرانه كل فكرة وكل أملٍ وكل خيالٍ مُربك استحضره عقلها عن حياتها بأكملها، وعن الحرب التي خاضتها وانتصرت بها، وعن المرأةِ والرجل اللذين سيشُبَّان إليهما هي وشقيقها؛ ولكن بعدما انتهى كل شيء، بعد القتل والهدنة وإعادة رسم الحدود، اتخذ هو طريقًا، واتخذت هي طريقًا آخر. ولم تتنبأ بأيٍ من هذين الطريقين.

حدَّثت مايا نفسها: لا مجال للتباطؤ، لملمي شتات نفسكِ واقتحمي المنزل.

كان كل شيءٍ بالداخل غارقًا في الهدوء والتألق. تلمع الأذرع الخشبية للأريكة، وتبرُق الثريَّا النحاسية الصغيرة من التنظيف، وغُسِلَ مفرش الدانتيلا الذي يفترش الطاولة وهُندم في موضعه بإتقان. رُتبت الوسائد فصارت حوافها مُدببَّة، وعادت إليها الذكرى؛ كيف كانت والدتها تُبقي على نظافة المنزل، كما لو أن ضيفًا سيحلُّ عليهم في أي لحظة، ويُمرِّر إصبعه على حافة النافذة، ليتحقَّق من الغبار.

كان بيتًا متواضعًا: ثلاثُ غرفٍ تصطفُّ إلى جانب بعضها، تتصل جميعها بشرفةٍ عريضة تُطلُّ على الحديقة. وفي الطرف الأقصى، يقع المطبخ متصلًا بشرفته الخاصَّة الصغيرة. وإلى هناك تتجه مايا الآن؛ لا شك أنها ستجد والدتها راكعةً أمام الموقد أو عاكفةً على غَسْلِ صحون الفطور.

بدلًا من ذلك، وجدت المطبخ مكدَّسًا بنسوةٍ متشحاتٍ بالبراقع السود الطويلة، يقرفصن حول المدقَّة الحجرية، والحوض، والموقد. حامت مايا حول المدخل، متسائلةً هنيهةً عمَّا إذا كانت قد ضلَّت الطريق، ودخلت إلى منزلٍ خاطئ. أسندت الشجرة إلى أحد الجدران، وحطَّت عنها حقيبتها.

- مرحبًا؟

نهضت إحدى النساء لتحيتها، وعجزت مايا عن تبيُّن ملامحها من أسفل القماش الأسود الفضفاض. قالت مايا: «السلام عليكم».

- وعليكم السلام.

مدَّت المرأة يدها وشدَّت على يد مايا وهي تقول: «إننا ننعي أختنا».

ثمَّ ارتدَّت على أعقابها وعادت إلى مهمَّتها، وهي تقشير الخيار فوق وعاءٍ مملوءٍ بالماء. وقفت مايا وراقبت المرأة لِمَا بدا لها مدَّة طويلة. لم يتحدَّث إليها أحدٌ أو يُخاطبها عدا تلك المرأة، فالتقطت حاجياتها وغادرت المطبخ. أين هي أمي؟ صارت الرغبةُ في رؤيتها مُلحَّة. انحنت مايا أمام حوض دورة المياه وضربت وجهها ببضع حفناتٍ من الماء. أعادت ربط شعرها، وراحت تتدرَّب على اللحظة التي ستقع فيها عيناها على أمها. وحين خرجت من دورة المياه، كانت إحداهن بانتظارها في الممر. قالت المرأة: «لقد حان الوقت». وقادت مايا إلى غرفة المعيشة.

انشغلت النساء المتشحات بالبراقع من رؤوسهن إلى أخمص أقدامهن في ترتيب الغرفة. فدفعن بالأريكة إلى الحائط، ورفعن طاولة العشاء، وأَملْنَها على جانبها. قُلبت صورة لأبيها رأسًا على عقب. وغُطِّيَتْ لوحةٌ بالألوان المائية كان سهيل قد رسمها لمايا حين كانت في السابعة، بشرائط شعرٍ حمراء وصفراء، بإحدى الوسائد. ولمَّا شرع المؤذن في النداء للصلاة، نهضت النساء مسرعاتٍ، يفرشن أقمشةً بيضاء على السجاد، ويشعلن البخور، ويملأن حاويةً فضية طويلة بماء الورد. وأخيرًا، ثبَّتن مُلاءةً على امتداد الحجرة، مقسِّمةً إياها إلى نصفين.

دفعت إحداهن مايا عبر المُلاءة إلى مؤخرة الغرفة، وقالت: «من فضلك، استري رأسكِ».

أمسكت مايا بذراع المرأة، وسألتها: «أين أمي، أتعرفين أين هي؟».

هزَّت المرأة رأسها نفيًا.

- ريحانة حق. هذا هو منزلها.

شدَّت المرأة على مايا بقبضةٍ مُحكمة وقرَّبتها منها، وهي تقول بالبنغالية: «أقيمي الصلاة يا أختاه».

يمكنها أن تخرج وتبحث عن أمها. ربما ذهبت إلى نادي السيدات، أو خرجت في زيارةٍ لصديق. أو ربما اتجهت إلى المقابر، لتضع زهورًا على قبر أبيها. لكن الغرفة صارت مكدَّسةً عن آخرها، حتَّى تعذر على مايا المغادرة. بيد أن النسوة قد تضاعفن، مستغلاتٍ كل سنتيمترٍ من مساحة السجادة. ثمَّ اصطففن جوار بعضهن، وشبَّكن الأيدي. نأت مايا بنفسها في حيِّزٍ ضيِّق جوار الحائط. وسمعت جلبة الرجال يدخلون إلى الغرفة، وخيال الظل يتحرَّك كالدمى على المُلاءة، ورؤوسهم المُعمَّمة تُزحم المشهد. انفصل رجلٌ عن الجماعة ونصَّب نفسه في منتصف الغرفة. تنحنح ثمَّ شرع بصوتٍ أنفي عالي النبرة يقول: «**الحمد لله رب العالمين**[1]». وبينما كان الإمام ينطق بهذه الآية، رأت مايا أمها تنسلُّ عبر الحاجز. انحبست الأنفاس في صدرها. أرادت أن تناديها. أن تُلوِّح بذراعيها، وتصيح هامسةً: «أماه!». جابت ريحانة الغرفة بنظرها هنا وهناك. رفع **حضرة**[2] الشيخ صوته. ركَّزت الأم عينيها على مايا وظلَّت ساكنة هنيهة، ويداها تتحرَّكان إلى وجهها. شعرت مايا بوخز في عينيها ولهيبٍ في مؤخِّرة حلقها. مرَّت سبعُ سنين أخرى. ثم، ابتسامةٌ هامسة. تخطت الأم الجمع المحتشد، وذراعاها ممتدتان أمامها، وقبل أن تُدرك ما حدث غرقت مايا في أحضانها، وتشمَّمت زيت جوز الهند في شعرها، ورائحة الزنجبيل في أطراف أصابعها. همست ريحانة: «متى أتيتِ؟».

كل تلك السنوات التي فرَّقت بينهما، احتشدت في صوتها الذهبي الجذَّاب.

- وصلتُ للتَّوِّ. ماذا يحدث؟
- **مولد ذِكر**[3] من أجل سيلفي.

---

(1) ذكرت الكاتبة فاتحة الكتاب مرتين. الأولى نطقٌ عربي بحروف إنجليزية، والثانية ترجمة الآية إلى الإنجليزية. حُذفت إحداها لتفادي التكرار. (المترجمة)

(2) حضرة (Hazoor) هو لقب يشير إلى المكانة العُليا في الثقافة الهندية، وتُطلق إشارةً على الاحترام. (المترجمة)

(3) مولد الذكر المذكور هنا يختلف عمَّا هو معهود من ناحية التوقيت والنية. فالمولد هنا يُعقد للميت؛ تُفرش الأرض بالملاءات البيضاء، ويُفصل بين الرجال والنساء، ويُتلى القرآن، ثمَّ يخطب الإمام في الناس عن الموت والحياة الآخرة وأوصاف مَلك الموت، وينتهي الميلاد بالدعاء للأحياء والأموات، ويُعدد الإمام الأعمال الصالحة للمتوفي، ثمَّ يُوزَّع الطعام على الحضور. وهذا هو يوم (قل خواني) في بنجلاديش وشبه القارة الهندية. (المترجمة)

أمرٌ بديهي. إن سيلفي قد دُفنت في غضون ساعاتٍ من وفاتها، ولكن هذا «**قل خواني**[1]»، الصلاة التي تُقام في اليوم الثالث من وفاتها.

***

بعد مُضي سبعة أشهر في منفاها، كتبت مايا إلى أمها خطابًا. وبدأت خطابها: «**لستُ غاضبة. لكني لن أعود إلى الديار**».

ولمدَّة تزيد على عامٍ كامل، لم تُجب الأم ابنتها بخطابٍ واحد. بدت لها تلك الشهور دهرًا من الزمان، وهي تتدرَّب في قرارة نفسها على الكلمات الغاضبة التي يمكن أن تنطق بها والدتها، متسائلةً عمَّا إذا كان الصمتُ بينهما سيستمرُّ إلى الأبد، راغبةً في استرداد خطابها. ولكن حين وصلها الخطاب، كان خطابُ الأم مكدَّسًا بالأخبار، آخر المستجدَّات حول المنزل والجيران والحديقة. لم تُظهر أي شكلٍ من الغضب في حديثها، ولم تطلب من مايا العودة. وهكذا جرت المراسلات بينهما، تتبادلان الأخبار السارة، والفقرات الطويلة حول الطقس، تُخبران بعضهما بكل شيءٍ ولا شيء.

***

تابع حضرة الشيخ خُطبته. وشرع النسوة الآن يمِلنَ يمينًا ويسارًا على إيقاع كلماته. وتبادر إلى ذهن مايا أنه حين تُوفي والدها، شهدت مشهدًا مماثلًا لما تراه الآن، رجالٌ يرتدون الطاقيات البيضاء، والهواء مُعبَّق برائحة ماء الورد. اختلست نظرةً إلى أمها؛ كانت الأم تمسح دمعاتها بظهر يدها. وحدَّثت نفسها أن أمها لم يتغيَّر منها شيءٌ، لم يتغيَّر منها شيءٌ على الإطلاق.

شرع حضرة الشيخ يتحدَّث عن سيلفي. كم كانت تقية، كم كانت طيبة. كم كانت مخلصةً لإيمانها. تجلس مايا وسط المُعزِّين، لا ترى أيًّا منهن تبكي، وهذا لأن المسلمين قد تلقُّوا التعاليم ليحزنوا في حياء. تساءلت مايا كيف تأتَّى لها أن تبتعد طوال هذه المدة عن البيت، وعن المدينة، وعن أمها، وشقيقها. رغم أنها هي مَن اختارت المنفى، بدا الأمر وكأن جلدًا ثخينًا قد التفَّ حول الذكرى، وبدت لها الآن مثل أحجية غامضة. على الجانب الآخر

---

(1) طقس ديني يُقام في اليوم الثالث أو الرابع من دفن المتوفى، ويجتمع الأهل والأقارب والأصدقاء في منزل المتوفى للدعاء لروحه التي صعدت إلى بارئها بالرحمة والنجاة، وفي هذا اليوم يُعقد مولد الذكر. (المترجمة)

من تلك الستارة، يجلس شقيقها، حديث العهد بالترمُّل، وابنه زيد. فكَّرت في لقائها به، وفكَّرت في لحيته التي لا بُدَّ صارت سميكة تغطي ذقنه، وتذكرت كم كانت تُحبه، وكم تمنَّت بضراوة أن يُبادلها هذه المحبة. تذكَّرت كيف أولت له ظهرها وابتعدت حين سلك طريق الله، وأخذت الأمر على محمل شخصي، كأنما فعل هذا ليُسيء إليها.

حين أغلقت الأم عينيها وشرعت تُرتِّل الدعاء الأخير، أمعنت مايا النظر فيها من كثب. ربما بدت لها أكبر قليلًا منذ آخر مرَّة رأتها. فقد تشكَّلت الهالات السوداء أسفل عينيها، وحُفِر خطٌّ من التجاعيد على جبهتها. لكن مايا لم تلحظ أيًّا من هذا إلا عندما التفتت إليها أمها بعدما قال الجميع آمين، عندما التفتت إليها بخدَّين مُبلَّلين وابتسامةٍ متجددة، حينها فحسب لاحظت مايا أن واحدة من أسنانها الخلفية مفقودة. ثمَّ تفتَّقت السنون وتشكَّلت في وجهها. تشكَّلت في هذا الضرس ذي النتوءات الصخرية الناعمة، الكبيرة والصغيرة، تشكَّلت في الهوة السحيقة حيث كان.

***

كانت مايا قد أخبرت نازْية عن الوحل والضحكات. أبدت نازْية تعبيرات وجه ممتعضة، وقالت وهي تضرب الهواء بالمروحة اليدوية أمام وجهها: «لو أتى هذا المولود ذكرًا، فأنا عازمةٌ على حبسه، ولن أطلق سراحه إلا حين يصل إلى سنِّ المدرسة».

لم تشتد الحرارة يومًا عمَّا كانت عليه تلك الأيام. ولا يذكر أحدٌ أن ساريًا يجفُّ بتلك السرعة على حبل الغسيل، وثمار الفلفل الحار ترقُّ إلى قشور في الحقل. أخذت مياه البِركة في التراجع هي الأخرى، وانتشرت الشائعات حول خطرٍ يُهدِّد المانجو. فأجابتها مايا: «أعلم ذلك. دعينا نخرج للسباحة. فالحرارة شديدة بما يكفي لدفع المرء إلى الجنون».

- حقًّا؟ أيمكننا فعل ذلك؟

يا لها من نَقرة! ثمَّة قواعد تتعلق بالنساء الحوامل، تتعلَّق بالأماكن التي يجدر بهن الاستحمام بها، لكن مايا تغاضت عنها؛ فلم يعد أحدٌ يُصدِّق هذه الأمور. ظلَّت مايا تُلقي عليهن المحاضرات التعليمية لسنوات، عن العلم والخرافات وعن حقوقهن. أجابت مايا في حديثها إلى نازية: «ولِمَ لا؟».

ستتذكَّر ما حدث لاحقًا، لحظة الصمتُ التي سبقت جوابها بالإيجاب، ولكن في ذلك اليوم كل ما أمكنها التفكير فيه هو الماء وبرودته المُنعشة تُلطِّف من قيظ الصيف.

جلست المرأتان على الدرجات المؤدية إلى البِركة، وأقدامها غارقة في الماء. هبطت نازية بجسدها إلى الماء وغطست برأسها أسفله، وصاحت تقول: «سبحان الله! حمدًا لله على هذه النعمة!».

***

أعلن مسعود: «لو أن زوجتي أرادت أن تُنعش قدميها بالماء، فلا أحد يستطيع إيقافها».

كان رجال القرية قد احتشدوا أمام منزله، يهزُّون رؤوسهم استنكارًا. امرأةٌ حُبلى في البِركة؟ لقد بالغت في فعلتها.

اجتمعت المرأتان أمام نيران الطهي في تلك الليلة، مايا ونازية تضربان الهواء بالمراوح اليدوية أمام الحطب حتّى استعرت النيران والتهمت القِدر.

قالت نازية: «ما كل هذه الجلبة! لقد سمعتُ أنهم يعقدون مجلسًا».

قالت مايا: «تجاهليهم. الأمر المهمُّ هو أن مسعود رجلٌ طيب. وفي نهاية المطاف، سيُرهقون أنفسهم بالحديث».

لم تُخبر مايا صديقتها أنها سمعت الفتيان يتسكَّعون أسفل نافذتها مجدَّدًا، وأنها قضت الليلة الماضية نائمة في غرفةٍ بنافذة مغلقة، والهواء المشتعل بقيظ الصيف يحبس أنفاسها.

***

بعد المولد، مرَّرت النساء أطباق الطعام، وأخذت الأم تلعب دور المضيفة، مشجِّعةً الجميع على تناول الطعام. عرضت إحداهن طبقًا من الطعام على مايا لكنها رفضت، ولسانها ثقيلٌ في فمها. غالبها شعورٌ مفاجئ بالإعياء، وفكَّرت في أن تتسلَّل إلى غرفة سهيل القديمة، وأن تضع رأسها على الفراش لدقائق قليلة. لن يلحظ أحدٌ غيابها. وظلَّ رأسها ينزلق يمينًا ويسارًا، وحين فتحت عينيها كانت الغرفة خاوية.

وجدت مايا أمها في المطبخ.

- أماه؟

- آه، لقد استيقظتِ. لم أرغب في إيقاظكِ.

أطلَّت بجفنين ثقيلين. وأخذت بضع خطواتٍ، ثمَّ ترنَّحت. قادتها الأم إلى الأريكة. أرادت أن تتحدَّث إلى أمها، وتقصُّ عليها من أمر نازْية، والوحل الذي ألقوه عليها من نافذتها. أرادت أن تقُصَّ عليها أمر السياط. لكن المهمَّ هو رغبتها في أن تمنحها والدتها ابتسامةً حانية، وتستقبلها استقبالًا عطوفًا، والأمر الآخر، هو رغبتها في تخطِّي السنين التي فرَّقت بينهما. انهارت مايا على الأريكة، تجاهد لإبقاء عينيها مفتوحتين. وهي تقول: «عليَّ أن أُخبركِ شيئًا».

سألت ريحانة:

- كيف أتيتِ؟

- القطار، ثمَّ العبَّارة، ثمَّ القطار.

- لا بُدَّ أنكِ مُتعبة. استلقي قليلًا.

شعرت بنفسها تغفو مجدَّدًا، فقالت: «أحضرتُ لكِ شجرة».

- سأوقظكِ؛ ما تزال الساعة الثالثة الآن.

أبقت على عينيها مفتوحتين رغمًا عنهما. كان هناك صندوقٌ بُنِّيٌّ يستند إلى الحائط. ولم تكن مايا قد رأته من قبل- لمَّا غطَّته نسوة الطابق العلوي بمفرش الطاولة.

نهضت مايا متعثرةً في قدميها لتُلقي نظرة على الصندوق وسألت: «متى أتيتِ بهذا؟».

أشرق وجه أمها، وهي تُجيب: «هدية صغيرة لنفسي».

- حقًّا؟

- ادخرتُ وادخرتُ. استغرق منِّي الأمر عامين من ادخار الفُتات المتبقي من الإيجار. هناك رجلٌ ألماني يعيش في المنزل الكبير الآن، يُسدِّد الإيجار دومًا في موعده. ألم تشاهدي المسلسل التلفزيوني «**ماجنوم بي أي**»؟

- لا يوجد تلفازٌ في راجشاهي.

اتسعت عينا الأم في ذعرٍ ساخر. وقالت: «هذا أمرٌ مؤسف للغاية».

ضحكت المرأتان. بدت الأم غاية في البهجة، حتَّى أوشكت بهجتها على محو ما ألفته من وحدة طوال تلك السنوات، وهي تجلس محتضنةً طبقًا تنتظر النشرة الإخبارية على قناة تلفزيون بنجلاديش في الساعة الثامنة.

***

أرقدت مايا رأسها على وسادة باردة. وحدَّثت نفسها أنها سترقد هنيهة قصيرة فحسب، ثمَّ تمنح والدتها شجرة المانجو وتقُصُّ عليها كل شيء. لكنها غطَّت في النوم. ومن بين مصراعي النافذة، لمحت خيوط الغروب التي تُشبه الخطوط على جسد النمر، ولاحقًا ستأتي الأم لتُسدل على جسدها الغطاء. سمعت مايا المؤذِّن يُعلن بأذانه انتهاء اليوم. سمعت همسًا في أذنها: هل تريدين أن تأكلي شيئًا؟ أحاطت بيدها ركبة أمها. كلا. ولاحقًا، تسلَّلت قطةٌ إلى الغرفة واستلقت عند قدميها. استشعرت مايا دقات قلبها المتسارعة، والدفء الذي ينبعث من الجسد الصغير.

حلمت براجشاهي.

في حلمها، كان حقل الأناناس هو دلالة النهاية لكل شيء. مرَّ عليها يومٌ كانت فيه قوية حصينة مثل غيمةٍ شتوية، تجوب أنحاء القرية وسماعة الطبيب تلتف حول عنقها في اعتزاز. لا ترتدي السلاسل الذهبية؛ هي طبيبة. وفي وقتٍ مبكر من ذلك الصباح، أنقذت أمًّا وتوأمين من الذكور، وأجرت جراحةً قيصرية طارئة بنفسها، تقطع الأنسجة وتُقطِّبها في تناغم مثالي، ويداها تغوصان عميقًا في الرحم المشترك بينهما. ورغم أنها ذكَّرت العائلة أنه ينبغي لهم منح الحُب للطفلين لو أنهم رُزقوا بفتاتين، استمتعت بعناق النسوة القوي، وشعور الارتياح؛ وتذوَّقت بتلات الأوراق ذات الغلاف المثلَّثي التي منحنها إياها. والآن تهرول في شوارع القرية ثمَّ إلى الممر القذر المؤدِّي إلى الطريق الذي يقودها إلى المدينة. ذراعاها تتأرجحان، ورياح يناير (كانون الثاني) تلسع وجهها، وهي تعبر البِركة، حيث لوَّحت إلى الصبي الذي فقد أخًا له جرَّاء لدغة أفعى العام الماضي (لفوات الأوان ذلك اليوم)، واختبأت أسفل زوجين من أشجار المانجو، وقرَّرت اختصار الطريق عبر حقل الأناناس. أقدمت على قطع بضع خطواتٍ إلى الداخل، والشمس ترتفع في كبد السماء. بدا لها الحقل أكثر اتساعًا الآن ممَّا ظنَّت من قبل، لكنها ليست واحدة من الأشخاص الذين يتحوَّلون عن مسارهم، وهكذا رفعت ساريها فوق كاحليها وراحت تطأ

الأرض بحذر، متجنِّبةً الأشواك الحادَّة لثمار الأناناس. واتاها الميل لإزاحة الأوراق والبحث عن ثمرة ذهبية ناضجة، لكنها علمت أن موسمها لم يحن بعد. ومع ذلك، حمل الهواء عبيرًا حلوًا وأُثقِل بحشود النحل، وعندما وصلت إلى نهاية الحقل، أطلقت سراح طرف ساريها، وتابعت طريقها، تُدندن بلحنٍ طفولي كانت قد تعلَّمته من مايا الصغيرة في الليلة السابقة. ثمَّ رأت الجمع المحتشد في الاجتماع. دزينة من الرجال يجلسون في دائرة. ومسعود يقف في منتصفها. وكان يقول: «إنها الطبيبة، هي السبب وراء كل المشكلات».

***

استيقظت مايا على الظُّلمة. ووجدت أنها ترتدي واحدةً من بدلات والدتها سلوار قميص، ممزَّق عند المرفق ويفوح برائحة الصابون القوية. وبُحكم العادة، تحسَّست بأصابعها الجرح على رقبتها. عقدةٌ صلبة، أبت أن تتحلَّل حين ضغطت مايا حوافها. التحفت بالغطاء، ونهضت لتبحث عن أمها. أما الأم فكانت مستلقيةً على فراشها، تُخلِّل خصلات شعرها بمشطٍ بلاستيكي.

قالت ريحانة:

- ظننتُ أنكِ ستنامين الليل بطوله.

تسلَّلت مايا من أسفل الناموسية، وتسلَّقت الفراش إلى جانب أمها، وهي تُجيب: «لم أدرك كم كنتُ متعبة».

فرقت ريحانة شعرها من المنتصف، مخلِّفةً خصلات شعرٍ مستقيمة بإتقان، وأخذت تُضفِّر أحد الجانبين. أعاد هذا الطقس مايا إلى الصباحات قبل الذهاب إلى المدرسة، والاستيقاظ عشر دقائق قبل سهيل حتَّى يتسنَّى لريحانة أن تدهن شعرها بالزيت، وتُضفِّره، وتزينه بالشرائط. فكَّرت في شقيقها، وهو يُمسك بيدها حين كانا يسيران عبر بوابات المدرسة.

قالت مايا: «حدِّثيني عن سهيل».

في الخطابات التي تبادلتاها، قالت ريحانة أقل القليل عن سهيل؛ لم تقل سوى أنه انتقل إلى الطابق العلوي، وأن زوجته قد أنجبت صبيًّا، وأنها قلَّما ترى منهما شيئًا، فقد انشغلا بتعاليم دينهما.

التقطت الأم المشط مجدَّدًا وراحت تقُصُّ عليها: انضما إلى جماعة تُطلق على نفسها «جماعة التبليغ»[1]. **جماعة الإسلام**. كانت سيلفي تعقد الاجتماعات في الطابق العلوي، تُخاطب النساء وتعظهن بكل ما يتحتَّم على المسلمة معرفته. عن الله، والرجال، والفضائل، والبُردة (الحجاب)، والجنس، وعن حياة النبي، وزوجاته، عائشة وخديجة وزينب، وعن تربية الأبناء، وكيف يرتقي المسلم ليكون من الصالحين. أما سهيل، فكانت له جماعته من التابعين في المسجد هو الآخر؛ وخلال تعاليمه، أرشد الكثير من الرجال إلى طريق الدين- طريق الامتثال والاستسلام لله. وهكذا جلبوا أصدقاءهم، وأبناءهم الضالين، وأخذ سهيل يشرح لهم ما يؤمنون به وكيف يحيون به. وكان أتباعه يرونه رجلًا تقيًّا.

تقول الأم:

- هناك عشرون أو ثلاثون شخصًا يعيشون في الأعلى. وآخرون قاربوا على المئة يأتون للزيارة في أثناء اليوم. حتَّى إني فقدتُ القدرة على إحصائهم.

كانا قد انتقلا إلى الأعلى بُعيد رحيل مايا. وبدآ بيتهما بحجرةٍ من الطوب الأحمر في المقدِّمة، ثمَّ أضافا السلالم الخارجية حتَّى يتسنَّى لهما الخروج والدخول دون إزعاجها. ثمَّ الغرف المسقوفة بالقصدير، ودورة المياه، والمطبخ.

- كيف ماتت؟
- أُصيبت باليرقان. ولم يلحظا الأمر حتَّى فات الأوان.

فكَّرت مايا في بشرة سيلفي تستحيل إلى الصُفرة، وعيناها تستحيلان إلى لون صفار البيض. ثمَّ مضت تقول: «وماذا عن أخي؟».

- في رأيه، الحياة الآخرة هي ما يُهم.

قالت مايا: «ستتغيَّر الأوضاع الآن، دون وجود سيلفي».

---

(1) جماعة التبليغ والدعوة أو جماعة الأحباب هي جماعة إسلامية متجولة عالمية خصصت نفسها للدعوة والزهد في الدنيا، يعتمد أسلوبها على الترغيب والتأثير العاطفي الروحاني، أسسها محمد إلياس الكاندهلوي في الهند عام 1926م. (المترجمة)

أجابت الأم في نبرةٍ ينقصها اليقين: «ربما. والآن، اقتربي، دعيني أُمشِّط شعركِ».

اقتربت مايا من أمها، وبدلًا من أن تجلس أمامها، وضعت رأسها على حجرها. فربتت الأم بيدها على جبهة ابنتها. ثمَّ قالت: «يصعب عليَّ تصديق الأمر».

أخذت عينا مايا تحرقانها، واندفعت الكلمات إلى حلقها. كانت الأم تُمرِّر أصابعها خلال شعر ابنتها، وتُدلِّك فروة رأسها برفق.

أمعنت ريحانة النظر من كثب، وهي تُزيح الشعر عن رقبة مايا، وسألت: «ما هذا؟».

- لا شيء، مُجرَّد قطع.

- في حنجرتكِ؟

اعتدلت مايا في جلستها، وجذبت الشعر حول رقبتها، ثمَّ قالت: «إنها قصَّةٌ طويلة يا أمي».

- أخبريني.

***

كان العقاب مئة جلدة وواحد. عاد مسعود من الاجتماع، وألقى بالكلمات في وجه زوجته.

قال: «مئة وواحد. هذا هو ما تستحقِّينه».

وقفت مايا بين نازية وزوجها، وسألت: «علامَ؟».

- على كذبها بشأن الطفل. إنه ليس طفلي.

كانت مايا قد أخبرتهما أن هذا الطفل ليس لعنةً قد حلَّت عليهما. بل متلازمة داون. سيكون الطفل مختلفًا عن أقرانه، وسيعاني من المشكلات، لكنه سينجو. ويمكنني أن أخبركما كيف تعتنيان به.

أما مسعود فقال إنه يشبه الأطفال ذوي الأصول الصينية. انظري إلى أنفه المفلطح، هل ضاجعتِ صينيًّا يا امرأة، أهذا ما فعلتِه؟

ذهب مسعود إلى الاجتماع، وأخبر الرجال بخبره. فقالوا إنهم أدركوا أن ثمَّة مشكلة في الأمر، وأدركوا هذا الأمر منذ ذلك اليوم الذي ذهبت فيه مع طبيبة النساء للسباحة في البِركة.

هذا الصيني ليس ابني. يا لكِ من زوجةٍ خائنة كاذبة فاجرة.

كان العقاب مئة جلدة وواحد.

تلك الواحدة تشبه علامة الاستفهام، حيث التفَّ السوط حول باطن ساقها.

ارفعي الساري!

فاجرة!

في النهاية، عندما صارت مايا هي الوحيدة التي ما تزال تشهد الموقف، أخطأت في العدِّ، وظنَّت أنه بلغ المئة وواحد في حين أنه لم يبلغ سوى المائة، فاقتربت من صديقتها، وهكذا نالها السوط هي الأخرى حين كان يشقُّ طريقه، وحزَّها. كانت لدغته أشبه بحشرة جائعة، وجعلها تبتلع الكلمات التي أوشكت على النطق بها. ها هي النهاية (بالبنغالية). لقد انتهى. لكنها تحدَّثت قبل الأوان. وبدلًا من أن تُوسم بالكلمات، ترك السوط وسمَه عليها، ويدها تندفع إلى ذلك الموضع على رقبتها حيث نالها، وعادت ملطخة بالدماء. و... أهذه ابتسامة في عيني الرجل؟ الرجل الذي كان يُنفِّذ الأوامر، ليحمي القرية، واسم القرية.

وجدت نازْية في المشفى. فقالت الأخيرة: «اذهبي من فضلك، أنا مُتعبة».

كانت مستلقيةً على بطنها، بساقين منتفختين. تحسَّست مايا قدمي صديقتها، سوداوين متيبِّستين، فأجفلت. توسَّلت إليها نازْية: «اتركيني وشأني».

أرادت أن تشهد التئام الجلد على جروح نازْية. أرادت أن تبقى حتَّى تبهت العلامات، حتَّى تكاد لا تُرى؛ آثارٌ رفيعة تشبه الديدان سوف تتراقص في أنحاء ساقيها. ستنهض مجدَّدًا، وستشرع في المقاومة. ستذهبان إلى الشرطة، وستُحلَّان تلك الاجتماعات. ولكن نازية رفضت، وقدمها السوداء رفضت، وأدركت مايا أن عليها أن تترك الجرح مفتوحًا، وتغادر القرية، تحمل احتجاجاتها المسيسة المشتعلة بنيران الغضب.

كانت تتساءل في قرارة نفسها عن وجهتها التالية حين وصلها التلغراف. «هيل تراكتس»، ربما، أو الشمال. تتبَّعت بإصبعها أنحاء خريطة بنجلاديش، فوق الشرايين الزرقاء، «جامونا»، «ميجنا»، وأخذت تقرأ بصوتٍ مسموع أسماء المدن: «ميمنسينج»، «بابنا»، «كوشتيا». كانت تجلس أسفل شجرة الكاكايا خارج منزلها، تلتهم طبقًا من المربى الحامضية، حين توقَّف ساعي

البريد وأرجح ساقًا من على دراجته. عرضت عليه قطعةً من الفاكهة، لكنه رفض، وهو يتطلَّع إلى قدميه. ثمَّ قال: «أيتها الطبيبة، لقد تُوفِّي فردٌ من عائلتكِ».

كان هذا أقصى ما خشيته. أزاحت الطبق جانبًا، وأمسكت بكتفي ساعي البريد، مستشعرةً تراجع جسده بين يديها من حميمية اللفتة، ومن البقع الأرجوانية التي ستتركها أصابعها على قميصه.

- هل هي أمي؟ أخبرني بسرعة.

أغلقت عينيها، كما لو أنه موشكٌ على ضربها.

- لا أدري، لا أقرأ الإنجليزية.

انتزعت التلغراف منه ومزَّقت المظروف لتفتحه. سيلفي. ماتت سيلفي.

في تلك الليلة، حلمت بأمها ملفوفة في كفنٍ أبيض، وفتحتا أنفها محشوَّتان بالقطن. في الصباح التالي، شرعت تحزم أمتعتها. كان موتُ سيلفي بمنزلة إعلانٍ لهدنة. حان وقتُ العودة إلى الديار.

لم يأتِ أحدٌ من القرية لإلقاء الوداع.

***

تغيَّر المنزل، لكنه نجا. أما هي فقد نجحت في العودة: رحلتان بالقطار، ورحلة بالعبَّارة عبر البلاد، وها هي الآن تستلقي ورأسها غارقٌ في حجر أمها. لا شيء تفعله الآن سوى تذكُّر الأوقات التي عادا فيها إلى هذا المنزل، هي وشقيقها، ليجدا كل شيءٍ على حاله دون حاله، ليجدا أمهما تنتظر، وتنتظر.

***

1972
فبراير (شُباط)

انتهت الحرب، وازداد الجمال جمالًا والقبح قبحًا. عاد القائد العظيم مجيب الرحمن من منفاه، وشرع في صكِّ العملة الجديدة وإعادة تسمية المباني. أما أولئك الذين انحازوا إلى العدو، فاختاروا الاختباء، يخشون الفتيان العائدين من الحرب الذين سلَّموا أسلحتهم لكنهم لم يتوقفوا عن التفكير في الثأر. وعلى الجانب الآخر، زينت النساء شعورهن بزهور الآذريون المخملية، وعطَّرنه بزيت جوز الهند، وقبض اللاجئون العائدون من الهند على الرماد المحترق لبيوت قريتهم، ورفعوا شواهد القبور على قبورٍ خاوية.

سُمِّي هذا الوقتُ بشتاء العودة، الأمهات ينتظرن في البيوت، يُحضِّرن الولائم المُعقدة من بقايا مؤن الحرب، تُحدِّق أعينهن إلى الطريق، يفزعن من أخفت الأصوات. لا مناص من ألا تمضي لحظة العودة إلى الديار كما تخيلوها، حين يعود الشاب إلى منزلٍ يفوح برائحةٍ ذكية، والأرز على الطاولة، والجميع مهندمو المظهر، يتزيَّنون بالابتسامة. كلا، عادةً ما يحدث الأمر حين تكون الأم في السوق تبتاع فخذ ضأنٍ أو تبحث عن زوجٍ مفقود من مشابك الغسيل بين الحشائش، في تلك اللحظة يظهر الفتى أشعث المظهر، تحمل عيناه أعماقًا جديدة، وأحزانًا جديدة حُفرت بداخله، وحين تراه، ستشعر كما لو أنها

تمُرُّ بلحظة ولادته من جديد، وتبحث عمَّا إذا عاد بكل أصابع يديه وقدميه، متسائلةً عمَّا إذا كان سينجو في هذا العالم الجديد. والفتى الجندي بإق على صمته، تستحيل أفكاره إلى المباهج العادية، وملمس ساري أمه القطني مُفكَّك الخيوط، وهيكل يدها على جبهته، ورائحتها، التي تشبه الليمون، تُبدِّد كل شعورٍ آخر.

لكن سهيل لم يعُد. انقضى ديسمبر (كانون الأول)، ولحقه يناير (كانون الثاني). وريحانة ومايا تقُصَّان القصص عن عودته، وعما تنويان الإقدام عليه من أمورٍ لطيفة ومُبهجة. حلوى مُثلَّجة وفرخ دجاج. وربما تخرجان معًا في نزهةٍ إلى حدائق الشاي، أو إلى «بازار كوكس». لطالما تمنَّى سهيل أن يرى أمواج المدِّ والجزر البُنِّيَّة لخليج البنغال.

ولمَّا حانت اللحظة، كانت مايا وأمها في مركز إعادة تأهيل النساء؛ سجَّلتا اسميهما للتطوعُّ. عادتا في ذلك اليوم من المركز لتجدا سهيل في المنزل، يجلس مسترخيًا في غرفة المعيشة وبحوزته صحيفة، كأنما كان في موضعه هذا طوال الوقت.

ارتدى قميصًا أحمر، وتنُّورة لونجي رجالية متسخة. واستتر وجهه خلف لحية شهباء ذات لونٍ رمادي داكن. ثمَّ قال وهو ينقل نظراته بينهما ذهابًا وإيابًا: «أنا آسف. كنتُ أنوي الحلاقة».

ابتسمت إحداهما للأخرى، ثمَّ عانقته مايا وتمسَّكت بعناقه قدر استطاعتها، مشدوهةً بأريج الأرض الذي يفوح من شعره.

***

في تلك الليلة، التقطوا المصباح واتخذوا مجلسهم في الحديقة. ودسَّت ريحانة لفائف البعوض أسفل كُرسي سهيل، واقترب ثلاثتهم، يحتمون ببعضهم من برد فبراير (شُباط).

سألت إحداهما: «لماذا تأخَّرت كل هذا الوقت؟ لقد عاد الفتيان الآخرون منذ أسابيعٍ».

لم يُوضِّح سهيل لهما شيئًا. وفي تلك الأثناء، ارتفع الدخان المتصاعد من اللفائف وداعبهم برائحته النفَّاذة اللاذعة. أجابهما بإيماءةٍ من يده اليسرى،

أخبرتهما كم هو مُتعب. لأن مايا والأم ظلَّتا تُحملقان فيه طوال المساء؛ وربما سئم من التحديق إليه.

غرق ثلاثتهم في صمتٍ، بدت معه جميع الكلمات متناهيةً في التفاهة. تعالى صرير صراصير الليل ونقيق الضفادع. فأخذت مايا تُفكِّر في الأوقات الأخرى لمَّا جلسوا ثلاثتهم هناك في ذلك المكان. في الشتاء، أحيانًا ما يحتضنون أطباقهم على حجورهم، ويتناولون فطورهم، ويراقبون الضباب يتراجع في الأفق. لكم تمنى والدها هذه الحديقة، وهذه الشرفة التي تبرز إلى فضائها. قبيل وفاته بشهرين، كان قد زرع صفًّا من بذور الطماطم، وانحنى إلى الأرض بنفسه لينثر البذور، ويُقلِّب الأرض فوق شقوق البذور. ثمَّ توفِّي قبل أن تنبت، وفي الربيع، حين أخرجت الأرض براعمها الخضراء، كانت أمي هي مَن سقتها، وهشَّت عنها الغربان. وبعد سنواتٍ، حين اجتُزِأت الحديقة ليمهلوا مساحة كافية من أجل المنزل الكبير، أنقذت واحدة أو اثنتين من نباتات الطماطم، ونقلتها إلى رقعة الخضراوات الصغيرة التي خصَّصتها أمام البانجالو (الكوخ الصغير)، لكنها لم تنجُ من رحلة انتقالها؛ تيبَّست سيقانها واستحالت إلى رماد. وجدت مايا أمها ذات مرَّة بين تلك النباتات، تُمسك بأوراقها، غير مُصدقة.

قطع سهيل الصمت، فسأل: «ماذا سنفعل الآن؟».

أجابت الأم: «ألم تُخبرك بعد؟ إن مايا ستصير طبيبة. لتعتني بي في شيخوختي».

احمرَّت وجنتا مايا، وأضمرت اعتزازها بنفسها لاختيارها دراسة الطب. طريقٌ نبيل لخدمة البلد الجديد. ثمَّ مضت مُعلِّقة: «ستفتح الجامعة أبوابها قريبًا».

قال سهيل: «خططنا هي العودة إلى الدراسة إذن».

بدا سهيل غير مسرور بفكرة العودة إلى الجامعة، وتبنِّي إجاباتٍ مثل: أجل يا سيدي، حاضر يا سيدي، في أثناء تفقُّد الحضور.

سأل سهيل: «أيُ طبيبةٍ ستكونين؟ (وأشار إلى نفسه) أذرع وسيقان؟ عينان وأذن؟ قلب؟».

وضحك، كما لو أنها ليست أهلًا لائتمانها على قلب أحدهم.

أجابت مايا: «جراحة».

صفَّق بيديه معًا، وقال بالبنغالية: «حسنًا». ثمَّ تابع بالإنجليزية: «ممتاز، عبقري. الطبيبة شهرزاد حق مايا، خيَّاطة الجروح، مُخلِّصة الأورام».

سألت الأم: «كم ستستغرق دراستكِ؟».

- مُقطِّبَةُ الشرايين.

- ستُ سنوات.

- ربما ستكونين متزوِّجة حينها.

انتصبت مايا منزعجة: «إذن؟ ألا يمكنني أن أصير طبيبة إذا تزوَّجت؟».

- ما أقوله هو أن الكثير من الأمور قد تتغيَّر.

سأل سهيل: «أين ستكونين يا أمي، بعد ست سنوات؟».

رفعت وجهها لأعلى، حيث القمر يُطلُّ من مخبأه لو أن هناك قمرًا. وعجز الطفلان عن تبيُّن تعابير وجهها إذ اتشحت بالظلمة واستترت بداخلها، وهي تُجيب: «الله وحده يعلم. كل ما ابتغيته طوال هذا الوقت هو عودتكَ سالمًا، هذا كل شيء».

سألت مايا سهيل بالبنغالية: «وأنتَ يا أخي؟».

- ست سنوات؟ هيهات. لا أدري.

- متزوِّج؟

- لا يمكنني الجزم. يبدو لي أمرًا مفعمًا بالتفاؤل.

- لطالما كنتَ شخصًا متفائلًا.

زفر سهيل تنهيدةً، وعاد يغوص في كُرسيه. ثمَّ أجاب: «لم أعد على يقينٍ من شيء».

كانتا موقنتين ممَّا يُفكِّر فيه. فمنذ أمدٍ بعيد، وقع سهيل في حُب الفتاة التي تعيش في المنزل المقابل على الجانب الآخر من الطريق. اسمها هو سيلفي. وحين اندلعت الحرب، زوَّجتها أمها إلى ضابطٍ في الجيش. ثمَّ قُتل الضابط، فصارت سيلفي أرملة؛ ما تزال تسكن المنزل المجاور، ربما تنتظر اليوم الذي سيعود فيه سهيل ليطرق بابها.

لم ينطق أحدهم بشيءٍ لوقتٍ طويل.

ثم قالت الأم: «ربما ما تزال في فترة الحِداد».

وأقلعوا عن ذكر الأمر عند هذا الحدِّ.

***

في تلك الليلة وهي تقضى مساءها في الشرفة، برفقة أخيها العائد من الحرب، آمنت مايا أن أيام الانتظار قد ولَّت. راقبت والدتها وهي تبسط سجادة الصلاة، متجهةً نحو الغرب، تحمد الله على عودته. وأخذت مايا تتصوَّر المستقبل ينشر بُسطه أمامهما، مستويًا سرمديًّا يمكن التنبؤ بجريانه مثل «دلتا نهر البنغال». وكم كانت مخطئة!

***

1984
فبراير (شُباط)

عجزت مايا عن النوم. وانتظرت تنفُّس الصبح، ثمَّ انتعلت حذاءها الرياضي، وأحاطت رأسها بالوشاح، ثمَّ غرقت في الضباب. لمَّا كانت في راجشاهي، اختلقت مسارًا صباحيًّا باكرًا: تدور حول البِركة، ثمَّ تمُرُّ عبر حقل السمسم المملوك لجيرانها، ومن هناك تدور حول المسجد، عابرةً الطريق المؤدي إلى المدينة، ثمَّ تعود مجدَّدًا إلى باب منزلها قبل الانتهاء من صلاة الفجر. والآن قرَّرت أن تصل إلى «بحيرة دانموندي - Dhanmondi Lake» عبر الطرق الخلفية. هادئة، يكتنفها الضباب، بدت المدينة أشبه بالصورة التي تذكرها عليها مايا، المنازل المطلية بالكلس، والملابس المغسولة تتراقص في الشرفات العلوية، والشوارع الشاسعة الغارقة في الصمت.

دارت حول بحيرة دانموندي، ولاحظت أن الأشجار حولها شاخت والطريق الذي كان ممهدًا حول البحيرة قد انحصر. كانت زمرةٌ من القوارب مربوطة معًا، تحمل لافتة كُتب عليها «**عشرةُ تاكاتٍ في الساعة الواحدة**». توقفت وأسندت ظهرها إلى جذع شجرة، وأخذت أنفاسها تُصفِّر في حلقها. لقد كانت تركض في سرعة هائلة، أسرع ممَّا أدركت. ثمَّ جلست القرفصاء إلى جانب الشجرة لبضع دقائق. اكتست البحيرة المظلمة بلون الليمون المالح. ثمَّ

استأنفت مايا ركضها مجدَّدًا، واعيةً الآن لما تبادر إلى مسامعها من أصوات استهلال الصباح، والناس يتطلَّعون إلى خارج نوافذهم وينظفون حلوقهم باصقين في الحشائش، وجلجلة عربات الريكاشة الخشبية، ومصاريع الدكاكين تُفتح لأعلى. ركضت عبر طريق «ميربور روود»، الذي تنتشر على جانبيه سلاسل من العربات تُشبه اللؤلؤ المُرصَّع على رقعة قماش. ثمَّ اتخذت منعطفًا، لتجد نفسها أمام المقابر، حيث دُفن والدها.

تطلَّعت من حولها. فلاحظت غياب ناظر المقابر، والبوابة المغلقة. ومع هذا، تسلَّلت إلى الداخل. بدت ساحة المقابر أقل اتساعًا بفعل المباني المكدَّسة حولها من جميع الجوانب. وتساءلت في قرارة نفسها: كيف كان سيبدو الأمر لو أن نافذتك تفتح على مستطيلات الموت الصغيرة تلك، تشاهد الزهور تُزرع والصلوات تُتلى، والناس يبكون، ويخبرون أطفالهم كل ليلة أنه ما من وجودٍ للأشباح. ربما لن يأبه أحدٌ لو حدث هذا. فالمدينة تستنفد كل ما لديها من مساحات شاغرة؛ هكذا قرأت في الجريدة التي وصلت إلى راجشاهي متأخِّرة يومًا عن موعد صدورها، وتابعت قراءتها: سرعان ما تزداد مساحات العمران، وقريبًا سيتحتَّم على الجميع المُضيُّ للبناء في مناطق نائية. ربما لهذا السبب أصدر الديكتاتور مرسومًا بألا يجتمع أكثر من خمسة أشخاص معًا. هذا لأن المدينة صارت مكدَّسة عن آخرها، وبات من الضروري التوسُّع إلى المناطق النائية.

تُعَدُّ زيارة المقابر طقسًا أُسريًّا. حافظت أمها على قبر أبيها نظيفًا مرتبًا طوال تلك السنوات، فأحاطت المنطقة المحيطة به بسياجٍ، وصقلت شاهد القبر. لم تدرِ مايا ما عليها فعله؛ فلم تأتِ من قبل بمفردها قط. وتذكَّرت الخُطب التي كانت تُلقيها أمها في حضرة هذا القبر، ووابل الأسئلة الذي تُمطره، والاعتذارات، والندم. جلست مايا القرفصاء إلى جانب شاهد القبر، ووضعت راحتها على سطحه. ثمَّ مضت قائلة: **مرحبًا، أيها الأب الغائب.**

***

حين عادت مايا إلى الكوخ الصغير، وجدت جماعةً من النسوة عند أعتاب الدَّرج. للوهلة الأولى، بدت لها النسوة ذاتهن اللاتي التقتهن في الليلة الماضية، ولكن حين اقتربت لاحظت أن وجوههن مكشوفة، وأنهن يتحدَّثن بطلاقة وسرعة إلى بعضهن بلغةٍ أجنبية. سألتهن مايا بلغةٍ إنجليزية إن

كان بإمكانها مساعدتهن. ودون تقديم أنفسهن، أخذن يُعانقنها الواحدة تلو الأخرى ويطبعن القبلات على وجنتيها. وبإنجليزية رديئة، أوضحن لها أنهن الإرسالية الفرنسية. **الجماعة الفرنسية**[1]. أمعنت مايا النظر فيهن من كثب. كُنَّ ينتعلن أحذيةً من جلدٍ ناعم أسفل أرديتهن، ولمحت آثارًا طفيفة لطلاء على أظفارهن. استشعرت مايا حيالهن أجواء السياح؛ تردُّدهن، والتفاف أصابعهن حول مقابض حقائب سفرهن وحقائب ظهورهن. ثمَّ رأت إحداهن تُلوِّح بعلمٍ ورقي صغير كانت قد لفَّته حول خِلال أسنان.

بعد نقاشٍ وجيز، أخذت النسوة يصعدن السُّلَّم الضيق الواحدة تلو الأخرى، ثمَّ أسرعن منكِّسات الرأس إلى الغرفة في الأعلى. تبعتهن مايا إلى الأعلى، وفي الداخل، كانت الحجرة المستطيلة مكتظَّة بالناس، والهواء خانق مشحونٌ بالروائح. وقفت امرأة ضخمة في المقدِّمة تُخاطب الجمع، استقبلتهن بوجهٍ مكشوف وحجاب رأس أسود ملتفٍ حوله. أومأت إلى الواصلين الجُدد، وتابعت حديثها، مشيرةً إلى سيلفي باسمها الإسلامي: «إن أختنا ريحنوما قد وافتها المنية حديثًا. لترقد روحها في سلام».

أجابتها النسوة مُؤمِّنين: «آمين».

- لكن عملها يجب أن يستمر. سنواصل دروس الأربعاء. وستستمرُّ أيضًا إرساليات الجماعة من إخواننا وأخواتنا في الأراضي الأجنبية. وتذكَّروا أن هذه الحياة لا تتعدَّى قطرةً في محيط الزمان، وأن الحياة الآخرة هي دار البقاء، وأن كل لحظةٍ تمُرُّ علينا هي الدهر.. السرمدي.

تردَّدت إيماءات وهمهمات الموافقة في أنحاء الغرفة.

- والآن نُرحب بأخواتنا من فرنسا.

التفتت الأخريات ساعتها إلى النسوة الفرنسيات وألقين عليهن تحيةً حارة يتقدَّمها الحماس، يُلامسن وجوههن، ويُداعبن أقمشة براقعهن. سرعان ما اندمجت النسوة الفرنسيات، وأخذن يفتحن حقائبهن ويُوزِّعن الهدايا. مرَّت علبةٌ من الشوكولاتة في أنحاء الغرفة. وشرعت المرأة التي كانت تُلقي الخطبة في التنقُّل عبر الغرفة، معانقةً الزائرات، متحدثةً إليهن بمزيجٍ من البنغالية والعربية ولغة الإشارة. ثمَّ جلست مجدَّدًا وشرعت تقرأ فقرةً باللغة العربية، وهي تُومئ وتشير إليهن بيدين ممتلئتين أنيقتين.

---

(1) ذكرت هذه العبارة باللغة البنغالية. (المترجمة)

حدَّثت مايا نفسها أنه يجدر بها التسلُّل خارجًا قبل أن يلاحظها أحدٌ. لكنها غادرت المشهد على مضض، دون أن تخمد نيران فضولها. وفي طريقها إلى الأسفل عبر السلالم، اصطدمت بصبيٍ يحمل سطلًا، فتخضَّل الماء على صندلها وغمر الجزء السفلي من سروالها. قالت وهي تندفع من جانبه: «احترس أيها الصبي».

صاح الصبي: «مرحبًا! كيف-حالكِ-يا-سيدتي؟».

استدارت مايا نحوه وأجابت: «مرحبًا!».

تطلَّع إليها الصبي من أعلى إلى أسفل، ثمَّ ندَّت عنه ضحكة صاخبة، كشفت عن فمٍ ذي أسنانٍ مشوَّهة. كانت له عينان برَّاقتان غير معهودتين، أوشكتا أن تميلان إلى اللون الرمادي، وله أنفٌ مستوٍ دقيق. لكن كل شيءٍ آخر حياله كان يُوحي بالفقر: منامته القصيرة للغاية، والطريقة التي يُعامل بها شفتيه، يفركهما بقسوة بظهر يده.

سألت مايا: «علامَ تضحك؟».

أشار إلى ملابسها وحذائها الرياضي، ثمَّ قال: «تبدين مضحكة».

أوشكت مايا أن تودِّعه، حين طرأ على ذهنها أنه قد يعلم بمكان سهيل. ماذا يُلقِّبونه؟ حضرة الشيخ.

- مهلًا، أتعلم أين أجد حضرة الشيخ؟

رفع كتفيه إشارةً إلى عدم معرفته، ثمَّ فتح فمه وضحك مجدَّدًا. وقال: «ولكن لا يمكنكِ أن تريه. بسبب «الحجاب» ألا تعلمين؟».

- لا تأبه حيال ذلك. هل هو هنا؟

أفلت الصبي مقبض السطل، وقال: «كلا، لقد خرج. أرأيتِ السيدات الفرنسيات؟».

- أجل، رأيتهن.

- الشهر الماضي، زارتنا الجماعة الروسية. يمكنني أن أتحدَّث الروسية.

- ماذا يمكنك أن تقول؟

لفظ الصبي بضع كلماتٍ تبدو أجنبية. فسألت مايا:

- ماذا تعني؟

أجابها وهو يثني ركبتيه ويقفز لأعلى: «السلام. السلام (السلام[1]) السلام. وأعرف الكلمة باللغة الإسبانية أيضًا».

ثمَّ نطق بسيلٍ آخر من رطانة غير مفهومة.

سألت مايا:

- هل تتعلَّم من الكتاب؟

هبط الصبي على كعبيه، وراح يهتزُّ إلى الأمام وإلى الخلف، ثمَّ أجاب، وهو يشير بإصبعه إلى صدغه: «لا أملك كتبًا. بل رأسي فحسب».

قالت مايا: «عليَّ الذهاب الآن».

صاح الصبي: «الوداع. الله حافظ[2]. إلى اللقاء![3]».

لا بُدَّ وأن النسوة الفرنسيات قد جئن إلى هنا من قبل. مدَّ الصبي يده إلى جيبه، وأخرج قطعة سمبوسك طرية مفلطحة، وقال: «خذي هذه لكِ».

- لا، بل تناولها أنتَ. لستُ جائعة.

قضم الصبي إحدى نهايات القطعة المثلَّثة، وقال: «حسنًا، إلى اللقاء، مع السلامة».

***

كانت الأم في المطبخ. أما الخادمة التي عينتها ريحانة منذ بضع سنوات، وقفت أمام الحوض، تغسل الأواني المتسخة من عشاء ليلة أمس.

قالت ريحانة: «مايا، هذه صوفيا».

كانت المرأة تزيد على مايا طولًا بما يقارب خمسة عشر سنتيمترًا على الأقل. أقبلت صوفيا إليها، ابتسمت، ثمَّ وضعت يدًا كبيرة على كتف مايا.

قالت صوفيا: «أعرف كل شيءٍ عنكِ».

وتطلَّعت إليها من أعلى إلى أسفل. أما مايا، فشعرت بنفسها تقرأ أفكار الفتاة: إذن هذه هي الابنة التي ترفض العودة إلى الديار. تبدو مثل امرأةٍ

---

(1) هذه الكلمة تحديدًا كُتبت باللغة البنغالية. (المترجمة)

(2) هذه الكلمة فارسية وأردية وبنغالية: Khoda Hafez. (المترجمة)

(3) كُتبت هذه الكلمة باللغة الفرنسية. (المترجمة)

قروية. ترتدي بزَّة رخيصة من قميصٍ وسروال، لم تُنَشَّ حتى. شعرٌ طويل، أجل، ولكنْ أيُّ بشرةٍ هذه، تبدو بشرة داكنة مُفحَّمة بفعل الشمس. وأبقت المرأة على ابتسامتها، وتربيتها بقوة.

قالت مايا: «كنتُ أعدو. وذهبتُ إلى المقابر».

أومأت إليها أمها بإيجاب. ثمَّ أقبلت على ابنتها، ووضعت يدها على خدها، وهي تقول: «أنا مسرورةٌ للغاية».

كانت مايا مسرورة هي الأخرى. وغمرها دفءُ هذا السرور حتَّى تغلغل بها. أرادت أن تقول هذا، أن تُخبر أمها أنها عادت إلى الديار الآن، وأنها باقيةٌ، لكنها عجزت عن الإتيان بالكلمات، لأن هذا لن يكون صحيحًا. عندما أخرجت الأم مثلَّثات السمبوسك من وعاء القلي، تذكَّرت مايا أطفال نازْية، كيف كانوا يُوفِّرون عيدية العيد ليشتروا السمبوسك من المدينة، ويتقاسمون واحدة، ثمَّ يتجادلون أيهم أخذ الجزء الأكبر.

سألت مايا:

- أين هو سهيل؟

أجابت الأم:

- جاء لرؤيتي هذا الصباح. وطلب منِّي أن أُبلغكِ أنه يُرسل محبَّته.

محبَّة؟ أهذه هي الكلمة التي استخدمها حقًّا؟

- هل أخبركِ متى سيعود؟

- لن يعود قبل بضعة أسابيع.

أخذت صوفيا تطحن الكركم بحجرٍ كبير يشبه في شكله مرقاق[1] العجين، وتُدحرج الحجر ذهابًا وإيابًا على بُصيلة الكركم، تطحنها لتُحيلها إلى معجونٍ خشن، ثمَّ تُعيد الكَرَّة مرارًا حتَّى يستحيل إلى مسحوقٍ ناعم، ويصير لونه داكنًا مثل لون زهورٍ مخملية مسحوقة.

علَّقت صوفيا، وهي تغرف الكركم في طبقٍ وتشرع في العملية برمتها مرَّة أخرى، مع حفنةٍ من الثوم: «دومًا يأتي ويرحل.. يأتي ويرحل».

---

(1) النَّشَّابة التي تفرد العجين. (المترجمة)

قالت مايا: «إن الأمر يشبه اجتماع الأمم المتحدة في الأعلى. لا أحد يتحدَّث البنغالية حتى».

قالت الأم، وهي تسكب المزيد من الزيت في إناء القلي: «يأتون من كل أنحاء العالم».

- من أجل سهيل وسيلفي؟

- هذا ما يفعلانه؛ ينتقلون من بلدٍ إلى أخرى، كما تفعل الإرساليات.

حين كان سهيل صبيًّا، التحق بمدرسة يسوعية تُسمَّى سانت جريجوري. كانت مايا قد زارته ذات مرَّة في **يوم الألعاب**، أما قساوسة المدرسة فكانوا يرتدون أردية طويلة من الكتَّان ذات أحزمةٍ رفيعة مربوطة حول خصورهم. وكانت اللعبة هي سباق البيضة والملعقة. كانت هذه هي الصور التي حضرت إلى ذهن مايا حين نطقت الأم بكلمة إرساليات، دون النسوة اللاتي تفوح منهن رائحة القرفة في الطابق العلوي.

أخرجت الأم شيئًا من إناء القلي، ثمَّ قالت: «أتريدين قطعة سمبوسك؟».

خطر إلى ذهن مايا على الفور فكرة. عينان رماديتان. في العُمر المناسب تمامًا. فسألت: «أكان هذا هو ابن سهيل الذي رأيته في الطابق العلوي لتوي؟».

استدارت صوفيا نحو كومةٍ من حبَّات البصل ذات قشرةٍ بلون الخزامي، ثمَّ أجابت: «إن كان يحمل سطلًا، فهذا هو المقصود».

- ولكنه يبدو... أمي، هل رأيته؟

حطَّت الأم مِلوَقها البلاستيكي، وجمعت قطع السمبوسك على طبقٍ، ثمَّ قالت: «أجل، يا ابنتي، أعلم. كنتُ سأحدِّثكِ في الأمر هذا الصباح».

- إذن؟

تدخَّلت صوفيا مقاطعةً: «إذن... ما مِن شيءٍ يُفعل حيال ذلك. يركض الصبية في الأنحاء كالبرابرة؛ هكذا يُحبُّون الحياة».

سألت مايا: «ألم يلتحق بالمدرسة؟».

قالت الأم: «أحيانًا يقرؤون القرآن معه».

- وأنتِ تدعيهم يفعلون هذا فحسب؟

مررت ريحانة طبق السمبوسك إلى مايا. فاستشعرت الأخيرة ساعتها قدرًا كبيرًا من الإعياء والإنهاك في إيماءة أمها. واستشعرت أيضًا أنه -مهما كان

ما يحدث في الطابق العلوي- فقد قرَّرت الأم أن تتجاهله. وما عادت تلك الأم الحامية شديدة الذُّعر التي كانت عليها قبلًا. إذا أراد سهيل أن يحرق كتبه، إذا أراد أن يُلقي بأثاث منزله في القمامة ويُفكك دُوِيَّ المصابيح ويتبوَّل في حفرة في الأرض، فليكن ما شاء. سالفًا، منحت الأم طفليها كل شيء. أما الآن، فهي في طور التراجع من حياتهما، تقبل باستسلامٍ أيًّا ما يختارون فعله: الرجوع إلى الله، أو الهروب بعيدًا، أو رفض إرسال أطفالهم إلى المدرسة. ما عاد شيءٌ من الكفاح باقيًا بداخلها.

حينئذٍ أدركت مايا كم مرَّت السنون على أمها أطول كثيرًا ممَّا ظنَّت.

قالت الأم ببساطة: «إنه ليس ابني. وليس ابنكِ أيضًا. إننا نفعل ما نقدر عليه، ولكن عليكِ أن تتذكَّري ذلك».

تذكَّرت مايا أمرًا آخر. الشجرة. غادرت لتُحضرها من غرفة سهيل، وقدَّمتها إلى أمها. ثمَّ قالت ببساطة: «أتيتُ بها من راجشاهي». كانت تعلم أن أمها ستدرك في الحال أنها شجرة مانجو قيِّمة، وأن الشجرة إذا نجت من فصل الشتاء، فستطرح ثمار الفاكهة المعقودة ذات النكهة الحامضية التي لا يمكن أن تجدها في أي مكانٍ آخر.

***

اسمه هو محمد زيد بن حق. اسمٌ طويل لصبيٍّ صغير. في اليوم التالي، أبقت مايا عينيها على بيت الدرج، وما إن لمحت هيئته، أسرعت إلى الخارج واعترضت طريقه. ثمَّ قالت: «زيد، أتذكرني؟».

هزَّ رأسه نفيًا، ما إن رأى خيبة الأمل على وجهها، حتَّى قال: «ها، ها، لقد خدعتكِ!».

- إذن أنتَ ضحَّاك وعالم لغويات؟
- ما هو عالم اللغويات؟
- إنه شخصٌ يتحدَّث الكثير من اللغات. أنا أيضًا أتحدَّث بعض اللغات. ما رأيكَ لو علَّمتُكَ بعض الأشياء القليلة؟

رفع السطل أمامها، وكان فارغًا من حمله. ثمَّ قال، وهو يركض نحو الصنبور: «عليَّ الذهاب».

لاحقًا، طرق زيد على الباب، وسألها وهو يخلع عنه صندله، ويتقدَّم بخطواته داخل غرفتها: «هل تريدين أن تلعبي لعبة اللودو؟».

- حسنًا. هل لديكَ رقعة اللعب؟

بسط طيَّات قصاصة من الورق. وعليها، حاول أحدهم إحداث استنساخٍ أوَّليٍّ لرقعة اللودو؛ والصناديق المربَّعة تتقاطع مع بعضها بعضًا وتشغلها علاماتٌ بقلمٍ رصاصٍ أزرق.

أبرز زيد حفنة من الأحجار، وقال: «البيضاء من نصيبك. والسوداء من نصيبي».

- مِن أين حصلت على هذه؟

- صنعتها أمي من أجلي.

- حقًّا؟ أكنتَ تلعب اللودو معها؟

تساءلت مايا إن كان يودُّ الحديث عن أمه، التي لم يمضِ أسبوعٌ واحد على وفاتها بعد.

أومأ الصبي بعزمٍ، وأجاب: «كل يوم».

أبرز زهر نردٍ واحد، فقالت مايا: «ألقِ زهركَ أولًا».

ستَّة. صاح الصبي بالبنغالية: «ستَّة!». ثمَّ حرَّك حجره على امتداد الرقعة.

سألت مايا وهي تُحقِّق ثلاثة: «زيد، هل تذهب إلى المدرسة؟».

ألقى بالنرد، وهو يُجيب: «كلا، لكني ذاهب».

- متى؟

- العام القادم. وعدتني أمي بذلك.

- هل تعلم أن عليك ارتداء زيٍّ موحَّد حين تذهب إلى المدرسة؟

- سروالًا وقميصًا؟

- أجل، قميصًا وسروالًا.

ابتسم ابتسامةً عريضة، وأجاب: «أعرف».

- قد لا يسمح لكَ أبوك بهذا.

حقَّق زيد أربعةً حين ألقى النرد، ثمَّ قال: «أنا آكلكِ!».

- أظنُّ أنكَ أخطأتَ واحدًا.

أجاب: «كلا، إنها أربعة. (أعاد الحجر إلى موضعه الأول) واحد - اثنان - ثلاثة - أربعة. أرأيتِ؟».

كانت موقنة تمام اليقين أنه خلَّف وراءه خمسة أماكن. تجاهلت الأمر، وسرعان ما خسرت أمامه، وما إن انتهت اللعبة حتَّى طوى الورقة، ودسَّها أسفل ذراعه، مثلما يحمل المسَّاح مخطَّطاته، ثمَّ اختفى.

***

يجيء زيدٌ ويرحل. أحيانًا ما تجده مايا جالسًا القرفصاء عند أحواض الأزهار، يلتقط الحشرات من الحشائش الضارَّة. لغته البنغالية رديئة، وحروفه الساكنة ثقيلة غير واضحة. وجسمه فوضى متحرِّكة. طفحٌ جلدي انتشر على جسده تسبَّب في حكَّة ونزيف. وعلى عضده صفٌّ من نتوءات صغيرة، والقذر يختبئ أسفل كل انحناءةٍ وتجعيدٍ من جسده. هو في السادسة من عمره، وتراه كمن هو في الرابعة، له معصمان وكاحلان رفيعان بهما هشاشة. يرتدي بذلات كورتا متماثلة بلونٍ أزرق باهت، إما تكون كبيرة جدًّا وإما صغيرة جدًّا، وطاقية على رأسه، دُفعتْ إلى الخلف حتَّى استدارت حول قمته كالتاج.

***

كانت مايا عازفةً عن مغادرة المنزل. في الصباح، تخرج إلى الركض حول البحيرة، وأحيانًا، عندما تطلب منها أمها، تسير إلى الدكان على رأس الطريق، وتشتري بضعة أشياء. كانت قد كتبت خطابًا إلى نازْية، تتوسَّل إليها أن تظل على اتصالٍ بها، وتعرض عليها إرسال المال إن هي في حاجةٍ إلى شيء. حاولت أن تُهاتفها ذات يوم، وتترك رسالةً لها لدى مكتب البريد في المدينة، تقول فيها إنها ستُهاتفها مرَّة أخرى بعد ثلاثة أيامٍ في الساعة نفسها. بعد ثلاثة أيام، قال الرجل الذي يعمل في مكتب البريد إنه قد ذاع الخبر، لكن أحدًا لم يأتِ لتلقِّي مكالمتها الهاتفية.

اتصلت مايا مرَّة أخرى في الأسبوع الذي يليه. كان الرجل مهذَّبًا معها، لكنه لا يدري إن كانت نازْية قد عادت من المشفى أم لا. فتذكَّرته مايا: كان ذلك هو الرجل نفسه الذي أوصل إليها التلغراف.

سألته مايا: «هل أنتَ بخير؟».

فأجابها: «أجل، يا أختاه، لكن ابنتي مريضة».

لِمَ شعرت بالبهجة إثر سماع شيءٍ كهذا؟ أيكون السبب هو تعرُّض أهل القرية للمرض، بما أنها لم تعد موجودة الآن للاعتناء بهم؟

قالت مايا، متجاوزةً الرعشة في صوتها: «هل تُخبرها أنني اتصلتُ بها؟».

- سأخبرها يا أختاه.

- شكرًا لكَ.

قال بالبنغالية: «ستنبت ثمار الأناناس حلوة هذا العام يا أختاه».

كان يقول إنها ستفتقد ثمار الأناناس، وربما ستفتقدها الثمار بدورها.

***

قالت مايا: «زيد، سأذهب إلى بائع الخضراوات. أتودُّ المجيء معي؟».

رفع زيد يده وهو يقول: «انتظري».

صعد الدرج متاخمًا الدرجات بعضها ببعض، وعاد بعد دقائق قليلة، وبحوزته قصاصة من الورق مُجعَّدة.

أخذتها مايا منه وقالت: «دعني أرى هذه».

إنها قائمة تسوُّق للطابق العلوي.

كُتب فيها: بامية. بطاطس. ثمرة قرع واحدة.

انطلقا في طريقهما عبر الشارع. ثمَّ سألت مايا: «أين حذاؤك؟».

رفع كتفيه في غير اكتراث، وقال وهو يقفز برشاقة على الأسفلت الساخن: «لا أعرف».

قادته مايا نحو الظل. ثمَّ اتخذا عطفة، فوصلا إلى مبنى كبير ذي نوافذ مفتوحة.

«اثنان مُكرَّر اثنان يساوي أربعة، اثنان مُكرَّر ثلاثة يساوي ستة، اثنان مُكرَّر أربعة يساوي ثمانية».

أما زيد، الذي كان يقبض على قائمة التسوُّق، فظلَّ ساكنًا بلا حراك.

كان الاسم الذي خُطَّ على البوابة هو: «**مدرسة إحسان الله التذكارية للبنين**».

التفتت إليه مايا لتسأله: «هل رأيتها من قبل؟».

لكن الصبي اختفى. وفي لحظة، كان يقف على الجانب الآخر من البوابة، يسترق النظر من النافذة. وخلع الطاقية عن رأسه.

صاحت مايا بينما كان يشقُّ طريقه حول المبنى: «سيراك أحدهم. عُد إلى هنا».

اختفى عن مرمى بصرها. فانتظرت خمس دقائق.. عشر دقائق. ثمَّ سمعت صافرةً، فتبعتها، وأخذت العطفة لتجده بانتظارها. كان قد تسلَّق السور العالي في مؤخِّرة مبنى المدرسة، وهبط إلى الشارع؛ أما بذلة الكورتا التي يرتديها فقد تلطَّخت بغبار بُنِّيٍّ يميل إلى لونٍ برتقالي. أخرج الطاقية من أسفل ذراعه، وأعادها إلى رأسه مرَّة أخرى. ثمَّ قال: «هيَّا بنا، سنتأخَّر».

وزنَ بائع الخضراوات حبات البامية والبطاطس، ثمَّ أحضر ثمرة القرع. لم يسأل الرجلُ مالًا؛ فسُكان الطابق العلوي يتسوَّقون تحت الحساب. ثمَّ قال: «اسألوا حضرة الشيخ أن يدعو لي».

***

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

1984

مارس (آذار)

في يوم الاستقلال، أضاءت مايا التلفاز، ورأت الديكتاتور يضع إكليل الزهور على نُصب «شهيد منار»، النصب التذكاري للشهداء. كان له رأسٌ أسود صغير، ومنكبان عريضان مُهدَّبان بالأوسمة العسكرية. في الشهر الماضي، حاول تغيير اسم الدولة إلى جمهورية بنجلاديش الإسلامية. وقبل ذلك، ابتاع زوجين متماثلين من سيارات «رولس-رويس»، واحدة لنفسه، والأخرى من أجل عشيقته.

أما الآن، وفي الذكرى السنوية لاقتحام دبابات الجيش الباكستاني أراضي «دكَّا»، شرع يُلقي خطبةً عن الحرب. وفي خضمٍّ لهفته وتوقه لمصادقة العدو القديم، لم يأتِ على ذكر شيءٍ يتعلَّق بالمذابح. بل أكَّد أهمية الوحدة الإقليمية. وذكر مرارًا وتكرارًا أن المسلمين جميعهم إخوة. عجزت مايا عن سماع المزيد، فأقفلت التلفاز وبحثت عن أمها لتجدها في المطبخ، تعمل على قلي فطائر «الباراثا». وصوفيا ترفع أقراص العجين وتُربِّت عليها برفقٍ بيدين مبطَّنتين بالزُّبد.

***

عند الغروب، سارت مايا من «إليفنت روود» إلى شهيد منار بقدمين عاريتين. كانت تدوس على أوراق الصُّحف والحقائب البلاستيكية، وهي تستشعر الحبيبات الرملية الخشنة تتغلغل في بهجة بين أصابع قدميها، وحرارة الأسفلت تُبطئ من حركتها حتّى بدت بالكاد تتحرَّك، وهي تتقدَّم قافزةً على أطراف أصابعها. دغدغها نسيم عليلٌ، فعقدت أربطة حذائها بين أصابع يديها، وأومأت مبتسمةً إلى جماعةٍ صغيرة من الناس على الطريق بجانبها.

طيلة المسيرة، كنَّ يسِرن عُري الأقدام من طريق الفيل إلى شهيد منار، يرتدين سواري من اللونين الأحمر والأبيض، يُلقين التحية على بعضهن مصحوبةً بالتحية الوطنية باللغة البنغالية: النصر للبنغال[1].

كانت ثمَّة جماعة صغيرة فحسب من الناس على الطريق اليوم، يشقُّون طريقهم في أناةٍ خلال الزحام. وتدوِّي أبواقُ السيارات في نفاد صبر من خلفهم. وعند ناصية طريق «ضياء ساراني»، تفادت مايا قنينة مكسورة وفكَّرت في انتعال صندلها. غير أن الفكرة أثارت حنقها. يجدر بهم أن يغلقوا الطرق ويُنظِّفوا الأرصفة، ويجدر أن يكون هناك حشدٌ أكبر، آلاف من الناس يحملون أطفالهم على ظهورهم، ويتشبَّثون بالشعور المتراجع الذي ألفوه ذات مرَّة، بأنهم أقدموا على شيءٍ ذي نفع، منذ سنواتٍ عديدة.

لمحتْ عينَي رجلٍ طويل الشعر يرتدي وشاحًا من الصوف. هزَّ الرجل رأسه، كأنما يعرف ما كانت تُفكِّر فيه، كأنما يُخبرها ألا تُفكِّر كثيرًا في الأمر.

لن تقبل بالمواساة بديلًا. بل احتضنت غضبها، وأحكمت قبضة يديها حول باقةٍ من الزهور كانت قد اقتطفتها من الحديقة. لِمَ لمْ تأتِ أمي، وسهيل أيضًا؟ لماذا هي هنا وحدها، وقد عايشوا كل لحظة في ذلك الوقت معًا؟ لماذا هي وحدها هنا بين السماء الزرقاء الداكنة والشارع المتشح بالقمامة؟

أُضيء النصب التذكاري بالشموع. تؤدِّي الدرجات العريضة إلى ثلاثة هياكل خرسانية نحيلة، يرتفع الواحد منها، ثمَّ يميل إلى الأمام، كما لو أنه يوفر مأوًى للزائرين. وقرص الشمس، المطلي باللون الأحمر، ينتصب خلف النُّصب. عصفت الريح، فأجبرت ألسنة الشموع المشتعلة على الانحناء، وهي تدفع شجرة الصفصاف حتّى تأرجحت أوراقها وسقطت إلى الأرض.

---

(1) العبارة الأصلية هي: Joy Bangla. (المترجمة)

كان شهيد منار هو أول شيءٍ دمَّره الجيش الباكستاني في أثناء الحرب. ثمَّ كان أول شيءٍ أُعيد بناؤه، في هيكلٍ أطول ارتفاعًا وأوسع عرضًا، لكن مايا تمنَّت لو أنهم تركوه مُحطَّمًا، لأنه الآن، وهو يتشح ببريقه وطلائه الجديد، لا يحمل أي علاماتٍ للنضال الذي كان.

جلست مايا على الدرجة الأولى، والزهور تستقرُّ في حجرها، وراحت تُراقب المشهد والناس يُقدِّمون هداياهم، راكعين أمام الأعمدة، برؤوسٍ خاشعة. لم يتكلم أحد. ثمَّ رأت رجلًا يبكي في هدوءٍ عند أيٍّ من أركان القوس. رفع الرجل يده إلى خده، وأخذ يمسح وجهه بقسوة. ثمَّ التفت ونظر إليها مباشرةً. وقف هنيهةً، مشرئبًّا بعنقه كأنما يستكشف ملامحها في الضوء الخافت. نهضت مايا من جلستها، فسقطت الزهور من حجرها. ثمَّ شعرت به خلفها في هنيهةٍ.

- مايا؟

- جوي.. أهذا أنتَ؟

التقط الزهور من الأرض، ثمَّ قدَّمها إليها. صعقتها الذكرى، ذكراه وقد مضى عليها عِقدٌ من الزمان تقريبًا. جوي. الشقيق الأصغر لصديق سهيل المُقرَّب. قضى معظم شهور الحرب في كوخهم الصغير، فتى مأموريات يعمل لصالح الفدائيين، ينقل المُؤن من الحدود وإليها. فقد شقيقه، فقد أباه، وفقد جزءًا من يده اليمنى في الحرب. كان قد أطلق عليها اسمًا مستعارًا ذات مرَّة؛ وهي تُحاول تذكُّره الآن.

نظرا إلى بعضهما لوقتٍ طويل. صار أطول قامةً ممَّا تتذكَّر هي. تقدَّم نحوها، فتراجعت هي خطوةً إلى الخلف، دون أن تُدرك. ثمَّ قالت: «ظننتُ أنكَ كنتَ في أمريكا».

استرجعت آخر لقاء لهما، حالما أخبرها أنه سينتقل إلى نيويورك. أخذت الأمر على محملٍ شخصي، أن يتخلى عن بلاده بهذه العجلة في أعقاب ميلادها.

- كنتُ كذلك.

- لكنكَ هنا الآن.

- لقد عدتُ. منذ عامٍ تقريبًا. وأنتِ؟ أخبرتني الشائعات أنكِ كنتِ في مكانٍ ما في الشمال.

- لقد عُدتُ أيضًا.

لم تدرِ أي طريقة أخرى يمكن به أن تشرح له الطريق الطويل الذي قطعته لتعود.

- وكيف حال سهيل؟

بدا وجهه مُظلِمًا في ضوء الشموع الخافت، وأحمرَ في ظلال قرص الشمس الأحمر خلف شهيد منار، إلا إنها تمكَّنت من رؤية جبهته العريضة، وزاوية فكِّه.

أجابت مايا: «تُوفيت زوجته».

- أجل، سمعتُ بالخبر. فكرتُ.. فكرتُ في الاتصال به، لكن...

- إنه لا يملك هاتفًا.

شرعا في السير معًا نحو الجامعة. وقاومت مايا رغبةً مُلحَّة في دفع جوي إلى استرجاع ما كان عليه شقيقها من طبيعة وطباع في ميدان المعركة، وفي الحرب، وما آمن به حين كان طالبًا ثوريًّا، قاومت الرغبة في دفعه إلى مشاركتها مأسوية تحوُّلِه. وفي النهاية قالت: «احكِ لي عن نيويورك. كم هي طويلة مبانيها! صدقًا؟».

- أطول ممَّا ترينه في الأفلام.

- أطول من ذلك؟ لا بُدَّ وأنك شعرت بمدى ضآلتك.

- ليست المباني هي ما تجعلكِ تشعرين بضآلتكِ.

- ماذا كنتَ تعمل هناك؟

أجابها: «كنتُ سائق أجرة».

نظر إليها، فمنحته ابتسامةً بسيطة، كأنما تقول لا بأس إن كنتَ تقود سيارة أجرة، لا خجل ولا عار في ذلك. ثمَّ تابع جوي: «وتزوَّجتُ».

- تزوَّجتَ! (توقَّفت عن تحرُّكاتها) هذا أمرٌ لا يُغتفر! أتزوَّجت ولم تُخبر أحدًا؟

كانا قد وصلا إلى شجرة البانيان الجسيمة أمام كلية الفنون، تلك التي قضيا تحتها الكثير من فترات ما بعد الظهيرة قبل الحرب. حطَّ إحدى راحتيه على جذع الشجرة، واتكأ بظهره، ثمَّ أجاب: «لم يكن ذلك النوع من الزواج».

- ماذا إذن؟

فكَّرت مايا في الأمر هنيهةً، فتبيَّن لها الجواب، وقبل أن تُدرك اندفعت تُفشي الجواب: «أكانت حُبلى؟».

ضحك جوي. ثمَّ علَّق: «مايا الطنَّانة. تلدغ مثل النحلة الزنَّانة. تلكم مثل محمد علي».

كان هذا هو الاسم المستعار. مايا الطنَّانة.

استطرد جوي: «تزوَّجتها حتَّى يمكنني البقاء في البلاد. انتهت صلاحية تأشيرتي الطلابية، ولم أُرد العودة».

قالت مايا: «إذن ارتبطتَ بأجنبية».

- أعرف كيف هو شعوركِ حيال الأمر، لقد أوضحتِ شعوركِ بشدَّة في آخر مرَّة التقينا.

وأخرج عُلبةً من جيبه، ورفعها نحوها.

قالت مايا:

- سيجارةً من نيويورك؟ لا يسعني الرفض.

وضع سيجارتين في فمه، وأشعلهما، ثمَّ مرَّر واحدةً إليها.

علَّقت مايا: «رأيتُ هذا الفعل في فيلمٍ ذات مرَّة».

- وأنا أيضًا.

قالت مايا: «ظننتُ أنكَ لم تُحب السينما».

كانت مايا تُذكِّره بالجندي الذي كان عليه، الجندي الذي كان قلقًا من أن يلين قلبه إذا ما شاهد فيلمًا سينمائيًّا. لكنه أجابها:

- ما عدتُ الرجل ذاته.

- لا أُصدق ما تقوله.

بدَّل دفَّة الحديث، فقال: «لكنهم أخبروني أنكِ **أنتِ** لم تتغيَّري البتَّة. ما تزالين تتمتَّعين بروح القتال نفسها».

احمرَّت وجنتاها، واعتراها الخجلُ بغتةً. حكت له عن راجشاهي، وعن حياتها حين أصبحت طبيبة القرية، وأغفلت ذكر سبب رحيلها عن المدينة البعيدة. تصوَّرته مايا في عقلها يبكي بطريقته المعهودة، حين يرفع يده إلى وجهه. أرادت أن تقول شيئًا حيال شقيقه. كان عارف هو الصديق الأقرب إلى

سهيل في الجامعة، صار الاثنان متلازمين حالما اكتشف سهيل أن والد عارف -تمامًا مثل أمي- يتحدَّث اللغة الأردية، وأن كليهما يحظى بأقارب يعيشون في باكستان. فصلهما هٰذا الاكتشاف عن البقية، وتحتَّم عليهما أن يؤلِّفا ما بين آرائهما السياسية وتاريخ عائلتيهما.

كانت ما تزال ممسكةً بحذائها. وحين انحنت إلى الأرض، لتنتعله، رأت أن جوي هو الآخر يسير عاري القدمين، وبنطاله مرفوعٌ لأعلى. فسألته: «أين حذاؤك؟».

- تركته في المنزل.

- في نيويورك؟

ضحكا معًا. ثمَّ أشار إلى عربة ريكاشة، وقدَّم إليها يده لمساعدتها على الصعود إلى مقعدها، وحين أوشكت على توديعه، انسلَّ صاعدًا إلى جانبها، وقال: «أودُّ أن أرى سهيل».

تساءلت عن مقدار ما يعلمه، وعمَّا إذا كان يجدر بها أن تُخبره بما يدور في الطابق العلوي، وأمرُ كل هؤلاء الزائرين، وعن مرأى ملابسهم، سوداء ثخينة الملمس تتدلَّى من أحبال الغسيل، وعن تخلِّيهم منذ سنواتٍ طويلة عن كل مصابيح الإضاءة الكهربائية، وأن ظُلمتهم الآن لا تنقطع إلا لمامًا حين يغزو الحضور الأصفر الباهت للمصابيح الزيتية.

قالت مايا: «الآن ليس وقتًا مناسبًا. لقد سافر خارج المدينة».

هبط درجات الريكاشة، ثمَّ قال: «يومٌ آخر إذن». وأومأ برأسه إليها كأنما يعتمرُ قبعةً، ثمَّ أضاف: «سيُقام حفلٌ يوم الجمعة المقبلة في منزل شوتو وسايما. لِمَ لا تأتين؟».

كانت قد سمعت الكثير عن ثراء شوتو وسايما، ومنزلهما الكبير في «جولشان». واعتراها شيءٌ من الفضول حيال حياتهما. ثمَّ فكَّرت في قرارة نفسها أنها لن تُمانع لو أنها عرفت متى سترى جوي مرَّة أخرى. ولهذا أجابته: «ربما. سأُهاتفكَ، اتفقنا؟».

***

في أثناء عودتها إلى البيت، استرجعت مايا ذكريات المرَّة الأخيرة التي رأت فيها جوي. أُطلق سراح الشيخ مُجيب الرحمن من السجن في باكستان،

وكان من المتوقع وصوله إلى دكًّا ذلك الصباح. احتشد الناس في الشوارع على طول الطريق من المطار إلى طريق «روود 32» في دانموندي، حيث يُقيم. ثمَّ التقت مايا بشوتو وسايما عند «ميربور روود». كان شوتو قد رسم علمًا باللونين الأخضر والأحمر على خده، وحين أخبرته مايا أنه يشبه المهرِّج، أجابها: «لا أهتم. النصر للبنغال!».

حينذاك كانت الحشود تتدفَّق من كل حدبٍ وصوب، تُغادر البيوت والدكاكين، تهجر السيارات، وتقفز من عربات الريكاشة. تُسحب الأطفال من أكتافها. ولمَّا تطلَّعت مايا من خلف كتفها، كان الطريق قد اختفى، وحلَّت محلَّه أمواجٌ من البشر. وأخيرًا وصلوا إلى الشارع الذي يُفترض بالشيخ مجيب الرحمن أن يعبر منه، وتركَّزوا في موضعٍ على رصيف المشاة. ارتفع صوتُ الغناء أعلى وأعلى، وقال شوتو، الذي كانَ يقف على أطراف أصابعه: «ها هو قادم. يمكنني أن أراه».

انتقل هديرٌ وصخب على طول الطريق. كان مجيب يقف في الفتحة العلوية لسيارة أجرة عادية للغاية، واحدة من تلك الشاحنات المستخدمة في حمل الطوب الأحمر أو صناديق الفاكهة. وقف تاجُ الدين على أحد الجوانب، والشيخ موني[1] على الجانب الآخر. أُلقيت الزهور على سيارة الأجرة، وإذ كانت السيارة تتقدَّم في طريقها، كان الشيخ مجيب يتطلع إلى الجانب الآخر، فلم تستطع مايا إلا رؤية مؤخرة رأسه، ومعطفه، وبذلته الكورتا. لا بُدَّ وأن الموكب كان يتحرَّك بأناةٍ وتؤدة، غير أنه بدا لمايا أنه يُبحر مارًّا بها، وسقطت في صحوته على الفور، لتُبحر مع الحشد نحوه. تأبَّطت ذراع سايما، وتقدَّما معًا خطوةً بخطوة. وبهذا الوقت، أمكنهما أن يريا ظهور كل هؤلاء الرجال الذين عادوا أخيرًا من الحرب، كل هؤلاء الناس الذين سيحوِّلون نصرهم إلى بلدٍ جديد، هؤلاء الذين سيخطُّون الدستور، وسيمنحونهم جوازات سفر وأناشيد وطنية جديدة.

استشعرت مايا أحدهم يمسك بساريها؛ فحاولت التعجيل من خطواتها، واصطدمت بالشخص الواقف أمامها. انفلتت ذراع سايما من ذراعها وهي تندفع إلى الأمام. ثمَّ نقر أحدهم نقرةً على كتفها. استدارت، متهيِّجة الأعصاب،

---

(1) الشيخ موني هو الشيخ فضل الله حق ماني، سياسي بنجلاديشي، وهو ابن أخت الشيخ مجيب الرحمن. (المترجمة)

ثمَّ رأت رجلًا يمدُّ يده عبر الحشد، والضحكة لا تُفارق عينيه. توقَّفت هي، فتوقَّف هو بدوره. ظلَّا على حالهما لا يتحرَّكان، يتطلَّعان إلى بعضهما، وحشود الناس تتدفق بينهما ومن حولهما، كما تنجرف مياه النهر حول الصخور. مدَّت يدها لتأخذ يده، اليدُ الأقرب إلى يدها، لكنه قدَّم إليها الأخرى، ثمَّ تصافحا يدًا بيد.

قالت مايا في حماقة: «مرحبًا يا جوي».

أجاب: «مايا الطنَّانة».

تلدغ مثل النحلة الزنَّانة. هذا ما اعتاد أن يقوله لها. بدا من المستحيل عليهما أن يظلَّا على تلك الحال، وأمواج المدِّ والجزر من حولهما، ولهذا استدارت مايا وتابعت السير. واستشعرت خطواته وهو يتبعها. وبين فينة وأخرى، يتزاحمان، وكان باستطاعتها أن تشعر به يصطدم بها برفق. أخذت تُدندن أغنية ثورية، وسمعته يلتقط اللحن بدوره. تحرَّكت، ثمَّ مدَّت يدها مجدَّدًا لتأخذ يده.

ثمَّ اكتشفتها، تلك الفجوة حيث يُفترض أن تجد إصبعه. يدًا مُقمَّطة بضمادة سميكة. حرَّكت طرف إصبعها برفقٍ على ما بدا لها الآن طرف إصبعه: الضمادة الملفوفةُ بسلاسةٍ وإحكام. التفتت إليه مجدَّدًا، وأطلقت سراح يده، ثمَّ حدَّقت إلى وجهه وهي تسأله: «أين إصبعك؟».

- أخذه الجيش.

مدَّت يدها إليه مجدَّدًا، والحشد نافد الصبر يتدفَّق من خلفها، ثمَّ أخذت بالإصبع المقطوعة إلى شفتيها، وقالت: «الوداع يا إصبع».

فأجابها جوي: «الوداع يا مايا. سأرحل».

فقالت هي: «هذا سوء فهمٍ. علينا أن نُقيم جنازةً قيِّمة تلائم إصبعك».

- سأرحل إلى أمريكا.

مُحال. أُخِذت مايا فتراجعت، وهي تقول: «الآن، هل سترحل الآن؟».

- بعد غدٍ.

طفت على نهر ذكرياتها، مدى فظاظة شخصيته. والكيفية التي شقَّ بها طريقه خلال الحرب ما بين اللعنات والتخويف. وسطوه على صالة سينما لسرقة جهاز العرض، الذي ما يزال حبيسًا في سقيفة حديقة أمها. تشبَّثت

بهذا الدليل على إجرامه. وقالت: «الوداع إذن. حظًّا موفَّقًا». ومدَّت يدها لتُصافح يده، اليدُ التي لم تُقطع، كأنما تقول: امضِ في طريقك أيها الشيء المقطوع، لا حاجة لي بك.

***

والآن، أخذت مايا تُحصي خسائر جوي، وتكوِّمها مقابل خسائرها. لقد فقد شقيقه في أثناء القتال، ثمَّ قُبض عليه بعد ذلك من قبل الجيش، وحين عاد اكتشف رحيل والده. لأشدُّ ما واساها قُرب هذا الرجل، هذا الرجل الذي تخطَّى ونجا من مصاير أشنع من مصايرها.

***

كانت هناك أكداسٌ من الصناديق في سقيفة الحديقة المُعرَّشة بألواح القصدير، مغطَّاة بالغبار وخيوط العنكبوت. ولمَّا كانت مايا تُنقِّبها، عثرت على تقريرٍ مدرسي من الصفِّ السادس. علاماتٌ متوسِّطة، وورقة ملاحظة من المُعلِّمة تشكو فيها أن مايا تتحدَّث كثيرًا، وتُقاطع الدرس مرارًا.

ظهر ظلٌّ قصيرٌ عند فتحة الباب المنفرج: إنه زيد.

- حسنًا، ها أنتَ ذا. لقد طلبتُ زيارتك بالأمس، أين كنتَ؟

- في المدرسة.

- حقًّا، أذهبتَ إلى المدرسة؟ وماذا علَّموك هناك؟

- اللغة الفرنسية.

- اللغة الفرنسية؟ يا لها من مدرسة رائعة! أموقنٌ أنها ليست واحدة من نسوة الطابق العلوي؟

هزَّ رأسه نفيًا، وأجاب: «كلا، بل كانت مدرسة حقيقية».

- وهل ارتديتَ القميص والسروال؟

كان يُمسك بشيءٍ خلف ظهره، وها هو يُبرزه الآن، حزمةٌ مُغلَّفةٌ بورقٍ بُنِّيٍّ. ثمَّ قال: «هذه من أجلكِ».

مزَّقت مايا الغلاف وفتحتها. كانت رُقعة لودو جديدة، مع قطعٍ ملونة وزوجين من أحجار النرد.

سألت مايا: «من أجلي؟ من أين حصلتَ عليها؟».

قال زيد: «ميرسي. هذه شكرًا لك باللغة الفرنسية».

ردَّدت مايا الكلمة: «شكرًا لكَ».

ثم أعادت الرقعة إلى زيد، وقالت: «لِمَ لا تُبقيها معك، وحين تودَّ اللعب، يمكنك إحضارها إلى الطابق السفلي؟».

قال زيد: «الآن يمكننا اللعب بحجر النرد».

مبتسمًا انسلَّ خارج فتحة الباب، ورقعة اللودو تستقرُّ على رأسه، فعاد ضوءُ الشمس إلى السقيفة. تابعت مايا رحلتها الاستطلاعية، وهي تُنقِّب في الصُحف القديمة، وعُلب الطلاء، وحقيبة بقايا الأسمنت، حتَّى عثرت على ما كانت تبحث عنه: جهاز عرضٍ سينمائي مسروق، ما يزال محفوظًا في حقيبته، والمفصلات تكسوها حُمرة الصدأ.

***

في يوم الجمعة، أتى جوي لاصطحاب مايا إلى الحفل. طرق على الباب، مبتسمًا، تفوح منه رائحة الصابون. حيَّته الأم بحرارة وهو ينحني ليُلامس قدميها تبرُّكًا، مقاطعةً برنامج «**دالاس**» لتستفسر عن أحوال والدته. عبقت سيارته برائحة الجلد الصناعي والكولونيا. أنزل زجاج النافذة، وأخرج مرفقه منها مسندًا إياه إلى قاعدة النافذة، أما اليد الأخرى فتستقرُّ برشاقةٍ على عجلة القيادة. وأخذت السيارة تشق طريقها عبر المدينة إلى جولشان.

سألها: «إذن لماذا انتقلتِ إلى القرية على أي حال؟».

تململت مايا في مقعدها. كانت قد قرَّرت ارتداء ساري قطنيٍّ بسيطٍ، والآن، مع الهواء الدافئ الذي يضرب سيارة جوي من كل حدبٍ وصوب، تجعَّدت طيات ساريها، وبدأ الندم يغزو قلبها. كان يجدر بها أنْ تُنصت إلى أمها، وترتدي ثيابًا أكثر أناقة، ربما ترتدي ساريًا حريريًّا أو من قماش الشيفون الشفاف.

أجابت مايا: «تغيَّرت الأمور سريعًا. ولم أُطق التحمل أكثر من ذلك».

كم بدا جوابها قاسيًا للغاية حين صاغته على تلك الشاكلة.

- وهل تخلَّيتِ عن تدريبكِ، عن كل شيء؟

- كنتُ على بُعد عامٍ واحد من إنهاء دراستي. ولهذا أكملتُ فترتي التدريبية في مشفى راجشاهي. ثمَّ أصبحتُ طبيبة قرية بسيطة. ولكن هذا ما

يحتاج إليه الناس هناك، يحتاجون إلى شخص لمساعدتهم في أثناء ولادة الأطفال.

استشعرت مايا الرغبة في الاستزادة، أن تحكي له عن عمليات الإجهاض التي أجرتها بعد الحرب، وأنها لم تُدرك إلا فيما بعد، في وقتٍ متأخر جدًّا، أنها كدَّست دينًا ما تزال تُجاهد لسداده. أنَّى له أن يعرف؛ لم يكن سوى جندي، نفَّذ عمليات قتل، هي في قاموسه مسألة مبدأ؛ لكن أطفال الحرب، نِتاج الاغتصاب، هي أمورٌ تُركت للأطباء الصغار، المتطوِّعين في خيمٍ بالية على أطراف المدينة.

كانت السيارة تقطع الطريق «روود 27» الآن، مارِّين بحقل «آباهاني فيلد». فاسترجعت ذكرى لعب الكريكت برفقة سهيل في ذلك الحقل، وهي تركض بين البوبيات مرتديةً بدلتها سلوار قميص.

- سبعُ سنوات، قضيتها جميعًا في راجشاهي؟

- ذهبتُ إلى تانجيل أولًا، لكنها لم تكن بعيدة بما يكفي.

أسرعت السيارة عبر طريقٍ واسع به نافورةٌ على إحدى جانبيه، وتمثالٌ تجريدي على الجانب الآخر. أرادت مايا أن تغيِّر دفَّة الحديث، فقالت: «إذن، ما جديدُ دكَّا؟».

- عن نفسي لم أمكث هنا فترةً طويلة. لكنها تبدو مختلفة، أليس كذلك؟

- ممم.

- لقد غيَّروا أرقام الطرق. لا بُدَّ أنكِ عرفتِ هذا بالفعل.

لقد عرفت هذا بالفعل. أُعيد ترقيم دانموندي. ولا يدري أحدٌ ما إذا كان عليه أن يُشير إلى شارعه بالرقم القديم أم الجديد. وهكذا يقولون: 13 قديمًا، 6A حديثًا. كما لو أن المرء يغصُّ بحبة دواءٍ حُشرت في حلقه. ربما يأملون ألا تحمل الأماكن القديمة مكانتها السابقة التي تحلَّت بها في قلوب الناس آنفًا؛ الشوارع التي شهدت مسيراتهم، والشوارع التي قطعوها وهم في طريقهم للإدلاء بأصواتهم. لم يعد الطريق «روود 27» هو الشريان الذي اقتحمه الجيش بدباباته. ولم يعد الطريق «روود 32» هو الشارع الذي شهد مقتل مجيب الرحمن، حيث سقط رأسًا على عقب على بيت الدرج في منزله، وغليونه يفترش الأرض المُرقَّطة مثل بقع الشطرنج، وبقعُ الدم تتراكم حول بعضها وتصبغ شعره. كلا، ما عاد باستطاعتك أن تقول: لقد حدث الأمر في

«بوتريش نومبر» بل بات عليك أن تقول: لقد حدث الأمر في الطريق «روود 26A»، طريقٌ جديد لم يُقتل فيه إنسيٌّ، لا رجل ولا زوجته، ولا كِنَّاته، ولا شقيقه، ولا أبناء شقيقه أو شقيقته، ولا حُرَّاس مرافقون، ولا سائقون، ولا حُرَّاس بوابات. والرمز «26A» ليس من الأرقام التي باستطاعتك أن تنسبها إلى هؤلاء الوفيات، فقد كان الرقم مُتصلٌ بحرفٍ من الأبجدية الإنجليزية، كما هو الحال. بلى، عرفت أنهم غيروا الأرقام.

خيَّم صمتٌ مُطبق على بقية الرحلة، وعينا مايا تتبعان الطريق بينما كانت السيارة تمُرُّ بالمطار القديم، ثمَّ المُخيَّم، وضاحية «موهاكالي» بمبانيها الإدارية ومصانعها الجديدة. وأخيرًا، انعطفت السيارة إلى جولشان، حيث تبدو قطعُ الأراضي الزراعية ضعفي ما هو معهود في دانموندي، والسيارات تتراص في الشوارع؛ حيث أضفى الديكتاتور أيضًا لمسةً طفيفة.

***

كانت وجنتا شوتو ورديتين برَّاقتين.

- يا الله! هل أرى شبحًا!

وضع ذراعًا حول جوي. ثمَّ تابع:

- أين وجدتها؟

أجاب جوي: «شهيد منار. كُنَّا نشعل الشموع».

انفجر شوتو في ضحكةٍ هادرة تشبه زمجرة سيارة مستعملة، وقال: «دومًا تبحثان عن المتاعب، يا أصدقاء. اقبلي يا مايا، تفضلي بالداخل. ستصلبني سايما إن استأثرتُ حديثكِ لنفسي».

قادهما عبر طرقات المنزل، وأرجاء الحديقة، التي زينتها أضواءٌ ساحرة، ومنها إلى سُرادق أصفر كبير.

قدَّمت امرأة ترتدي ساريًا من الشيفون الأزرق مشروبًا إلى شوتو. فقال الأخير وهو يشير إلى الحضور بكأسه: «أيها الأصدقاء، هذه مايا، صديقة قديمة من أيام حرب التحرير».

التفت قلَّةٌ من الأصدقاء واستقبلوها بإيماءة تحية. ثمَّ قال شوتو: «ماذا ستشربين يا مايا؟ صودا؟ كأسُ نبيذٍ صغيرة؟ (أخفض من صوته) ويسكي؟ سيأتي إليكِ بول بأي شيءٍ تُحبينه».

ظهر رجلٌ إلى جانب شوتو، يرتدي بذلةً وزوجين من القفازات البيضاء.

قالت مايا: «عصير؟».

هزَّ شوتو رأسه خائب الأمل، وأشار إلى جوي. تطلَّع الأخير إلى مايا، ونظَّف حلقه، ثمَّ قال: «عصيرٌ لي أنا أيضًا، شكرًا لكَ».

قال شوتو مازحًا: «يا نذل. أتُسيءُ من مظهري».

سأل النادل: «أناناس، مانجو، طماطم، تانج».

سمعت مايا صياحًا، فاستدارت لتجد سايما تسير نحوها متمايلةً يمنة ويسرة، وهي تحمل طفلًا سمينًا بين ذراعيها.

قالت سايما: «سأقتلكِ، سأقتلكِ في الحال. تعودين إلى المدينة، ولا تُهاتفينني؟ وأنتَ يا جوي، لم تُخبرني أنكَ ستُحضرها إلى الحفل، أظننتَ أنكَ ستجعل الأمر مفاجئةً لنا، أنتَ أيها الفتى الشقي. **يا إلهي!** لا أُصدِّق ما يحدث!».

مرَّرت الطفل إلى النادل، وأخذت وجه مايا بين يديها، ثمَّ أردفت: «أرني أنظرُ إليكِ. الحمد لله، لم تتقدَّم بكِ السِّنُّ يومًا، أيتها المرأة القاسية المتوحِّشة. انظري إليَّ، أشعر أني عجوزٌ شمطاء منكمشة مقارنةً بكِ».

هزَّت مايا رأسها استنكارًا، وردَّت إليها الإطراء، مأخوذةً بالساري اللامع الذي تمنطقت به سايما، وخصلات شعرها المصفَّفة بعناية التي تنسدل مثل الأهداب على وجهها. أخذ الحضور يُحدِّقون الآن؛ فالتقطت سايما يد مايا وشرعت في جولةٍ تعريفية بها للضيوف الآخرين. بيد أن المرأة ذات الساري من قماش الشيفون الأزرق تُدعى لقلي؛ وزوجها، الذي يُدعى بينتو، كان رجلًا ضئيل الحجم كثير العَرق، يرتدي قميصًا أبيض.

قالت سايما: «هؤلاء هما خالد وميني، يعيشان في المنزل المقابل. وهؤلاء هما شقيق خالد، سُبحان، وزوجته، دورا. تخبز دورا أشهى الكعكات، بالشوكولاتة والفانيليا والليمون؛ مذاق كعكة الليمون من الجنة».

تأبَّطت دورا ذراع زوجها، ومنحت مايا ابتسامةً رقيقة دامعة. تساءلت مايا عمَّا حدث لأصدقائهم القدامى، هؤلاء الأصدقاء ذوي المظاهر الرثة بعض الشيء، الذين ارتادوا معهم المدرسة، ثمَّ فرَّوا إلى الحرب. حدَّثت مايا نفسها: أتُعاير الطنجرة إبريق الشاي بما فيه؛ هي أيضًا لم تُحافظ على علاقاتها

القديمة. استشعرت مايا يد سايما ناعمةً رطبة وهي تقودها من ضيفٍ إلى آخر. كانت تبتسم هنا وهناك وفي كل موضع، تاركةً بقعة من أحمر الشفاه على أسنانها الأمامية. ثمَّ قالت: «أريد أن أعرف كل شيء. وأعني كل شيء. سأُلقي نظرةً على الطعام أولًا، ثمَّ أعود إليكِ. سيحدثون الفوضى بالمكان لو لم أُشرف على كل شيء».

جثمت مايا على حافة كُرسي مُحكم التنجيد. واستشعرت ضيقًا جرَّاء متلازمة سايما «الحمد لله»؛ فيما مضى كانتا تضحكان وتسخران من الناس الذين يذكرون الله بين جملةٍ وأخرى. أمَّا الآن، بيد أنها متلازمة تفشَّت في الجميع؛ ففي ذلك الصباح خرجت إلى بائع الخضراوات، وبعدما دفعت له ثمن بضاعته، واستعدت للرحيل، قال لها باللغة العربية «الله حافظ».

أجابته بحِدَّة: «ما المشكلة في عبارة التحية القديمة؟ أترى أن «الرب يحفظك[1]» ليست دينية بما يكفي؟».

فجرف الرجل البهجة من على صفحات وجهه، وأعاد إليها مالها، ثمَّ قال بهدوءٍ: «من فضلكِ، اشترِ خُضرِكِ من مكانٍ آخر».

صفعت الذكرى وجنتَي مايا فاحمرَّتا غضبًا. والآن سيتعيَّن عليها أن تسير طريقًا طويلًا حتَّى ميربور روود إذا أرادت أن تبتاع شيئًا. جابت الغرفة بناظريها؛ لفتت لقلي انتباهها ولوَّحت إليها. فلوَّحت إليها مايا بدورها. أين هو جوي؟ ازدادت تجعيدات ساريها عن القليل السابق، وانتفخت طيَّاته في صورةٍ منعدمة الجاذبية حول أردافها. ربما يمكنها الذهاب إلى المرحاض وهندمة مظهرها قليلًا. تقدَّمت مايا بخطواتها عائدةً إلى المنزل، ثمَّ اتخذت رواقًا واسعًا تصطف على جانبيه اللوحات، وقليلٌ من المصابيح المُثبَّتة إلى السقف تُركِّز ضوءها على كل لوحة على حدة. وجدت مايا نفسها أمام لوحةٍ زيتية لمنظر ريفي: سنابل أرزٍ صفراء لامعة، وفلاحون، بكحولٍ مغروسةٍ في الأرض، وعضلات منتفخة ومستديرة، يعملون في الحقول. لم تُشبه اللوحة هؤلاء الناس الذين عاشت بينهم طوال السنوات الماضية في شيء؛ هناك، يغلب على الرجال -الذين يعملون في حقول الأرز- النحافة والعُجف عن الامتلاء، والعمل والجوع ينحتان لحم أجسادهم نحتًا.

---

(1) كُتبت العبارة باللغة البنغالية، وهي Khoda Hafez. (المترجمة)

لمحت مايا امرأةً ترتدي سروالًا من الجينز، وقميص كورتا زاهي اللون، تُحدِّق إلى لوحةٍ أخرى من لوحات شوتو. قالت مايا، في محاولة منها لتبدو ودودة: «مرحبًا».

تطلَّعت إليها المرأة من أعلى لأسفل، مأخوذةً بساري مايا البسيط، ويداها تتشابكان معًا في توتر. ثمَّ قالت: «أرى أنكِ لا تستمتعين بالحفلات الصاخبة».

- الصخب لا يليق بي البتَّة.

- ولا أنا أيضًا. لكن زوجي أصرَّ أن نحضر.

- أنا صديقة قديمة لسايما. مايا حق.

- وأنا أديتي. أوه، مهلًا، لقد أخبروني عنكِ. أنتِ الطبيبة المناضلة.

ابتسمت مايا، مستمتعة بما قالته رفيقتها، ثمَّ قالت: «أهكذا يسير الأمر، الجميع يمزحون؟».

- في الغالب. هل كنتِ مسافرة؟

- شيءٌ من هذا القبيل.

- في الحقيقة لا يمكنكِ لومهم. لا بُدَّ وأن يحظوا بالمتعة والبهجة. مَن يريد أن يتذكَّر الأيام الخوالي؟

وعادت المرأتان أدراجهما إلى الحفل معًا.

آن أوان الموسيقى، وشرع قلَّةٌ من الحاضرين في الرقص، يُميلون أردافهم يمنة ويسرة، وكؤوس الشراب تتأرجح في أيديهم. أخذوا يدفعون بعضهم، وأطراف أصابع الواحد منهم بالكاد تُلامس ظهر من يسبقه. وجدت مايا جوي وشوتو في ركنٍ من الحديقة، يتبادلان حديثًا بشأن مشروعٍ تجاري.

قال شوتو: «إذن، ما رأيكَ يا صديقي، أتودُّ المجيء معنا؟».

أجابه جوي: «لم أُقرِّر بعد».

مال شوتو مقتربًا من جوي، وربت على صدره، وهو يُطمئنه: «لا تقلق. كل هؤلاء الحثالة من الناس يكسبون المال في هذه البلاد، وما من سبب يمنعنا من الالتحاق بالمنجم. صحيح يا مايا، ألا تتفقين معي؟».

أجابت مايا: «بلى، ولِمَ لا؟».

ألقت مايا نظرةً خاطفة على جوي، الذي كان يتطلَّع إليها بدوره. تذكَّرت ساعتها أن والده كان يملك مغازل ألياف القنَّب في إقليم كولنا. فأكملت حديثها: «اصنع ما شئت من المال. لكنك لن تُصلح شيئًا».

- سنترك أمر الإصلاح إلى الأطباء. والساسة.

- أتترك أمر الإصلاح إلى الآخرين، وتترك البلاد تغوص في أعماق الجحيم؟

أجاب شوتو: «مهلًا يا مايا! أنتِ دومًا ما تأخذين الأمور بجدِّيَّة صارمة. إننا جميعًا نتقدم في العُمر، أليس كذلك، دعينا نُمتِّع أنفسنا قبل أن نموت، هذا ما أقوله».

ثم رفع كأسه، فارغةً إلا من بضع مكعباتٍ من الثلج. رمقت مايا جوي بنظرة فزعة، منتظرةً إياه أن يُدير عينيه في محجريهما ليتطلَّع إليها، ويُعلن لها بنظرته تواطؤه معها وموافقته على جوابها، عدا أنه أبقى على تحديقه في الفراغ أمامه دونما أي انفعال.

أقبلت إحدى صديقات سايما -مولي أو دوللي أو شيء من هذا القبيل- ولكزت ذراع مايا، ثمَّ قالت: «مرحبًا».

بدت المرأة، وهي محشورةٌ بإحكام داخل بلوزةٍ بلا أكمام، مثل كومةٍ متراصَّة من أُطر الدراجات.

حاولت مايا ألا تُحدِّق إلى شحوم رقبتها المترهلة وهي تُجيبها: «مرحبًا».

قالت المرأة: «إذن أنتِ صديقةٌ لسايما؟».

- أجل، صديقةٌ من المدرسة.

حملقت المرأة من كثبٍ في وجه مايا، فحدَّقت إليها الأخيرة بدورها.

سألت المرأة: «هل أنتِ متزوِّجة؟».

- كلا.

- ألا تريدين الزواج؟

- لا أظنُّ ذلك. أعني، لا أدري، لم أُفكِّر في الأمر من قبل.

غاصت عينا المرأة في أسبار مايا، ثمَّ قالت وهي تأخذ بذراع مايا: «ستأتين معي. لتلتقي بأخي. صادق. إنه مُحاسبٌ قانوني».

انسحبت مايا مبتعدة، وقاطعتها: «آه، لا، شكرًا لكِ».

أحكمت المرأة قبضتها بسرعة وهي تقول: «إنه رجلٌ صالح وخليق للغاية. تحبُّه جميع الفتيات. لكني أريد فتاةً بسيطة وصريحة، ولكن ليس كثيرًا، أتفهمين ما أعنيه؟ فتياتُ هذه الأيام. تعالي، تعالي، ما الضرر؟».

اقتربت سايما وأحاطت كتفي مايا بذراعها. ثمَّ قالت: «إذن لقد التقيتِ بصديقتي. أتعلمين، إنها صديقةٌ فريدة من نوعها. ليس لأنها طبيبةٌ فحسب، بل لأنها تُغنِّي أيضًا، غناء أعذب من عندلة العندليب، إنها كذلك. في الواقع يا مايا، ألن تُغنِّي شيئًا من أجلنا، أغنيةً بسيطة فحسب؟».

ابتهجت المرأة البدينة، عدا أن مايا هزَّت رأسها نفيًا. ثمَّ أجابت صديقتها: «لقد انقطعتُ عن الغناء منذ وقتٍ طويل».

انتبهت سايما لِمَا يحدث، فقالت: «أرجو ألا تُمانعي، سأحتفظ بصديقتي قليلًا».

ثمَّ ضحكت وصحِبت مايا نحو مائدة الطعام، وهي تُتابع موجهةً حديثها إلى الأخيرة: «لا تقلقي حيالها، إنها لا تؤذي».

فُرشت مائدةٌ طويلة على امتداد الحائط الخلفي للحديقة. وراح رجالٌ يرتدون ستراتٍ بيضاء يُقدِّمون خبز الروتي الملفوف طازجًا، إلى جانب أطباق الكباب. وعلى الجانب الآخر من الطاولة، تستقرُّ أطباق البرياني، ولحم الضأن المُتبَّل بالكاري، وشرائح السمك، والسلطة، التي تُكمل الوليمة.

***

كان قد مرَّ يومٌ، بُعيد انتهاء الحرب، حين كانت مايا تستقل عربة ريكاشة تعبر واحدًا من الطرق الجديدة في دانموندي. كانت البحيرة هادئة، والسماء صافية بلا غيوم، وأشعة الشمس تلسع الجلود والأجسام. كانت المنازل في عام 1972 في ضاحيتها شحيحة مُتفرِّقة؛ مروجٌ شاسعة ومساحات مفتوحة تفصل بين قطعة أرض وأخرى. ولمَّا أوشكت عربة الريكاشة على الانعطاف إلى الطريق 13، رأت مايا سيدةً تجثم على مرجٍ أمامي. راقبت المشهد حين أمسكت المرأة بملء يدها من العشب ودسَّته سريعًا في فمها، وعيناها تدوران في محجريهما هنا وهناك. ورغم ما شهدته مايا حينذاك من كل ألوان البؤس والشقاء، طوال شهور الحرب والصيف الذي تلاها، حين هلكت حقول الأرز، وفاضت المدينة بساكنيها، يحملون آثار الجفاف حول شفاههم؛ كانت تلك

المرأة، التي لمحتها تحت وهج الصيف المُسعَّر، وساريها الذي يسقط حول جسدها مثل أجنحةٍ حامية لمخلوقٍ مُنقرضٍ منذ وقتٍ بعيد، كانت تلك المرأة هي التي رافقت أفكارها دومًا، وعجزت مايا عن التخلص من الشعور بأنهم جميعًا على شفا حفرةٍ من الجثوم على مروجهم لتُرضعهم الأرض ذاتها ممَّا يخرج من بطونها.

***

وجَّهت مايا حديثها إلى سايما قائلة: «يجدر بكِ المجيء لزيارة راجشاهي. يمكنكِ رؤية الكثير من مظاهر الريف».

زفرت سايما تنهيدةً مثقلة، وأجابت: «آه، كم أودُّ ذلك. يا لها من حياةٍ تلك التي عشتها هناك. إن حياتي حافلة، حافلةٌ للغاية. ثمَّة الكثير ممَّا عليَّ فعله هنا. لم ينتهِ بناء البيت وتجهيزه بعد، ما يزال الطابق العلوي بحاجةٍ إلى الطلاء. ودورات المياه غارقةٌ في الفوضى. والحرفيون والعُمَّال، عليكِ مراقبتهم من كثب».

أومأت مايا، مشتَّتة الذهن بما تُقدم عليه سايما من العبث بالطعام في طبقها دون أن تتناول منه شيئًا.

أكملت سايما شكواها: «لا يمكنني حتَّى العثور على خادمات جيدات بعد الآن، ولا يُطيق الأطفال خالتهم، عدا أنها على الأقل ليست سارقة، كالخادمة الأخيرة. يكفي الحديث عنِّي. أخبريني، كيف هو الحال، كيف هي العودة إلى الديار بعد كل هذا الوقت؟».

أجابت مايا: «انقضى الشعور سريعًا. فقد توفِّيت زوجة سهيل، كما تعلمين».

- كلا، لم أعلم بالأمر. إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون. لم نره منذ وقتٍ طويل. بيد أنكما اختفيتما معًا في الآن ذاته.

لم تُعجب مايا بالمقارنة. لكنها تمكَّنت من الجواب: «إنه يعيش بالطابق العلوي، ولديه الآن ابنٌ».

- ماذا حدث له؟

نقَّبت مايا عن الكلمات الصحيحة، لكنها عجزت عن العثور عن أيها. لم تُدرك يومًا أنَّى لها أن تقُصَّ حكاية تحوُّل سهيل، كيف تحوَّر من رجلٍ عادي

إلى رجلٍ تقيٍّ. كم تمنَّت لو باستطاعتها أن تكون صادقةً صريحة مع المرأة التي كانت يومًا صديقتها. فمنذ وقتٍ بعيد، كان بإمكانها أن تُخبر سايما أن كل ما يحدث يثير حنقها، لوحةُ الفلاحين، وكثرة الطعام على طاولتها، والطريقة التي أرخت بها السيدة ذات ساري الشيفون الأزرق يدها على ذراع شوتو. بلى، لم يعد الأمر كذلك.

اقترب جوي منهما، وهو يمسح يديه في محرمةٍ قماشية. ثمَّ قال: «عشاءٌ لذيذ يا سايما. أنتِ موهوبة بقدر ما أنتِ جميلة».

فاجأه شوتو وهو يصفعه بقوةٍ على ظهره: «أتُغازل زوجتي؟ حسنًا على أحدهم أن يفعل، فأنا لا أملك الوقت لارتداء ثوب المغازلة، مشغولٌ للغاية في جني الأموال حتَّى تظلَّ المرأة في جديدٍ من السواري والأقراط».

ابتسمت سايما، وانبسط وجهها ثمَّ انقبض.

علَّق جوي: «من الأفضل لكَ أن تأخذ حذرك. إن زوجتك جميلةٌ وبطنكَ يزداد اتساعًا يومًا بعد يوم».

- الزوجة تغدو وتروح يا صديقي، لكن لساني لا يخضع لأي امرأة.

عند تناول الحلوى -كعكة الفاكهة المصنوعة من الأناناس والخوخ المُعلَّب- اقتربت المرأة التي تُدعى أديتي من مايا مجدَّدًا، وسألت: «هل تناولتِ طعامكِ؟».

- أجل، طعامٌ لذيذ.

- دومًا ما تطهو سايما طعامًا يكفي لإطعام جيشٍ. (وخفضت من صوتها) لأكون صريحة معكِ، أنا أُفضل طبق الأرز بحساء العدس عن أطباق البرياني تلك في أي وقت.

أجابت مايا: «وأنا أيضًا».

- ربما تودِّين اللقاء بأُناسٍ آخرين يُفضلون الأرز بالعدس.

- تقصدين أُناسًا قدماء قِدم الديناصورات، عالقين في الماضي؟

- صحفيُّون.

بدت مايا متشككة، وهي تُجيب: «تقصدين أُناسًا يقولون لنا إن الديكتاتور قائد عظيم؟».

- لسنا جميعًا متشابهين.

وكتبت المرأة عنوانًا على قصاصةٍ من الورق، ثمَّ أضافت: «تعالي لزيارتنا».

طوت مايا قصاصة الورق في راحة يدها، شيءٌ يُعارض طبق البرياني الذي أعدَّته سايما، ومتلازمتها الجديدة «الحمد لله».

***

عانقتها سايما بشدة، وهي تقول: «هاتفيني. ما هذا الذي أقوله، إنكِ تلعبين دور امرأةٍ صعبة المنال. سأهاتفكِ أنا. سأهاتفكِ غدًا. وسنتناول الغداء معًا. آه، وبلِّغي محبتي إلى والدتكِ. غدًا، حسنًا؟ لا تنسي».

***

أمِلت مايا لو أن جوي يُعرض عن الحديث في أثناء عودتهما إلى المنزل. كان ساريها في حالة مزرية تمامًا، وهكذا أقلعت عن فكرة هندمته، ورفعت قدمها على المقعد، وتركت الطيات تنبسط على حجرها. أما حالها، فالليل يُصيبها بالاضطراب والقلق. استرجعت في ذهنها مدى حماسة سايما وبهجتها حين رأتها، ومدى عزم هؤلاء القرويين في راجشاهي على التخلُّص منها. بيد أنها تُحلِّق في غياهب النسيان. تشعر بنفسها تتأرجح بين الكهولة والصبا. قبيحة. عانسٌ قبيحة تتمنطق بساري قبيح. ومع أنه سيسهل استرجاع الذكرى مرَّة أخرى؛ سينسى الجميع بشأن هذا اللقاء الغريب، وستأتي أوقاتُ أصيلٍ أخرى تقضيها بصحبة شوتو وسايما، وهي تُؤرجح ساقيها على كُرسي ذي مسند. وربما تُقنعهما بشأن الحديث عن الماضي، عدا أنهما غالبًا ما سيتحدَّثان عن بعضهما وعن الأشخاص الذين يعرفانهم، ويثرثران ويتذمَّران من حرارة الطقس. تمنَّى جزءٌ ما بداخلها أن تُقدم على الأمر، لكنها تُدرك أنها لن تفعل. أكان جوي يُفكِّر في الأمر ذاته، حين كان يقلُّها إلى المنزل في صمت؟ لم تأبه للأمر. فهو لم يُسرع مطلقًا للدفاع عنها. كان فعلها اليوم خطأً، وتقصد بذلك حضور هذا الحفل. أخطأت مايا حين ظنَّت أنها قد تعود إلى المنزل وكل شيءٍ على حاله كما هو قبل أن تخرج إلى الحفل.

***

حاولت أن تنسى أمر الحفل. وشغلت نفسها بمراقبة الغادي والرائح من الطابق العلوي وإليه. عرفت أن المرأة البدينة تُدعى خديجة، وأنها ابنة مُزارع

ثري في سيلهت، وأنها تولَّت إلقاء الخُطب بعد رحيل سيلفي. على مدار مرتين يوميًّا، يصل حشودٌ من النسوة، ويُكدِّسن أنفسهن في غرف الطابق العلوي. وتتناثر الأقاويل عن وجود جماعاتٍ من بلدانٍ بعيدة مثل إيطاليا وكوبا.

يدقُّ جرس الهاتف في الكوخ الصغير في الرابعة من بعد ظهيرة كل يوم، وتجلس امرأةٌ شابَّة من الطابق العلوي بانتظاره. عادةً ما تأتي قُبيل دقائق قليلة وتحوم عند عتبة الباب، تخلع حذاءها وتفرك أصابع قدميها المغطَّاتين بالجوارب في أرضية الغرفة بتوتر.

وحين يدقُّ جرس الهاتف، تكون مستعدَّة لتُجهز عليه، عدا أنها تُفضِّل الانتظار حتَّى يأتي أحدهم من المطبخ ليُجيب الهاتف، وحين تُعلن مايا أو ريحانة هويةَ المُتلقِّي، تقبض على الهاتف بكلتا يديها. ثمَّ تجثم على الأرض وتتحدَّث همسًا. لا تستمرُّ المحادثة سوى دقائق قليلة قبل أن تُغلق الفتاة الخط، وتمضي في عُجالة عائدةً إلى الطابق العلوي.

استنتجت مايا هذه المعلومات البسيطة: فتاةٌ تتحدَّث همسًا إلى الهاتف، وصبيٌّ يحمل الماء في سطلٍ.

***

أعدَّتا الرقعة الخاوية من الحافة الغربية للحديقة. كان موقعًا مثاليًّا، تهيم به الرياح التي تهبُّ باتجاه الجنوب، وتحميه من أشعة الشمس شجرةُ جوز الهند الراسية فوقه. جثمت الأم على الحفرة التي أحدثتها مايا من قبل، وحلَّت حقيبة الظهر المصنوعة من ألياف القنَّب، ومرَّرت أصابعها على الجذور الدقيقة للشجرة اليافعة. ثمَّ همست بصلاةٍ، ونفخت بالهواء على الشجرة برفقٍ، ثمَّ قالت الأم: عسى أن تؤتي ثماركِ طويلًا. ثمَّ ساعدتها مايا في إغلاق الجرح الذي أحدثته في الأرض، ومعًا سكبتا القليل من أكواب الماء على الرابية الصغيرة.

قالت مايا فجأةً: «أمي، أظنُّ أن صوفيا تسرق منِّي».

أدارت الأم رأسها المنتصب، وهي تُجيب: «من أين أتيتِ بهذه الفكرة؟».

- هناك بعض الأوراق النقدية المفقودة من حقيبتي.

وضعت الأم إصبعًا على فيها، وقالت: «صمتًا. قد تخرج من المطبخ وتسمعكِ».

- لو أنها سارقة، ما يجدر بي أن أتكلم همسًا حيال الأمر.
- إنها تُرافقني منذ ست سنوات، ولم تأخذ كسرة خبزٍ حتى.
- حسنًا، ربما تضمر شيئًا في نفسها مني.

قالت الأم: «لا تكوني سخيفة. لِمَ لا تبحثين مجدَّدًا؟ ربما أخطأتِ عَدَّ النقود».

بدت أمي واثقةً تمام الثقة ممَّا تقول، فأجبتها: «أظنُّ ذلك. ربما».

***

اكتشفت مايا واحدًا من صحفها الطبية القديمة في سقيفة الحديقة؛ إصدارٌ من صحيفة «لانسيت» يعود إلى العام 1960؛ تذكَّرت حصولها عليه من أكشاك بيع الكتب المستعملة في نيلكت بُعيد الحرب. قرأت عنوانًا: «الأسباب الشائعة لعدوى العينين في الشباب». وفجأةً، سمعت مايا صوت شجارٍ، تبعه صوتُ أمها تقول بصوتٍ خفيض جاد: «هذه ليست المرَّة الأولى يا بُني». أغلقت مايا الصحيفة وسارت على أطراف أصابعها برفقٍ نحو المطبخ. صوتُ ارتطامٍ ثقيل. ثمَّ وجدت مايا أمها تقف أمام زيد، ويدها في الهواء.

استدارت الأم ورأت مايا. فقالت: «مايا، اذهبي من فضلك».

كان زيد يُمسك بطبقٍ في إحدى يديه، وحول قدميه تتناثر بقايا طبقٍ آخر. رفض زيد أن يلتقي بعيني مايا، ووقف منكِّسًا رأسه. تابعت الأم: «مايا، قلتُ اذهبي من فضلك، سأتولَّى أنا هذا الأمر».

انسلَّت مايا إلى الخارج، وهي تطرف بعينيها تحت أشعة الشمس الحارقة. لاحقًا، كانت الأم تعبر الشرفة بزوجين من القباقيب البلاستيكية، ووقعُ قدميها يشبه صوتَ الصفعات.

قالت الأم: «كان هو. كان هو مَن أخذ المال».

وسلَّمت مايا القليل من الأوراق النقدية، وهي تُضيف: «هاكِ، خذي هذه».

كانت يدا الأم ترتعشان، وقطراتُ العرق اللؤلؤية تنزُّ على امتداد خط شعرها.

- من فضلكِ يا أمي، ليس بالأمر المهم.
- إنه يسرق، ويكذب. لا أدري ماذا عليَّ أن أفعل.

تذكَّرت مايا رقعة اللودو، التي كانت جديدة على نحو يثير الريبة. ثمَّ أردفت مايا: «لقد توفِّيت أمه لتوِّها، وأراه يُحاول التأقلم».

هزَّت الأم رأسها نفيًا، وقالت: «الأمر ليس كما تظنِّين».

- هل تضربينه؟

هزَّت الأم رأسها نفيًا، ثمَّ أجابت: «إنَّ له نزعةً حادَّة. قبل أشهر قليلة، أشعل النيران في الستائر. وظننتُ أن المنزل سيحترق عن بكرة أبيه».

***

في الأسبوع التالي، وقفت ريحانة تُقلِّب أقراص خبز الروتي، حينما كانت مايا وزيد يجثمان على زوجين من كراسي القدمين، في انتظارها لتنتهي من قلي الخبز ثمَّ تُمرِّره إليهما. وراح غرابٌ يحوم بعيدًا عن مساره على الحائط المرتفع خارج نافذة المطبخ.

سأل زيد: «لِمَ لا ينتعل حذاءً؟».

أجابته ريحانة متسائلة: «أتقصد الغراب؟».

أجابت مايا: «لأن له مخالب. وعلى أي حال، الطيور لا تحتاج إلى الأحذية، لأن لديها أجنحة».

وحدَّثت نفسها: «كنتِ لتودِّين زوجين من الأجنحة، أليس كذلك؟».

ثمَّ أضافت بصوتٍ مسموعٍ بعد ذلك: «أتعرف حروف الهجاء؟».

غمغم زيد مُجيبًا، وهو يلوكُ خبز الروتي في يده باهتمامٍ شديد: «ألف، باء، تاء، ثاء».

- ليست اللغة العربية، أقصد البنغالية. هل تعرف أحرف الـ«كا» و«الخا»[1]؟

مزَّق قطعةً أخرى من الخبز بأسنانه، ثمَّ قال: «كلا».

- أتعرف تلك اللغات كلها، ولا تعرف حروف هجاء لغتك الأم. سأُعلِّمك.

أعلن زيد: «عليَّ الذهاب».

---

(1) تقصد بها الحروف الساكنة الأولى في حروف الهجاء للغة البنغالية. وما ذُكر أعلاه هو نطقها كما هو وارد في اللغة المعنية. (المترجمة)

واندفع مغادرًا المطبخ، وهو يتجاوز سمك الروهو المطروح على الأرض، مُفرَّغ الأحشاء، بعينين زجاجيتين فارقتهما الحياة.

ملأ زيد سطله بالماء، وساعدته مايا على دفعه عبر الدرج. وفي الأعلى، اكتشفت أن اليوم هو يوم الغسل؛ ثلاث حزمٍ من البراقع السوداء، وجلبابٌ أبيض مُعلَّق بينها مثل علم الاستسلام. كانت ريحانة قد أخبرت مايا أن نسوة الطابق العلوي يُجففن ملابسهن الداخلية في أثناء الليل، ويرفعنها عن حبل الغسيل قبل صلاة الفجر عند بزوغ النهار. بيد أن الأمر فعالٌ في ليالي الربيع الحارَّة تلك، لكن ربما لا يُجدي نفعًا في ليالي الشتاء. بعثها مُجرَّد التفكير في غرفةٍ ممتلئة بدُبُرٍ غارقة في البرودة، على الغرق في ضحكٍ صاخب.

قالت مايا لزيد: «تعالَ إليَّ غدًا. سنتعلم «الكا» و«الخا»».

بدا لها مذبذبًا في تفكيره، وعصر جفنيه معًا.

في اليوم التالي، حين كان ما يزال راغبًا عن تكرار أسماء الحروف، قالت مايا: «أتعرف إنني اعتدتُ العيش في قرية، وأعرف الكثير من الصبية لم يتعلَّموا الحروف الساكنة الأولى بعد».

- كبارًا في مثل عمري؟

- بل أكبر من عُمركَ.

كان دائم الحركة، يحكُّ أذنه، ويُقحم إصبعه في إحدى فتحتي أنفه، ثمَّ في الأخرى، ويضرب بقبضته صفًّا من النمل الأحمر يعبر الحديقة مُحطِّمًا إياه. وفي النهاية قال: «أريد الذهاب إلى المدرسة».

أجابته مايا مثيرةً سخطه: «حاول مجدَّدًا. «كا»».

تجاهل حديثها، وضغط بإبهامه على الأرض، مغتالًا نملةً واحدة في المرَّة.

عزمت مايا على تجربة مسلكٍ آخر، فقالت: «أتذكر ذلك الغراب الذي رأيته بالأمس؟».

- ممم.

يضغط بإبهامه، فيسحقها؛ يضغط بإبهامه، فيسحقها. ثمَّ تابع مضيفًا: «الغراب الذي لا ينتعل حذاءً؟».

وجد زيد نملةً تتبختر على ذراعه، فسحقها بين أصابعه.

أردفت مايا: «أجل، الغراب الذي لا ينتعل حذاءً. ألا تريد أن تعرف كيف تتهجَّى كلمة «غراب»؟ يمكنك أن تكتب له خطابًا، وتسأله عن حذائه».

- الغربان لا تقرأ الخطابات.

استلقت بظهرها على العشب، مهزومةً مدحورة، ثمَّ قالت أخيرًا: «حسنًا، أنتَ محقٌّ».

كرر قائلًا: «أريد الذهاب إلى المدرسة».

كان سطله ممتلئًا بالماء. فتركته مايا يحمله إلى الطابق العلوي بمفرده هذه المرَّة، متظاهرةً بعدم إحصاء الدقائق الموغلةً في الطول التي استغرقها لقطع السلالم، أو ترشاش الماء الكبير الذي سقط على جانبي السطل في الطريق، مذبذبًا ذرات الغبار الساكنة في ممر السيارة بالأسفل.

***

ظلَّا يلعبان اللودو بعد ظهيرة كل يومٍ تقريبًا. وذات يومٍ، كانتِ مايا ممسكةً بقطعة اللودو الحمراء، حينما قالت: «يمكنني الجزم بأنك تغشُّ في اللعب... أمي، هل رأيتِ ما يفعله هنا؟».

أجابت ريحانة: «أجل. يا بُني، لقد تحرَّك مربعًا إضافيًّا».

- أترى، إن جدتكَ توافقني الرأي.

قال وهو يعقد ذراعيه فوق صدره: «حسنًا، أعيدي القطعة إذن».

سألت مايا: «وماذا عن حروف الهجاء؟».

هزَّ رأسه نفيًا، وقال: «عليَّ الذهاب».

ورفع لوح اللعب، تاركًا قطع اللودو تتناثر على الأرض.

قالت مايا بعدما رحل، وهي تجمع الأقراص المستديرة: «أمي، ثمَّة شيءٌ أودُّ أن أطلبه منكِ».

- بالطبع يا بُنيَّتي.

- إنني أُفكِّر في أمر زيد. أتذكرين ذلك اليوم الذي ذهبنا فيه سيرًا إلى بائع الخضراوات معًا، وأخذ زيد يتصرَّف بغرابة. ثمَّ جاءت حادثة السرقة. بشأن كل هذا، لا يسعني سوى التفكير في أمرٍ وحيد، وأظنُّ أننا لو أقدمنا على فعله، فسينجح الأمر. أودُّ أن أُلحقه بالمدرسة.

أومأت الأم بإيجاب، كما لو أنها كانت تتوقع الحديث في الأمر. ثمَّ قالت: «هذا صحيح، إنه يتحدَّث عن المدرسة».

- لقد حدَّدتُ موعدًا مع ناظرة المدرسة التي تقع في نهاية الشارع. وقالت إنها ستضعه تحت الاختبار، وإذا اجتازه، فسيتمكَّن من البدء في يناير المقبل.

طوت الأم رقعة اللودو، ومرَّرتها إلى مايا، ثمَّ أجابت: «لقد خضتُ هذا الحديث مع شقيقكِ مرارًا وتكرارًا يا مايا».

- لكنه لا يمكث في المنزل أبدًا؛ ولن يُدرك الفارق في ابنه.

- أنتِ لا تفهمين. أنتِ تظنِّين أن زيد يفعل ما يحلو له، لكنه يخضع لمراقبة لا تفوتها شاردة ولا واردة. في كل دقيقة، ممَّن في الطابق العلوي.

استطردت مايا: «إذا اكتشف سهيل الأمر، فسأقول إن الأمر كله هو فكرتي أنا».

- سينفث غضبه في الصبي.

أشاحت مايا بيدها مستنكرةً، ثمَّ قالت: «أنا أُخبركِ، لن أقبل برفضه، لن أقبل به أبدًا».

وعقدت مايا العزم على إيجاد طريقة ما لتنفيذ مبتغاها.

***

في نهاية مارس، ما إن استُبدِلَت الأمسيات الباردة بالغبار المُغلَّف بالقيظ، ضبطته مايا ومعصم يده مغمور في حقيبة يدها. اكتسى وجهه بالمباغتة، لكنه ظلَّ واقفًا في موضعه مُحدِّقًا إلى يده، كما لو أنها قد تُملي عليه ما يقوله.

وثبت مايا نحوه، وانتزعت الحقيبة بعيدًا عنه. بات الآن جاثمًا على ركبتيه، وشعرُ رأسه يُلامس قدميها بينما يلفظ الكلمات وهو يتنشَّق دموعه.

- أنا آسف، لم أقصد فعل هذا.

جلست مايا القرفصاء، ورفعته إليها من أسفل إبطيه، حتَّى صارا متقابلين وجهًا لوجه.

قال وهو يهزُّ رأسه: «لستُ سارقًا».

صدَّقته مايا، فقالت: «إذن لا تسرق منّي كما لو أنكَ سارق».

غلبته موجةٌ جديدة من الدموع، وهي تُجلسه على الأريكة، وتسأله: «هل تحتاجُ إلى المال؟».

أجاب: «كلا». ثمَّ عدَّل جوابه: «بلى».

حاولت أن تمنحه بعض المال، لكنه عجز عن أن يأخذ منها شيئًا، وراح جسده ينتفض. ثمَّ قال: «أرجوكِ لا تُخبري أبي. أرجوكِ، أرجوكِ، أرجوكِ».

فكَّرت فيما يمكن أن يقوله والده. بشأن الكذب، والغش في اللعب، وسرقة المال من عمَّته. أرادت أن تُخبره بأمر كل هذه الأفعال، أرادت أن تُحدِّثه عن التعاليم التي يُعلِّمها المرء لطفلٍ صغير بشأن الفارق بين الصواب والخطأ. ولكن ما قيمة هذا الصبي دون التظاهر بقدرته على تحدُّث الفرنسية؟ إن الله عليمٌ بكل شيء، وسيُخبر والده أمرَ الصبي، لكن هذا لن يُعيد إليه أمه.

منذ ذلك اليوم، متى ما لاحظت مايا اختفاء بعض الأوراق النقدية من حقيبتها، قدَّرت أن زيد قد أخذ المال، ولم تأبه للأمر. في الواقع، كان ينتابها شيءٌ من الفخر حيال ما يفعله، ودومًا ما تتصوَّره ممسكًا بثمرةٍ أو بيضةٍ مسلوقة في يديه، ثمَّ يملأ بها معدته، متجرِّعًا قطرةً من السعادة بفضلها؛ لأنها غضَّت الطرف عن فعلته.

***

1972

مارس (آذار)

استُحدِث التغيُّر في شخصية سهيل حالما عاد من الحرب. وعلَّق كلٌّ من مايا والأم على تفاقم نحافته، وهما تُحاولان ارتقاء المسافة بينهما وبينه عبر الحديث عن مظهره. لم يمضِ وقتٌ حتَّى أبصرتا انطواءه على نفسه، وصار رجلًا قليل الكلام، فصيح اللسان، نيِّق الحديث. يستحمُّ مرَّتين، وأحيانًا ثلاث مرَّاتٍ في اليوم. يكبس قمصانه بالمكواة، واحدًا منها تحديدًا، القميص ذا المربعات الزرقاء والحمراء، الذي يرتديه في الصباح، ثمَّ يحطُّه عن جسده وقت الغداء، ويرتديه مجدَّدًا عند الغروب. وفي أثناء تلك الأسابيع الأولى، انتظرته مايا كل ليلة لكي يقُصَّ عليها من أهوال الحرب، متمنِّيَةً أن يشرع في سرد قصَّته ما إن تتمنَّى لهما الأم ليلة سعيدةً، وتصطحب مصباح الكيروسين معها، وهي تُخبرهما ألا يظلا مستيقظين حتَّى وقتٍ متأخِّر.

استهلَّت مايا الحديث ذات ليلة، وهي تستدير نحوه: «إذن...».

مدَّ يده إلى جيب قميصه، ثمَّ سألها وهو يُلوِّح بعُلبة سجائر: «هل تُمانعين؟».

- كلا، بالطبع لا أُمانع. منذ متى وأنتَ تسأل إذني؟

- لا أدري. ألن تقولي لي إنني ألتقط العادات السيئة؟

أجابت مايا: «الثوريون مُعفون من جميع الأعراف الاجتماعية. ألم تسمع بالأمر؟».

- هل تفاديتُ الكثير من الرصاصات حتَّى صرتُ مُحصَّنًا الآن؟

- بالضبط. لا أحدَ يمكنه أن يمسَّك بسوء.

أخذ نفسًا عميقًا وحادًّا وهو يقول: «جيد. لقد اكتفيتُ من اتباع الأوامر».

من جديد، تمنَّت مايا لو كشف لها عن نفسه آنذاك، تمنَّت لو أخبرها بالأمر من بدايته إلى نهايته، من اندلاع الحرب إلى بزوغ السلام، حتَّى يتسنَّى لها أن تستشعر في نهاية الحديث أنها كانت حاضرة، وأن المسافة الفاصلة بينهما قد اجتُيزت ونُسيت. ليس الأمر وكأن عودتها هي كانت خالية من التعقيد، بل إن ثمَّة أمورًا ودَّت لو أخبرته بها أيضًا. حينها سيكون القصُّ بمنزلة الإعلان عن انتهاء الحرب، وإن ثمَّة مكانًا ما يصلح لإيواء وقائع تلك الأشهر التسعة، مكانًا رغيدًا قصيًّا.

وبدلًا عن ذلك، استغرق في التدخين حتَّى هُيِّئ لمايا أنها تسمع فتيل سيجارته وهو يشتعل مقتربًا من وجهه.

قال سهيل: «أنا مُتعب».

رغم أنه لم يأتِ بأي حركة تُعلن عزمَه على النهوض من مجلسه.

سألت مايا: «هل كانت رحلةً طويلة؟».

في تلك الأثناء، أدركت أنها لا تعرف إلى أي مدى واصل السفر حتَّى يعود إلى الوطن.

- أجل.

- هل قطعتها سيرًا؟

- تقريبًا.

سحق سيجارته أسفل كعب حذائه، ثمَّ التقط عُقب السيجارة وألقى به بعيدًا. وأخذا يُراقبان عُقب السيجارة يختفي بين طيَّات ظلمة الحديقة.

قال مجدَّدًا: «أنا مُتعَب».

فأدركت وتفهَّمت، في تلك اللحظة تحديدًا، أنه لا يعتزم على إخبارها شيئًا، وأنه سيحتفظ بالأمر كله لنفسه، ثمَّ يُحلِّل تفاصيله على مدار السنين، أما في الوقت الراهن، فسيظل الأمر عالقًا بينهما، في حالة من السكون والغضب.

ثمَّ جاءت بيا، وعلى إثرها تغيَّر كل شيء.

***

حين وجدتها مايا أمام البوابة، كانت الفتاة واقفةً هناك منذ الصباح، تخشى قرع الجرس. أما مايا، فكانت على وشك المغادرة لتلحق بمناوبة ما بعد الظهيرة في مركز إعادة التأهيل؛ متأنِّقةً ببنطال شُريدار ضيق وبزَّة كورتا. حتَّى إنها سمحت لنفسها بإضفاء لمسةٍ من أحمر الشفاه على شفتيها.

سألت مايا: «هل تبحثين عن أحدٍ؟».

وهي تتفحَّص صندل الفتاة الممزَّق، وساريها القديم المُهلهل، الذي أحكمت ربطه حول رأسها كأنما تُخفي جُرحًا. لم تنبس المرأة ببنت شفة، بل اكتفت بأن قدَّمت إلى مايا قصاصةً من مفكرة. وبخطٍّ يد سهيل، خُطَّ عنوانهم، وإلى جانبه تلك الكلمات: «سنلتقي مجدَّدًا إن شاء الله».

كان سهيل يُدخِّن سيجارةً في الحديقة، ولمَّا رأى مايا، نقرها في الأرض بخفَّة جانبًا.

- أحدهم يبحث عنكَ؟

- مَن؟

- لا أدري. فتاة. لم تُخبرني أيَّ شيء.

أسرع سهيل صوب البوابة، وهو يقول: «بِيا؟».

بيد أن قامة المرأة قد انتصبت عند رؤيته، وبُعيد لحظة، كانا يتعانقان، والمرأة تمسح وجهها بطرف ساريها. ثمَّ صاحت: «لقد طردوني. لم يعد لي عيشٌ معهم».

أجابها سهيل: «لقد فعلتِ الصواب».

وقفت مايا في موضعها مُرتبكة، ويدها على رِتاج البوابة، يأكلها شعور بالذنب لما اجتاحها من غيرة عند رؤيتها لعناقهما. ثمَّ تململت المرأة، فسقط غطاء رأسها. شهقت مايا حين رأت شعر الفتاة القصير؛ لا شك أنه محلوقٌ

قُبيل أسابيعٍ قليلة. قاد سهيل الفتاة بيا إلى الداخل، رامقًا مايا بنظرةٍ خاطفة، نظرةٍ بيد أنها تقول: أرجوكِ لا تسأليني عن شيء، لمرَّة واحدة فحسب، أرجوكِ لا تسألي.

لمَّا عادت مايا من مركز إعادة التأهيل في المساء، كانت بيا جالسةً في غرفة المعيشة، وريحانة تُربِّتُ على ظهرها، ثمَّ قالت: «بيا ستُقيم معنا».

أومأت بيا إلى مايا في تحية، فأجابتها بالتحيَّة نفسها. ولم ينبس أحدٌ ببنت شفة عن سبب وجودها معهم. وحزر كلٌّ من ريحانة ومايا أن سهيل قد التقى هذه المرأة في أثناء الحرب، وأنها وقعت في مشكلة وأن عائلتها قد طردتها، وأدركت مايا أنه ليس هناك سوى نوع واحد من المشكلات سيُفضي إلى ظهورها على أعتاب منزلهم.

تشهد مايا كل يومٍ نساءً مثل بيا في مركز التأهيل؛ يقطعون الطريق نازحين إلى المدينة منذ أسابيع. بعضهن تعرَّضن للاغتصاب في قُراهن، أمام أزواجهن وآبائهن، وبعضهن اختُطفن وحُبسن في ثكنات الجيش طوال مدَّة الحرب. كانت مهمة مايا هي إخبارهن أن حياتهن ستعود كسابق عهدها قريبًا، وأنهن سيعُدن إلى منازلهن وأن عوائلهن سيحتضنهن مثلما تحتضن البلاد أبطال الحرب. كانت تُملي عليهن تلك الكلمات وجهًا لوجه في كل يومٍ وهي تُدرك أنها كذبٌ، وكنَّ يسمعن لها في صمت، ويُحدِّقن إلى حجورهن ويتمنَّين أن ما تقوله صحيح.

رأت بعضهن الكذب على حقيقته كذبًا. فقد سمحت الحكومة الجديدة لقلَّةٍ من جنود العدو بالعودة إلى وطنهم باكستان، باعتبارها لفتةً من السخاء في وجه النصر، وقرَّر عددٌ من النسوة الرحيل معهم. أُوقظت مايا ذات صباحٍ على مكالمة هاتفية من المركز. «**إنهن في المطار، يُحاولن المغادرة**».

كان المطار غارقًا في الفوضى؛ يعمُّه أُناسٌ يحاولون الدخول إلى البلد الجديد أو الخروج منه، يدفعون أنفسهم إلى مقدمة أي صف انتظار يتراص ما إن يجلس الموظف على مكتبه. أما النساء فلا تُخطئهن العين، يتأنَّقن مثل عروسٍ جديدة. تلمع أقراط الأنف تحت ضوء الشمس، وتتدلَّى الأساور من أرساغهنَّ، تُثقل كل حركة وتجعل منها معزوفةً موسيقية. بعضهن يُزيِّن شعورهن بالزهور، وواحدة أو اثنتان قد تكبَّدتا عناء رسم الحنَّاء على أيديهن.

وعلى مقربةٍ منهن، يتحرَّر الجنود من القيود، واحدًا تلو الآخر. ثمَّ يتجمَّعون حول بعضهم، ويهمسون لبعضهم كيفما اتفق. ومن حينٍ لآخر، يبتسم أحدهم.

جاءت متطوِّعةً من المركز، تتأنَّق بثيابٍ بسيطة وشعرٍ مسدول، تُناشد النسوة الراحلات. فقالت: «ما تفعلنه ليس صحيحًا. أنتن حتَّى لم تُخبرن عوائلكن».

تقدَّمت إحداهن، وأجابت: «لقد قالوا إنهم لا يريدوننا. إلى أين يُفترض بنا الذهاب؟ وماذا نأكل؟».

- سيوفِّر مجلس إدارة إعادة تأهيل النسوة المُؤن من أجلكن.
- أية مؤن؟ هل ستُعيدون لنا عوائلنا؟ أم هل ستحتضنوننا في منازلكم؟
- سنعمل على إعادة تأهيلكن. فتتمكَّن من العودة إلى المجتمع. ألم تسمعن ما قاله الشيخ مجيب الرحمن؟ لقد قال إنكن بطلات، بطلاتُ حرب.

تحدَّثت امرأةٌ أخرى، فأجابت: «لا نريد أن نكون بطلات. إن العار يلحقنا. ونريد أن نترك عارنا خلف ظهورنا، ونبدأ من جديد».

تدخَّلت مايا في الحديث، متوسِّلةً: «أرجوكن، لا تتركننا الآن».

صُفَّ الجنود على متن الطائرة. يا لطول قاماتهم، واستقامة أعوادهم!

التقطت العرائس حوامل الغداء، وحقائب ملابسهن الصغيرة. ورفعن سواريهن حتَّى يتسنَّى لهن صعود السلالم ومنها إلى متن الطائرة. ثمَّ ابتلعهن المُجسم، وأُغلقت الكوَّة، وعلا هدير المُحرِّك، تاركين المتطوِّعين على مدرج الطائرة باللونين الأسود والأزرق.

قيل لهن إنه قد حان الوقت.. حان وقتُ الصفح. الصفح والنسيان. العفو والتناسي. الطمس والمُضي قدمًا. على البلاد أن تصير بلادًا حقَّة. ومثلما أرادت منهن يومًا أن يُرسلن أشقاءهن إلى القتال، وأن يصهرن أوانيهن ويتخلَّين عن جواهرهن، ها هي البلاد تريد منهن أن ينسين.

وهذا أقلُّ ما يسعهن فعله.

أُطلق سراح سجناء الحرب، وارتدوا أزياءهم الرسمية، ثمَّ أُعيدوا إلى وطنهم باكستان. لم تتبادل البلدان أيًّا من عبارات الأسف. تمسح على رؤوسهم يدُ المغفرة، فيستقبلون ما تبقَّى من حياتهم بلا خزيٍ وعار.

وأدركت مايا تمامًا ما حدث لبيا، فما من داعٍ للتفسير.

***

تستغرق بيا في النوم طوال اليوم، لا تعي ما يحدث وهُم يقضون حوائجهم حولها، ويتناولون طعامهم، ويعقدون الناموسيات ويحلونها، ويكنسون الأرضية أسفل قدميها. أحيانًا ما تستيقظ مايا في منتصف الليل، لتجدها قد رحلت، لكنها لا تتعدَّى أسوار الحديقة، أو تخرج إلى الشرفة، تجلس القرفصاء وتُحدِّق إلى الأفق. رغبت الفتاة عن محاولة اكتساب ثقة مايا، ولم تنظر مايا في استمالتها. وإذا احتاجت شيئًا، كانت تُحدِّث ريحانة، فقد رأتهما مايا تتهامسان بضع مرَّات. شرعت بيا في مساعدة الأم في المطبخ، تطحن التوابل بحجرٍ حادِّ الحواف، وتُقلِّب خبز الروتي عند تحضير الفطور. وفيما عدا ذلك، كان حضورها ناقصًا؛ شخصٌ يعيش معهم ودونهم على حدٍّ سواء. أحيانًا ما تنسى مايا أنها موجودة، فقد كانت مشغولة هي الأخرى، تتحسَّس طريقها وسط غرابة السلام، وتستوعب عودة شقيقها إلى المنزل مجدَّدًا، وتألف الشجاعة لتستعرض بهجتها بالوطن، الآن وقد انتهى كل شيء.

بعد أسبوعين من وصول بيا، رأتها مايا في الحديقة برفقة سهيل. كان هذا في وقتٍ مبكر من المساء، والظلمة تُوشك أن تسدل أستارها. راقبتهما من الشرفة الواسعة، ولو أنهما تطلعا إلى الأمام، لرأياها. غير أن زوجي الأعين كانتا مُنخفضتين، تُحدِّقان إلى الشيء نفسه أمامهما. فركت بيا يديها على امتداد ذراعيها، فعرض عليها سهيل وشاحه، وأحاط به كتفيها دون إحكام. لاحظت مايا أن لشعرهما الطول نفسه، ومن على مسافةٍ بعيدة بدوَا وكأنهما شقيقين، رجلان يتشاركان أسرار الرجال. أخذ ضوء الشمس في التلاشي؛ فرفعت بيا ناظريها ورأت مايا تُحدِّق إليهما، فلكزت سهيل، ولوَّح كلاهما لها. سارت نحوهما مايا بحذرٍ شديد، مُدركةً أنها قد قاطعت حدثًا مهمًّا.

استهلَّ سهيل الحديث: «أقبلي يا مايا. تفضَّلي بالجلوس».

جلست مايا القرفصاء على الحصيرة المغزولة من ألياف القنَّب إلى جانبهما، فتزحزحا قليلًا ليُفسحا لها المجال، لكن الحصيرة كانت صغيرة للغاية، وانتهى الحال بالفتاة بيا أن جلست على العُشب. قفز سهيل من فوره واقفًا وهو يقول: «سأُحضر حصيرةً أخرى».

وها هما قد جلستا بمفردهما. استغرقت بيا في قطف العُشب حالما أخذت مايا تجوب الحديقة بناظريها في غير ارتياح، متسائلةً عمَّا إذا كان يجدر بهما الحديث عن سهيل، أم عن الحرب، أم عن سبب مجيء بيا إلى هنا.

وأخيرًا نطقت بيا: «أنتِ إنسانة طيِّبة إذ سمحتِ لي بالبقاء».

واقتلعت وريقة عشب، ثمَّ عقدتها بين يديها.

أجابتها مايا سائلةً: «أين كنتِ.. من قبل؟».

صبَّت بيا تركيزها على وريقة العشب الطويلة، وراحت تربط العُقد على طولها. ثمَّ أجابت: «في مخيم الجيش. وجدني سهيل هناك، في ثكنات الجيش».

- أين تسكن عائلتكِ؟

- ليس بعيدًا. في «تريشال». أتظنِّين أن عليَّ العودة إلى بلدتي؟

لم تقصد مايا بسؤالها ما فهمته بيا، فعاجلتها مُجيبة: «كلا، بالطبع لا، يمكنكِ البقاء هنا».

أرادت أن تُخبر بيا بمدى سعادتها حين قدمت إليهم، وأنها قد أحضرت بريقًا من الحياة إلى وجه أخيها. وهكذا قامت بمحاولة غريبة لمدِّ جسور الألفة والمودة، فقالت: «يمكنكِ البقاء بقدر ما تشائين».

عاد سهيل وبحوزته الحصيرة، فنهضت الفتاتان، وأعادوا جميعًا ترتيب جِلستهم.

لكن بيا لم تجلس، وقالت وهي تُسرع نحو المطبخ: «سأعود على الفور».

قال سهيل مُعلِّقًا: «إنها بحالٍ أفضل. ألا تبدو بحالٍ أفضل بالفعل؟».

- أجل، تبدو بحالٍ أفضل.

ودَّت مايا لو تسأله لو كان هو بحالٍ أفضل، لكن بيد أنه ما من مجالٍ لطرح مثل هذا السؤال. فلمرَّةٍ واحدة، بدا مرتاح البال، وبدلة الكورتا التي يرتديها ذات القماش القطني الأبيض تتلألأ في الضوء الخافت. بدا في صحةٍ جيدة، ومزاجٍ مثالي، عوضًا عن أن يُشبه رجلًا لم ينفض عن جسده آثارُ الحرب بعد، رجلًا قد أحضر امرأةً غريبةً إلى منزله. رجلٌ عاديٌّ. وقضت أن تُعامله على هذا النحو.

مضى سهيل مضيفًا: «حين وجدتُها، بدت وكأنها قد تنزلق في الهوَّة في أي لحظة».

قبل أن تتمكَّن مايا من الجواب، خرجت بيا إلى الحديقة، تحمل في إحدى يديها مصباح كيروسين، وفي الأخرى إناءً كبيرًا.

وضعت إناءَ الأرز المنفوش الحار أمامهما، وهي تصيح معلنةً بالبنغالية: «جهلموري[1]».

ولمَّا غرفت بيا حفنة من الأرز ورفعتها إلى فمها، لاحظت مايا ندبة تُشبه الأسورة على رسغ بيا. ودفعها الفضول لإمعان النظر إلى ذراعي بيا: فوجدت الرسغ الآخر يحمل العلامة نفسها. حطَّت بيا مصباح الكيروسين، وفجأةً، غُمرت مايا بالدهشة؛ يجدر بالفتاة أن تكون هنا، أن تكون بينهم، تحمل ندوب أسرها، وتُعِدُّ الوجبات الخفيفة وتجلس برفقتهم في الحديقة، وتساءلت أيُّ جروحٍ أخرى ما تزال تاركةً أثرها على الفتاة؟

أسدل الليل أستاره على السماء. وباتوا بالكاد يرون بعضهم؛ لا يملكون سوى بقعةٍ من الضوء الخافت بيضاوية الشكل يُلقيها عليهم مصباح الكيروسين.

حسمت بيا وسهيل خطة. لم تذهب بيا يومًا إلى السينما، وأخذ سهيل يحاول توضيح الأمر لها. الناس على سطحٍ مستوٍ واسع. ليسوا أُناسًا حقيقيين -حسنًا، هم حقيقيون، ولكنهم ليسوا حاضرين. يُمثِّلون- كانت تعرف ما هو التمثيل، فقد شهدت مهرجان «الجاترا»[2] حين حضر إلى قريتها.

قال سهيل: «حين تُعيد السينما فتح أبوابها، سنصحبكِ إلى هناك. أليس كذلك يا مايا؟».

---

(1) Jhalmuri: جهلموري هو وجبة خفيفة تقليدية في بنجلاديش والهند، وهي عبارة عن خليط من الأرز المنفوش والدقيق والفول السوداني والخضراوات المفرومة والتوابل، ويتم تقديمها عادةً في أكياس من الورق المقوى أو في وعاء واحد. (المترجمة)

(2) Jatra: مهرجان تقليدي في بنجلاديش والهند. يتميز بالموسيقى والرقص والألعاب والتمثيل والمرح، ويعتبر جزءًا من التراث الثقافي للمنطقة. يتم تنظيم هذا المهرجان في العديد من المدن والقرى في بنجلاديش والهند ويستمر لعدَّة أيام، ويتم تقديم العروض المسرحية والموسيقية في الهواء الطلق. (المترجمة)

أومأت بإيجابٍ، ثمَّ قالت: «هل تعلم أن جوي قد أحضر جهاز عرض سينمائي إلى منزلنا في أثناء الحرب؟».

- من أين أحضره؟

- لا أدري. أظنُّ أنها دور سينما مهجورة.

سألت بيا: «ما هو جهاز العرض السينمائي؟».

- إنه آلة تعرضُ الأفلام.

- هل تملكون تلك الآلة؟

سألت مايا: «هل تودِّين رؤيته؟».

كان جوي قد أحضر جهاز العرض السينمائي من أجل الأم. والآن يقبع في مكانٍ ما في سقيفة الحديقة. أضافت مايا: «أظنُّ أنه ما يزال هنا».

تردَّد سهيل؛ واستشعرت مايا ما يجول بخاطره فيما إذا كان هذا سيسبب له الألم، أم السعادة، ما إذا كانت رؤيته لشيءٍ أُحضر إلى منزله من صديقه.

أجابت بيا: «أجل، أودُّ ذلك، أريد رؤيته».

ونهضت من جلستها، ثمَّ صفَّقت بكلتا يديها.

قال سهيل: «حسنًا، دعونا نراه».

كانت السقيفة مبنًى صغيرًا بسيطًا، بُنِيَ إلى جانب شجرة الليمون. دخلت مايا أولًا، حاملةً المصباح إلى أعلى. ثمَّ اجتازوا القليل من الحقائب والصناديق، وجزلٍ من الخشب، وحقيبةٍ نصف مفتوحة من الأسمنت الذي تيبَّس بفعل السنين.

أما جهاز العرض السينمائي، فكان في موضعه الذي تركته فيه تمامًا، عالقًا في ركنٍ من الغرفة، مُغطى بأوراق الموز الجافة، وحال رؤيته صاحت مايا: «ها هو ذاك».

استرجعت الأحداث الآن، وهي تحمله من المنزل الكبير ثمَّ تضع الأوراق من فوقه بلُطف، كما لو أنها تدفنه.

رفع سهيل الصندوق إلى كتفه، وساعدته مايا في تسلُّله إلى داخل المنزل بحذر. قرَّروا أن يضعوا الصندوق في الردهة، ويفحصوه دون إشعال المصابيح. وهكذا حملت مايا المصباح حالما حلَّ سهيل المفصَّلات.

كانت جميع قطعه في موضعها داخل الصندوق؛ القرصان الدائريان، الواحد منهما فوق الآخر، والعدسات البارزة، والقطع الصغيرة، والدبابيس التي تُثبِّت شريط الفيلم في موضعه، والأبازيم المعدنية التي تفتح وتُغلق على البَكرة.

انحنت بيا إلى الأمام، وراحت تُمرِّر يدها برفقٍ على الصفائح المعدنية حالما أخرج سهيل جهاز العرض السينمائي من حقيبته، ووضعه مستقيمًا على سيقانه المعدنية الثابتة.

ثمَّ قال سهيل، مشيرًا إلى أحد المواضع: «هنا يُوضع الفيلم على ما أظنُّ. يُوضع هنا، ثمَّ يتحرَّك عبر هذا الجزء، ويلتقط الضوء الصورة، فتصير كبيرة الحجم، كبيرة للغاية. أما الفيلم نفسه فلا يزيد عرضه على عرض إصبعين. إنه الضوء هو ما يجعل الصورة أكبر حجمًا».

سألت بيا: «كبيرة إلى أي مدى؟».

أجاب سهيل: «أكبر من حجم إنسان».

حدَّقت بيا بناظريها إليه. فتابع مضيفًا: «وأحيانًا حين يعرضون الوجه فحسب، يمكنكِ رؤية كل شيء، يمكنكِ رؤية ما بداخل المرء».

- يمكنكَ رؤية ما بداخل المرء؟

استشفَّت مايا أن الفتاة قد تبكي من شدَّة الذهول والعجب، فقالت: «هلا فحصناه لنرى إن كان يعمل؟ أظنُّ أن هناك بعض الأفلام بداخل صندوقه».

رفعت بيا يديها من على الآلة، واستدارت لتواجه مايا. اختفت عينا الفتاة خلف سحابةٍ من الدموع، وهي تُجيب: «أجل، أوه، أجل».

علَّق سهيل بصوتٍ بدا باردًا على حين بغتة: «كلا، لا يمكننا فعل ذلك».

سألته، مشدوهةً من تغيُّر رأيه: «ولِمَ لا؟».

- إنه ليس ملكًا لنا، علينا أن نُعيده إلى أصحابه.

عجزت مايا عن فهم مقصده، فاستطردت: «لكنه هنا الآن».

في لحظةٍ كان يقف فاغرًا فاه أمام الآلة، وفي اللحظة التالية، يتصرَّف وكأن الأمر برمته قد حدث دون موافقته.

تحرَّك سهيل ليُعيد جهاز العرض السينمائي إلى موضعه، وهو يقول: «هلَّا توقَّفنا عن فعل شيءٍ سنندم عليه».

قالت مايا: «أنا لن أندم عليه، وكذلك بيا. أليس كذلك يا بيا؟».

استشعرت بيا هي الأخرى التبدُّل في شخص سهيل. فتململت مبتعدةً عن الآلة، ومالت مستندةً إلى حائط الشرفة، جالسةً القرفصاء في هيئةٍ قروية، ومرفقاها على ركبتيها. ثمَّ قالت: «لا أدري».

لحقت بها مايا، وجثمت على الأرض إلى جانبها، ثمَّ سألتها: «ألم تفعلي شيئًا من قبل قد تندمين عليه لاحقًا؟».

كان سهيل يحزم جهاز العرض السينمائي، ويدسُّه مجدَّدًا في تجاويفه الصحيحة المصنوعة من الفلِّين، وهو يقول: «مايا، من فضلكِ، لا تكوني صبيانية. انظري، هذا هو الطابع. سينما مودهوميتا. كم من المرَّات ذهبتُ وأنتِ إلى تلك السينما؟ ومَن يدري كيف أحضر جوي هذا الشيء هنا على أيَّة حال».

- ماذا تقول، أتقصد أن صديقكَ سارق؟

- أقصد أن الكثير من الأمور قد حدثت في أثناء الحرب، ولكننا الآن لم نعد في وقت الحرب، وعلينا أن نتصرَّف كما يتصرَّف المدنيون، ليس كما يتصرَّف المتمرِّدون.

أجابته مايا: «لا أظنُّ أن بيا تأبه لهذا الأمر. أظنُّ أننا يجدر بنا أن ندعها تشاهد فيلمًا. أليس لهذا السبب خضنا هذه الحرب على أي حال، حتَّى يتسنَّى لنا أن نكون أحرارًا؟».

- هذه حجة زائفة كُليًّا، وأنتِ تعرفين ذلك. حين تُمنح الحرية، تُفرض معها المسؤوليات، والحدود.

ثمَّ دفع الغطاء فانغلق على نفسه، كما لو أن بفعلته هذه يُنهي أيَّ جدالٍ آخر.

همست بيا في الظلام الدامس: «لقد فعلتُ شيئًا».

كان ضوء المصباح خافتًا، ولم يعد يصل إليها شيءٌ من أشعته الباهتة. رفع سهيل صندوق جهاز العرض السينمائي بين ذراعيه، وأوشك على النهوض؛ لكنه توقَّف. ثمَّ سألها: «ماذا؟».

- فعلٌ شنيع.

جلس سهيل القرفصاء أمام بيا، واقترب منها من كثب، لكنه حرص على ألا يلمسها، فقد كانت ترتجف مبتعدةً عنه على أي حال؛ وأخذت تدفع بظهرها إلى الحائط.

ثمَّ قال: «لا يُهم. انسي الأمر. يجدر بكِ أن تُحاولي نسيانه».

بقيت على صمتها، لكنهما سمعا أنفاسها تتردَّد في المكان، كما لو أن الكلمات تُجاهد من أجل الخروج من فمها، وهي تُجاهد لإبقائها مُخبئة في قلبها. أما مايا، فلم تُرد لبيا أن تنسى ما حدث لها، بل أرادت لها أن تتذكَّر، أرادت لها أن تتذكَّر، وأرادت هي أن تعرف. لكنها لم تُلِّح على الفتاة. فقد عزم الآخرون جميعًا على النسيان، وعلى المضي قدمًا، وعلى ترك أيما حدث لهم من أشنع الأحداث في الماضي وراء ظهورهم؛ ويا لها من قسوة أن ننكر حقَّ بيا في هذا، وفرصتها لتبدأ من جديد.

قال سهيل: «لا يهم. مهما كان ما حدث، فهو ليس خطأكِ».

لا شك أن مقصدهما هو التسرية عنها فحسب. لكن بيا صارت فتاةً مختلفة بعد تلك الليلة. فقد هاج شيءٌ ما بداخلها، وطالب بالتعبير عن نفسها، لكنهما أخرسا صوته.

وبعد بضعة أسابيع، رحلت بيا.

***

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

1984
أبريل (نيسان)

استطال الصفُّ إلى خارج الخيمة، والتفَّ حول الزاوية، ثمَّ تضاعف على نفسه في المؤخِّرة. اضُطرَّ الناس في بعض الأماكن للجثوم على الأرض، رافعين أيديهم لتحميهم من قيظ الشمس، يُهدِّئون أطفالهم. يتشاركون القصص والحكايات، ولقيمات الطعام في أثناء انتظارهم. سمعت مايا نداء المؤذن، ورأت لفيفًا كبيرًا من الحُجاج يشقون طريقهم إلى المُصلى. أما المنتظرون في الصف لم يُحرِّكوا ساكنًا: فقد جاؤوا طلبًا للدواء المجاني.

كانوا يعانون جميع العِلل العادية؛ إسهال بسبب ديدان الدوسنتاريا، وجفاف، وسيقان مكسورة لم تلتئم على نحو صحيح، وجروح كان يتعين أن تُخاط لكن أصحابها لم يذهبوا إلى المشفى قط، واليرقان، والملاريا، والتيفويد. قضت مايا الجزء الأكبر من ذلك الصباح في ترتيب العيادة. أما الأطباء الآخرون -مُتدرِّبون ومتمرِّنون شباب ربما لم يُغادروا مستشفيات مدينتهم قط- فقد غمرهم الارتياح إذ يُملى عليهم ما عليهم فعله. راحت تصيح بالأوامر، وتسألهم الركض إلى آخر الصفِّ لتقسيم المرضى إلى مجموعات. اجعلوا الأطفال الصغار أولًا. وافحصوهم بحثًا عن أي أمراضٍ مُعدية. وقسِّموا الصفَّ إلى اثنين، واحدٌ للرجال والآخر للنساء. وبحلول الظهيرة، كانت

تفحص مريضًا كل سبع دقائق. جاءتها فتاةٌ حُبلى تُعاني السكري الحملي، عانقتها ونحبت في أحضانها. وشعرت مايا بنفحات من الحماس؛ فقد كانت مُحقَّة في العودة.

كان شقيقها حاضرًا، في مكانٍ ما بين المُصلِّين. وألهمها زيد بالفكرة حين قال: «سيكون أبي في الاجتماع الديني».

أُخليَ الطابق العلوي، فلا مزيد من وقع الأقدام على السقف، ولا الجماعات الدينية المحتشدة أمام البوَّابة.

مضى زيد مضيفًا: «ربما يمكنكِ لقاءه».

حلق أحدهم رأس الفتى ذلك الصباح، فرأت ندبتين حمراوين نظيفتين على مؤخِّرة عنقه. نظرت مايا في الفكرة؛ ربما حان الوقت لمواجهة سهيل.

أقامت الجماعة الدينية عيادات طبِّيَّة مجانية لجميع الحُجاج والمصلين. بدا تقديم خدماتها أمرًا يسيرًا، علاوةً على تهيئة منطقة منعزلة بالستائر من أجل النساء. وها هي الآن. برفقة ملايين من الناس. أدركت أن لقاءها به بات أيسر بطريقةٍ أو بأخرى في هذا السياق، ورغم تضاعف غربته، فقد صار شخصًا أبسط وأشدَّ وضوحًا، تِبعًا لتناسخ الناس الذين يُشبهونه، جمعُ الرجال ذوي اللحى والأردية البيضاء. فمنذ عودتها، ارتحل هو بعيدًا، ينتقل من اجتماعٍ ديني إلى آخر، وانتابها الارتياح إذ اعتادت روحها على المنزل والمدينة، دون احتمالية رؤيته. لكنها الآن صارت مستعدة للقائه.

ومع أنه كان وافدًا جديدًا نسبيًّا على جماعة التبليغ، فقد اشتُهر ببيانه وخُطبه. ويسعُ لمايا أن تُراهن على أنه ما مِن أحدٍ يستمع إليه الآن لديه فكرة عن المناسبة التي تعلم لأجلها الحديث بتلك الطريقة. لو أنهم سألوها، لأخبرتهم عن تلك المرَّة حين كان في السادسة عشر من عُمره لمَّا تغلَّب على بطل المناظرة في الجامعة، الوسيم إفتكار خان. وكان عنوان تلك المناظرة: **مؤيِّدًا أم مُعارضًا: هل سباق التسليح يُقلِّل من احتمالية نشوب حرب عالمية أخرى؟**

كان سهيل قد تدارس شخصية إفتكار خان، واستقر إلى أنه رجلٌ هشٌّ في حقيقة الأمر. الفتى الذي تُوِّج مرَّتين بلقب بطل عموم باكستان في المناظرة، كان قد ارتفع إلى مكانةٍ عاليةٍ للغاية، وها هو الخوف من إحباط أماني مُعجبيه يتملَّك قلبه. ولذلك صمت سهيل، لمدَّة أطول ممَّا يقتضيه الموقف، قبل أن

يستهلَّ خُطبة الافتتاحية التي تستمرُّ لدقيقتين. وحينذاك، كان إفتكار يعتصر أصابعه بالفعل في المسافة بين رقبته وياقة قميصه، محاولًا خلق مساحةٍ بسيطة لحلقه المُتورِّم، وحكَّته لتملأ الصمت من حولهم. ثمَّ تابع سهيل دحض كلماته، حتَّى إنه بعد فوزه، توَّجته صحيفة الجامعة بلقب «السلحفاة التي تغلَّبت على الخان». في ذلك اليوم، تعلَّم خدعة التلاعب باللحظة، وتحديد إيقاع المحادثة ووتيرتها، كانت أحداث ذلك اليوم هي ما قادته لأن يصير رئيسًا لقاعة الجامعة، وموضوعًا صالحًا للكثير من التكهُّنات والشائعات بين الفتيات، ثمَّ قادته أخيرًا لأن يصير متظاهرًا مُحتجًّا في الشوارع، يهتف عبر مكبِّرات الصوت بعباراتٍ ضد الجيش. إنه ذلك اليوم هو ما قاده، في نهاية المطاف، إلى الحرب.

غير أنه ما من أحدٍ من هؤلاء الحُجَّاج المُصلِّين سيعرف بهذا الأمر. وربما يؤمنون بأن مَلكة الإقناع هِبةٌ من الله.

يشبه زيد طيرًا يُرفرف من خيمة طبية إلى أخرى، منتقِّلًا من مكانٍ إلى آخر طوال اليوم. قال وهو يشهق: «هناك خيمةٌ أمريكية. لقد أعطوني هذه».

كان ممسكًا بقطعة حلوى شريطية باللونين الأحمر والأخضر على شكل عصا سير.

أجابته مايا: «يمكنك تناولها بعد الغداء».

سيكون غداءً متأخِّرًا جدًّا؛ إنهم أقاموا صلاة العصر. وعلى امتداد ضفتي نهر «توراج»[1]، يُنكِّس آلافٌ وآلافٌ من الرجال رؤوسهم ويتجهون شرقًا. يستقبلون بأجسادهم قبلة مكة، ويرضخون أيضًا إلى شمس ما بعد الظهيرة، التي تُلقي ببريقها الحاد في أعينهم إذ يرفعون أيديهم للتكبير. استقاموا جميعًا للصلاة، يُحرِّكون رؤوسهم من جانبٍ إلى آخر؛ يطوون أيديهم فوق بعضها، يركعون، ثمَّ يسجدون، تُلامس جباههم الأرض. في تلك اللحظة تحديدًا، تذكَّرت مايا مقولةً كانت قد أخبرتها بها والدتها؛ تذكَّرت أن القلب يرتفع عن الرأس في أثناء السجود.

قاد زيد مايا إلى خيمة، وعثر لهما على سجادة مربعة صغيرة. ثمَّ مرَّت بهما امرأةٌ، ممشوقة القوام في إسدالها، قدَّمت إليهما إناءً من الحمِّص الحار. وقالت وهي تُداعب خد زيد: «السلام عليكم». ثمَّ واصلت تجوالها.

---

(1) Turag River.

حلَّت مايا لفافة غدائهما، عُلبةً تحوي الدجاج والأرز.

قال زيد: «لقد رأيتُ أبي».

تفتَّت الدجاج في فمها وهي تسأل: «أين؟».

- هناك.

أشار نحو الرجال المصلِّين على ضفة النهر.

ها هي قد واتتها الفرصة. وإزاء احتمالية رؤيته مجدَّدًا، سمحت لنفسها بقطرةٍ من الأمل. لقاءً للمِّ الشمل. ستقترب منه، وتسأله عن أمر زيد. تُلقي بحجرٍ في الماء لتختبر عمقه. وترى ما إذا كان ثمَّة أمرٌ مشتركٌ بينهما، هي وشقيقها. كانت قد ارتحلت إلى مسقط رأسه، وقد يُعجبه هذا الأمر. تطلَّعت إلى الصبي، وقد أباحت لنفسها هنيهة صغيرة تتساءل فيها عمَّا سيكون عليه الأمر لو أنها تولَّت مسؤولية الصبي. بادئ ذي بدء، ستهتمُّ بأمر مدرسته. ستُسجِّله للذهاب إلى المدرسة. وسيتعيَّن عليها أن تُعلِّمه ألا يتشتت ذهنه في منتصف الجملة، وكيف يجلس إلى طاولته المدرسية طوال اليوم. سيتعيَّن عليه أن يرتدي زيًّا رسميًّا، ويحمل حقيبته القماشية إلى الملعب.

أنهيا أطباق الدجاج والأرز، وغسلا أيديهما إلى جوار الخيمة، ثمَّ قالت: «حسنًا، هيا بنا نذهب لنبحث عن أبيك».

مضيا في طريقهما متدافعينِ خلال أفواج الناس المسترسلة، وشقَّا طريقهما نحو النهر، مارِّين بصفٍّ وراء آخر من الخيام، تأوي كل واحدةٍ قبيلة من الرجال، مُعلَّقةٌ هي تنانيرهم على الأحبال لتقسم المساحة بينهم جميعًا. سيأكلون طعامهم، ويغرقون في سُباتهم، ويُقيمون صلواتهم هنا طوال أسبوعٍ كامل. أما الخيام الكبيرة، فقد أُقيمت مزودةً بمكبِّرات صوت وميكروفوناتٍ ومنصَّات مؤقَّتة، حيث يعتلي المنصة ويُلقي الخطب الخُطباء المشاهير من الهند، والأئمَّة من القدس أو شانغهاي أو موزمبيق. كانت مايا قد سمعت في نشرة الأخبار أن هذا الحدث هو أكبر تجمُّع للمسلمين بعد اجتماعهم في الحجِّ إلى مكة. حتَّى إن الديكتاتور سيحضر التلاوة الأخيرة، ويسعى للتبرُّك من المرشدين الروحانيين للجماعة.

بعد إنهاء الصلاة؛ تبعثرت صفوف الرجال، وأعادوا ارتداء أحذيتهم، وهم يطمسون ضوء الشمس عن أعينهم. كان زيد يقبض على يدها، ويجذبها من خلفه إلى الأمام. تدافعا معًا عكس تيَّار الرجال الذين يُغادرون أرض الصلاة،

وهما يقتربان ببطءٍ نحو حافة النهر. كُدِّست قوارب ضخمة بالحُجاج وهي تطفو على سطح النهر، تنتظر إفساح المجال لها لتُسقط مرساتها. عانى بعضهم نفادَ الصبر، فقفزوا في الماء وخاضوه، ورؤوسهم المُغطَّاةُ بالطواقي تتمايل إذ يسبحون. تمعَّج زيد في طريقه خلال الحشد، وهو يجرُّ ذراع مايا، ثمَّ وصلا أخيرًا إلى حقلٍ من الرمال.

قال زيد مشيرًا: «هناك».

وقفت جماعةٌ من الرجال يتبادلون الحديث. وكان سهيل بينهم يبتسم، ويومئ بكلتا يديه. احتضن كل شخصٍ في المجموعة تباعًا، ثمَّ تشتَّت الجمع. تردد زيدٌ هنيهةً، متطلعًا إليها كما لو أنها على وشك أن تُملي عليه ما يفعله، ثمَّ أطلق يدها، وانطلق بعيدًا، فابتلعه الحشد.

وقف سهيل موليًا ظهره لها، مُحدِّقًا إلى الماء، ويداه مطويَّتان من خلفه. راقبته مايا في صمتٍ هنيهة. كانت قد تدرَّبت على هذا اللقاء مرَّاتٍ لا تُحصى. عريض المنكبين والأرداف. أما الثياب المنسدلة على جسده، فانتهت فوق كاحليه السوداوين، وحُشر كعبه الثخين في زوجين من صندلٍ مطَّاطيٍّ رخيص.

استدار سهيل، فتطلَّعا لبعضهما هنيهةً، ثمَّ مدَّ ذراعيه نحوها، فغاصت مباشرةً فيهما حتَّى التحفها جسده وتوسَّدت صدره الغضَّ، وتشمَّمت عبيره من ماء الورد والعطر.

قبَّل جبهتها، وقال: «السلام عليكم».

تشبَّثت به قليلًا، ثمَّ ابتعد رويدًا رويدًا في رفق.

سمعت مايا نفسها تُجيب: «وعليكم السلام. كيف حالكَ؟».

- أنا بخير، بنعمة الله.

نقلت مايا ثقلها من قدمٍ إلى أخرى. كانت الأمور التي أرادت قولها، كلماتٍ ثقيلة تاريخية، فسقطت في أعماقها.

قالت: «أشعرُ بالأسى لما حدث لسيلفي».

مرَّ وقتٌ كانت تعرف فيه مايا، من نظرته إليها أو الشكل الذي اتخذته شفتاه، متى سيتحدَّث وبماذا يُفكِّر تحديدًا. لكنه تعلَّم أن يختبئ داخل نفسه، فلم يُخبرها وجهه شيئًا. ثمَّ نطق: «هذا هو أجلُها».

أرادت مايا أن تلمسه. رأته رجلًا هشًّا وقصيًّا.

راقبت تفاحة آدم في حنجرته تتحرَّك لأعلى ولأسفل، فهدَّأت من نفسها، واستهلَّت حديثها.

- تعرف أنني قد عُدتُ نهائيًّا.

- أجل، أعرف.

كان يعرف. ومع ذلك لم يهبط من طابقه لرؤيتها؛ ولم تصعد هي لرؤيته. أخٌ وأختٌ، كانا لا يفترقان ذات يوم. حدَّثت مايا نفسها: أخبرني، أخبرني أنكَ افتقدتني، وأنكَ تمنَّيتَ عودتي، وأنكَ تريد تسوية الأمور. تقدَّم سهيل خطوةً نحو الماء، فتبعته. وتابعت حديثها: «أ-أطلب منكَ الإذن لإلحاق زيد بالمدرسة. هناك مدرسة جديدة تقع على الطريق 4، ذهبتُ لرؤية مديرة المدرسة، ووافقت على قبوله في بداية الفصل الدراسي المقبل».

كانت متوتِّرة الأعصاب، تُنازع كل كلمةٍ لتخرج من فيها.

توقَّف سهيل، وأجاب: «إنه وحيد، أعرف ذلك».

هذا لأنكَ تركته وحيدًا، بعد أيامٍ فقط من وفاة أمه.

قالت مايا: «إنه صبيٌّ لطيف».

ها هي تنطق بالوصف الخاطئ، وتكشف له عن ضآلة ما تعرفه عن طباع الصبي.

هزَّ سهيل رأسه رفضًا، وقال: «سيستكمل تعليمه على يد الأخت خديجة».

ابتلعت مايا غُصة الغضب في حلقها، ثمَّ سألته: «هل تذكر كيف كان الحال حينما تُوفِّي أبونا؟».

استدار إليها مبتسمًا، وشفتاه تتقاطعان مع اللحية، ثمَّ أجاب: «بالطبع أذكر».

- كم كانت وفاة شاقَّةً علينا.

- أجل.

خمَّنت مايا أن الأمر ليس قلَّة وعيه بمقدار المعاناة، لكنها اهتدت إلى أنه لم يعُد عبدًا لها، وأنه سيتقبَّل الأمر. وفاة أبيه، ووفاة زوجته. أمامه مُخطَّطٌ ضخمٌ، لا يترك مجالًا للشفقة على النفس. لكنها أخذت تحرث الأرض مجدَّدًا، فتابعت: «إنه في السادسة من عُمره. تُوفِّيت أمه للتَّوِّ، أراه بحاجةٍ إلينا: أنا وأمي. نحن عائلته».

لم يحر جوابًا، وأشاح بوجهه بعيدًا وحملق في الماء. ربما أوشك على إخبارها بكل الطرق التي أعاد بها صياغة كلمة «عائلة»، وأنها لا تعدو كونها فتاةً كان يعرفها ذات يوم.

تطلَّعت مايا نحو المُخيَّم، حيث ينتظرها زيد بلا شك، يؤرجح ذراعيه ويعدو خببًا عبر الممرَّات. أوشكت على استئناف التماسها، وتكرار حُججها، لكن سهيل مدَّ إليها يده وقبض على ذراعها، جاذبًا إياها نحوه. أمعن النظر إليها مباشرةً، مُوقظًا جميع حواسها التي أدرك وجودها ذات يوم.

هذه هي النهاية، هذه هي فرصتها. كانت قد فكَّرت فيها كثيرًا، فرصةٌ تُشبه الحُلم، حُلمٌ مقتطفٌ من رؤى متعاقبة. سيرى نفسه في انعكاس عينيها، سيرى عبثية ما صار إليه حاله. سيرى قُبح تجافي عائلته، ومدى قسوة أبوَّته. ستغزو عقيدته الشروخ، وسيتزعزع إيمانه، ليس إيمانه بالإله، فما كانت لتتمنَّى أخذ شيءٍ كهذا منه (أو ربما تتمنَّى، رغم أنها لا تنوي الاعتراف بالأمر)، بل سيتزعزع إيمانه في أيما قدرة قد أبعدته عنها وأبدلته بغريب.

سيتذكَّر ما كانت عليه نفسه، وسيستيقظ، ويستأنف حياته التي تصوَّرتها له، وسيصفح عنها إذ تمنَّت اختلافه عن صورته الحالية.

ستقول: لا يُولد المرء مرَّة واحدة فحسب، بل يسع المرء أن يُولد إلى العالم مجدَّدًا.

ستختفي السنون.

وهي على أتمِّ الاستعداد لنسيان كل شيء.

يا أخي، سأعود إلى ذراعيك مجدَّدًا. لن آبه لسُكان الطابق العلوي، ولا يُهمني إن نسيت ما كان من حربنا، أو شبابنا، لا يُهم إن لم تعد هذه الحياة موضع اهتمامك، لا يُهم إن نسيت أمر «غالب» والعزيز العزيز شكسبير، ولا يُهم إن نخر الألم عظامي لأنك بدوت كأنما نسيتني. لو أردتَ أن تضع تلك الأمور جانبًا، فسأجيبك بـ«نعم، أقبل ذلك، أُسامحك» وسأطلب منك المثل، فلنعُد إلى الأمر.

أجاب سهيل: «إن أمر المدرسة لا جدال فيه».

لا جدال فيه! لا! أخذ شعورٌ بالحرقة ينهش أحشاءها، ويرتفع إلى حلقها. شعرت بنفسها تُجاهد لتلتقط أنفاسها. كم كانت حمقاء حين تصوَّرت أن بإمكانها المجيء إلى هنا واستعادة شقيقها، لم يعد الحُلم كونه مُجرَّد سراب. لم تهدأ أطرافها، وتفاقم غضبها. ومع ذلك أخذت تُجاهد الرغبة في الهروب من أمامه. لقد اكتفت من الهروب. تُحدِّث نفسها قائلة: «فكِّري في الصبي، انسي أمر إحباطاتك، وفكِّري في الصبي».

ابتلعت مايا غُصَّة الغضب، واستعدَّت للتفاوض. فقالت: «حسنٌ إذن. هل يمكنني تعليمه القليل من الأمور؛ الحساب والحروف الأبجدية؟ حينما لا يكون منشغلًا في الطابق العلوي بالطبع».

للحظة الراهنة، ستكتفي مايا بهذا، اتفاقٌ واحد بعد آخر.

أجاب سهيل أخيرًا: «حسنًا. سأُفكِّر في الأمر».

ثمَّ مال ليُعانقها مجدَّدًا، وأدركت مايا أن اجتماعها به قد انتهى. سارت مبتعدةً عنه، وهي تدسُّ بعض خصلاتٍ من شعرها خلف أذنها، متشبِّثةً بقصاصة الانتصار الصغيرة التي حققتها. ستصير مُعلِّمة زيد، وحين يرى سهيل سرعة تعلُّمه، ستُقنعه بإلحاق الصبي بالمدرسة. ستبكي حزنًا على حُلمها الصغير لاحقًا، في الليل حين تعود إليها رؤيته، حين تسترجع وجهه الجاد المُتجهِّم. أما الآن، فقد حدَّثت نفسها أن تستحضر الرضا، وهكذا انسلَّت داخل الحشد، متلهِّفةً لمشاركة الأخبار السعيدة مع مسؤولياتها الصغيرة.

***

يهبط زيد إلى الطابق السفلي لساعاتٍ قليلة كل يوم في وقت الغداء. يتناول طعامه بهدوء دون عوائق بينما تُعلِّمه مايا الحروف الأبجدية. وكمكافأةٍ له في نهاية اليوم، تشرح له القليل من ألعاب البطاقات. كان يغشُّ في اللعب، ويُخفي البطاقات أسفل الطاولة أو في كُمِّ بدلة الكورتا. وأحيانًا ما تجد محفظتها أخفَّ وزنًا ممَّا يجدر بها، لكنها لا تُخبر أمها. لم تُمانع ما يفعله. ليست سوى عملات معدنية قليلة، أو لعبة كونكان ولعبة 21 فحسب. رحل سهيل مجدَّدًا، في بعثةٍ إلى نيبال؛ لم تره بعد ذلك اليوم الذي التقته إلى جانب النهر. حاولت الاتصال براجشاهي مجدَّدًا، لكن الخطوط دائمًا مشغولة. كتبت خطابًا آخر إلى نازْية، تتوسَّل إليها بأن تُجيب. وقضت يومًا آخر في سقيفة الحديقة، تبحث عن قصاصاتٍ من صُحفٍ نشرت وقت الحرب، ثمَّ تعثَّرت في صفحةٍ مكتوبة بالآلة الكاتبة ومؤرَّخة بتاريخ سبتمبر 1971. كانت هذه الصفحة هي واحدة من مقالاتها القديمة أيام الحرب، وتذكَّرت أنه مقالٌ لم يُوافق أحدٌ على نشره، وابتسمت الآن إذ قرأت الترويسة: «العالم يكتفي بالفُرجة وبنجلاديش تنزف: صرخة استغاثة» بقلم الآنسة شهرزاد مايا حق.

***

1984
مايو (أيار)

استغرق الأمر منها زمنًا لتجد المبنى المتهالك في «دكًّا القديمة - Old Dhaka». كان يقع في نهاية ممرٍّ ينحدر مؤدِّيًا إلى النهر، يُجاوره مصنعٌ للجلود. واستبدَّت الرائحة الكريهة للدباغة بالمكان. أمسكت مايا بأنفها ثمَّ طرقت. ففتحت أديتي الباب مُجيبةً.

قالت مايا: «أجل، الطبيبة!».

كانت ترتدي الثياب ذاتها التي ارتدتها في حفل سايما، سروالًا من الجينز وبدلة كورتا قصيرة، لكنها بدت مختلفة عمَّا كانت عليه في الحفل. كانت أطراف أصابعها مُلطخة بالحبر، وتُحيط شعرها بعُصبة رأسٍ خضراء.

قالت أديتي مشيرةً إليها بالدخول: «أنا مسرورةٌ لأنكِ قرَّرت المجيء. لن أعانقكِ، فأنا مُتسخة».

قالت مايا: «يفوح المكان برائحة الموت».

ضحكت أديتي، ثمَّ قالت: «إنها مُريعة، أليس كذلك؟ لقد اعتدنا جميعًا عليها، وما عدنا نلاحظها حتى».

كشف الباب عن حجرةٍ بلا نوافذ، تكوَّمت بها حتَّى السقف أكداسٌ من ورق الجرائد. واستقرَّت منضدةٌ كبيرة على أحد الجوانب، تتبعثر عليها الأقلام والكتب وفناجين الشاي الفارغة. ثمَّ رأت رجلًا يجلس موليًا ظهره لهما، ينكفئ على آلةٍ كاتبة، وركبتاه ترتدان صعودًا وهبوطًا.

- أديتي، أهذه أنتِ؟ أحضري لي بعض الشاي، من فضلك، فأصابعي الرشيقة على وشك صياغة جملة إعجازية.

تنحنحت أديتي، وقالت: «لدينا ضيفٌ يا شفاعة، أحسِن التصرُّف من فضلك».

استدار الرجل بكرسيه، واستطرد: «أنا غاية في الأسف، يا لوقاحتي. مرحبًا، أنا شفاعة. شفاعة رحمان».

- إنَّ شفاعة هو مُحرِّرنا.

- مُحرِّر، ومراسل، ومدير، وساعي.

قالت مايا: «حسنًا، على ما يبدو لستَ أنتَ الساعي».

أجابها الرجل: «أجل، لقد كشفتِ نقطة ضعفي. ماذا عساي أن أقول، أُحب إملاء الأوامر. ولكن لا تقلقي، لا أحد يستمع إلى أوامري أبدًا».

أشعل سيجارةً، وتركها تتدلَّى من طرف فمه. ثمَّ استطرد: «إن الإصدار التالي سيصدر في غضون أسبوع. إليكِ مُخطَّط التصميم».

وناولها كُتيِّبًا طُبع على ورقٍ رخيص، فأخذت تتصفَّح المقالات. وجدت مقالًا يتحدَّث عن ثروة الديكتاتور، وآخر يفضح الفساد في الجيش. وينتهي الكُتيِّب بخطبةٍ عصماء عن التغييرات المقترح تطبيقها على الدستور.

- أيمكنكَ طباعة هذا؟

ابتسم الرجل من خلف شفتين سوداوين مُلطَّختين بالتبغ، وأجاب: «كلا، ولكننا نطبعها».

- ألن يُقبض عليكم؟

- أجل، ولكن من يخشى قضاء بعض الوقت مع العم؟

لمَّا قلَّبت الصفحات، نزف الحبر على أصابعها. جالت ببصرها حول الغرفة، وغرقت في آلات الكتابة، وأكواب الشاي الفارغة، والأرض التي تناثرت

عليها قصاصات الورق، وللمرَّة الأولى منذ عودتها إلى المدينة، شعرت مايا بموجةٍ من الانتماء.

- أخبرتني أديتي أنكِ كنتِ مسافرة؟
- لقد عشتُ في راجشاهي لبضع سنوات.
- حقًّا؟ هل لديكِ عائلةٌ هناك؟
- كلا، عائلتي هنا.

يمكنها أن تُحصي جميع أفراد عائلتها على أصابع يدٍ واحدة.

- إذن سافرت كل تلك المسافة إلى منتصف البلاد، من أجل ماذا؟

تطلَّعت مايا إلى أديتي، ثمَّ أجابت: «كنتُ طبيبة في حملات «الصليب الأحمر»».

- أخبرتني أديتي أنكِ تودِّين الكتابة.

كان هذا ما قالته لأديتي، حين هاتفتها وسألتها إن كان بإمكانه زيارتها في مقرِّ الجريدة. وفجأةً، بدت غير واثقةٍ ممَّا تريد؛ لقد مرَّت سنواتٌ منذ أن أمسكت بقلمٍ.

- حسنًا، أظنُّ ذلك. لقد كتبتُ بعض المقالات في أثناء الحرب.

أشعل شفاعة سيجارةً أخرى، وألقى بعود الثقاب إلى الأرض، وهو يقول: «ألديكِ شيءٌ تريدين قوله؟».

في تلك الأثناء، دخل فتًى صغير يرتدي صدرية رثَّة وتنُّورة رجالية، حاملًا معه عصا مكنسة طويلة وجاروفًا وشرع يزيح الغبار إلى أركان الغرفة.

- في ظنِّي، أمورٌ حول حياة القرية.
- أتقصدين كل هذا الهراء الرعوي عن مدى حُبي للريف؟

أجابت مايا:

- كلا، لا شيء من هذا القبيل. بل أعني كل ما يدور هناك حقيقةً، شيءٌ أشبه بالمُذكِّرات. لقد عشتُ هناك سبعة أعوام، ورأيتُ الكثير.
- حسنٌ، 500 كلمة تُسلَّم الأسبوع المقبل. ولنرى ما ستأتين به. ولكن من فضلك، لا تكتبي أي هراء عاطفي عن الوديان الخضراء لراجشاهي، اتفقنا؟

ابتسمت مايا، ثمَّ أجابت: «حسنًا».

- هل أنتِ واثقة أن زوجكِ لن يُمانع؟

سألت مايا:

- وهل يُمانع زوج أديتي؟

تطلَّعت إليهما أديتي من مكتبها، وقالت: «إنه منشغلٌ للغاية في لعب الجولف. وأكتفي بتجاهله فحسب».

سأل شفاعة: «إذن، هل سيمانع زوجكِ؟».

أجابت أديتي:

- توقَّف عن إزعاجها يا شفاعة، إنها ليست متزوِّجة.

رفع شفاعة حاجبيه دهشةً. وتصوَّرت مايا ما يُفكِّر به الرجل: فتاةٌ مسكينة، ما تزال تعيش بلا زوج. لكنه أدهشها حين رفع إليها إبهامه تشجيعًا، ثمَّ قال: «لديَّ ابنة، وأقول لها ألا تتزوَّج إلا حين تلتقي بأمير أحلامها. أما ما دون ذلك، فالرجال أوغاد».

أردفت مايا: «يا إلهي! يمكنني تسجيلك الآن كأول رجل يناصر النسوية في بنجلاديش».

أجابها، وهو يضرب الطاولة بقبضته: «افعليها! وسننشر إعلانًا رسميًّا في العدد المقبل».

علَّقت أديتي بجفاء: «ستصير شخصيةً شهيرة. والآن تعالي معي يا مايا، سأُريكِ بقيَّة مؤسَّستنا المتواضعة».

سارت الفتاتان عبر ممر، ومنه دخلتا إلى غرفة أصغر مساحةً. يستقرُّ مكتبٌ في مؤخِّرة الحجرة، ومن فوقه صندوقٌ مستطيلٌ كبير.

قالت أديتي: «من الأفضل لكِ أن تحترسي من شفاعة، إنه لعوب».

- إنه يُذكِّرني بشقيقي.

كان ثمَّة شيءٌ حيال الطريقة التي صفق بها المكتب بيده، أعادت إلى ذاكرتها لمحة من سهيل.

- حقًّا؟ ظننتُ أن شقيقكِ اتخذ طريق التدين.

- كان مختلفًا عن ذلك من قبل.

بيد أنه ما من أحدٍ يتذكَّر سهيل القديم. لقد سمعوا أنه قد صار «مولانا» ونسي ما كان عليه حاله من قبل. وحدها مايا التي أرشفت صورته؛ يداه المُقحمتان في سرواله الجينزي، والقبعة التي يعتمرها ذات النجمة الحمراء في المنتصف.

أرتها أديتي آلة تنضيد الحروف. كان عليها أن تأخذ كل حرفٍ من كل كلمة وتُخدِّده بدقَّة في تجويفه. ثمَّ تُغمس الكلمات في الحبر، وتُكبَس على الورق.

قالت أديتي: «جرِّبيها».

فسحبت مايا بضعة حروف، ورتَّبتها على صينية. ثمَّ غمستها في الحبر الأسود. **اسمي-هو-مايا-حق.**

علَّقت أديتي: «عليكِ أن تتذكَّري المسافات بين الكلمات أيتها الطبيبة».

***

كانت مفاتيح الآلة الكاتبة مُتراصَّة بإحكام. ربما تُكِنُّ الغضب لمايا إزاء كل تلك السنوات التي قضتها أسفل فراش أمها. انقضى وقتٌ عجزت فيه ريحانة عن انتزاع الآلة من ابنتها؛ فكانت تأتي بها مايا إلى الطاولة وتنقر عليها في أثناء تناولها العشاء. وحين لا تلتزم النقر على المفاتيح، كانت تُخربش على أي شيءٍ تجده، جريدةٌ قديمة، قصاصةٌ من ورقٍ بني تُغلَّف به الخضراوات. والآن وجدت نفسها تُجاهد لإيجاد الكلمات. «**سجلات طبيبة في الصليب الأحمر؟**» يبدو هذا عنوانًا مُبالغًا فيه، فلا شيء نبيل فيما فعلتْ. وشرعت مايا بالكتابة عن الديكتاتور، وعن مشاهدتها له وهو يُلقي بالزهور على النصب التذكاري للشهداء. ثمَّ مزَّقت الورقة من الآلة الكاتبة؛ لا أحد يريد القراءة عن هذه الأمور. أمامها خمسمائة كلمة عن قصة حقيقية وقعت أحداثها في الريف. قصةٌ حقيقية. استرجعت مايا جميع الأطفال الذين ساعدت في ولادتهم إلى هذا العالم، وجميع الأمهات التي عجزت عن إنقاذهن. فكَّرت في نازْية؛ نازْية التي عُوقبت لأنها أرادت ترطيب قدميها بالماء في أشدِّ الأيام حرارةً في العام. شرعت تكتب من جديد. «**ذات يومٍ عرفتُ فتاةً تُدعى نازية**». فيما كانت تُفكِّر، لا يمكنها استخدام الأسماء الحقيقية. نازية. زانية. إيناز. أيزان. كتبت: «**ذات يومٍ عرفتُ فتاةً تُدعى أيزان**».

***

1972
أبريل (نيسان)

لم يسع أصدقاء سهيل أن يتفهَّموا تبدُّل حاله، وهذا لأنهم لم يفطنوا حقيقةً لما حدث من قبل. ظنُّوا أن حياته مملوءة بالسعادة؛ وكثيرًا ما استخدموا كلماتٍ مثل «مَرِح ومبهج» لنعته. خَلِيَّ البال، سعيدٌ ومحظوظ، مرِحٌ وضحَّاك، يرتدي السراويل الواسعة، مُحبٌّ للرقص والموسيقى الصاخبة. قبل أن يجد الله. يذكرون كم كان وسيمًا، وكيف كان يُبدي أسنانه حين يبتسم.

لو أنهم كانوا يعرفونه حقَّ المعرفة، لرأوا أن أسنانه وابتسامته وسعادته وحظه قد سلبتها الحرب، وأعيتها فتاةٌ حَلق مختطفوها رأسها فلا تشنق نفسها. أما إلقاء الموعظة، والحديث من وراء حجاب، فقد أعقب كل هذا تغيُّره بطبيعة الحال، وملء الفجوة التي أحدثتها عمليات تمرُّده القديمة.

تخبَّطت ذكريات الناس فيما يتعلَّق بأمر **الكتاب**[1]. وظنُّوا أن سيلفي قد منحته الكتاب وحدَّثته أن يقرأه، وهذا لأنه بنهاية الحرب، كانت سيلفي قد فقدت زوجها ووجدت الله، وتحدَّت الجميع، لتكون أول من غطَّت رأسها، وأولت دبرها لبلدها، لتستقبل الحياة الآخرة.

(1) المقصود به هو القرآن الكريم. (المترجمة)

لكنها ريحانة هي من منحته الكتاب، بعد عودته من الحرب بأشهرٍ قليلة. وإليك كيف حدث الأمر.

***

كان يوم أربعاء، يوم التسوُّق في أسبوع ريحانة، وكانت تتجول في أنحاء السوق الجديدة، متسائلةً كيف ارتفعت الأسعار المرتفعة أصلًا منذ الأسبوع الماضي، ومتسائلةً أيضًا كيف سيتسنَّى لها تحمل شراء دجاجة ونصف فخذ من لحم الضأن، حين رأت شخصًا مألوفًا على الجانب الآخر من الطريق. إنه ابنها. كانت قد ألقت نظرةً سريعة خاطفة على الشابِّ، لكنها تأكَّدت من هويته. كان يترجَّل من عربة ريكاشة، فرفعت يدها، وأوشكت على مناداته، لكنه تجاوز النظر إلى ما هو أبعد، وتغيَّرت ملامح وجهه. عبر الطريق، مقتربًا منها لكنه لا يراها، وصار في هذه اللحظة كلا الضِّدَّين في نظرها: ابنها وليس ابنها، وهو يسير مباشرةً نحوها. استدارت ريحانة لترى ما يراه: رجلٌ في عربة ريكاشة أخرى. اقترب ابنها من الرجل، ودون أن ينطق بكلمة، جره خارج عربة الريكاشة ولكمه في وجهه. ثلاث مرَّات، ثلاث لكمات. ثمَّ استدار وسار نحوها، تموجُ العضلات في ظهره، مُخبرةً إياها أن ابنها يعرف هذا الرجل، وأن هذا الرجل قد جاء بأفعالٍ شنيعة، وأن ابنها قد رأى تلك الأفعال الشنيعة، وأدركت في هذه اللحظة أن هذه هي الرؤى التي تجعله يقطع الردهة ذهابًا وإيابًا في الليل، الرؤى التي تترك وسادته مبلَّلة وفمه متيبِّسًا كالحجارة، حتَّى وهو يُحاول أن يبتسم ويتصرَّف كأنما كل شيءٍ قد عاد إلى طبيعته.

لم تدرِ ريحانة ماذا تفعل، وهذا لأنه قد طلب منها ألا تتحدَّث عن أمر الرؤى أبدًا، وهكذا اهتدى بها الحال إلى أن تُهديه المُصحف الشريف. فقد أعانها القرآن الكريم على المُضي قدمًا في الكثير من الأوقات الحالكة، الأوقات التي تصوَّرت أنها لن تنجو منها. غير أنه هزَّ رأسه رفضًا للهدية، هذا لأنه اهتدى إلى اعتقاد أن القرآن الكريم كان جزءًا من المشكلة، قبل الحرب، وقبل استقلال بنجلاديش. لأن الناس مُرتبطون بالقرآن الكريم، أو بفكرتهم عنه، أكثر من ارتباطهم ببعضهم، أو بجيرانهم، أو ببلدهم. لقد أطلقوا على أنفسهم الثوريين، وآمنوا أنهم ترفَّعوا عن عقيدة الإيمان، وأن السلوان والمواساة إنما

جُبلت لأجل العقول الدونية البسيطة. وفي نهاية الأمر، أعرض سهيل بوجهه عن المصحف، ولوَّح لأمه بالانصراف.

جُرحت مشاعرها بتصرفه، هذا لأنها أيضًا تحمل في قلبها ذكرياتها، وذكرياتٍ لابنها، صبيٌّ لن يتجاهل والدته، صبيٌّ لن يضرب غريبًا في الشارع. لم تتفاجأ حين شهدت ابنها يرتكب أفعال عنفٍ، بل ما استغربته هو عجزها عن تفسير طموح ابنها المُعلَّق لمدَّة طويلة بعد انتهاء المعركة.

تجاهل سهيل المصحف، وتركه يحشد الغبار على سطح مكتبه، ثمَّ رفعه إلى رفٍّ عالٍ، حيث لا يظلُّ كعبه في مرمى بصره.

ثمَّ قرَّرت ريحانة أن تقرأ عليه القرآن الكريم، وقالت: «لستَ مضطرًّا للاستماع، اجلس معي فحسب».

***

هكذا بدأ الأمر. وكم تتألم حين تتذكَّر ما حدث، لأن كل ما حدث بعد ذلك يمكن إرجاعه إلى خطوات سهيل الأولى في طريقه نحو الله، بدءًا من المصحف الشريف الذي أهدته إياه، وحشد الغبار على رف مكتبته، وانتزعته هي من بين أشعار نيرودا وغالب، ثمَّ قرأته بصوتٍ عالٍ وهو يتناول فطوره، وصار عاجزًا عن المقاومة، وشرع يحفظه عن ظهر قلب، ثمَّ يتدبره، وعندئذٍ بزغ حبه في قلبه، وأخيرًا استقر في قلبه حين تعلم تلاوته، ونُسجت كلماته في جنبات فؤاده، أفضى هذا إلى نزول الوحي وهدايته، الكيمياء التي لم يتسنَّ لأحدٍ من أحبابه أن يقتفي أثرها للحظة بعينها، أو لبادرة منفردة.

***

1984

يونيو (حزيران)

بعد عدَّة أشهر من حفل شوتو وسايما، هاتفها جوي يحمل إليها دعوةً أخرى.

قال: «أرى أن الحفلات ليست أنشطتكِ المفضلة، أليس كذلك؟».

فأجابته: «وهل كانت نشاطك المفضل؟».

كم أسعدها سماع صوته، فتابعت: «لِمَ لمْ تُهاتفني؟».

أجاب ضاحكًا: «كنتُ أنتظر الفرصة المناسبة، وها هي جاءت في وقتها».

- حقًّا؟ وما هي؟ لا تقول لي إنها أمسية أخرى من الويسكي والرقص؟
- مايا الطنَّانة، إن قلبكِ أقسى من مكعبات السكر. كلا، هذه أمسية مختلفة تمامًا. ظننتُ أنكِ قد تُحبِّين رؤية الجانب الآخر.
- الجانب الآخر من ماذا؟
- أُناس يشاركونكِ الاهتمام بالأمور نفسها.

- كلا، شكرًا لك. لقد التقيتُ بأُناس كهؤلاء بالفعل. أتذكر أديتي التي التقيتُ بها في الحفل؟ لقد أخذتني إلى مقرِّ جريدتها. ومنحني المُحرِّر عمودًا أكتب فيه.

- شفاعة؟

- أتعرفه؟

- الجميع يعرفه.

لم تُعجبها النبرة التي نطق بها كلمة «الجميع». وأوشكت على مشاركته ما في قلبها، حين أضاف: «أنا أتحدَّث عن الثوريين الحقيقيين. اسمعي، لن تندمي. سأصحبكِ عند الثالثة».

وقبل أن يتسنَّى لها الجواب، أغلق الخطَّ. ثوريون حقيقيون! كان يعلم أنها لن تُقاوم ما قاله، حتَّى لو كان مُجرَّد مزحة. الجميع يعلم أنه لم يعد هناك أي ثوريين حقيقيين، لا في دكَّا، ولا في العالم بأكمله. ففي نهاية المطاف، صرنا الآن في العام 1984.

توجَّها بالسيارة إلى «كولاباجان». وقدَّمت المرأة التي أجابت طرقاتهما على الباب نفسها، باسم موهونا. قادتهما عبر ممرٍّ غير مُضاء تفوح منه رائحة الكتب القديمة والرطوبة، بعد أن قالت: «تفضَّلا معي».

ينتهي الممر بغرفة استقبالٍ ذات نوافذ كبيرة على جانبٍ واحد منها. تسلَّقت نباتات المال عبر شبكات التهوية والتصقت بالسقف. وجدا عددًا من الناس هناك بالفعل، يجلسون في دائرة متسعة. مضى على مايا وقتٌ طويل منذ أن حضرت اجتماعًا، لكن المشهد كان مألوفًا لها: نسوةٌ يرتدين سواري قطنية بسيطة بلا نقوش، وأثاثٌ مُتفرِّق من ألياف القنَّب، ورائحة الورق والبخور. سارت مبتعدةً عن جوي، وجلست إلى جانب رجلٍ يرتدي زيًّا رسميًّا. ثمَّ قالت، مستخدمةً اسمها الرسمي: «مرحبًا، أنا شهرزاد».

فأجابها وهو يومئ في تحية: «أنا الملازم ساركر. هل حضرتِ الاجتماع من قبل؟».

- لا، هذه هي مرَّتي الأولى.

- ستحضر چاهانارا إمام[1] اليوم.

اتسعت عينا مايا دهشةً، وقالت: «حقًا؟».

ألَّفت چاهانارا إمام كتابًا عن فقدان ابنها في الحرب. قرأ الجميع هذا الكتاب؛ وأطلقوا عليها بالبنغالية «شهيد جاناني» أي **أم الشهداء**. كان جوي مُحقًّا في إحضارها إلى هنا، ربما أمكنها أيضًا الكتابة عن هذا اللقاء لصالح الجريدة. استرخت في كُرسيها، وأخرجت مُفكرتها. سرعان ما امتلأت الغرفة؛ ولمَّا نفدت الكراسي، استند الناس على الحائط أو جثموا على الأرض.

قال الرجل العسكري مشيرًا إلى امرأةٍ مسنَّةٍ شغلت مقعدها للتَّوِّ: «هذه هي».

انعقد اللقاء وتقلَّدت موهونا أواصره. رحَّبت بالجميع، من بينهم الأفراد الموجودون للمرَّة الأولى، وهي تومئ إلى مايا. كان جوي قد وجد مقعدًا في الصفِّ من خلفها، فنقر على كتفها وقال: «ماذا قلتُ لكِ؟».

نهضت چاهانارا إمام عن مقعدها. ضئيلة البنية، تتشح بساري قطني أبيض، وعلى تلك الهيئة بدت واهية، مثل سحابةٍ من الدخان. غير أن لها صوتًا حازمًا، وكلماتٍ ثاقبةً. وهكذا استهلَّت حديثها:

- لقد مضت ثلاثة عشر عامًا، لكني أعرف جيدًا أنكم مثلي، لم تنسوا. مضت ثلاثة عشر عامًا وحربُنا لم تنتهِ بعد. ربما نِلنا حريتنا، وربما يتسنَّى لنا أن نرفع رؤوسنا عاليًا ونقول إن لنا وطنًا، وطننا. لكن أيُّ وطنٍ هذا الذي يسمح لرجال خانوه، رجالٍ ارتكبوا جرائم القتل، أن يفلتوا بفعلتهم، أن يعيشوا مُجاورين للنسوة اللاتي تسببوا في ترمُّلهن، وللشابَّات اللاتي اغتصبوهن؟

ثمَّ سردت قصة «غلام أعظم[2]» وما كان من أمر سفَّاحيه الذين تعاونوا مع الجيش الباكستاني، وقادوهم إلى مخابئ الفدائيين، وساعدوهم في حرق

---

(1) Jahanara Imam: كاتبة وناشطة سياسية بنجلاديشية. عُرفت بجهودها المبذولة في سبيل محاكمة من اتُّهموا بجرائم الحرب في أثناء حرب التحرير. (المترجمة)

(2) Ghulam Azam: زعيم وسياسي بنغالي، وكان أميرًا للجماعة الإسلامية البنغالية حتَّى عام 2000. وأهم ما يميِّز مسيرته هو معارضته لاستقلال بنجلاديش عن باكستان قبل وفي أثناء حرب تحرير بنجلاديش عام 1971. (المترجمة)

القُرى. لم يُبرَّأ غلام أعظم من أي جُرمٍ فحسب، بل سيُنظر أيضًا في أمر منحه الجنسية البنغالية.

دومًا ما تزهو مايا بنفسها حين تتذكَّر تمامًا ما كانت عليه قبل اندلاع الحرب. تذكر جيدًا آراءها السياسية، ووعودها التي قطعتها لنفسها بشأن هذا البلد. تذكر رؤية قتلى من الرجال مُكبلي الأيدي وراء ظهورهم، ووجوههم مُخضَّبة بالدماء، لا يأتي عليها يومٌ لا تتذكَّر فيه عملها في المخيَّمات، وانتزاع الرصاصات من أجسام الرجال وهي لا تملك سوى ملعقةٍ وسكين صيد.

تذكر مايا كل شيءٍ فعلته، ماهيتها وما كانت عليه، وما أقسمت أن تظلَّ عليه. أما الآن، إذ تستمع إلى هذه المرأة، شعرت بنفسها تُسحب وتُودع في جسدٍ آخر، جسد لم يعِش وحيدًا طوال كل تلك الشهور والسنين، جسد لم يرحل عن منزله ويُهان بلا اكتراث على مدار العِقد الماضي، جسد يتسنَّى له حشد ذكريات ذلك الزمان، وإشعال جزوة الغضب حين تأتي لحظته.

صفَّقت مايا مع الآخرين، من بين عبارات چاهانارا إمام. وصارت الغرفة تضجُّ بالحرارة، إذ تسرَّب شعاع الشمس البرَّاق عبر أجمة نباتات المال، فأشعل أحدهم مروحة السقف، وأعادت النساء تهيئة أنفسهن إذ انفرجت طيَّات سواريهن. وأمسكت مايا بورقات مفكرتها.

لمَّا انتهت چاهانارا إمام، نهضت موهونا مجدَّدًا، واستهلَّت الحديث: «كم منكم قد فقد عزيزًا في الحرب؟».

رُفعتِ الأيدي، وتبعتها يدُ مايا أيضًا.

قال رجلٌ في حُلَّةٍ رمادية: «يا سيدتي، لقد فقدتُ أبي وأمي. ذهب القتلة إلى الجامعة وأطلقوا الرصاص على الأساتذة».

ومن مؤخِّرة الحجرة أضاف صوتٌ آخر: «كان أقربائي يعيشون في «دكَّا القديمة». لقد قتلوا عمي وجدي».

رفع المزيد من الحضور أصواتهم بالحديث، مُعلنين تواريخ خساراتهم وظروفها وأحوالها. منهم من وقع ضحية في مرمى الرصاصات المتبادلة، ومنهم من أُطلق عليه الرصاص من الجيش جرَّاء غارةٍ على قريتهم. ومنهم من عُذِّب حتَّى الموت في الثكنات العسكرية.

أجبرت الاعترافات مايا على أن تقبض بيدها على الطرف الأسفل لمقعدها. هل على كل واحدٍ أن ينهض ويعترف بكل من فقدهم، وما فعلوه تحديدًا،

في الحرب؟ وجدت مايا نفسها ترتجف أسفل طنين المروحة. ثمَّ تحدَّثت امرأةٌ عن توثيق جميع فظائع الحرب، فقالت: «يجدر بنا أن نُعِدَّ قائمة، ونُعلن هويات جميع القتلة».

وجدت مايا نفسها ترفع يدها مثلهم، فأشارت إليها موهونا. وتحدثت مايا فقالت: «أظنُّ -أعتقد- أن أول شيءٍ علينا فعله هو الاعتراف بأخطائنا نحن، بآثامنا وخطايانا نحن. لقد حدث الكثير في أثناء الحرب، ولم نكن مُجرَّد ضحايا فحسب».

غرقت الحجرة في السكون فجأةً.

والتفت الملازم ساركر إليها وقال بلطف: «أنتِ تتحدَّثين إلى غرفة مملوءة بالنفوس الجريحة يا عزيزتي».

أمكنها سماع أنفاس من حولها تتكرر في هدوء، منتظرين مرور اللحظة الحرجة. وأخيرًا نهضت موهونا من جلستها، وقالت: «لكلٍّ منَّا أحزانه الخاصَّة، ولكننا هنا لنتحدَّث بشأن الجهات المشتركة في هذه الحرب. فاسمحوا لنا أن نُركِّز تفكيرنا على المهمَّة المطروحة. إذا وثَّقنا الفظائع على نحو مُنظَّم، فلا شك أن غلام أعظم سيُحرم من حقِّ البقاء في بنجلاديش».

ارتفعت الأصوات مجدَّدًا، وهُجرت مايا إلا من ألمٍ حادٍّ أسفل ضلوعها. فكَّرت في خسائرها الخاصَّة التي نهبتها منها الحرب، وفكَّرت في السبب الذي من أجله رفعت يدها. لكنَّ ثمَّة أمورًا أخرى أيضًا أقدمت على فعلها، وها هي تعود إليها الآن، ذكرياتٍ واضحة ومؤلمة. التفتت إلى جوي، وهمست: «عليَّ أن أُغادر».

- انتظري! كاد الاجتماع ينتهي. عشر دقائق أخرى.

عجزتْ عن الانتظار، فنهضت، ونحَّت جانبًا رُكبتي الملازم ساركر. وفي نهاية الصفِّ، قلبت فنجان شايٍ ينتمي إلى أحدهم، فغرقت الحجرة في صمتٍ تامٍّ مجدَّدًا إثر تهشُّم الفنجان. غمغمت مايا: «معذرةً». وفرَّت هاربة.

خرجت إلى شمس ما بعد الظهيرة التي أخذت في التلاشي، والطريق المزدحم بسلسلة من الشاحنات تتحرَّك بتثاقل. تطلَّعت إلى الأفق، فرأت معمعةً من أكواخٍ بُنيت بالصفيح، ولمَّا اقتربت منها، اكتشفت أنها تمتد إلى ما هو أبعد من الأفق، صفًّا وراء صفٍّ من هياكل معدنية هشَّة المظهر، أُلصقت

معًا بقصاصاتٍ من الورق ومُلصقات السينما والرزنامة والجرائد ومخلَّفات الماشية وعيدان القنَّب. ثمَّ عثرت على قفصٍ مقلوب، فجلست قبالته.

- أنا لا أفهم ما يحدث.

كان هذا حديث جوي، الذي جثا إلى جانبها. فأجابته:

- أنتَ لستَ دليلي السياحي.

- لكنكِ عُدتِ إلى الديار بعد مدَّة طويلة، ولا أريد لكِ أن تأخذي انطباعًا خاطئًا.

فأردفت:

- يسعني أن أُريكَ القليل من الأشياء أيضًا، أتعرف ذلك!

- مثل ماذا؟

أجابته:

- تطلَّع إلى هناك! أتريد أن تعرف أشدَّ ما يؤلم الإنسان الذي يعيش في تلك الأحياء الفقيرة؟ إذا كنتَ امرأةً؟

- ماذا؟

- شُرب المياه.

- لماذا؟ أهذا بسبب المياه الملوثة؟

استطردت:

- هذا سببٌ أيضًا، لكنه ليس السبب الأهم. ترى لو أنكَ امرأةً وتعيش في ذلك الحي الفقير، فإنك تستيقظ في منتصف الليل والظلمة ما تزال حالكة، وتشق طريقك إلى أطراف الأكواخ، ثمَّ ترفع ساريك وتُقرفص فوق بالوعةٍ مفتوحة. ثمَّ تعود أدراجك حذرًا على أطراف أصابعك إلى سريرك بجوار زوجك. ثمَّ تنتظر لبقيَّة اليوم، تنتظر وتنتظر حتَّى يحل الظلام مجدَّدًا، وتشعر بوخز الإبر ينخر معدتك، وأحشاؤك تشتعل نارًا، ولا يسعك أن تفعل شيئًا، بلى، لا يسعك أن تفعل شيئًا، بل عليك أن تنتظر حتَّى يحلَّ الظلام ويخلد الآخرون جميعًا إلى النوم، ليتسنَّى لك أن تتبوَّل بولتكَ الوحيدة لليوم.

نكس رأسه، ثمَّ رأت مايا يده تتحرَّك نحو يدها، فأبعدت يدها عنه؛ لم تُرِده أن يظن بأن بادرته هذه هي طريقةٌ لتسوية الأمور، للتخفيف من قسوة

البلاد، وتقبُّل هروب المشاركين في اندلاع الحرب وتملُّصهم من السجن جزاءً لجرائم القتل والاغتصاب؛ هذا لأنه ثمَّة أمور يتعذَّر محوها بضمة يدٍ، أمور مثل الذكريات والآثام وأوضاع البشر وظروفهم الإنسانية.

التفتت إليه وقالت: «أنا لم أُخلق للجلوس في الاجتماعات».

- لا يجدر بكِ المشاركة فيها، فأنتِ تجادلين كثيرًا.

فأجابته ضاحكة: «هذا صحيح». ثمَّ مالت إليه وأضافت: «اعثر لي على عربة ريكاشة».

- اسمحي لي أن أصحبكِ، واستفيدي من مهاراتي كسائق سيارة أجرة.

***

أنهت مايا لتوها تعليم زيد الأرقام باللغة الإنجليزية، من واحدٍ إلى عشرة، وكان يُكرِّرها على مسامعها بصوتٍ عالٍ ومعتزٍ بنفسه، حين دق جرسُ الهاتف. تطلَّعت إلى ساعتها -إنها الرابعة- لا بُدَّ وأنها مكالمةٌ لفتاة الطابق العلوي، رغم أنه لا أثر لها في المكان. التقطت مايا سماعة الهاتف مُجيبةً: «مرحبًا؟».

كان خط الهاتف غير مستقر. لكنها سمعت صوت امرأةٍ يقول: «مرحبًا؟ مايا؟».

نازْية.

- نازْية؟

وطار قلبها فرحًا.

قالت المرأة مخاطبةً إياها بنبرةٍ رسمية: «مايا، أختاه. هل أنتِ بخير؟».

- أجل، أنا بخير.

- ووالدتكِ؟

- إنها بخيرٍ أيضًا. كيف حال أطفالكِ؟

سمعت مايا صوت نازْية تُنظِّف حلقها قبل أن تُجيب: «لقد وصلني خطابكِ، أقصد خطابيْكِ. كلاهما».

حاولت مايا أن تسترجع ما كانت قد كتبته: الشروح الطويلة الملتوية والاعتذارات. ثمَّ قالت: «كان لديَّ الكثير لأقوله».

نفثت نازية زفيرها في سماعة الهاتف، وجاوبتها: «آسفةٌ لأنكِ اضطررت للرحيل بتلك الطريقة».

- كان هذا خطئي. ما كان يجدر بي أن أدعكِ تسبحين في البحيرة.

خيَّمت فترة صمت قبل أن تستأنف نازية الحديث: «سأعود إلى المنزل اليوم، هذا ما قاله الطبيب».

أبقيت طوال كل هذا الوقت في المشفى!

قالت مايا: «سيسعد الأطفال برؤيتكِ للغاية».

- عليَّ إغلاق الخطِّ الآن.

قالت مايا: «حسنًا».

لسببٍ ولآخر، ودَّت مايا أن تُضيف «في أمان الله»، ولكن قبل أن يتسنَّى لها إضافة كلمةٍ أخرى، أُغلق الخطُّ. ضغطت عدَّة مرَّاتٍ على سماعة الهاتف، لكنها لم تتلقَّ سوى الصوت غير المستقر، ولا حتى طنين الاتصال.

***

- زيد، ماذا تعرف عن جدِّكَ؟

- أعرف أنه مات.

- هذا صحيح. أتعلم أن ذقنكَ يُشبه ذقنه؟

كان هذا تشابهًا مُحدثًا.

- حقًّا؟

وضعت إبهامها على انبعاج ذقنه، ثمَّ أجابت: «أجل، إنهما متماثلان تمامًا».

استقلَّا معًا عربة ريكاشة إلى المقابر. كان زيد ينتعل صندلًا اليوم، وبدلة كورتا نظيفة تفوح برائحة الصابون الصناعي. وبالكاد استطاع أن ينطق بالكلمات المخطوطة على شاهد القبر: «**محمد إقبال حق**».

قالت مايا: «أتعلم أنني كنتُ في عمركَ حين تُوفِّي والدي؟».

- هل بكيتِ؟

- كلا، لم أبكِ. لم أكن أعلم مقدار الحزن الذي يجب أن أشعر به.

- ولا أنا أيضًا.

هي تعرف؛ فقد شاهدته وهو يتحدَّث عن أمه، وهو يصب كل آماله وتفاؤله فيما تركته له من تذكارات؛ لوح اللودو، ووعودها بإلحاقه بالمدرسة.

استأنفت مايا الحديث: «كانت أمكَ غاية في الجمال. لها عينان رماديتان، مثل عينيكَ تمامًا».

أخذ يدور حول القبر، وينقر بيده على شاهد القبر كلما مرَّ به.

سألت مايا:

- أتريد أن تقول شيئًا لأمكَ يا زيد؟

- هذا ليس قبرها.

- صحيح، ولكن يمكنها أن تسمعك. ماذا تريد أن تُخبرها؟

توقَّف وجثا على الأرض، ثمَّ قال:

- أماه، أودُّ الحصول على درَّاجة.

ثمَّ بسط يديه على هيئة الدعاء، كما تعلَّم، وراح يُردِّد كلمة التوحيد.

***

في أثناء نومها تلك الليلة، مدَّدت مايا قدميها إلى حافة الفراش، لتجد نفسها تصطدم بشيءٍ دافئ. جلست مستقيمة، ومدَّت أصابعها لتستكشف الأمر. شيءٌ يتخذ وضع الرضيع، يأخذ شهيقًا وينفث زفيرًا. لا بُدَّ وأنها تحلم؛ أشعلت الضوء. إنه الصبيُّ، يروِّح عن وجهه بيده، ولا يُحرِّك ساكنًا. كست جسده بالغطاء، فتململ، وجذبه ليُغطِّي رأسه. وفي الخارج، يُدغدغ ضوء القمر أشجار الحديقة.

ولاحقًا لمَّا صُبغت الحجرة بضوء القمر، جذبته أسفل الناموسية، وتكوَّرت حول جسده، فاستشعرت كتفيه تنبسطان، وقدماه تنزاحان نحوها.

***

في اليوم الأخير من شهر يونيو، لمَّا أوشكت حرارة الربيع الحارقة على إفساح المجال للرياح الموسمية، أقنعت ريحانة ابنتها بالخروج من المنزل وصحبتها لتقف أمام أجدد بنيانٍ في المدينة وأعظمها شموخًا.

علَّقت مايا وهي تحجب عينيها عن المبنى: «أكرهه. إنه قبيح».

- بربِّكِ يا ابنتي، لا تكوني قاسية الحُكم.

- قبيح.

وأدارت رأسها، محاولةً استيعاب المبنى بأكمله، حريصةً على ألا يفوتها منه شيء. ثمَّ تابعت سائلة: «أهذه مياه؟».

- أجل، لقد بُنِيَ على بركة ماء، مثل زهرة لوتس زرقاء تطفو سابحةً في النهر.

- ولماذا بُنِيَ ضخمًا هكذا؟

- لا يُهِمُّ، إنه مبنى برلماننا الآن. بناه ذلك الشاب الأمريكي اللطيف.

- حسنًا، لا يُعجبني.

ألقت مايا بتعليقها، ومع ذلك تقدَّمت إلى الأمام، تصعد درجات السُّلم الواسعة التي تؤدِّي إلى المبنى. ثمَّ أضافت:

- أين المدخل؟

- لا أدري. لا يُفترض بنا أن ندخل؛ بل نكتفي بالإعجاب به من هنا.

أولتا ظهريهما إلى المبنى، وأخذتا تتشرَّبان مشهد الأراضي المحيطة. امتدَّت المروج على الجانبين، حتَّى وصلت إلى ضاحية «شيري بانجلا نجار» في الشرق، وطريق ميربور في الغرب. كان منظرًا خلَّابًا، لا يتسنَّى لأحدٍ أن يُنكر هذا. تبدو الأشجار المحيطة بالمُجمَّع عتيقة. وفي أنحاء المروج، يتناثر الأزواج ممسكي الأيدي، يُحاولون الاحتماء بظل شجرة. وعلى رقعةٍ من العشب بالقرب من الطريق الرئيس، نصب بائع «فوتشكا» متجول عربته. لوَّح لهما يُغريهما بالقدوم إليه، فسألت مايا أمها: «جائعةٌ يا أمي؟».

اتخذتا مجلسهما على الكراسي الخشبية الخشنة، وطلبتا طبقين. شرعت الشمس في هبوطها السريع، تنشر أشعَّة من الضوء على امتداد السجادة الخضراء الواسعة التي تؤدِّي إلى المبنى الضخم. وفجأةً، أرادت مايا أن تكون في مكانٍ آخر غير هذا؛ تألَّمت عيناها إذ حُرِمَت من بساتين راجشاهي، ومنزلها الحجري الصغير. تساءلت في قرارة نفسها عمَّا إذا كانت نازْية ستُهاتفها مجدَّدًا، وتصوَّرت ما ستكابده من عناء لتنقد ساعي البريد، لتدفعه إلى الاتصال بالرقم. نطقت مايا بغتةً: «كانت تلك القرية الصغيرة بمنزلة

وطنٍ لي»، وعيناها معلَّقتان بالمبنى، تُقاومان منحنياته الرمادية، والهيئة التي يطفو بها، راسخٌ ومتين لكنه هشٌّ، على سطح بحيرته أمريكية الصُّنع.

قالت أمها: «يصعب التخلِّي عنها».

حدَّثت مايا نفسها: «ما يزال بوسعي العودة، يمكنني حزم حقيبتي مجدَّدًا، والخروج من الباب، وأصبح طبيبة ريفٍ مرَّة أخرى».

وصلت أطباق الفوتشكا، دزينةً من القواقع، تُملأ الواحدة منها بخليطٍ من الحمص والبطاطس. غمست مايا واحدةً في ماء التمر هندي، ثمَّ قذفت بها في فمها. وسرعان ما أضاءت عيناها بالدموع، وهي تقول مبتسمةً في لذَّة: «مممم».

علَّقت ريحانة: «مهلًا. لقد أضاف الكثير من الفلفل الحار».

ولوَّحت إلى بائع الفوتشكا. عاجلتها مايا وهي تمسح عن عينيها الدموع المنهمرة: «كلا يا أمي، اتركيها، إنها لذيذة للغاية. حقًّا. مضبوطة المذاق».

مرَّرت إليها أمها محرمةً، وهي تتابع: «لقد نسيتُ كم كان مذاقها لذيذًا وشهيًّا».

مرَّ موكبٌ من السيارات بالشارع الواسع أمام مجمع البرلمان. ومن بين قضمات الفوتشكا، تسمع مايا أبواق السيارات وطنين أجراس الريكاشة وهي تأخذ منعطفًا أو تُبدِّل حاراتها، وكل بضع دقائق، تميل حافلة «دانموندي-جازيبور» على أحد جانبيها، بينما يقبض الركاب بالدرابزين كما يُمسك طرزان بغصون الأشجار.

أما الآن، وقد أوشكت قطعة المعجنات على التفتُّت في فمها، وضوء الشمس يتلألأ على استحياءٍ، باللونين الوردي والبرتقالي، على خدِّ والدتها، استرجعت على حين غرَّة كل المرات التي طرق فيها الحب بابها. هكذا كان الحال مع والدتها -ذكرى تتراكم فوق أخرى مثل ريشات طائرٍ جارح- توجد حولها لتُبقي الدفء بداخلها، أو تستعين بها حين تحتاج إلى الطيران. كانت أمها هي الأجنحة التي تُعينها على التحليق، الأجنحةُ بعينها.

راحت مايا ترتشف الشاي الذي أحضره إليهما بائع الفوتشكا، وقالت: «الطريق مزدحمٌ للغاية».

أومأت أمها إيجابًا، ثمَّ أضافت: «كل شيءٍ حولنا في عجلةٍ من أمره. لم تمُر سوى ثلاثة عشر عامًا منذ الاستقلال، ولا يسعكِ أن تتعرفي شيئًا».

ثلاثة عشر عامًا. ها هي أمنياتها المُحطَّمة للبلاد تبلغ ثلاثة عشر عامًا. لا تبدو مدَّة طويلة، ولكن في ذلك الوقت، نشرت الأمة الدبابات في شوارعها ورفعتها منها. ومرَّ عليها القادة، المُنتَخب منهم والمفروض عليها. ثمَّ قتلت اثنين من رؤسائها. وفي مهدها، شرعت الأمة تتفكَّك من جرَّاء نفسها، تقتل العشائر في الجنوب، وتُغرِق قرًى لأجل السدود، وتقتلع الأشجار العتيقة في غابة «مودهبور». يا له من بلدٍ سريع التأثر: سرعان ما يغضب، وسرعان ما يدمر نفسه.

نفدت معجَّنات الفوتشكا، وبَرَدَ الشاي في كُوبيهما. لكن مايا لم ترغب أن يصل اليوم إلى نهايته. فقالت: «أعلم. هيا بنا إلى السوق الجديدة. أريد أن أبتاع لكِ ساريًا».

- لماذا؟

- لأنني فوَّتُ سبعة أعياد ميلادٍ لكِ، وسبعة أعياد، أي أربعة عشر عيدًا، إذا حسبنا العيدين.

ساريًا واحدًا! أدركت مايا إذ نطقت بالكلمة أن ساريًا واحدًا لن يُضفي شيئًا أبدًا إلى كل تلك الأيام التي فوَّتتها. غير أنها أُعجبت بفكرة عودتهما إلى الدكاكين المُفضَّلة لهما في السوق الجديدة، تُساومان باعة السواري الذين يطلبون مشروبات باردة ويستعرضون بضاعتهم على أفخاذ أبنائهم الصغار.

أجابت ريحانة:

- حسنًا. هيا بنا.

انعطف سائق الريكاشة إلى طريق ميربور روود، ثمَّ عبره، مارًّا ببازار «جاوشيا وتشونديني تشوك». وإذ أوشك على الانعطاف إلى السوق، برز حشدٌ من طريق «فولر روود»، حائطًا بشريًّا يسير نحوهم، ممسكًا بلافتة كبيرة ملونة.

قالت مايا: «إنه اتحاد طلاب بنجلاديش».

كانت قد تعرَّفت على شعارهم من أيامها في الجامعة. تقدَّم المتظاهرون رويدًا رويدًا، وأخذوا يشغلون المنطقة أمام بوابة السوق الجديدة. دوت مكبرات الصوت بحوزتهم. وتفاجأت بنفسها تشترك معهم. ثمَّ سألت: «ماذا يريدون؟».

طُمِس صوتاهما وسط الهُتاف. كان ثمَّة شيءٌ حيال طرد نائب رئيس الدولة، وفساد الديكتاتور.

وصلت شاحنة مُغطَّاةٌ بقماشٍ خشن، ثمَّ تدفَّق رجالٌ متشحين بزيٍّ عسكري من الرفرف المفتوح في المؤخِّرة. تراجع المتظاهرون خطوةً إلى الوراء، وهم على حالهم ممسكين باللافتة في خطٍّ غير مستقيم. قال رجلٌ من وراء مُكبِّر الصوت: «نحن هنا في مظاهرة سلمية. ونريد أن يُسمع صوتنا».

رفع أصحاب الزيِّ العسكري دروعهم وهراواتهم.

- يُطالب اتحاد طلاب بنجلاديش...

ولمَّا أخذوا يُملون مطالبهم، بدا ضباط الشرطة مثل ربَّات بيوتٍ غاضبات. وانقضُّوا بهراواتهم على ظهور الصفِّ الأمامي. تداعت اللافتة، وسقطت إلى الأرض، وعلقت بين أرجل المُحتجِّين. تبعثر المتظاهرون في أنحاء الأرض، لكن رجال الشرطة طاردوهم، يضربون ظهورهم بقسوة، حتَّى تقهقروا واحدًا تلو الآخر، وسُحلوا من آباطهم إلى الشاحنة المنتظرة.

رأت مايا صبيًّا يقبض بيديه حول رأسه، والدماء تنساب من بين أصابعه. حاول سائق الريكاشة أن يستدير بعربته، لكن السيارات الكثيرة من ورائه أعاقت حركته، وأغلقت شاحنات الشرطة الطريق من أمامه.

قال السائق، رافضًا أن يقبض أجرته: «أعتذر منكما، ولكن سيتعيَّن عليكما السير. أسرعا، إذا لم تذهبا الآن، فستعلقان هنا ساعاتٍ طويلة».

اتخذتا الممرَّ الترابي واتجها غربًا، بعيدًا عن السوق الجديدة. ومن خلفهما، تصاعدت أبخرة الغاز المسيل للدموع. قبضت مايا على مرفق أمها، وقالت: «أسرعي يا أماه».

واستحال سيرهما لهرولة، وانعطفتا إلى طريق ميربور روود، وأخذتا تعبران الجسر. انعطفتا إلى زاوية، وفجأةً خيَّم عليهما هدوء الشوارع

الجانبية، وما عادتا تريان أثرًا للشرطة. استدارت مايا وعانقت أمها، حتَّى انقطعت أنفاسها، واحتشدت الدموع في حلقها.

قالت ريحانة، قارئةً أفكار ابنتها: «اعتدتِ أن تكوني هكذا».

ضحكت مايا وهي تمسح عنها دموعها، ثمَّ علَّقت سائلة: «هكذا؟ تقصدين فتية مرتاحة البال؟».

- كما لو أنكِ تعيشين فحسب لتكوني في الشوارع.

عادتا إلى الكوخ الصغير. وفي السادسة مساءً، أشعلت مايا التلفاز لتشاهد نشرة الأخبار. شرعت المذيعة الإخبارية، وساريها مُثبَّت بإحكام على كتفها، تنقل أحداث اليوم. كان الديكتاتور قد أعلن عزمه على بناء دولة بنغالية قوية. وأعلن وزير المالية رفض التبادل التجاري مع الهند بشروطٍ غير مواتية. ولم يأتِ ذكر الاحتجاجات، وعمليات الاعتقال أو الضرب.

- أي مذيعةٍ سخيفة هي! أتضع كل أحمر الشفاه هذا، وتعجز عن قول الحقيقة. لا أدري لماذا تحتفظين بهذا التلفاز السخيف هنا.

وصفعت براحة يدها مؤشِّر التلفاز.

كانت ريحانة تكبس ساريًا، وتميل بثقلٍ على الطرف المُجعَّد، فقالت: «لا تُطفئي ذلك التلفاز».

- لا أُصدِّق أنكِ تُصدِّقين هذه الدعاية.

حطَّت ريحانة المكواة منتصبةً وشدَّت قامتها، ثمَّ أجابت ابنتها: «ومن تظنِّين يُحادثني طوال اليوم، قبل عودتكِ؟ لا أحد. اعتدتُ أحيانًا أن أطلب من صوفيا أن تُغنِّي أغنية قروية وهي تزيل الغبار، حتَّى أُدرك أن شخصًا آخر هنا. ثمَّ ابتعتُ التلفاز ولولاه لغرق البيت في الهدوء حتَّى إنني أسمع صوت الفئران تُحاول التسلُّل إلى الداخل. لذا إياكِ أن تقولي لي أطفئيه. سأُشعل التلفاز وقتما أشاء».

ثمَّ صفعت براحة يدها مؤشِّر التلفاز بدورها، جاعلةً الصور تقفز على الشاشة، ثمَّ تختفي. عبثت باللاقط الهوائي، وصاحت: «اللعنة!» لمَّا كانت الصورة تهتز ظهورًا واختفاءً. وأخيرًا، وجدت الإشارة، ولمَّا كانت المكواة ما تزال متصلةً بمقبسها، اتكأت على الأريكة واستمعت إلى نشرة الطقس.

قالت مايا: «لا أريد أن أعود أدراجي».

وكان هذا كل ما في الأمر؛ انقضى كل شيءٍ ببساطة عبارة واحدة. وأثلج قلبُ مايا بالطمأنينة. لن تتوقَّف عن إرسال الخطابات إلى راجشاهي، ولمَّا تتبدل الفصول وتنحسر ذكرى ذلك اليوم، ربما تعود في زيارة قصيرة، وتطمئن على ابنة ساعي البريد، وتُوزِّع القليل من عُلب المضادَّات الحيوية. لكنها ستكفُّ عن تصوُّر إمكانية عودتها؛ وستبقى هنا، وتبدأ حياةً أخرى بما تبقى لها. لن تنسى نازية؛ أما قصَّتها، وجرأتها على السباحة في البركة وجلدات السوط التي دفعت بها ثمن جرأتها تلك، فسيُجرى تدوينها. ستُسرد بالأسود على الأبيض؛ سيقرأ الناس عنها وسيعلمون أن حُرِّيتهم واهية بوهن نسيج الجلد حول كاحلي نازية. لكنها ستبقى هنا، إلى جانب أمها، والديكتاتور على أعتاب منزلهم، والصبي الصغير يحيا في كنفها.

ترقرقت الدموع في عيني والدتها. وقالت: «إنه منزلكِ. ابقي هنا قدر ما تشائين».

ثمَّ تعانقتا، وكانت نشرة الأخبار قد انتهت، وحان موعد برنامج «دالاس». قطعت مايا وعدًا أن تشاهده لو سردت لها والدتها ما فاتها من الحبكة الدرامية. فقالت الأم: «حسنًا، ولكن سنستغرق وقتًا طويلًا، فالحبكة معقدة للغاية».

وبينما رفعت الأم قدمها على طاولة القهوة، لاحظت مايا ورمًا طفيفًا حول حجابها الحاجز. فسألت وهي تربت على بطن أمها: «ما هذا؟».

أجابت ريحانة وهي تُزيح يد مايا بعيدًا: «لا شيء».

- دعيني أرى.

- دعي الأمر وشأنه يا بُنيتي. إنني أكتسب وزنًا فحسب.

وانحنت إلى الأمام نحو التلفاز مجدَّدًا، لترفع الصوت.

***

في تلك الليلة، رقدت مايا مستيقظةً وفكَّرت في سهيل. حينما كانت في السادسة من عمرها وسهيل في الثامنة، أُرسلا بعيدًا ليعيشا مع عمهما

وزوجته في لاهور. لم يكن قد مضى على وفاة والدهما طويلًا، وظنَّ الجميع أنه من الأفضل لو أُرسلا بعيدًا لبعض الوقت حتَّى يمنحا والدتهما فرصةً للتعافي، وبناء حياة جديدة لنفسها. وتكاثر الحديث حول زواجٍ آخر، وإنجاب المزيد من الأطفال، وهكذا سيعرقل وجودهما سير الحياة.

رفضت الأم. ثمَّ ظهر في الأمر قاضٍ، ودعوى قضائية خسرتها الأم.

عاشا في لاهور لعامين برفقة شقيق والدهما فايز، وزوجته بارفين. منزلٌ ضخم شاسع. وكان لها ولسهيل «آية» أي مُربِّية تنام في الشرفة خارج غرفتهما. إن احتاجا إلى شيءٍ، أُمِرَا أن يقرعا الجرس إلى جانب قفل المصباح.

وفي بعض الليالي، تتسلَّل بارفين إلى فراش مايا، وتضع يدها برفقٍ على جبهة الطفلة، معتقدةً أنها نائمة. لكن مايا تسمع تنهيداتها العميقة، تفوح من أنفاسها الهادئة رائحة الدواء، ثمَّ تستغرق الفتاة في النوم على صوت شخير بارفين الخافت.

كانت ذكرياتها طوال هذين العامين مملوءة بصور سهيل: سهيل ممسكًا بيدها على متن الطائرة؛ سهيل راكعًا يعيد إحكام رباط حذائها؛ محرمة سهيل تُطبطب على جفونها؛ سهيل يأمرها بتحرِّي الصمت في المدرسة حتَّى تتعلم ما يُعينها من الأردية؛ سهيل يكسر فطائر الروتي إلى قطعٍ صغيرة من أجلها، ويُراكمها فوق بعضها، تمامًا كما تُحبُّ أن تأكلها.

كان لها الأب والأم والأخ، أقربُ إنسانٍ لها على ظهرِ الأرض، وصديقها الوحيد.

حين عادا إلى دكًّا، لاحظا مبنًى ضخمًا من طابقين يقع حيث كان نصف مساحة الحديقة ذات يوم. أخذتهما الأم في جولة، وأحذيتهما ترتطم على الأرض الأسمنتية العارية. ومن شرفة الطابق العلوي، التي تُحيط بالبناء كما لو كانت أفرعًا من شجرة لبلوب، يمكنك أن ترى السطح المستوي لكوخهم الصغير المتهالك، ومياه الأمطار المتجمِّعة في بِركٍ دبقة صغيرة، والكلس الأبيض مستحيلًا إلى لونٍ رمادي شائب.

لم يتسنَّ لهما العيش فيه؛ هذا لأن أمهما عزمت على تأجيره، وابتياع أشياء لهما بهذا المال. كان هذان الطابقان المنتصبان هما تأمينها وأمانها البسيط؛

ذلك المنزل. أخذت تُردد الأدعية في كل مرَّة تطأ فيها قدماها البناء؛ تُزيل الغبار عن الدرابزين ثمَّ تعيد إزالته؛ تمدُ يدها وتُلامس إطار الباب الأمامي. ثمَّ دفعتهما أخيرًا لتسميته «شونا»، كما لو أنه بُنِيَ من ذهبٍ خالص.

***

الكتاب الثاني

«كلُّ نفسٍ ذائقة الموت»

1984
يوليو (تمُّوز)

قالت الأم: «يا له من أمرٍ جيد أنكِ باقية؛ ستحضرين العملية الجراحية».

لم تنصت مايا إلى الحديث، وانشغلت يداها في تلٍّ من العجين الدافئ؛ فقد كانت الأم تُعلِّمها كيفية صنع خبز الباراثا وسِرَّ إعداده، وقالت إنه يجدر بالماء أن يكون ساخنًا مغليًّا في أثناء مزجه بالطحين. ظنَّت مايا أن أمها تُخبرها بوجوب حضورها زفاف فلان، أو احتفال تسمية ابنة فلان آخر. ثمَّ طرقت الكلمة سمعها.

- عملية جراحية؟

- أنتِ على حق. ذهبتُ في زيارة إلى الطبيب. إن لديَّ ورمًا.

ربتت الأم على بطنها ثمَّ أضافت:

- ورمًا في الرحم. وسيزيلونه.

أمكن مايا تبينه الآن، بروزٌ طفيف عند خصرها. ولم تكن هي الطبيبة التي شخَّصت المرض. تحرَّكت يدا مايا بعيدًا عن العجين، فهزَّت الأم رأسها استنكارًا، وقالت: «خبز الباراثا أولًا، ثمَّ أتركِ تعالجينني».

- منذ متى وأنتِ تعرفين؟

- لم يمضِ وقتٌ طويل.

شرعت مايا في دلك العجين، بقسوةٍ وحنق، وتدفع بيديها في الدفء المطَّاطي لخليط الطحين والماء. ثمَّ أضافت الأم: «يكفي يا مايا. والآن قسِّمي العجين. وضعي حفنة من الطحين على يديكِ، هكذا».

انتزعت جزءًا من العجين، وكوَّرته بين راحتيها، بأصابع مُمدَّدة كأصابع الراقصة، ثمَّ مرَّرت إليها كرةً متقنة الاستدارة.

ثمَّ قالت لابنتها: «المزيد من الطحين». ودفعت إليها بمرقاق العجين.

- لم تُخبريني.

وكوَّرت العجين، ثمَّ كبسته، وأدارت القرص، ثمَّ كوَّرته مجدَّدًا.

نفضت ريحانة الطحين عن يديها، وقالت: «كنتُ سأخبركِ، لكني لم أُرِد إثارة قلقكِ دون داعٍ».

- لماذا تفعلين هذا، لماذا تحتفظين بسرٍّ كهذا؟

وقفت خلف مايا، تُوجِّه يديها على مرقاق العجين، ثمَّ أجابت: «أنتِ تجعلين القرص مربَّعًا. (ثمَّ أضافت) قلتُ لكِ، لم أقصد إخفاء الأمر عنكِ. وقال الأطباء إن الأمر ليس خطرًا».

ها هي الأحلام التي راودت مايا في أثناء إقامتها في راجشاهي تتحقَّق، وخزة الهاجس الذي زارها حين سلَّم إليها ساعي البريد التلغراف. نفضت عنها الشعور بأن مرض أمها محتومٌ بطريقة أو بأخرى، وأن أمها ستموت الآن، كما حلمت من قبل، بأنها مُغشَّاةٌ بكفنٍ أبيض ودفنت إلى الأرض تلحق بها الدعوات وحفنات التراب. حُبست الأنفاس في صدرها. فحدَّثت نفسها: «توقَّفي عن هذا. أنتِ طبيبة. سدِّدي تركيزك على ما يمكنكِ فعله. إن أورام الرحم هي أقلُّ الأورام سوءًا؛ ترقد في الرحم مثل بذرة، وتترعرع بداخله، ويسهل استئصال الرحم. لا تحتاج إليه أمي بعد الآن. وهذا ما سيفعلونه. سيجرون جراحة استئصال للرحم، وسينتهي الأمر برُمَّته تمامًا. أمرٌ مقضيٌّ.

***

هاتفت مايا من فورها أستاذها القديم، الطبيب ستَّار، وأخذت تُخربش جزءًا من طلاءٍ متهالك على الحائط وهي تنتظر لوحة توزيع الكلِّيَّة الطبِّيَّة لإيصالها بالأستاذ. كان أفضل جرَّاحٍ في المشفى؛ ويُدرَج الناس في قوائم

انتظار لأشهر آملين في الأيدي الراسخة لتُجري جراحاتهم. تكلَّم الأستاذ على الجانب الآخر من الخطِّ في حنق، فقدَّمت إليه نفسها بصورةٍ رسمية، مُذكِّرة إياه بالعام الذي التحقت فيه بالكلِّيَّة الطبِّيَّة («سيدي، لقد كان العام الذي تلا الحرب، سيدي...»). لم تجد ليناً في حديثه، ولا إشارة لتعرُّفه عليها، لكنه سأل عن تفاصيل تتعلَّق بورم الأم، وموقعه وحجمه. وأخذت مايا تقرأ التفاصيل من التقرير الذي أعطتها أمها إيَّاه. ثمَّ وافق على رؤيتها، وإجراء أشعة سينية، ثمَّ اتخاذ القرار بشأن مسار العمل. قال لها: «أجل، ربما ندعو لإجراء استئصالٍ للرحم». لكنه لم يذكر شيئًا عن المخاطر، أو المضاعفات، أو عن فرصها في النجاة؛ بل تعامل مع الأمر كما يتعامل مع أي شيءٍ آخر، شيءٌ جديد سيضيفه إلى مُفكِّرته. وفي النهاية، قال: «هاتفي أمينة سري، واحجزي موعدًا». هذا تحديدًا ما تُحبُّه مايا في طباع الجرَّاحين؛ لا يتمسَّكون بالشكليات.

***

في اليوم الذي يسبق موعد العملية الجراحية، حضرت السيدة رحمان، صديقة ريحانة، تحمل طبقًا من حلوى «شيماي»، وحفيدها ذو الأعوام الخمسة يقتفي أثرها.

قالت السيدة رحمان: «سيبقى سورجو لديَّ طوال أسبوع».

وقبضت بيدها حول معصم الصبي الذي يتلوَّى. ثمَّ أضافت:

- سافرت نيليما وزوجها إلى «شيلونج».

وأتبعت حديثها بابتسامةٍ عريضة. كان الصبي شكسًا، وأراد من فوره أن يُمزِّق أوراق الزنابق.

قالت مايا: «لا تلمس هذه».

وتساءلت في قرارة نفسها عمَّا كانت ستقوله أمها لو عادت من المشفى لتجد حوض الزهور مجزوزًا.

خرجت ريحانة بعد دقائق معدودة، ترتدي ساريًا لطالما أحبَّته مايا، صُنع من خامة قطنية بلونٍ أخضر طحلبيّ مؤطَّر بنمط بيزلي. كانت قد ألقت مزحةً ذات مرَّة برغبتها في أن تُورِّثها أمها الساري، وتذكَّرت هذه المزحة الآن وهي تسند ظهر والدتها إلى وسادةٍ على كُرسي حديقة.

قالت ريحانة لصديقتها: «الأمر بسيط».

أقبل الصبي مندفعًا نحوهن، يشكو من لدغةٍ أصابته من نمل النار. طبعت السيدة رحمان قُبلةً على موضع اللدغة على ذراعه حيث ظهرت كدمةٌ حمراء طفيفة، ثمَّ قالت: «يا عزيزي المسكين».

عاد الصبي يتجوَّل في الأرجاء، ممسكًا بعصًا يشاكس بها الحشرات؛ واستأنفت ريحانة حديثها، فقالت: «لا شيء لتقلقي بشأنه، أرجو ألا تُحدثي جلبةً لا حاجة لها».

أومأت السيدة رحمان بإيجابٍ، وأضافت: «الأمر كله لله. وما كُتب على الجبين لا بُدَّ أن تراه العين».

لطالما كَنَّت مايا كراهية -أشدُّ ممَّا تكنُّها لأي شيءٍ آخر- لتفسير شأن الحياة بأمر الجبين. وأوشكت على التعليق بشيءٍ لمَّا تذكَّرت ما حدث ذلك الصباح، حين أرسلت إحدى الجارات قصاصة ورقٍ ادَّعت أنها ستُقلِّص من حجم الورم؛ لأن قدِّيس الأحبال الثمانية قد نفخ فيها، وتوسَّلت إليها أمها أن تحتفظ بآرائها لنفسها.

سألت ريحانة:

- كيف حال نيليما وزوجها؟
- إنهما بخير. ونيليما حُبلى.
- حقًّا! الحمد لله.

صمتت السيدة رحمان قليلًا، يغزوها الشعور بالذنب من كشفها عن تلك الأخبار الجيدة.

على الجانب الآخر، كانت مايا قد تركت زيدًا في المطبخ، يقرض ساق دجاجة. ولمَّا عادت، وجدته على حاله ما يزال يأكل، والمرق الأصفر يصبغ راحتيه وجانبي فمه. همست صوفيا: «الصبي المسكين، دومًا جائع».

علَّق زيد: «جيدة شِدًّا شِدًّا».

ومال برأسه من جانبٍ إلى آخر، وهو ينهش في قطعةٍ من عظم الدجاج.

سحبته مايا إلى الصنبور الخارجي، وهي تقول: «تعالَ معي».

فركت كلتا يديه بالصابون وهو ممعنًا النظر فيها، ثمَّ سألته: «متى كانت آخر مرَّة تناولت فيها طعامًا؟».

اضطرَّت مايا لتجاهل رعايته، وما بين زيارات الطبيب والفتور الذي ينهش قلبها من أن مرض والدتها هو خطؤها في المقام الأول، قلما رأته. ثمَّ انتقلت إلى رسغيه، وأخذت تفركهما الآن بمنشفة، وتتعمق في إزالة الوسخ الذي تعشش في حنايا يديه. ثمَّ رفعت كُميَّه وتوقَّفت، متطلِّعةً إلى الندوب الصغيرة المستديرة التي اختفت أسفل أكمام بدلة الكورتا. لقد رأت تلك الندوب من قبل في مكانٍ ما. أهذه ديدان؟ ربتت على بطنه، منتفخةً من الطعام الذي تناوله للتوِّ، ثمَّ قرَّبته إليها. ولمَّا أحاطها بذراعيه، تشمَّمت رائحة المرض.

سألته:

- هل تقيَّأت اليوم؟

- كلا.

لم تكن على يقينٍ من أنه يقول الصدق، فقالت: «اخلع عنك ملابسك، ستغسلها لكَ صوفيا».

أومأ موافقًا. فتابعت أسئلتها:

- وماذا عن الأبجدية الإنجليزية، هل تذكر أيًّا منها؟ أيُّ كلمةٍ تبدأ بحرف «A»؟

اندفعت الدماء إلى وجنتيه. وأخذ يبسط طيَّات أكمامه، ويهز ساقيه وهو يُجيب: «Apple». ثمَّ أضاف: «عليَّ الذهاب».

- ألا تريد أن تُلقي الوداع على جدَّتك؟ إنها ذاهبةٌ إلى المشفى.

اتسعت عينا الصبي ذعرًا، وهو يسأل: «هل ستموت؟».

- كلا، لن تموت. ولكنها سترحل بعيدًا لبضعة أيام، لذا تعالَ وألقِ عليها الوداع.

في الحديقة، كانت صوفيا تُقدِّم الشاي إلى السيدة رحمان. وسورجو يركض مندفعًا من خلف شجرة المانجو، مكوِّرًا كلتا يديه معًا ومشيرًا إلى جدته وهو يقول: «الضربة القاضية، الضربة القاضية!».

فتظاهرت السيدة رحمان بإصابةٍ قاتلة.

تخضَّبت راحة زيد بالعرق وراحة مايا ممسكةٌ بها. ثمَّ سأل: «مَن هذا؟».

- إنه حفيد السيدة رحمان. أتريد اللعب معه؟

- كلا.

- لا تقلق إنه أصغر منكَ سنًّا.

- لا أريد.

واستعدَّ للاستدارة، لكن السيدة رحمان لمحته سلفًا. فسألت: «أهذا ابنُ سهيل؟».

أجابت ريحانة: «أجل».

وفحصت هيئة زيد على عجلٍ. على الأقل لا يرتدي ملابس ممزَّقة.

نادت السيدة رحمان: «أقبل إليَّ».

ولمَّا رأته متردِّدًا، يُمسك بيد مايا رافعًا إياها أمام وجهه، قالت: «سأعطيكَ حلوى ميمي، تعالَ هنا».

لم يحرِّك زيد ساكنًا هنيهة، ثمَّ اقترب مسافةً صغيرة، مُحرِّرًا يد مايا من بين يده.

- أقبِل إليَّ.

كانت ريحانة قد زوَّدت صديقتها ببعض التفاصيل السطحية عن أمر سهيل؛ ومع ذلك عجزت السيدة رحمان عن إحجام تعابير الصدمة من المرور على مسحة وجهها مرور الكرام. مدَّ زيد يده إليها الآن، والسيدة رحمان تُمسِّد على رأسه المُكلَّلة بالطاقية. ثمَّ تحسَّست حقيبتها بحثًا عن قطعة شوكولاتة ميمي الموعودة.

- إنها لي!

زحف الحفيد على طريقة الفدائيين نحوهم.

فأجابته السيدة رحمان: «انتظر يا بُني العزيز، أظنُّ أن لديَّ ما يكفي لكليكما».

ولوَّحت بقطعة الشوكولاتة الصغيرة التي تحمل صورة برتقالة على غلافها، وقسمتها إلى نصفين، ثمَّ عرضت نصفًا على كل واحد من الصبيَّيْن.

- إنها لي.

نهض سورجو واقفًا وانتزع النصفين، وحشر واحدًا منهما في فمه عنوةً.

قالت السيدة رحمان:

- والآن تحلَّ بصفات الصبي الحسن. ألا تريد أن تشارك حلواك؟ كلا؟ سأشتري لك واحدة أخرى ونحن في طريقنا إلى المنزل. سأشتري لك اثنتين. والآن، أعطِ الفتى الصغير قطعة الشوكولاتة. هذا هو طفلي المحبوب. أجل، يا لكَ من ملاك صغير.

مرَّر سورجو نصف قطعة الشوكولاتة إلى زيد، ملطِّخًا بها راحته. حدَّق إليها زيد هنيهة فيما كانت تلين في يده، ثمَّ عاد أدراجه، ممسكًا بقطعة الشوكولاتة بعيدًا عن جسده بمقدار ما استطاع، وسار على مهلٍ، تتقدَّم إحدى قدميه على الأخرى.

صاحت ريحانة: «في حفظ الله. سأراكَ قريبًا مرَّة أخرى».

أدار زيد رأسه نحوها وأجابها بإيماءةٍ واحدة، ثمَّ تابع سيره البطيء حتَّى وصل إلى حافة المرج، حيث توقَّف، ورفع يده إلى فمه، ولعق الكنز على راحة يده بسرور.

***

عبرت نسخةٌ من جريدة «**رايز بنجلاديش! Rise Bangladesh!**» البوابة الحديدية واستقرَّت في الشرفة. كان شفاعة قد نشر مقالها في الصفحة الثالثة، إلى جانب مقالٍ طويل يتحدَّث عن المُجمَّع العسكري الصناعي، ويُقابله إعلانٌ يحتفل بالذكرى السنوية للثورة الاشتراكية في بلغاريا. قرأت: «اعترافات طبيبةٌ ريفية» كتبته ش. م. حق. كانت قد فكَّرت في اختيار اسمٍ مستعارٍ أشدَّ جاذبية، لكن عقلها لم يتمخَّض عن شيء. وبدا لها الوقت الذي سبق مرض أمها حقبةً من زمنٍ آخر. استهلَّت مايا سلسلة مقالاتها بقصَّة نازية؛ والآن أخذت تتساءل عمًّا ستكتب عنه فيما بعد. فالبقاء هنا في دكَّا، والعيش في الكوخ الصغير، كل تلك العوامل أخذت تخترق الحواجز التي أقامتها بحرصٍ حول ما تتذكَّره بشأن الماضي، وبشأن شقيقها، والحرب. تتذكر اجتماعها مع جاهارانا إمام، والكيفية التي اندفعت بها خارج الحجرة، والسبب وراء هروبها، وجهاز العرض السينمائي الذي يقبع في سقيفة الحقيبة. وفي تلك اللحظة، تكالبت عليها الفكرة: «**التقيتُ ذات مرَّة بفتاة تُدعى بيا**».

***

نقل إليها زيد عدوى القمل. وفي المشفى، قسَّمت ريحانة شعر مايا إلى أجزاء، ثمَّ دهنت كل جزءٍ منه بالكيروسين، وفلَّت فروة رأسها بحثًا عن بيض القمل الأبيض.

- أمي، توقَّفي الآن، يمكنني أن أطلب من صوفيا أن تفعل ما تفعلينه لاحقًا. يلزمكِ الاستعداد للعملية الجراحية.

أما صوفيا فجلست تتنشَّق في أحد أركان الحجرة. وتُردِّد: «ماذا سأفعل لو متِّ؟ (وتنوح في اتجاه ريحانة) مَن سيعتني بي؟».

من وراء ظهرها، أمكن مايا أن تستشعر تنهيدات أمها، ثمَّ تعليقها: «لن أموت إلا بعد زمنٍ طويل. ستموتين أنتِ قبلي، أنا واثقةٌ من هذا».

بعدما دهنت ريحانة شعر مايا بالكيروسين وفَلَّته بعُمق، شرعت تُعمِل في شعرها مشطًا رفيع الأسنان.

قالت صوفيا، مشيرةً إلى مايا: «هذه الفتاة لا تُحبُّني حتَّى. وستُلقي بي إلى الشارع في لمح البصر».

أجابتها ريحانة، وهي تُمشِّط شعر مايا في منشفة: «في الظاهر تبدو لكِ خبيثة، أما في الباطن، فهي أرقُّ من حلوى الأرز. مايا، أنتِ تعانين من غزوٍ حقيقي. انظري».

استدارت مايا، وما لبثت أن رأت بقعًا سطحية متناثرة من حشراتٍ سوداء دقيقة تُعشعش على المنشفة. أخذت الأم تعصر كل واحدةٍ منها بين ظفري إبهاميها.

استطردت مايا: «هذا مُقزِّز. لا أُصدِّق أنها نمت بتلك السرعة».

- هذا لأنكِ لم تعتني بشعركِ من فوركِ.

- ذلك الصبي! سأسحقه.

بسطت ريحانة ذراعيها، وأمسكت بوجه مايا بين يديها، ثمَّ قالت: «إياكِ أن تنطقي بهذا الكلام أبدًا. إياكِ أن تنطقي بهذا. أبدًا».

- أنا آسفة يا أمي. لا أدري أحيانًا ما يتعيَّن عليَّ فعله مع هذا الصبي.

في ذلك الصباح، أجبرته مايا على أن يقطع وعدًا بمذاكرة دروسه، لكنه أصرَّ على أن تأخذه إلى المقابر، حتَّى يتسنَّى له أن يسأل والدته مجدَّدًا بشأن الدرَّاجة. ثمَّ أثار حنقها في طريق العودة، مُكرِّرًا طلبه في الالتحاق بالمدرسة،

مدرسة حقيقية. فشاكسته قائلة: «ولكن ألا تُعجبك مدرسة مايا؟» هزَّ الصبي رأسه نفيًا، وقال: «لا نفع منها». لا نفع منها!

تابعت صوفيا حديثها المستقلَّ إلى ريحانة، وهي تتمخَّط: «لم تُخاطبني بكلمةٍ واحدة منذ أن عادت».

أنهت ريحانة تمشيط شعر مايا وتضفيره. فنهضت الأخيرة وعدَّلت من قميصها، ثمَّ أجابت مايا: «إنها جراحةٌ روتينية. ستكون بخير».

أوضحت ريحانة: «مايا، لا أظنُّ أنها تعرف ما تعنيه كلمة جراحة روتينية».

- أوه، بربِّكِ.

قالت مايا كلمتها، ثمَّ اتخذت خطواتها إلى خارج الغرفة، وعبرت الممرَّ حتَّى عثرت على ما كانت تبحث عنه: طالبٌ في كلِّيَّة الطب.

حدَّثته قائلة: «معذرةً، هل لي أن أستعير هذه؟».

وجذبت السماعة الطبِّيَّة من حول رقبته قبل أن يتسنَّى له الاحتجاج. وتابعت حديثها:

- سأعيدها لكَ.

عادت إلى فراش أمها، وقالت: «صوفيا، أقبلي إليَّ».

اقتربت صوفيا يُقيِّد خطواتها التردُّد. وضعت مايا القطعة المستديرة من السمَّاعة الطبِّيَّة على صدر أمها ودعت صوفيا لتُنصت. ثمَّ سألتها: «أتسمعين هذا؟ إنه قلبها».

اتسعت عينا صوفيا دهشةً، وأجابت: «نبضٌ قويٌّ».

علَّقت ريحانة: «قويٌّ كالحصان. لا يمكن لأحدٍ أن يقتلني».

قالت مايا: «ستستغرق الجراحة من ساعتين إلى ثلاث ساعاتٍ على الأكثر».

وراحت تُردِّد العبارات التي راحت تُحدِّث بها نفسها مرارًا وتكرارًا:

- إن الطبيب ستَّار واحدٌ من أمهر الجرَّاحين في البلاد.

وضعت ريحانة يدها -المُبطَّنة بحقن الوريد- على يد ابنتها، وقالت: «اقرئي معي آية الكُرسي».

ولَّت مايا عن أمها، واستقبلت مدخل الحجيرة؛ وتباعدت الستائر الرفيعة لتكشف المشهد في الممرِّ، والممرِّضات يسِرن ثابتات العزم، يحملن أطباق

حفظ الكُلى المعدنية، وأكياس الدماء، والمحاليل الملحية. تملَّكها الخوف من أمها بغتةً، وغمرها الشعور الذي انتباها حين كانت أسفل شجرة الكاكايا في راجشاهي وعادت تتدفَّق عليها من جديد؛ كل الأمور التي كان لها أن تسوء، والشعور المزعج بأن كل ما يحدث هو خطؤها، وأن هذا الورم قد استفحل نتيجةً للوحدة التي تحياها والدتها. أرادت أن تطلب من أمها إلغاء العملية الجراحية، تأجيلها ليومٍ آخر، أو ربما تؤجِّلها حتَّى حلول الشتاء، حين يصير المناخ أبرد، وتقلُّ احتمالات انقطاع الكهرباء. أو ربما تؤجِّلها حتَّى تعثر على طبيبٍ أمهر، رجلٌ شابٌّ قد عاد لتوه من بلدٍ أجنبي يحمل في طيَّاته تقنيات حديثة، وأساليب تخدير متقدِّمة. وكانت صوفيا على حقٍّ: لو أن أمها تُوفِّيت، لن تكون أبدًا المرأة التي تحلُّ محلَّها، ستذبل أوراق الجهنمية وستسقط الفاكهة من شجرة الجوافة، دون أن يقطفها أحدٌ. وستكون الأم هي الشخص الوحيد المتبقِّي في هذا العالم، الذي ما يزال يُحبها.

جُلَّ ما تمنَّته الأم هو الدعاء؛ لا شك أن بإمكانها تحقيق أمنيتها هذه. حاولت مايا تحرير لسانها، لكن الكلمات دُفنت في أعماق أعماقها، وعُقدت وسط كل التراكمات الأخرى: خيبات الأمل، وأوجاع القلب والشجن، وحال البلاد، والديكتاتور الذي ينطق بلفظ الجلالة «الله» بين كل كلمةٍ وأخرى، عَلِقت جميعها بكل الكلمات المقصودة، والمُصحف الشريف. كم ودَّت لو تقول لأمها: «لا تقلقي، لسنا بحاجةٍ إلى تلاوة آية الكُرسي. إننا نملك سلاح العلم». غير أنه لم يسعها سوى تذكُّر كل حالة موتٍ شهدتها من قبل -في ميدان المعركة، وفي رحابة المشفى، وفي العنابر- مصحوبةً بأصوات الدعاء، الكلمات نفسها تُزخرف كل جزءٍ من الجسد والروح.

جذب الطبيب ستَّار الستار جانبًا ودخل إلى الحجيرة. ثمَّ تبعه رهطٌ من طُلاب كلِّيَّة الطب، محتشدين في المساحة الضيِّقة. التقط الطبيب مُخطَّط المريض من مؤخِّرة السرير، ثمَّ قال:

- هل مريضتي جاهزة؟

لوَّحت إليه ريحانة، كأنما تُلوِّح من مسافةٍ بعيدة. ثمَّ قالت: «أيها الطبيب، ما كانت بكَ حاجةٍ لتأتي بنفسك».

فاجأ الطبيب ستَّار مايا بابتسامةٍ، أتبعها بجوابه: «هراء. إننا نولي اهتمامًا كبيرًا بذوينا، أليس كذلك أيتها الطبيبة حق؟».

أجابت مايا: «أجل يا سيدي».

أصدر الطبيب أوامره للطلاب بفحص ضغط دم ريحانة، وتهيئة حقن الوريد. أخذوا يتحرَّكون في المكان باضطرابٍ. ثمَّ قال أحدهم: «شقيقكِ ينتظر بالخارج».

أجابت مايا وريحانة في صوتٍ واحد: «شقيقي؟».

ظنَّت مايا هنيهةً أن الرجل المقصود قد يكون ابنُ عمٍ بعيد لأمها، وقد جاء إلى هنا من كراجي بعد تلقِّي تلغرافٍ كانت مايا بنفسها قد بعثته إلى أقاربهم بشأن العملية الجراحية. ثمَّ أدركت أنه لا بُدَّ سهيل.

قالت مايا: «أمي، سأعود على الفور. وستكون الممرِّضة هنا إذا احتجتِ إلى شيءٍ».

كان سهيل يستند إلى درابزين الشرفة، وعيناه مثبَّتتان على البلاط الفسيفسائي من أسفل. غربت الشمس إلى زوالٍ من فوق رأسيهما، وغرقت السماء في اللونين الأرجواني والرمادي، وعمَّ الهواء السكون، وكل شيءٍ يحوم من حولهما في تلك اللحظة قبل أمطار ما بعد الظهيرة.

سأل سهيل: «كيف حال أمي؟».

- إنها بخير. يجدر بكَ الدخول لرؤيتها.

قد تموتُ أمنا وربما نصير يتامى، وربما أصبح قريبتكَ الوحيدة المتبقِّية. أكان يُفكِّر في الأمر نفسه؟

- الجرَّاح...

- إنه جرَّاحٌ ماهر ذو خبرة، لا تقلق. ستكون على خير ما يرام.

أو ربما لا. هل قَنِعَ بنبرة الصوت التي حاولت أن تُضفيها على صوتها، نبرة طمأنينة الطبيب؟

أومأ لها في اتفاقٍ، وقال: «إن شاء الله».

- وأنتِ، هل أنتِ بخير؟

قلَّبت النظر فيه بعناية، وعيناها تُطيلان التحديق إلى زبيبة الصلاة التي تفتَّحت على جبهته، لؤلؤة برَّاقة بلونٍ أسود يميل إلى الزرقة، من سجوده اليومي على سجادة الصلاة. ثمَّ أجابت:

- أنا بخير، بفضل الله.

تقاطر المطر، ذلك المطر الجانبي المائل الذي ذكَّر مايا بطفولتها، وبرائحة الأسمنت المُبتل، وهما الاثنان يركضان مندفعين لإغلاق النافذة قبل أن يغرق الفُرش بالماء. لم يرتد سهيل عن حافة الدرابزين، وكذلك مايا بقيت إلى جانبه، وها هما الآن غارقين أسفل وابلٍ من المطر. تشرَّبت لحيته بريق الماء اللامع. ثمَّ استقام في وقفته، وحدَّق إليها. أكان ما رأته هو الإشفاق حقًّا؟ جاهدت مايا لتُبقي عينيها مفتوحتين رغم سيل المطر. كم ودت لو قال لها: «**لن أتحمَّل. لن أتحمَّل خسران أمنا الآن**». بل قال عوضًا عن ذلك:

- أخبرني زيد أنكِ تُدرِّسينه الأبجدية الإنجليزية.

- أجل. وقريبًا سيقرأ رواية **ميدل مارش**.

ضحكَ، فضحكت بدورها. وتوقَّف المطر المنهمر بغتةً كما بدأ بغتةً. أرادت مايا معانقته، وحقَّقت ما أرادت، فأقبل عليها يُعانقها، ويُحيط ذراعيه حولها بإحكام. اختلطت الأمطار بالدموع، وبدت في انهمارها مالحة دافئة.

قالت مايا بالبنغالية: «لن يحدث أيُّ مكروهٍ يا أخي».

- أخبرتني الأخت خديجة أنكِ علَّمتِ زيد لعبة البطاقات.

- أجل، إنه محتال.

قال سهيل: «الأخت خديجة مستاءة. لعبة المقامرة غير مسموحٍ بها».

تراجعت مايا إلى الخلف، وغاصت صدمةُ كلماته بداخلها رويدًا، تحفر الألم في أعماقها. ثمَّ قالت: «لكنها مُجرَّد لعبة. أمي تلعبها أيضًا».

- أنتِ تعرفين الفرق بين الحلال والحرام. وإن لم تعرفي الفرق بينهما، عندئذٍ ربما يجدر بالأخت خديجة أن تتولَّى هي تعليم زيد.

ليس هذا ما كانت تقصده. استشعرت مايا اليأس يتسلَّل بداخلها، فقالت: «أرجوكَ، لا».

وضع سهيل يده على كتفها، كما لو أنها ستواجه مشكلةً في فهم ما يُخالف مراده. ثمَّ قال: «إن الصبيَّ يفتقد أمه، أعرف ذلك. ويجدر بي أن أمنحه المزيد من الوقت، ولكن...».

حاولت أن تُخفي نبرة التهكُّم من صوتها، وهي تُكمل جملته: «واجباتك؟».

بدا مكلومًا، وبصره شاخص من ورائها، إلى الرُّقع الصغيرة من ضوء الشمس التي برزت الآن من خلف الغيوم.

- ينبغي للصبيِّ أن يشُقَّ طريقه في العالم.

لم تكن موقنةً ممَّا يعنيه، لكنها أرادت أن تُوافقه الرأي، أن تُخبره بأن كل شيءٍ على ما يُرام، وأن الصبي يبذل قصارى جهوده. إن تربية صبيٍّ ليس بها من السهولة في شيء. كان يرتكز على حجَّة بالغة، وأمكنها أن ترى إلام يرمي، لكنه أوضح الأمر كما لو أنه لا يملك خيارًا، كما لو الحُكم الذي يفرضه أمرٌ فطريٌّ بالسليقة. جاهدت نفسها، مُدركةً أنها لو تابعت الضغط عليه، فربما يهجرها إلى الأبد. ربما يقتصر الأمر على منحه إياها هذه الفرصة، هذا ببساطة لأن زوجته ليست هنا لتأنيبه، ميتةٌ هي قبل أن تتمكَّن من سكب آخر قطرات سُمِّها في أذنه، وتجعل عقله عبدًا لها إلى الأبد. حاولت مايا أن تُبدي امتنانها لمشيئة القدر.

قالت مايا: «ادخل إلى الغرفة وألقِ نظرةً على أمي، إنها بانتظارك».

واستدارت هي لتشُقَّ طريقها عبر درجات السُّلَّم، وتتجه إلى غرفة العمليات، مُجففةً شعرها بأطراف ساريها، والمطر ما يزال منهمرًا على وجنتيها.

***

1972
مايو (أيار)

اكتشف سهيل، في الربيع الذي تلا عودته من الحرب، أن رعشةَ يديه لن تتوقَّف. أمسك صدره بيديه. ثمَّ أحاط بهما إبريق الشاي. وقف على أعتاب حجرة أمه. وأراد أن يقول: «أماه، إن رعشة يدي لن تتوقَّف. هلَّا تدعين لي وتنفخين فيهما؟ هلَّا تشبِّكين أصابعكِ بأصابعي، وتُكبِّلينها بأصابعك؟». عدا أنه توقَّف. لم يعد سهيل صبيًّا؛ بل صار رجلًا، جنديًّا عائدًا من الحرب. سأل نفسه هل سيصير بخيرٍ مجدَّدًا، هل سيعود رجلًا صالحًا! بعد فرار بيا، وبعد حادثة القتل!

هكذا تغلغلت مآسي الحرب إلى منزلهم. سهيل والماء ينسكب من كأسه، وحساء العدس يُراق من جانب طبقه؛ وامرأةٌ اختفى أثرها في غياهب الأرض؛ رعشةُ يديه؛ وصمتٌ أُطبق على الشقيقين.

***

لقد قتل رجلًا بريئًا. لم يكن الرجلُ عدوًّا، ولا جنديًّا؛ بل مُجرَّد رجلٍ سمح لكلمةٍ خاطئة أن تخرج من فمه. وما عاد أمام سهيل سوى طريقة واحدة ليعود رجلًا صالحًا الآن. يقول القرآن الكريم إنه رجلٌ صالح، وإنه جُبِلَ على فطرة

الطهارة والصلاح. استعادت الكلمات صلاحها ومعانيها المعهودة، وقد حان الوقت ليمتلئ قلبه بحُب الكتاب المقدَّس. مضت أسابيع بعد اختفاء بيا، لم تُخلِّف وراءها سوى أثر خافت من عبيرها، حاول سهيل أن يقتفيه في المطبخ حيث كانت تجلس القرفصاء، أو المثلَّث الهندسي الذي خلَّفته على الأرضية حيث كانت تفرش فُرش نومها. وجد نفسه يتسلَّق السُّلَّم الخشبي إلى السطح ويجلس مُتربِّعًا أسفل الشمس العارية. جلس يقرأ الكلمات القرآنية؛ كانت أمه قد منحته المصحف الشريف، وقرأ الكلمات، رافضًا أن يرى أصدقاءه أو يحتفل بالنصر. تردد صوتٌ خافت يُخبره: حان وقت العودة إلى الجامعة؛ توقَّف عن إثارة قلق أمكَ، بل كُن سعيدًا أيضًا، لقد انتهت الحرب. وحان وقت ا-لـ-ا-حـ-تـ-فـ-ا-ل!

***

كان أشدُّ ما يخشاه سهيل هو الحديث. ودومًا ما ترمقه مايا بنهم، تائقة لقصاصاتٍ صغيرة من التفاصيل. بالأمس أخبرها عن الطعام في مخيم الفدائيين، وكيف كان الطعام يتراقص على لسانه، رغم أنه لا يتعدَّى بضع حفناتٍ من الأرز والعدس. إنه طعامُ الحرِّيَّة. التهمت مايا الأقصوصة، متوسِّلةً إليه كي يمنحها المزيد. كم هي لهومة! أراد منها أن تصمت كي تسمع الزئير في رأسه، معتقدًا أنها لو تمكَّنت من سماع ذلك الزئير، زئير الحيرة، زئير الموت، لربما تتفهَّم. عدا أنها رفضت الصمت لوقتٍ كافٍ. بحثت في وجهه، ثمَّ شرعت في أحدث حكاياتها، مُخبرةً إياه بمَن عاد من الحرب، ومَن فقد ابنًا أو أخًا. وقد حدث ما هو أسوأ من ذلك لأناس آخرين.

«**لقد ارتكبتُ جُرم القتل**». لو كان له أن يُخبر شقيقته بشأن الحرب، هذا ما كان سيُخبرها به. عدا أنها أرادت قصص البطولة. أرادت منه أن يقول لها إنه قد زرع المتفجرات أسفل جسور البلاد وأنه فرَّ هاربًا قُبيل اشتعال الفتيل، وأن الجسر المتهالك قد بتر الجيش، وأخيرًا أُنقذ شعب شمال «تانجيل» أو «كوشتيا» أو «بورجا».

عدا أنه لا يملك قصَّةً من هذا النوع. ازداد غضبها وتعاظم من غضبه، حتَّى بعدما استسلمت أمه لتلك الصباحات التي يقضيها على السطح، استمرَّت مايا في ملاحقته بعينيها، والاقتراب منه بصمتٍ قاسٍ. صمت بصمت. ولمَّا سألها

عن أحوال عملها في مركز إعادة تأهيل النساء، انتهزت الفرصة وصفعته بردِّها لمَّا سألت متهكمة: «ماذا؟ ألا تظنُّ أن النساء ضحايا حربٍ أيضًا؟».

أخذ يُفكِّر في جميع مَن ماتوا؛ مُحاربو العدو، والأُناس الذين لم ينقذهم، وصديقه عارف، وكل الصبية الذين ذهبوا إلى الحرب وقُتلوا. يُفكِّر بهم كل يوم. كم هي أنانية لتريد جزءًا من هذا الفِكر.

على النقيض، لا تُظهِر أمه أي نوعٍ من النهم، لكنها قلقةٌ بشأنه، وتصعد نصف درجات السُّلَّم الخشبي وتُنادي: «إن الطقس حارٌّ يا سهيل، لِمَ لا تهبط إلى الأسفل وتشرب شيئًا؟».

في أثناء خلواته على السطح، جمع عددًا من الأشياء: مشطًا كان ينتمي إلى الفتاة بيا، وقميصًا كان ينتمي إلى صديقه عارف، الذي قتله الجيش الصيف الماضي، وصورةً فوتوغرافية لأبيه، التُقطت أمام سيارة فوكسهول. ليس وسيمًا -لم يكن والده وسيمًا- لكنه يتطلَّع إلى الأمام بثقةٍ، ويحيا الحياة التي كُتبت له. وأخيرًا، مُصحف أمه.

﴿قَد جاءَكُم مِنَ اللَّهِ نورٌ وَكِتابٌ مُبينٌ ۝١٥ يَهدى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخرِجُهُم مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النّورِ بِإِذنِهِ وَيَهديهِم إِلى صِراطٍ مُستَقيمٍ ۝١٦﴾.

يؤمن الكتاب بأنه رجلٌ صالح. وها قد شرع في قراءته.

***

أقبل على مايا ذات يومٍ، وحاول أن يُخبرها. وقال إن هذا أعظمُ شيءٍ قد حدث له طوال حياته. لقد وجد شيئًا، شيئًا يُفسِّر كل شيء. أتريد هي أن تعرف ماهيَّة هذا الشيء؟ أليست فضولية؟ بدا شاحبًا، وبشرة وجهه مشدودةً من الجفاف، ورأت مايا الموت يحوم بداخله، الموت الذي شارف عليه في الحرب، الموت وهو في ممرٍّ ضيِّقٍ. والآن بات الموتُ أشبه بكدمةٍ لن تلتئم. ولمَّا قرَّب وجهه من وجهها، استشعرت أنه أيما كان هذا الذي يُخبرها به فهو ما يمنع تلك الكدمة من التمدُّد من وجنته إلى عظامه ومن عظامه إلى دمه. إنَّ ما يُخبرها به لهو السدُّ المنيع، مثل ذلك الذي يُبنى في «رانجاماتي» ليحجز

ماءه مثل يدٍ مضمومةٍ عملاقة، ويمُد الحقول بالماء؛ هذا الشيءُ هو ما يُبقيه متماسكًا، ويُنير ما بداخله.

اتخذت مايا قرارًا في تلك اللحظة، قرارًا ستندم عليه عدة مرات في السنوات التالية. لقد رأت في عينيه اللامعتين المُبطنتين بالدموع أنه ينطق بالحقيقة، واستشعرت أنه قد سقط في الهاوية، وأن هذا الكتاب هو ما أعاده إلى السطح مجدَّدًا ومنحه فرصةً كي يلتقط أنفاسه. ثمَّ رأت في نفسها أيضًا الحاجة إلى ذلك الإنقاذ، تلك النجاة، وتلك الحقيقة. عدا أنه قد اتضح لها بغتةً أن ذلك الدين، ونفحته الصادقة وعبوره للأزمنة والأمكنة، ربما كان في حقيقته هو ما يدَّعيه سهيل: احتياجٌ بشري جوهري، احتياجٌ من جانبها مثلما هو احتياجٌ من جانبه، ولأنها شعرت أيضًا بوخزات حسرته، تقطع نياط قلبها مثل شظية حادة، قرَّرت -في تلك اللحظة- أن ما يرجوه لن يحدث. لن تصبح واحدةً من هؤلاء الناس الذين رزحوا تحت قوى حدثٍ طامٍّ، وسمحوا لها بأن تُغيِّر كنههم.

وكذلك سهيل، لن تسمح له هي بذلك. تظنُّ -آه، يا لها من حمقاء، يا لها من متغطرسة- أن لها رأيًا! تظنُّ أن بإمكانها فعلَ شيءٍ لإيقاف الأمر. تظنُّ أن إرادتها أقوى وأعظم من الشظية في صدرها، والشظية الأخرى في صدر شقيقها.

***

اقترب منها، وقال: «اعتكفتُ على الدعاء».

أجابته سائلة وهي تقرأ كتاب «أوبزرفير The Observer»: «بماذا تدعو؟».

- لا لشيءٍ مُحدَّد. أدعو فحسب.

أجابت: «أخي، من فضلك، لا تشرع في التحدُّث بتلك الترَّهات الدينية، ما عدنا نعرفك».

ثمَّ شردت بانتباهها بعيدًا، وهي تُقلِّب الجريدة إلى صفحة الإعلانات المبوَّبة.

- ولكن هذا هو الغرض من الدعاء. أن تنأى بعقلك عن الأفكار والمساعي الأخرى كلها.

عندئذٍ تطلَّعت إليه، ورأى هو في عينيها بحثها الدؤوب عن مزحةٍ، فقال مُجيبًا السؤال الذي عجزت عن طرحه لدهشتها الشديدة: «أنا جادٌّ فيما أقول».

صمت هنيهة، وأخذ يوازن أفكاره قبل أن يُجيب. وفي الخارج، يصيح رجلٌ في الشارع، ويطرق على ما بدا لهما إناء طهيٍ، وأخذ يقول: «يا الله، يا الله، يا الله. ارزق الفقير يا الله، ارزق الفقير».

تابع سهيل حديثه:

- لا يُهِمُّ ما الذي يردُّنا إلى الله؛ يكفي أننا عُدنا إليه.

- هل تقتبس من كلام أحد الموالي الآن؟

- كلا يا مايا، أنا أقول الحقيقة.

أجابت مايا:

- إذن هذا لا يتعلق بأمر بيا، ولا بالحرب. هل حدث شيءٌ آخر؟ هل فعلتَ شيئًا؟

لقد اقتربتْ، اقتربت جدًّا. عدا أنه أجابها: «لقد أخبرتكِ، هذا لا يُهِمُّ».

- الأمر مهم بلا شك. أنَّى لكَ أن تقبل الدواء دون أن تُفكِّر في المرض؟

- أهذا رأيكِ أنني مريض؟

علا صوتُ الشحَّاذ. وأخذ يصرخ: «غفر الله لكَ، غفر الله لكَ».

أُضيئت النافذة خلف مايا بدرجات الصباح الذهبية. وتسرَّب الضوء على امتداد ظهرها، وفاض وغمر الغرفة حتَّى سقط على عينيه. لم يتسنَّ له إلا رؤية القليل من وجهها، استدارة شعرها فحسب.

أجابت مايا: «لقد كنتُ أقرأ عن الأمر، وما أنتَ فيه يُسمَّى صدمة القصف».

تسلَّلت شظيةٌ من غضب إلى صوته وهو يُجيب: «أنتِ لا تسمعينني. لستُ مريضًا. ربما كنتُ كذلك، دومًا ما يكون الأمر عسيرًا بعد الحرب».

- إذن ما يحدث لك هو نِتاج الحرب، هذا ما أحاول قوله لكَ.

- لكن حتَّى وإن تتالت الأمور، لا يسعني سوى أن أشعر بالامتنان.

حان دورها هي الآن لتشتاط غضبًا، فأجابته: «أنتَ تتذكَّر، أليس كذلك؟ ماذا فعلوا بنا تحت ستار الدين؟».

- اغتصابهم للأرض مستندين إلى نيات سيئة، لا يعني أن ما حدث قدرٌ سيئ. هذا هو الخطأ الذي وقعتُ فيه.

هدرت مايا:

- خطأ؟ أتظنُّ أن الأمر برُمَّته مُجرَّد خطأ؟

أشاح بناظريه بعيدًا عنها، متشكِّكًا في كيفية جوابه. ليس الأمر وكأنه يتمنَّى لو أن الحرب لم تنشب، أو أنه لم ينضم إلى القتال، لكنه لم يُخلق للقتال، بل وهب حياته هذه لأمر آخر. أنَّى له أن يُفسِّر لها هذا؟ كيف له أن يوضِّح أن ثمَّة سببًا لبقائه على قيد الحياة حين مات كثيرون آخرون. كم يتمنَّى لو تُدرك شيئًا ممَّا هو عليه حاله؛ كم يصبو إلى امتلاكها قلبًا مثقلًا محزونًا كقلبه، قلبًا يحتاج إلى أن يُغلف نفسه باليقين، والطريق المستقيم.

تجرَّعت مايا شايها، مستعدةً لمغادرة الطاولة، وهي تقول: «لا أُصدِّق. أَبَعد كل ما مررنا به، تفعل هذا».

دخلت ريحانة عليهما في تلك اللحظة، تحمل سلطانية من البسبوسة التي أعادت تسخينها في الفرن. ورأت سهيل يشير إلى النافذة خلف مايا. يقول: «ثمَّة أحدٌ هناك».

تطلَّع ثلاثتهم ليروا رجلًا عاري الصدر، بسيط الملبس عدا شعره الطويل المعقود بإتقان، والذي كان يتدلَّى من رأسه إلى أسفل كتفيه. نقر الرجل على النافذة، وهو يقول: «غفر الله لكم. الله رحيم».

حدَّقوا إلى بعضهم هنيهة، ثمَّ قالت مايا: «ما الذي يُمليه عليك قرآنك بشأن هذا الرجل يا أخي؟».

بحث سهيل في جيوبه، وأخرج ورقةً نقدية مطوية. ضم الرجل يديه لبعضهما لمَّا فُتحت النافذة وانسلَّت الورقة النقدية خلالها.

- أهذا كل شيء؟ أهذا كل ما ستفعله؟ ألا تريد أن تعرف كيف وصل هذا الرجل لهذه الحالة؟

قال سهيل:

- ولماذا لا تسألينه بنفسكِ؟

- لستُ أنا من أتظاهر بالتقوى.

ضرب سهيل قبضته بالطاولة برفق، وهو يُجيبها: «لا أجدُ في نفسي من التقوى شيئًا. بل أملك من التواضع ما يحملني على الإقرار. الإقرار بأن هناك شيئًا أعظم».

- ولكن ألا ترى إلى أين أوصلنا هذا الشيء الأعظم؟ الحرب، ومتسوِّلٌ ينقر نافذتنا.

تدخَّلت ريحانة، رافعةً صوتها: «هذا يكفي يا مايا».

رفع الرجل يده إلى جبهته شكرًا، ثمَّ استدار متسللًا عبر فتحة البوَّابة. اندفع سهيل خارجًا من الغرفة، ثمَّ سمعت المرأتان صفعةً أغلقت باب غرفته.

التفتت مايا إلى أمها، وقالت: «سيُحيل منزلكِ إلى مسجد، ألم تسمعي؟».

قرَّبت ريحانة وجهها من وجه ابنتها، وهمست برفق: «لماذا يا ابنتي، لماذا تُصرِّين على التعصُّب والجزع؟ كل ما هنالك أنه سيُصلِّي، وسيذهب إلى المسجد في أيام الجمعة. لا تخشي من تغيُّره هكذا، هذا مُجرَّد تديُّن».

***

كانت ريحانة على حقٍّ في بداية الأمر. عاد سهيل تقريبًا إلى شخصيته القديمة، يبتسم في أثناء تناول الوجبات، ويُدندن بصوتٍ خافت. وشرع يحضر دروسه في الجامعة، رغم أنه لم يعد يتسكَّع في الحرم الجامعي أو يذهب إلى أي من اجتماعات اتحاد الطلاب. وكان يُرى برفقة أصدقائه من وقتٍ لآخر، يلعب الكريكت في ملعب «أباهاني فيلد»، وفي الصيف الثاني الذي تلا انتهاء الحرب، حين سُنَّ الدستور والعاصفة تنحسر، أخبرت ريحانة مايا أنها لم ترَ في سهيل سوى تغيير بسيط، وأن الأم مُحقَّةٌ بشأن ابنها. حتَّى إنه لم يُطلق لحيته.

ثمَّ انتشرت أخبارٌ عن حوادث سوداوية كما تنتشر الموجة على صفحة الماء. سمعوا أن صبي الحسين، وهو فتًى يصغر سهيل بسنين قليلة، قد أغرق نفسه. وسمعوا أيضًا أن ابن جارهم شهاب الدين قد ضرب زوجته الحُبلى، لأنه يظنُّ بأنها تحمل طفلًا شيطانيًّا.

وفيما عدا ذلك، ظلَّ معظم الفتيان والفتيات جادِّين طائعين كديدنهم. يحضرون دروسهم، ويتزوَّجون، وينجبون الأطفال، ويسقون أبويهم الحليب الدافئ كل ليلة. تخلُّوا عن ذكرياتهم بأفضل ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، ومحوا آثار الدماء من أيديهم ومن أطراف سواريهن. واستكان قلب ريحانة، على يقينٍ بأن ابنها لن ينجرف باهتمامه إلى أبعد من ذلك، في نهاية المطاف، كانت هي من أهدته المصحف الشريف.

***

1984
أغسطس (آب)

سرطان. في كل مرَّة ينطق الطبيب ستَّار الكلمة، يتراجع صوته، حتَّى شرع يُطلق عليه لفظ «المرض»، وبين فينة وأخرى، يُطلق عليه «السين». كانت العملية الجراحية مُجرَّد بداية. سيتوجب على ريحانة أن تخضع إلى العلاج الكيمياوي، عقاقير وسموم شديدة من شأنها أن تقتل السرطان. عدا أنها قد تقتل ريحانة هي الأخرى؛ العلاج علمٌ إشكالي، وأحيانًا ما يزيد العلاج من سوء المرض. أنصتت مايا، واخترقتها الكلمات لتتجه مباشرةً إلى مجرى دمها. لم تأخذ قط على محمل الجدِّ احتمالية أن تُضطرَّ يومًا أن تحيا دون أمها. لا شك أن الموت قدرٌ قد عايشته من قبل بالفعل، تُوفي والدها قبل أن تُدرك حتَّى إن الموت هو نومةٌ كُبرى. وفيما بعد، كان الموتُ قدرًا عايشه أُناسٌ كانت قد عالجتهم؛ ترفع يدها لمجابهته كل يوم: الدوسنطاريا والملاريا ولدغات الأفاعي. ولم تسلم نازْية من الموت بدورها؛ تَركَ الندوبَ على ساقيها، لكنه سمح لها بالبقاء على قيد الحياة. لم تتصوَّر مايا يومًا، لم تتصوَّر قط، أن الموت سيأخذ منها عزيزًا مرَّة أخرى.

هطل المطر في كل مكان تلك السنة. فاضت المزاريب في دكَّا، وتفجَّرت مياه النهرين مُغرقةً ضفتيهما، نهر «بدما» ونهر «جامونا»، وأخذت تبتلع

المنازل وحيوانات المزرعة وتُغرق نباتات الأرز الصغيرة. أعادت مايا أمها من المشفى، وأبطأت سيرًا عبر الشرفة. وفي المساء، بكت مختبئةً بين انحناءة ذراعها. وفي لحظةٍ ما، وجدت صوفيا في غرفة نومها، تُمسك بمصباح كيروسين، وأخذت تومئ برأسها مرارًا.

جلبت فتاة الهاتف رسالةً إلى مايا: إن الأخت خديجة ستعقد مولدًا خاصًّا من أجل الأم، وستقرأ نسوة الطابق العلوي، فيما بينهن، القرآن الكريم كاملًا، ويوجِّهن دعاءهن بنية امتثال الأم للشفاء. فهل تودُّ المجيء؟ بدا المشهد في رأسها جليلًا، وعبير الأجساد يمتزج بالنسيم المتأجج للعِطر. وتفاجأت مايا بنفسها تُجيب الفتاة بالموافقة.

***

احتشدت النسوة اتفاقًا في مجموعاتٍ منظَّمة من ثلاثٍ أو أربع. رؤوسهن مغطَّاةٌ، أما أيديهن وأقدامهن التي عادةً ما تكون مغطاةً بالقفازات والجوارب، كانت عارية هذه المرَّة، ومنهمكة في العمل: تحمل النسوة أطباق الطعام إلى داخل الحجرة، ويُوزِّعن الوسائد، ويدُرن حول بعضهن عمدًا. ثمَّ منحتها خديجة عناقًا دافئًا، وقالت: «أختاه، من فضلكِ، اجلسي هنا».

نُظِّفت الأرضية، ووضع مفرشٌ جديد أسفل قدميها. جابت مايا الغرفة بناظريها، ورأت الكثير من الوجوه تلتفت نحوها حين قالت خديجة: «هذه شقيقة حضرة الشيخ، مايا».

انتشرت جوقة من السلام عبر الغرفة، ووجَّهت خديجة حديثها إلى مايا: «الجميع يعرف مَن أنتِ. لقد تحدَّث إلينا حضرة الشيخ عنكِ».

اقتربت امرأةٌ شابة، ذات شعرٍ أسود فاحم، ومنحت مايا ابتسامةً متألقة. إنها فتاةُ الهاتف. ألقت الفتاة السلام، وقالت: «مايا، أنا رقية. هل أنتِ طبيبة؟».

- أجل، تخصَّصتُ في قسم الجراحة.

- على يد الطبيب ستَّار؟

- أجل، كان الطبيب مُشرفًا عليَّ. هل تعرفينه؟

- لقد تلقَّيتُ تدريبي في مركز دكَّا الطبي «دكَّا ميديكال».

- حقًّا! أي دفعة؟

- دفعة عام 83.

إذن أنهت الفتاة تدريبها العام الماضي. حدَّثت مايا نفسها: يا لها من خسارة؛ تنتظر الآن زوجًا، ربما كان رجلًا عجوزًا تملأ التجاعيد وجهه، ليهاتفها كل مساء، وتُرتب الأغطية من أجلي وتدعو أخي حضرة الشيخ.

عرضت رقية، وهي تُهندم من وشاحها: «اسمحي لي أن أعدَّ لكِ فنجانًا من الشاي. كيف تُحبِّين الشاي؟».

انطلقت الفتاة مبتعدة، وأشارت خديجة إلى مايا لتجلس مجدَّدًا. ثمَّ استدارت إلى النسوة الأخريات، وقالت: «بسم الله الرحمن الرحيم، لقد حان الوقت».

أخرجت كل واحدةٍ منهن سُبحةً، وشرعن يُردِّدن «كلمة التوحيد» بصوتٍ خافت. أخذت خرزات السُّبحة من الحجارة والخشب تعبر راحتهن، وهنَّ يجذبنها بإبهامهن. وُزعت آنيةٌ فارغة على الجمع، وفي أركان الغرفة الأربعة تكدَّست أكوامٌ صغيرة من بقلٍ مُجفَّف. ولمَّا تنتهي إحداهن من دورة تسبيحٍ كاملة، تضع حبَّةً من الحمص في الإناء أمامها.

جلست خديجة بتثاقلٍ وفتحت مُصحفها الشريف، ثمَّ شرعت في التلاوة.

***

في اليوم التالي، أخبرتها رقية أن سهيل سيمنحهن ظهورًا نادرًا في مجلس التعليم. ويُلقي خطبةً شخصية. هل تودُّ المجيء؟

لما وصلت مايا إلى وجهتها، كان الهدوء يعم المكان، والنسوة يُنظِّمن أنفسهن من حولها، ليتحرَّكن إلى مؤخِّرة الغرفة. عملن في صمتٍ، يُنظِّفن الأطباق ويرفعن المُلاءات وينفضنها، ويشرن إلى بعضهن أن اجلسي أنتِ هنا، ومرِّري وسادة إلى الأخت زينة.

شابه المشهد الجنازة. ثمَّ مُدَّت ستارة عبر الغرفة، تقسمها إلى نصفين. ونظَّم النسوة أنفسهن فيما صار مؤخِّرة الغرفة. وعلى الجانب الآخر، وقعُ أقدامٍ، وأصواتٌ خافتة، تُعلن دخول الرجال إلى الغرفة. يُنظِّف الرجال حلوقهم. أما في جانب النساء، فأُحكمت الأوشحة حول وجوههن، كما لو أن مُجرَّد سماع أصوات إخوانهن على الجانب الآخر من الغرفة يكفل جرعةً زائدة من الحيطة.

ومن وراء الحجاب، شرع شقيقها يتحدَّث.

- إخواني وأخواتي، بسم الله الرحمن الرحيم. سنتحدَّث عن قصة النبي إبراهيم، عليه السلام. إن قصَّة إبراهيم قديمة ومُقدَّسة. كان نبينا وأخونا إبراهيم، عليه السلام، رجل معرفةٍ مُطِّلع. ترجم النصوص القديمة إلى اللغة العبرية، وكان طليقًا في لغة الإغريق والآشوريين. وفي رحلة تعلُّمه، تاق أيضًا لأن يعرف أسرار المشاعر الإنسانية من السعادة والمُتع، ليس متعة الجسد، بل متعة القلب والعقل. وهكذا، حين حمل ابنه إسحاق، شعر بموجةٍ من الحب ترتفع في صدره تشبه جاذبية القمر. أسرَّها في نفسه، كان الأمر مسألة تعلُّم. وحين تسبَّبت أساطير القدماء في بكاء إبراهيم، شفقةً وغضبًا على طيشهم، أسرَّها إبراهيم في قلبه جزءًا من معرفة مُقدَّسة، فالقدرة على التعاطف هي صفةٌ إنسانية فطرية، وهبنا إيَّاها الخالق عز وجل.

منذ البدء، كان إبراهيم باحثًا عن المعرفة. لكن معرفته مجدولةٌ بمشيئة الله. حين شرع أتباعه في عبادة الأصنام، شكا إلى الله أمرهم، فأهلكهم. وجاء بحثه عن المعرفة وسعيه إليها في المرتبة الثانية بعد إذعانه لمشيئة الله. وحين أمر الله إبراهيم بالتضحية بابنه، صدَّق إبراهيم أمر الله. إن إبراهيم عبدًا لله، وإنكاره لأمر الله ليس من فطرته ولا يتعلَّق بإرادته في شيء، بل كان مدفوعًا بما هو أسمى من الواجب. تاق إبراهيم لأن يعرف -بذاته- طبيعة إيمانه، ويُدرك ما إذا كان هذا الإيمان الذي صار مُحبَّبًا إلى نفسه سيصمد أمام شدَّة وفائه لابنه. انحنى إبراهيم على ابنه، والسكِّينُ ثقيلٌ بين يديه. وفدى الله إسحاق بذبحٍ عظيم.

يتأتَّى لنا أن نعرف الله حين نُذعن إليه، حين نُسلِّم بأمر إحاطته بكل شيءٍ علمًا، وحين نؤمن بأن الانصياع هو السبيل الوحيد للإيمان الحق. إنَّ أفضل ما في طبيعتنا البشرية هو قدرتنا على معرفة حقيقة الله عزَّ وجلَّ، الحقيقة التي تفوق معرفتنا».

أنصتت مايا إلى النبرة المُوجَّهة في صوته. كان يُخبرها شيئًا، يُحدِّثها أنها لم تتعلَّم الإذعان قبلًا، وأنها وضعت إرادتها فوق مشيئة الله. وأن هذا عقاب الله، أليس كذلك؟

تذكَّرت مايا قصةً كانت قد سمعت بها في أثناء الحرب. تعرَّض رجلٌ لإطلاق النار بمدفع رشاش، وأُصيب بثلاث طلقاتٍ في ظهره. أجرى الأطباء الميدانيون الجراحة (دون تخدير، بل حشروا قماشةً بين أسنانه) وأخرجوا

طلقتين، وفقدوا أثر الجرح الثالث. كانت شظيةٌ من الطلقة قد دخلت مجرى دمه، وسافرت عبر جهازه الدوري خلال شرايينه مثل سائحٍ يجوب البلاد، حتَّى استقرَّت في قلبه في نهاية المطاف، وقتلته من فوره.

من الناحية الطبِّيَّة، أدركت مايا أن القصَّة غير صحيحة. ولكنها سمحت لنفسها بأن تتصوَّر أن هذا ما حدث بين سهيل وبينها. أصابتهما الجروح، ربما أحدها كان جرح وفاة أبيهما، أو مسحة الفقر الرقيقة التي علقت بجسديهما طوال فترة طفولتهما. فيما يتعلَّق بمايا، سافرت الطلقة السوداء المُدببة بحُرِّيَّة، وها هي الآن تُلامس كبدها، وأطرافها، ومعدتها. تستيقظ على ألمٍ تُسبِّبه، وتُفرغ شيئًا من سُمِّها على مَن يُكتب له أن يكون بالقرب. تلقَّت الأمَّ أسوأ ما خبرت مايا من سموم، وسهيل كذلك.

لكن الشظية التي أصابت سهيل منها قد غاصت في لحمه، ونفذت خلاله بإيقاعٍ بطيءٍ مميت، حتَّى أردته قتيلًا مثل البقيَّة، عدا أنها قتلته سريعًا عنهم. وكان إدراكه لهذه السرعة، والرائحة الطينية التي تفوح من القبر، هُما ما جعلا سهيل في سنه المُبكرة تلك مخلوقًا نصف روحاني نصف إنسان. وباتت طبيعته المتمايزة تلك هي السبب وراء إمرته لأي جمهورٍ حينما يتحدَّث، سواء أكان في مسيرة أم في موعظة، تلك الطبيعة هي ما جعلت هؤلاء الذين يدورون في مداره يُجاهدون من أجل نظرة مُقرَّبة أو لمسةٍ منه. لقد وُلِد لينطق بالوحي، ومنذ لحظاته الأولى في الحياة كان سيدَ نفسه وآمرها. ولكن ما كان يُخبرها به الآن هو أن مصدر قوته لا ينبع من الإمرة بل ينبع من الطاعة والانصياع، وأن عليها الآن أن تتقبَّل ضآلة كينونتها، وتقييداتها البشرية، وإن لم تفعل، فستلقى عواقب وخيمة لا تسرُّها.

***

لاحقًا، تفرَّق الرجال ورحلوا، ثمَّ رُفع الستار، وشرعت النسوة يتخذن استعداداتهن من أجل وجبة العشاء. أعملت خطبة سهيل الوخز في نفس مايا، فتركت غرفة الاجتماع ووجدت خديجة تجلس القرفصاء أمام موقدٍ غازي صغير في المطبخ.

سألت خديجة: «هل أنتِ راضيةٌ عن «البيان»؟».

إذا صرفنا النظر عن إيقاع التلاوة، دومًا ما تتملك الرسمية من حديث خديجة.

لا تدري مايا بماذا تُجيب، ما كان «الرضا» هو النعت الذي ستوصف به ما يشعر به قلبها. فآثرت تغيير دفَّة الحديث:

- الصبي. ابنُ أخي.
- أنتِ تشيرين إلى ابن حضرة الشيخ؟
- أجل، زيد. عكفتُ على تعليمه بعض الأمور، وألقيتُ عليه دروسًا، لكني ما عدتُ أملك الكثير من الوقت نظرًا لمرض أمي. وأودُّ أن أُلحِقه بمدرسة.

بدا أن خديجة تُفكِّر في الأمر هنيهةً، وألقت بحفنةٍ من الفلفل الحار إلى وعاء حساء الدال.

تابعت مايا: «إنه مُتعسِّر في التعلُّم».

أجابت خديجة، مُفاجئةً مايا: «أنتِ على حق. لن أُنكر الأمر. وشقيقكِ يتفق معكِ».

- إذن أنتِ تعرفين.
- كنَّا نناقش الأمر بالأمس مع الحاجِّ مُدثِّر.

تعرف مايا مَن هو الحاج مُدثِّر، يستشيره سكان الطابق العلوي في كل شأن، مهما صغر. يُنكِّسن رؤوسهن أمامه، ويقبلن مباركاته على رؤوسهن. ويفعلن كل ما يُمليه عليهن.

- أخبرنا الحاج مدثر بأنه من واجبنا أن نؤمِّن نشأة لائقة للصبي. ونفهم أننا قد أخفقنا في واجبنا.

مدَّت خديجة يدها، سميكةً صلبة، وأحاطت رُسغ مايا بأصابعها، ثمَّ تابعت: «وقرَّرنا أن نُحسن التصرُّف معه. وأضافت بالبنغالية: «لقد اتخذنا عهدًا»».

لقد قطعوا عهدًا تحت عين الله الساهرة.

أبدت خديجة رغبةً في الكفِّ عن المزيد من الكلام، ودعت مايا نفسها تستمتع بشعاعٍ من الأمل.

سألت خديجة:

- هل ستنضمِّين إلينا؟ سيُذاع أذان المغرب في غضون دقائق قليلة.
- يتعيَّن عليَّ العودة. تعلمين إن أمي بحاجةٍ إليَّ.
- ندعو الله من أجلها كل يوم. إن حضرة الشيخ ابنٌ بارٌّ.

شعرت مايا بتأثُّرٍ مفاجئ حين نطقت خديجة بهذا التصريح، فأجابت: «شكرًا لكِ».

أردفت خديجة: «تحلِّي بالصبر يا أخت مايا. سيُولى الصبي العناية اللازمة، وستتعافى أمكِ قريبًا».

وتابعت خديجة في إحكام قبضتها على يد مايا. فانتاب الأخيرة حدس داخلي يشبه الوميض، بأن خديجة ستصير أختًا لها، تُغلِّفها روح الرفقة التي طالما بحثت عنها مايا. وضعت خديجة يدها على جبهة مايا، فاستقبلتها مايا على أنها إشارة لموعد مغادرتها.

هبطت درجات السُّلَّم إلى الطابق السفلي، وجبهتها تشتعل حرارةً من أثر يد خديجة عليها، مشدوهةً من مدى عزوفها عن ترك المرأة.

***

في اليوم الثالث، صعدت مايا إلى الطابق العلوي دون دعوة. كانت قد انتهت لتوِّها من إطعام أمها بعض الحساء، وألقت نظرةً فاحصة على غُرز الخياطة وراقبتها تغطُّ في النوم. جلست نسوة الطابق العلوي في صفوفٍ طويلة على امتداد الحائط، ورؤوسهن محنيةٌ على الأطباق. ورأت رقية تمُرُّ على الصفوف، تُقدِّم حفنات الأرز. ولمَّا رأت مايا، قالت: «أختي، مايا. تناولي الطعام معنا من فضلك». أومأت إليها خديجة مبتسمة. وراق لمايا غياب دهشتهن لرؤيتها.

كانت جماعةٌ جديدة قد وصلت من جنوب إفريقيا. نسوةٌ بيضٌ وسودٌ يُسبِّحن وينضممن إلى الدعاء. ولمَّا بدأت التلاوة، امتلأت عينا مايا بالدموع. وتفاجأت بنفسها تميل على ذراعي خديجة وتقول: «هل ستكون أمي بخير؟»

مسَّدت خديجة أعلى رأسها بلمسة حنونٍ لطيفة. ثمَّ أجابتها: «ستظل معنا إن شاء الله».

تأهَّبت مايا، قلقةً من أن تُمطرها خديجة بقصَّةٍ عن أهمية قبول الموت باعتباره قدرَ الله ومشيئته، غير أن خديجة بقيت على صمتها، ناقلةً يدها عندئذٍ إلى جبهة مايا، حيث بقيت على حالها مثل ضمادةٍ مثبَّتة، حتَّى أغلقت مايا عينيها وأخذت في تصديقها.

***

1973
مارس (آذار)

بعدما اختفت بيا، وقضى سهيل الكثير والكثير من الوقت على السطح برفقة مُصحفه، دُعِيَ أخيرًا لمقابلة الشيخ مُجيب. أصبح أبو الأمة الآن رئيسًا للوزراء، وأراد أن يرى وجوه الفتيان الذين أنجبوا هذا البلد. ابتهجت مايا، وانتابتها فكرةٌ أن رؤية الرجل العظيم -الرؤية الأبوية المرتقبة- ستمنح سهيل سببًا ليعود مجدَّدًا إلى حياته القديمة. ولمَّا وصلت الدعوة، شملت ثلاثتهم؛ سهيل، وريحانة، ومايا.

في صباح يوم موعدهم، ظهر سهيل على مائدة الإفطار مرتديًا بذلة كورتا من قميصٍ وسروال، ومن فوقها معطف مُجيب، بلا أكمام وياقةٍ عالية. كان يومًا حارًّا، شديد الحرارة لأن يرتدي المرء معطفًا، عدا أنه يتعذَّر إقناعه بخلعه، ولا حتَّى وهم يأكلون. روَّح سهيل عن وجهه بنسخةٍ من جريدة «**بنجلاديش أوبزيرفر**». ثمَّ تجرع ثلاث كؤوسٍ من الحليب. كانت مايا قد قضت الصباح بأكمله تُحاول أن تُقرِّر ما سترتديه. وتمرَّنت على تحية الـ «بنجاباندو - صديق البنغال» أمام مرآة دورة المياه، متشحةً بأعرض ابتساماتها وأصدقها امتنانًا.

كانت ريحانة عصبية المزاج هي الأخرى. بدت متألِّقة -تألُّقًا مبالغًا فيه بعض الشيء- في ساريها الأبيض القطني وزوجَي الأساور الفضية الرفيعة. أعدت لهما على الإفطار خبزًا محمَّصًا محروقًا، التهمه سهيل دون أن يُزيل القطع المحروقة حتى. ثمَّ اختفت في غرفة نومها وأغلقت الباب. طرقت مايا بضع مرَّاتٍ -فيستأخَّرون عن موعدهم- ثمَّ استدارت حول الغرفة ودخلت عبر المطبخ. وجدت مايا أمها تستخدم طاولة الزينة سطحًا للكتابة، تُخربش بشيءٍ ورأسها محنيًّا شديد القُرب من الورق، كأنما تُطارد الكلمات بعينيها.

تجاهلت ريحانة ابنتها لمَّا أعلنت الوقت. فمالت الفتاة إلى الأمام ولمحت شيئًا من الكتابة.

السيد المحترم

السيد الرؤوف

الأب العزيز

أيها البنجابندو، أعلم أنكَ رجل ذو رحمة وشفقة...

وضعت الأم حاجياتها في حقيبة جلدية صغيرة، وهي تقول: «أنا مستعدَّة».

سألت مايا:

- ماذا كنتِ تكتبين؟
- أكتب أنه رجلٌ عظيم.

ثمَّ فتحت درجًا وأخرجت إصبعًا من أحمر الشفاه.

- إذن، ما هذا؟
- لا شيء.

ثمَّ أدارت أنبوب أحمر الشفاه، ومسحت قمته بإصبعها، وتابعت: «هذا شرفٌ عظيم لي أن ألتقيه».

تعذَّر على مايا أن تتذكَّر المرَّة الأخيرة التي رأت فيها ريحانة تضع أحمر شفاه. بدت الأم متردِّدةً فيما يتعيَّن عليها فعله به: كيف تتزيَّن به الآن وقد

لطَّخت إصبعها به. حامت يدها في أنحاء وجهها هنيهة، ثمَّ استقرَّ إصبعها على شفتها العليا. لطخت شفتها تلك عدَّة مرَّات، ثمَّ أمعنت النظر في المرآة.

سألت مايا: «هل أنتِ مريضة؟».

متعجِّبةً من أنها في نهاية المطاف لا تبدو شاحبة على الإطلاق.

استدارت الأم لتُمعن النظر فيها، كما لو أنها لاحظت وجودها للمرَّة الأولى. ثمَّ قالت: «تحتاجين لتمشيط شعركِ».

أمسكت بفرشاة شعرها من طاولة الزينة وهي تُجيب: «حسنًا، أنتِ مَن ظل يقنع سهيل بضرورة لقاء البنجابندو».

استقبلت الأم المرآة مجدَّدًا، وهي تمسح أحمر الشفاه بمحرمةٍ، واستهلَّت حديثها: «لم تُخبريني من قبل ماذا كنتِ تفعلين في مركز إعادة تأهيل النساء».

- مثل ماذا؟

أدركت مايا إلام سيوصلها الحديث، ستسألها عن العمليات. عدا أن مايا لا تريد الحديث عن الأمر، ولا تريد أن تُفكِّر في الأمر حتى. كيف عرفت أمها بهذا الأمر؟ فالعيادات لا تقع في المركز نفسه، ورغم أنهن لم يتلقِّين أمرًا واضحًا بإبقاء أنشطتهن سِرًّا، لم يتحدَّث أيٌّ من الأطبَّاء أو الممرِّضات في الأمر قط.

- أتذكرين بيا؟

أومأت مايا بإيجاب. بالطبع أتذكَّر بيا.

- كانت حُبلى؟

- أجل، أعرف.

- كنتِ تعرفين؟

صمتت الأم هنيهة، تستوعب الحدث. ثمَّ تابعت: «أرادت.. أرادت أن تتخلص منه. كانت خائفة من العملية الجراحية، ولم تكن واثقة ممَّا تفعله. أمسكت بذراعي هكذا...».

استدارت الأم نحو مايا وأمسكت بمرفقها، كانت أصابعها دافئة، وشفتاها مُلطَّختين بالحُمرة. ثمَّ تابعت: «وقالت لي، من فضلكِ، لا أريد فعل ذلك. وكما تعرفين، بعد بضعة أيام، رحلت. اختفت. في رأيكِ لماذا رحلت؟».

- ربما غيَّرت رأيها.

أحكمت الأم قبضتها حول ذراع مايا، وتطلَّعت المرأتان لبعضهما. لم تُرِد مايا أن تقُصَّ على أمها ما حدث في الليلة التي سبقت رحيل بيا. فأجابت: «ربما كان رحيلها حلًّا أفضل، من أجل الجميع».

بدا صوتُ الأم مفطورًا، وعيناها غارقتان في الدموع وهي تقول: «ألا ترين ما حدث؟ لقد أجبروها. وليست هي الوحيدة. بعض الفتيات لا يُردن فعل ذلك، لكنهن يشعرن بالعار، وقد أخبروهن أنهن يحملن بذرة هؤلاء الجنود».

كان البنجابندو قد قطع وعدًا بالعناية بالنساء، ومنحنهن اسمًا -«بيرانجونا» أي البطلات- وسأل أزواجهن وآباءهن أن يُرحبن بعودتهن إلى الديار، كما يفعلن مع أبنائهن من الذكور. لكن الأطفال... قال إنه لا يريد أطفال الحرب. وحدَّثت مايا نفسها بما قاله كل يوم، كل يومٍ وهي تضع القناع على وجوههن وتُخبرهن أن يعدُّون تنازليًّا من الـ 100.

قالت مايا: «أليس هذا أفضل يا أمي، أن تُمحى كل آثار ما حدث لهن؟ وبهذا يمكنهن البدء من جديد».

- وماذا عن أطفالهن يا مايا، أطفالهن.

ومسحت ريحانة عينيها بظهر يدها، وأشاحت بنظرها عن ابنتها. ثمَّ أضافت بصوتٍ ثخينٍ أجش: «أنتِ لستِ أمًّا، ولن تفهمي».

كوَّرت الخطاب وألقت به جانبًا. ثمَّ قالت: «هيا بنا، سنتأخَّر».

***

تملَّك مايا قلق من أن تنطق أمها بشيءٍ أمام البنجابندو بشأن أطفال الحرب، عدا أن قلقها كان دون داعٍ؛ ظلَّت الأم هادئة ومُهذَّبة، وراحت تُكرِّر أن لقاءه شرف عظيم. كل ما أمكن مايا استشفافه هو أن أمها تحاول إقناع نفسها أن الرجل لا يجلس أمامها مباشرةً، ورغم سماحها له بالإبقاء على يديها بين يديه، فإنها قاومته، مُشكِّكةً في إخلاصه وشرفه.

لم تُظهر مايا أية مقاومة، وتراءى لها أن البنجابندو هو أقرب ما يكون لإلهٍ تعرفه من أمدٍ بعيد. رؤيتها له يقف أمامها مباشرةً، ويمسح على رأسها إذ تنحني لتتبارك بالغبار على قدميه، كان حدثًا يفيض عن قدرة تحمُّلها. وظنَّت أنها ربما تتقيَّأ، وتجرَّعت زجاجة فانتا جلبها الخادم على طاولةٍ متحرِّكة.

كان محاطًا بعائلته، ألقت نظرةً سريعة على ابنته حسينة، وابن أخيه الشيخ موني. حضرت السيدة مُجيب هي الأخرى، ورغم خلاء الغرفة حين دخلوا لأول وهلة، سرعان ما ازدحمت بالناس، يُلامسون قدمي البنجابندو ويبكون فرحًا وسرورًا.

أشعل غليونه، وسحب منه أنفاسًا قصيرة ضحلة.

جلس سهيل مشدوهًا، يعكس ما تصوَّرت مايا أنه سحرها الخاص.

سأل الشيخ مُجيب:

- أنتَ المسؤول عن تفجير محطَّة الطاقة؟

أومأ سهيل بإيجابٍ، وأتبعها بالبنغالية: «أجل يا سيدي».

- يا لشجاعتكَ يا بُني.

- كان الخطر جسيمًا يا سيدي، ولكننا عقدنا العزم.

أحنى سهيل رأسه، لكن مايا رأت انحناءة شفتيه. كان يبتسم. ولم تره يبتسم هكذا منذ شهور.

قال البنجابندو بالبنغالية: «أحسنتَ صنعًا. أقبل إليَّ لنلتقط صورة. أقبل، أقبل».

جلب سهيل معه كاميرا لايكا، لكن مُصوِّرًا كان حاضرًا بالفعل، فنظَّموا أنفسهم على جانبي البنجابندو. ارتدت مايا القناع الذي ظنَّت أنه أكثر ما يُلائم الصورة الفوتوغرافية: مواطنةٌ شابَّة جادَّة الملامح قوية الإرادة، ممنونةٌ لوجودها في حضرة هذا الرجل.

وفيما كانوا يلتفُّون حوله من أجل الصورة، التفت البنجابندو إليها وقال: «وأنتِ يا عزيزتي، كيف مرَّت بكِ تلك الأشهر التسعة؟».

تطلَّعت مايا إلى أمها، وأومأت. ثمَّ أجابت: «كنتُ أعمل. عملتُ في طريق «ثياتر روود» يا سيدي. شرفٌ عظيمٌ لي أن أخدم الحكومة في المنفى».

- ثياتر روود! سمحت لكِ أمكِ بالذهاب إلى كُلكتا؟ حسنًا، أنتِ فتاةٌ شجاعة.

- كان الأمر رائعًا يا سيدي، الكثير منَّا يعملون معًا.

تطلَّع إليها في صمتٍ وهو يقضم على غليونه. ثمَّ علَّق: «كم وددتُ أن أرى ذلك يا بُنيتي. وددتُ كثيرًا لو أرى ذلك».

تساءلت مايا عمَّا إذا شعر البنجابندو بالشعور نفسه الذي انتابها -مُهمَلًا، محاصرًا في مكانٍ عاديٍّ آمن- حين نشب القتال وتعذَّر عليها الانضمام إلى الجيش. كان البنجابندو في السجن طوال هذا الوقت. ولم يرَ يومًا واحدًا من قتالٍ أو يسمع نشرةً إذاعية واحدة. تمنَّت لو يعرف أنه كان حاضرًا دون أن يكون كذلك، فقد كانوا ينامون ليلهم واسمه يتردَّد على شفاههم ويستيقظون كل صباحٍ على صورته، مقصوصة من الجرائد، ملصقة على الجدران، وصوته يتردَّد فيِ المذياع. لم يأبه أحدٌ إن كان في السجن أم في الصفوف الأمامية للمعركة، رغم أنه أبه لهذا الأمر.

ودَّت لو تُخبره كلَّ شيء، لكنَّ جمعًا جديدًا من الزوَّار وقف أمام الباب، وتشتَّت انتباه البنجابندو. في تلك الأثناء، احتاجت مايا إلى دورة المياه، لكنها حدَّثت نفسها أن تصُبَّ جُلَّ تركيزها على هذه اللحظة، هذا لأنها ستتذكَّرها دومًا، وحاولت أن تُثبِّت وجه البنجابندو في ذهنها لكي تتمكَّن من استحضار ما كان يرتديه، وثِقل يده على رأسها.

تطلَّعت إلى الجانب الآخر من الغرفة ورأت سهيل يجلس مستقيم الظهر، قابضًا بيديه على ركبتيه. نهض عن مجلسه، لكن البنجابندو كان يُخبر أمها بشأن نساءٍ أخريات مثلها قد آوين جنود الحرية في بيوتهن، متسائلًا ما إذا كانت تعرف أيًّا منهن. سمعته مايا يسأل عمَّا حدث لزوجها، وحين أخبرته أمها، رأت البنجابندو يُمسك بكلتا يديها بين يديه مجدَّدًا، ويُخبرها عن مدى أسفه، وأنها امرأةٌ شجاعة لتُربي طفليها دون أب.

وأخيرًا، احتشد الجمع الصغير أمام الباب.

قال البنجابندو: «ثمَّة عملٌ كثير يجب إنجازه يا أبنائي. آمل في الوثوق بكم».

أجاب سهيل بالبنغالية: «أجل يا سيدي».

وانحنى ليُلامس قدمه مجدَّدًا، لكن البنجابندو أمسك بكتفيه ورفعه إليه حتَّى التقت أعينهما، ثمَّ عانق سهيل، ثلاث مرَّاتٍ، كما لو أنه عناقُ أبٍ وابن، ورافقهم طوال الطريق حتَّى البوابة. لاحقًا، كل ما أمكنهم الحديث عنه هو مدى عطفه ودماثته، وكم كان يشبه أي شخصٍ آخر يعرفونه.

حتَّى الأم لم يسعها فعلُ شيءٍ سوى الثناء على الرجل، مشيرةً إلى أنه يُولي المرءُ اهتمامًا -مهما كان عدد الناس في حضرته- كما لو أنه يُخبرك سِرًّا دفينًا، كما لو أنك تتآمر معه على شيءٍ، شيءٍ عظيم مستديم.

1984
سبتمبر (أيلول)

دُهشت مايا للأعداد التي دخلت عبر الباب. وصلت السيدة رحمان أولًا، ونفشت وسائد ريحانة، وكدَّست الثلاجة بحساء الدجاج. ثمَّ تبعت السيدة رحمان جماعةٌ من النسوة من سيدات نادي لعبة الكونكان، قاطعين الوعود لتأجيل دورة الكونكان السنوية حتَّى عودة ريحانة. جاء للزيارة بائع السمك المتجول، والجزَّار الذي عرفته ريحانة طوال عشرين عامًا، يحمل قطعًا كبيرًا من عظام الضأن، ومُبشِّرًا بأن الحساء سيعالج ما تسبَّب في مرضها. ثمَّ وصلت باقات الزهور من مدير مدرسة مايا الثانوية، ومن جمعية دانموندي. وأتت شقيقة صوفيا وزوجها للزيارة، يرتديان ثيابًا رسمية ويحملان دعاءً كتبه الرجل التقي في قريتهما على قصاصة ورق. حتَّى إن المستأجر الألماني حضر للزيارة هو الآخر، يُمسك بغصنٍ صغير من الزهور. مكث لدقيقة واحدة، لكنها مدَّة كافية لتقييمه، ووجدته مايا خيبة أملٍ كبيرة. أصلع الرأس، شديد طول القامة حتَّى إنه اضطرَّ للانحناء ليعبر الباب، جسده مُغطًّى بطبقةٍ رقيقة من شعرٍ برتقالي. أبقى على بسمته طوال الزيارة، ثمَّ مرَّر مظروفًا لريحانة معنونًا بـ «**إيجار سبتمبر 1984**».

بعد قضاء صباحٍ آخر برفقة خديجة ونسوة الطابق العلوي، وجدت مايا جوي يجلس إلى جانب فراش أمها، يقُصُّ عليها أمر شركته التجارية الجديدة مع شوتو. كانت تضحك، وهي تقبض على بطنها بيديها.

رمقت مايا جوي بنظرةٍ غاضبة، وهي تقول: «احترسي يا أمي، بالكاد التئم الجرح».

تابع جوي تسلية ريحانة. بدا منتعشًا، كمَن خرج لتوه من الاستحمام، بقدميه النظيفتين المحشورتين في صندله، وشعره المصفَّف بعناية. أنهى قصَّته في تؤدةٍ، وهو يميل على أذن أمها. ثمَّ رحل، مطمئنًا إيَّاها أنها ستغادر الفراش قريبًا، على أهبة الاستعداد لقلي خبز البارثا الذي تشتهر به.

حدَّثته مايا بهدوءٍ: «شكرًا لكَ على المجيء».

وقادته إلى غرفة المعيشة. أرادت أن تقول شيئًا عن آخر مرَّة التقيا فيها، ووداعهما المُربك، لكنه عاجلها مُعلِّقًا:

- تقول أمكِ إنكِ تزورين الطابق العلوي.

- جاء سهيل إلى المشفى. ومكث برفقتها، أظنُّ أنني أحببتُ صُنعه حقًّا. ولهذا أردتُ أن أعرب له عن شكري.

- وما رأيكِ فيما رأيتِ؟

- إنه عالمٌ آخر.

قال جوي:

- تقولين هذا كأنما ليس أمرًا سيئًا.

- بل مختلفًا. لا يشبه أي شيءٍ آخر البتة.

حاولت مايا أن تصف شعورها بالكلمات، شعورها بصحبة هؤلاء النسوة. لامست قدما جوي شيئًا أسفل الأريكة، فنزل يبحث في الأسفل، مزيلًا الغبار عمَّا وجده.

ثمَّ قال:

- أظنُّ أنني أعرف ما هذا.

عرفت مايا هي الأخرى، فأخرجت الشيء المعطوب. بقايا تذكارية مُحطَّمة.

أوضح جوي: «ما يزال محتفظًا بأوتاره».

وجدت مايا خرقةً مبلَّلة في المطبخ، وأخذا يفركان الغبار معًا، وهما يتابعان لون الخشب العسلي يبرز من أسفله.

تساءلت مايا: «هل يعمل؟».

- ربما يحتاج إلى ضبط نغماته. يمكنني المحاولة، لكني لستُ ماهرًا. دومًا ما كان أخي أمهر منِّي في هذه الأمور.

أجابته: «وأخي كذلك».

استشعرت أنه يُفكِّر في أن ما حدث ليس من الإنصاف في شيء، على الأقل شقيقها ما يزال على قيد الحياة. سيُضحِّي بكل شيءٍ ليستعيد شقيقه. تصوَّرته يريد رؤية شقيقها تحت أي ظرف ما دام هنا، حتَّى لو كان يتحاشى حياته القديمة ويتصرَّف كالغرباء. تصوَّرته يُحدِّث نفسه أيضًا أن يا له من عالَم يُفرِّق بين الأحياء والأموات، وحدَّثت هي نفسها أن لا تفرقة في شيء. ثمَّة سببٌ لصياغة عباراتٍ مثل: «**أنتَ ميتٌ في نظري**»، عبارة كثيرًا ما وجَّهتها مايا لسهيل.

راح جوي يعبث بأوتار الجيتار، ويرفع المفاتيح على امتداد عنق الآلة. ثمَّ قال: «أظنُّ أنني ضبطته. جربيه الآن».

مرَّرت مايا إبهامها على الأوتار، وأجابت: «يبدو لطيفًا».

- كالأيام الخوالي.

تساءلت: «ماذا كانت تلك الأغنية التي اعتدتَ غناءها، تلك الأغنية الإسبانية؟».

- لم نغنِّ أية أغانٍ بالإسبانية قط.

- بلى، فعلت. أغنيةٌ ذات اسم طويل.

ضرب ركبته بيده وهو يقول متذكِّرًا: «آه! تقصدين أغنية Guantanamera؟».

- لطالما أحببتُ تلك الأغنية.

- اعتاد سهيل أن يُغنِّيها. وقال إنها أغنية ثورية، ولكن بينما كنتُ في نيويورك، أخبرني صديقٌ مكسيكيٌّ بكلماتها. واكتشفتُ أنها أغنيةٌ عادية كأي أغنية أخرى.

- حقًّا؟

أوضح جوي:

- تدور كلماتها حول فتًى مسكين يرغب في الوقوع في الحب.
- أتُكِّنُ الضغينة للحب؟

مال بظهره إلى الخلف وشبَّك ساقيه، ثمَّ أجاب: «لستُ سوى خِصم صغير. على عكسكِ أنتِ».

أخذت تجذب الأوتار، وهي تُجيبه: «أنتَ لا تعرف شيئًا يا صديقي. أنا فتاةٌ كأي فتاة أخرى».

آمنت مايا بهذه الحقيقة، في تلك اللحظة، آمنت بأنها فتاةٌ رقيقة ككل الفتيات الأخريات، فتاةٌ مفعمة بالأمل كالجميع.

شرع هو يعزف على الجيتار. ثمَّ قطع الصمت قائلًا: «اسمحي لي أن أُريكِ التوليفة الموسيقية».

وأمسك بأصابعها واستقر بها على الأوتار، ثمَّ تابع: «عليكِ أن تضغطي أشد من هذا».

دخل زيد إلى الغرفة، فاستقبلته مايا قائلة: «ها قد جاءت زلَّتي... أقبل يا زيد وألقِ التحية على العم جوي».

مدَّ جوي يده، ولمَّا اتخذ زيد خطوةً إلى الأمام ليُصافحه، حرَّك جوي يده بسرعة إلى جبهته، وقال: «السلام عليكم. لقد خدعتك!».

انهار زيد في الضحك.

- هذا الصبي يعرف كل لغة على وجه الأرض. أليس كذلك يا زيد؟ ألقِ على مسامع جوي شيئًا بالإسبانية».

قلَّب زيد عينيه إلى السقف، وأجاب متلفظًا الكلمة بتأنٍ: «حس-نًا... (ثمَّ تابع بالإسبانية) «ها قد حلَّ السلام».

علَّق جوي: «هذا جيدٌ جدًّا. حتَّى أنا أعرف ما تعنيه».

همست مايا: «هل قال كلامًا مفيدًا حقًّا؟ دومًا أظنُّ أنه يخدعني».

التقط جوي مجموعة بطاقات اللعب من على الطاولة، وشرع في خلطها، وهو يقول: «دعني أريكَ أمرًا».

اعترضت مايا قائلة: «لا يمكننا لعب الورق، غير مسموحٍ له بذلك».

رمقها جوي بنظرةٍ جانبية، وأجاب: «هذه ليست لعبة، بل خدعة سحرية».

متململةً، سمحت له بلعب خدعته. ثمَّ صعد زيد إلى حجر جوي، وهمس بشيءٍ في أذن الأخير، ومن ثمَّ انطلق إلى خارج الغرفة يرقص، ويُدندن: تا-تا، تا-تا، تا-تا، تا-تا.

***

انتزعت ريحانة شعرها في بيدها.

- رباه يا أمي.

أخذته مايا من بين أصابعها، أشبهت الخصلة فراء حيوان قصير. ولمع الموضع الذي كانت به مثل شظيةٍ من معدنٍ في قاع البحر.

كانت ريحانة تغتسل لمَّا حدث ما حدث. وأضافت: «هناك المزيد في المنشفة».

فعاجلتها مايا: «دعينا نحلقه يا أمي».

كان صوتها خافتًا مُتعَبًا لمَّا أجابت: «لا، ليس بعد. أرجوكِ، لا».

ثمَّ أرقدت رأسها على الوسادة، وأدارت وجهها بعيدًا لكيلا يتسنَّى لمايا أن ترى بكاءها.

أضافت ريحانة وهي تُنظِّف أنفها في منديل: «لا بأس. لقد ناقشنا هذا الأمر مع الطبيب».

ظلَّت مايا ممسكةً بخصلة الشعر المتساقطة، وأمها تُتابع: «ارمِيها. أحرقيها».

ألقت بها مايا على الأرض، فالتقطتها صوفيا واختفت داخل المطبخ.

***

جلست رقية على مصطبةٍ أسمنتية، وأولت وجهها نحو الشمس. فقالت مايا لمَّا رأتها: «ابتعدي عن الوهج، سيحترق وجهكِ».

كان أشدُّ أيام السنة حرارةً وقيظًا. ألقت رقية عليها السلام بصوتٍ واهن، فلاحظت مايا جفاف شفتيها، وتريُّش خصلات شعرها من أسفل حجابها.

استهلَّت الفتاة حديثها: «كيف حال والدتكِ؟».

فأجابت مايا: «تُحاول التأقلم».

أومأت رقية في تفهُّم، والدموع تحتشد على جانبي عينيها. وضعت الفتاة كلتا يديها على بطنها، في إشارةٍ تعرَّفتها مايا على الفور. فسألت وهي تنحني لتُلقي بنظرةٍ فاحصة على الفتاة: «هل أنتِ حُبلى؟».

ابتسمت رقية في وهن، وهي تُجيب تساؤلها بتساؤلٍ آخر: «كيف عرفتِ؟».

فرجت خديجة الستائر وتقدَّمت إلى الخارج. وألقت بنظرةٍ رقيقة على رقية، وهي تُقدِّم إليها كأس ماءٍ، ثمَّ قالت: «اذهبي إلى الداخل الآن».

قبلت رقية الماء وتجرَّعته في عُجالة، حاملة الكأس بكلتا يديها وهي تزدرد ماءه بصعوبة.

قالت خديجة: «يجب علينا عقد جلسة تعليم أخرى من أجل أمكِ». واستدارت إلى رقية مجدَّدًا، وقالت: «أبلغي الأخوات بتهيئة الترتيبات».

في الداخل، بدت ذرات الهواء متوقِّفةً في مساراتها. ومع إسدال الستائر بإحكام، وانغلاق النوافذ، صار الحرُّ لا يُحتمل. وحدها خديجة مَن بدت مُرتاحة، وتألُّق حبات العرق على جبهتها يمنحها طبقةً من طلاءٍ مصقول، وهي تتخذ مكانها في مقدِّمة الغرفة. فتحت المُصحف الشريف وشرعت في التلاوة بهدوء. أما النسوة الأخريات، اللاتي كنَّ يتهامسن ويضربن الهواء بأيديهن جلبًا للبرودة، اعتدلن في جلستهن، وأخرسن بعضهن. وأشارت رقية إلى مايا لتجلس بجانبها.

كانت الشمس في أوج وهجها، ومايا تُحدِّق إلى يديها اللتين تنزَّان عرقًا لا يتوقَّف. هنا، في هذه الغرفة، المكان الوحيد الذي منحها اليقين، بل والإيمان الراسخ، بأن أمها ستعيش. وفي أي مكانٍ آخر استولت احتمالية غيابها على قلبها: كل وجبة تأكلها مايا لم تصنعهاً أمها، كل الغرف حيث كانت تقرأ وتغتسل وترتدي الثياب، والحديقة التي ثابرت مايا على ريِّها لكنها عجزت عن إنقاذها من زحف الصبغة الصفراء إليها.

لهذا السبب، وجدت نفسها -يومًا بعد يوم- تجلس بجانب قدمَيْ خديجة. لا تتلو القرآن ولا تنضمُّ إلى الصلوات والدعوات. بل تجلس فحسب، عاقدةً ساقيها ويداها تستقران في حجرها وساقاها تستحيلان إلى الخدر رويدًا رويدًا، لمدَّة تطول إلى ما تستغرقه نوبة الهلع للمُضِيِّ في سلام.

***

لمَّا تساقط شعر ريحانة، طلبت أخيرًا من ابنتها أن تحلق البقية. أسندت ظهرها إلى الفراش، بكتفين حادتين مثل نصلين يظهران من رداء نومها، وبشرة رقبة شاحبة مُجهدة. وقفت صوفيا تبكي في صمتٍ، ومايا تكسو أمها بمنشفة.

أدركت أن هذا اليوم آتٍ لا محالة، ولهذا اجتهدت في التمرُّن عليه. ستظل هادئة، يداها مثبتتان على الأداة. ستبدأ باستخدام المِقصِّ. فقدت الأم شعرها في رُقعٍ متفرِّقة: تساقط الشعر كلِّيًا في بعض المواضع، وفي مواضع أخرى، ظلَّ سميكًا يعلق بفروة رأسها بقوَّة. ساوت هذه الأجزاء وتلك، تُبطئ الخصلات الطويلة المعقودة من تقدُّمها، قبل أن تسقط إلى الأرض. تتبَّعت صوفيا حركاتها بمكنسةٍ في يدها، أما ريحانة نفسها تُطالع -بعينين جافَّتين من الدموع- صحيفةً أمامها كأنما تقضي صباحًا كأي صباحٍ آخر في انتظار نضوج بيضاتها. وبيد أنها أحسنت التمرُّن على المشهد بدورها.

استبدلت مايا نصلًا بالمقصِّ، وغمسته في وعاءٍ من ماء دافئ مُرغًّى بالصابون، وراحت بيدين خفيفتين رقيقتين ترسم بالنصل على رأس أمها. والآن خرجت الأم من تحت يديها، برأسٍ متألِّقٍ تام الاستدارة. رأسٍ ينطوي فيه عالمها بأكمله.

رفعت ريحانة الصحيفة عاليًا وعلَّقت: «اعتدتُ أن أراقب أبي والحلَّاق يعمل في رأسه. وبدا لي دومًا غاية في الاسترخاء».

- كيف تشعرين؟

- شعور لطيف. وشيء من الحرج.

سرعان ما تضاءلت رغوة الصابون. وفركت مايا رأس أمها بمنشفةٍ رقيقة، وقالت: «أحضرتُ شيئًا من أجلكِ».

أسرعت إلى غرفتها وعادت بعُصابة رأسٍ كانت قد ابتاعتها قبل أيامٍ قليلة من كشكٍ على قارعة الطريق. كانت باللونين الأحمر والأبيض، والتفَّت حول جبهة أمها بأناقةٍ واتساق.

علَّقت مايا بعدما رأت ريحانة بعصابة الرأس: «تبدين مثل امرأةٍ غجرية. أو قرصانة».

أجابتها ريحانة: «أعطيني عُصابة عينٍ وسأسرقكِ عيانًا بيانًا».

فضحكن ثلاثتهن.

في المساء، حضرت السيدة رحمان والسيدة أكرم للعب الورق برفقة ريحانة. ووافقت مايا على أن تكون اللاعب الرابع حتَّى يتسنَّى لهن لعب البوكر. لم يذكر أحدٌ شعر ريحانة، عدَّتا لكي تؤكِّدان أن الأحمر هو لون حظِّها، وهذا لأنها حصدت فوزين، بزوجين من ورق الآس وتسلسل ورقي.

***

لمَّا هلَّ رمضان، شهر الصيام، أصرَّت ريحانة على أن تقوم مايا بكل أعمال التسوُّق استعدادًا للعيد. وقالت برأسٍ مُرخًى على الوسادة: «إنها السنة الأولى التي أعجزُ فيها عن الصوم. وأقل ما يمكنكِ فعله هو ارتداء ثيابٍ جديدة للعيد».

أصدرت الأم تعليماتٍ صارمة: حددت عدد الأمتار التي عليها أن تبتاعها من أجل بدلة سلوار قميص لمايا، وبلوزة وتنُّورة تحتية وساري من أجل صوفيا. وهدايا من أجل السيدتين رحمان وأكرم، وشيء من أجل سهيل. والآن تقف مايا أمام طاولة بيع الأنسجة برفقة زيد، تبذل ما في وسعها لتجد قماشًا من أجل بلوزة صوفيا.

أسرع أصحاب الدكاكين، شباب يافع بشوارب خفيفة، ذهابًا وإيابًا من طاولات البيع إلى أتواب القماش من خلفهم. تضمَّنت الأتواب -التي رُتِبت على امتداد الحائط مثل كُتب متراصة على أرففها- كل درجةٍ من لونٍ يمكن للمرء أن يتخيَّله. وشرعوا في مهمة العثور على قماش بلوزةٍ يتَّفق مع لون الساري، وبدأوا برفع الساري الذي ابتاعته مايا إلى لوحة الألوان التي تُقاربه. ثمَّ تحرَّكوا على امتداد اللوحة، من الألوان الباهتة إلى الداكنة، حتَّى أومأت مايا في موضعٍ ما على امتداد السلسلة. واختارت لصوفيا قطعةً باللون الأزرق الملكي.

لمَّا انتهيا من الشراء، حان الوقت ليشُقَّا طريقهما إلى حارة الخياطة من السوق. وقبض زيد على رسغها، وهو يقفز فوق الشقوق التي امتدَّت على الأرض الأسمنتية.

سألته مايا: «أتذكر ما تعلمناه بالأمس؟ الأرقام. دعنا نرى إن أمكنك عدَّ الخطوات من هنا وحتى دُكان الخيَّاط».

لكنَّ عينيه كانتا تجوبان المكان، أسرتهما اللوحات المرسومة بألوان زاهية، والنسوة في ثياب تسوُّقهن، والكلاب تعضُّ بألسنتها على البراغيث، وملصقات السينما، والرائحة الحادَّة لمُخلَّل التمر هندي. كان يومًا مُبهجًا، لاطفته بادرةٌ تُعلن قدومَ الشتاء، والنسيم يُدغدغ ركبتيهما وأطراف أناملهما. حينئذٍ، لم يسع مايا سوى استحضار كل احتفالات العيد التي قضتها في الكوخ الصغير. خشخشة الملابس الجديدة حينما تكبسها أمها وتُنشِّيها حتَّى تفوح برائحة الأرز المنقوع. وانتظار عودة سهيل من المسجد، والفطور، ثمَّ الصعود إلى عربة الريكاشة، لزيارة بيوت جميع مَن نعرفهم من الأصدقاء الذين تمتلئ حيواتهم بالأحداث بغتةً، وأخيرًا، لمَّا تُعلن الشمس ذروتها، يتوقَّفون عند المقابر، مسجِّلين سنةً أخرى لثلاثتهم معًا، ويردِّدون الدعاء أمام قبر أبيهم، ويعترفون له مجدَّدًا كم اشتاقوا إليه.

بدأ زيد يعد الخطوات باللغة البنغالية متردِّدًا: «واحد. اثنان. (تزحزحت القبعة على رأسه إلى الأمام والخلف) ثلاثة».

تملَّكت مايا لحظةً مفاجئة من الشفقة على الصبي، فقالت: «أمسك بهذه». وأعطته حقائب التسوُّق، ثمَّ رفعته وحملته على ذراعيها. كان صبيًّا خفيفَ الوزن، همسة تقفز فوق ذرات الهواء.

سألته: «ماذا تريد؟ اختر شيئًا».

- لأجلي.

- أي شيءٍ تريده. أي شيءٍ في السوق الجديدة بأكملها.

افترَّ ثغره عن ابتسامة، لتظهر أسنانه المُعوجة جميلة ببياض ناصع. كانت تعرف إنها نُظِّفت بالفحم وسواكٍ من خشب السرو، لأن فُرشاة الأسنان كانت محظورة في الطابق العلوي. حاول أن يُقرِّر ما يريده، يتطلَّع إلى نفسه، ممعنًا النظر في بدلة الكورتا القذرة التي يرتديها، والوسخ الذي اتخذ شكل الهلال أسفل أظفاره. ظنَّت أنه ربما يطلب الدرَّاجة التي تحدث عنها آنفًا في أثناء زيارتهما للمقابر، لكنها دُهشت حين مال مقتربًا منها وهمس في أذنها: «صندل».

- حقًّا؟ أكل ما تريده هو صندل؟ قلتُ إن بإمكانك الحصول على أي شيءٍ من السوق الجديدة كلها، وتطلب صندلًا فحسب؟

أومأ الفتى بجدِّيَّة، فأجابته مايا: «حسنٌ، إذن علينا أن نعود أدراجنا».

أنزلته إلى الأرض، وشقا طريقهما عائدين عبر السوق حتَّى وصلا إلى دُكَّان «باتا». وقبل أن تلج مايا إلى الدُّكَّان لمحها بائعٌ نحيف القوام يرتدي قميصًا أزرق، وأمطرها بالأسئلة:

- حذاء بكعبٍ عالٍ لكِ سيدتي؟ حذاء قماشي؟

أجابته: «نحن هنا من أجل الصبي».

وقادت زيد إلى الداخل، ثمَّ همست في أذنه: «أي لون تريد؟».

أجابها هامسًا: «أزرق».

حدَّثت مايا البائع: «نريد صندلًا أزرق».

أحضر البائع زوجين من قبقابٍ أزرق لا يشبه ذاك الذي يرتديه زيد، وهو صندلٌ مهترئٌ عن صندلٍ آخر صغير المقاس.

ألبسته مايا الصندل الجديد، وقالت: «تحرَّك من هنا إلى هناك، لنرى إن كان المقاس ملائمًا».

تقدَّم بضع خطواتٍ صغيرة، واضعًا إحدى قدميه تلو الأخرى على أرضية الدُّكَّان بحرصٍ شديد. ثمَّ عاد أدراجه إليها. احمرَّت شفتاه واغرورقت عيناه بالدموع، فاحتضنت مايا كتفيه بيديها، وقالت: «لا بأس. امضِ في طريقك، لنرى إن كان المقاس ملائمًا».

ثمَّ أدارته إلى الجهة المقابلة ودفعته برفقٍ إلى الأمام.

- ألا يمكنك أن تجد له شيئًا أفضل من هذا؟ ربما صندلًا مُحكَمًا.

مشى زيد متثاقلًا على امتداد مساحة الدكان، ثمَّ عاد مندفعًا نحوها، يُطلق صفيره.

صاح البائع، وهو يضع إصبعًا على شفتيه: «لا تركض».

ثمَّ التفت إلى مايا متسائلًا: «كم تريدين أن تدفعي؟».

- لا يُهِمُّ. أرني طرازًا آخر فحسب.

علَّق البائع وهو يبحث خلال عُلب الأحذية: «يا لكِ من سيدة عطوف، تُحضرين خادمكِ الصغير إلى السوق».

- إنه ليس...

وقف زيد ممسكًا بالحذاء في يديه، ثمَّ حشر أصابعه داخل الزوجين وأخذ يُصفِّق بهما معًا، كما تفعل الفقمة. تطلَّعت إلى الصبي، ثمَّ تطلَّعت إلى البائع، الذي كان ممسكًا بزوجين آخرين بسيطين من صندلٍ مطاطي.

جذبت مايا الحذاء من يدي زيد وأعادته إلى البائع، وهي تصيح بضيق: «هيا بنا!... أحضِر لنا الصندل القديم».

- ألقيتُ به في القمامة.

- قلتُ لكَ أحضره!

أجهش زيد بالبكاء. فصاحت في نفاد صبر: «صهٍ!».

وتملَّكها سخطٌ مفاجئ عليه، لما يرتديه من ثيابٍ رثَّة. لاحظت كيف يلتقط أنفاسه عبر فمه، والمخاط الملتصق بعينيه. أشبه الصبي في حاله خادمًا صغيرًا، بياقته المؤطَّرة بالوسخ، وسواعده المُلطَّخة ببقعٍ صغيرة.

عاد البائع، ممسكًا بالحذاء القديم بأطراف أصابعه. شدَّته مايا من يده، ودفعت زيد بقوَّة إلى خارج الدُّكَّان. في تلك الأثناء، كان الصبي قد غاص في صمتٍ قاتم، رافضًا أن يُمسك بيدها، ويسير على بعد بضع خطواتٍ خلفها. حاولت أن تُخبره **بظنِّ البائع أنه خادم، هذا النغل،** لكنه رفض أن يُنصت إليها، موليًا ظهره إليها ومُبعدًا يدها عنه كلما حاولت لمسه. أنهت جولتها عند الخيَّاط، تُساوم دون حاجةٍ على أسعار الغُرز، مطالبةً بتجهيز الملابس في غضون ثلاثة أيام رغم أن العيد لن يهِلَّ قبل أسابيع، ثمَّ غادرا، متجاهلين بعضهما وهما يستقلَّان الريكاشة. ولمَّا وصلا إلى الكوخ الصغير، حاولت مايا مخاطبة الصبي مجدَّدًا، لكنه اعتلى الدرج اثنتين اثنتين، رافضًا حتَّى التطلُّع وراءه لمَّا صاحت: إلى اللقاء.

سألت الأم: «هل أحضرتِ كل شيء؟».

كان صوتها واهنًا حتَّى أشبه الهمس، وهنًا عَزَته إلى الغبار.

أجابت الابنة: «أجل، فعلت».

- أحتاجُ إلى دورة المياه. نادي صوفيا.

- إنها تغسل الأواني. سأصحبكِ أنا.

لم تقوَ الأم على مجابهة ابنتها، فانسلَّت ذراع مايا أسفل كتفي أمها، وبأنينٍ خافت اعتدلت الأم في جلستها. أمسكت بيدها، وصاحت: «انتظري».

ثمَّ التقطت أنفاسها، وهي تؤرجح ساقيها على جانب الفراش، مشيرة إلى مايا أن تمُدَّ ذراعها حتَّى يتسنَّى لها النهوض. تخبَّطتا معًا حتَّى وصلتا إلى الردهة.

قالت مايا: «لا تغلقي الباب بالقفل».

سمعت الماء يجري، ثمَّ صفعة على الحائط، تبعها صوت تقيُّؤ.

- أمي، هل أنتِ بخير؟ دعيني أدخل.

لم تسمع شيئًا.

- أمي؟ دعيني أدخل، أمي، أرجوكِ.

لا جواب.

دفعت الباب فانفتح، لتجد أمها راقدة إلى جانب المرحاض، وذراعها على وجهها. حاولت مايا رفع جذعها، لتجد خدَّها وذقنها مغطَّيَيْن بالقيء. سكبت كوبًا من الماء على وجه أمها، وأتبعته بآخر، وما تزال الأم ساكنةً في موضعها، تجاهد لفتح عينيها من أثر برودة انسكاب الماء عليها. تناهت إليها أصوات الحديقة عبر النافذة الصغيرة لدورة المياه. وفي تلك الأثناء، نزعت مايا ساري أمها ووضعته في سلة الغسيل، ورفعت الأم رأسها أخيرًا. ثمَّ عادتا أدراجهما إلى الفراش خطوةً بخطوة. غمغمت الأم بشيءٍ فاقتربت مايا، محاولة تبيُّن ما تقوله.

قالت ريحانة بوهن: «كل شيء. هل أحضرتِ كل شيء؟».

أجابت مايا: «لا تقلقي يا أمي. سنحتفل بالعيد كدأبنا».

***

اتصل شفاعة مسرورًا.

- إننا نتلقَّى رسائل عن عمودكِ في الجريدة. القرَّاء يُحبونكِ.

لم تأبه مايا إن أحبها القرَّاء أم لا، بل ما تأبه له هو: هل يفهمون ما تكتبه؟ أجابها شفاعة: «أجل، إن رسالتكِ تأخذ صيتًا بلا شك. لقد تلقَّينا خطابًا من خطيب مسجد راجشاهي. يبدو أنه رفيقُ نبيل».

- هل هو خطاب تهديد؟

لم تأبه مايا بأمر نفسها، بل حرصت كل الحرص على سلامة أهل القرية، وسلامة نازية.

أخبرها بألا تدع مجالًا للقلق في نفسها. ولمَّا نفث دخان سيجارته من جانب فمه، سمعت مايا تشويشًا على الجانب الآخر من الخطِّ. حسنًا إذن. ستواصل الكتابة.

سافرتُ عبر الجنوب الوعر من البلاد، لأجد أنني وسط قبائل الهيل (قبائل الرابية)، الكارجو والتشاكما. والآن، هلَّا طرحت على نفسك سؤالًا، عزيزي المواطن! هل التقيتَ من قبل بشخصٍ قَبَليٍّ؟ هل جلست يومًا إلى جانب قَبَليٍّ في المدرسة؟ هل ضمَّت قائمة معارفك شخصًا يعرف آخر تربطه علاقةٌ بشخصٍ قَبَليٍّ؟ أظنُّ أن الجواب هو لا.

تعلَّمتْ تلك القبائل فنون الطب من الغابة، طبُّ الطبيعة. تلك النباتات التي تنقعها، ثمَّ تكسو بها جرحًا. يلوكون أوراق النبات ويبصقونها على ندبتك. يؤمنون أن ثمَّة كنزًا في كل بقعةٍ من هذه الأرض.

وفي المقابل، نهدم قُراهم ونسمح للجيش باغتصاب نسائهم. نغتصب غاباتهم، ونجلوهم عن قُراهم. وليس في هذا أي ذرَّةٍ من حرِّيَّة.

***

ازدادت الأم وهنًا على وهن في كل يوم. كان التغيُّر بالكاد ملحوظًا، لكن مايا تلاحظ اختلافًا بين فينة وأخرى، حدَّة زاوية عظام خديها، والبشرة الملساء التي اكتسبتها. ثمَّ حاولت أن تُراقب التغيُّرات الأخرى؛ عادات أكلها، حركات أمعائها، مرَّات التقيُّؤ على أثر العلاج الكيمياوي. في حين أن الأم تتحرَّى الخصوصية الشديدة، رافضةً أن تفتح قلبها بالحديث عن مرضها، ودومًا ما تُفضِّل مساعدة صوفيا على مساعدة ابنتها. وحرصت على حجب تفاصيل مرضها بالسرطان، لدرجة أن مايا أخذت تتساءل عمَّا إذا يجدر بها أن تكون إلى جانبها من الأصل. لكنها لا تتصوَّر مكانًا آخر غير هذا. فقد تحلَّل وقتها الذي قضته بعيدًا، كما يتحلَّل السُّكَّر في الماء، دون أن يترك أثرًا. قلَّما تُفكِّر في نازية وفيما إذا كان يجدر بها معاودة الاتصال بها. لقد حلَّ موسم المانجو وانقضى في راجشاهي، وربما استغرقت بضع لحظاتٍ لتتذكَّر التيَّارات العطرة التي هبَّت في أنحاء القرية، وجعلت أفواه الجميع تقطر زبدًا، لكنها لم تفعل. بل تُفكِّر في أمها فحسب، تُفكِّر في طرد الهاجس الداخلي.

ولهذا صارت زائرًا معتادًا للطابق العلوي، تجلس على مشارف عالمهم الغريب، تأسرها طقوسه، وتُذهلها رياح الطمأنينة واليقين التي تُحيط بهم.

ذات مرَّة، سألت رقية عن رأيها في وفاة الرئيس ضياء الحق، تطلَّعت إليها رقية بنظرةٍ جوفاء كأنما لا تُدرك أي ضياء الحق تقصد. استشعرت مايا تساؤلها: هل جاء في القرآن الكريم ذكر أي ضياء الحق؟ هل ضياء الحق هذا فردًا من عائلتهم الكبيرة؟ ولكن بدلًا من شعورها بأمواج الغضب المألوفة، وبدلًا من تكرارها السطور المعتادة عن المواطنين الذين لا يستحقُّون الحرِّيَّة التي حاربوا ببسالة لأجل اكتسابها، واستحقاقهم للساسة الأنجاس، وكيف أن أُناسًا مثلها هُم مَن جلبوا كل هذا الخراب على البلاد، غمرها شعورٌ بالارتياح. أنهكها أن تَدَعَ كل شيءٍ يفطر قلبها: الساسة والمحتالون والنسوة اللاتي مات أطفالهن لأنهن لم يصلن إلى المشفى في الوقت المناسب. في عالمٍ كهذا، لا يُهِمُّ إن أُغتيل اثنان من رؤسائهم، ولا يُهِمُّ إن هم واقعون الآن في أوجٍ درجات السخرية، مع ديكتاتورهم، وممارساتهم الجائرة، وحربهم الصغيرة القذرة في أعماق الجنوب. ينطوي العالم كله في هذه الغرفة فحسب، هذه الغرفة الحارَّة العابقة بخليط من رائحة كريهة للرجال والنساء، والشعور بأنها كانت تجذب طرف حبلٍ بأقصى قوَّتها، تجذب أمها إلى الخلف إذ هي تنجرف نحو الموت.

***

صفح زيد عن مايا لما حدث في السوق، وعاد يزورها جيئة وذهابًا كدأبه. وكما كان ديدنهما آنفًا، أخذت تُطعمه وتحاول تعليمه أمورًا جديدة. الأمور الحلال، لا مكان لألعاب الورق، ولا التلفاز. أخذت تُعلِّمه مسائل الجمع والطرح. وكان نشاطه الجنوني هو شعاع الضوء الوحيد في الكوخ الصغير. يدخل إلى غرفة ريحانة على رؤوس أصابعه ويجلس عند قدميها، ينبعث منه نوعٌ من التفاؤل الرشيق، بصرف النظر عن غوصها في أعماق الفُرش، وعن هزالة بُنيتها كطائرٍ يرقد في عشه، طائر أبي الحناء الطنَّان ذي الثدي الأحمر المكدوم.

***

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

1973
يوليو (تموز)

رغم إعلان سهيل لعشقه للمُصحف الشريف، وشروعه في زياراته المتتالية إلى المسجد، وارتدائه طاقية الصلاة على رأسه، ظلَّت مايا على يقين بقدرتها على إقناع شقيقها بالعدول عن فِكره. إنها تعرف طبيعته طوال حياتها، وطوال حياتها كان مناقضًا لما عليه رجلٌ متديِّن. سخر من أمر التديُّن ومزح بشأنه، وحمل قلبه السخط على دين يسهل تطويعه من السهولة إلى العُسر ومن الرحمة إلى العذاب. وشهد هذا التطويع بأم عينيه؛ يُذبَح الفتيان لأنهم هندوس، ويُقتَل أساتذة الجامعة رميًا بالرصاص ويُكوَّمون في المقابر لأن إسلامهم ليس كما يجب. لهذه الأسباب جميعًا، آمنت مايا أن تحوُّل سهيل تحوُّلًا هشًّا، كقطرات الندى تستكين بين الحشائش في بداية النهار، وتتلاشى لمَّا تختفي شمس الأصيل في الغسق.

لمَّا تراءى لها كل هذا، عزمت على إقامة حفل عيد ميلادٍ له، سيحضره الأصدقاء القدامى: شوتو، سايما، إقبال، والفتيان في كتيبته، وأصدقاؤهما من الجامعة. الأصدقاء الذين سمعوا خُطب سهيل في اتحاد الطلاب، الأصدقاء الذين أدلوا له بأصواتهم وانتخبوه رئيسًا لقاعة محاضراته وسمعوا اسمه يُجلجل في حناجرهم حين انضموا إلى الجامعة.

لمَّا جاء اليوم المنشود، تجاهلت مايا نصيحة أمها، وأخبرت سهيل بالقليل عن الحفل، واكتفت بإبلاغه أن الحفل سيُقام بعد الظهيرة، وأن الجميع يتوقَّع حضوره، فهذا حفل عيد ميلاده في نهاية المطاف. عملت مايا بجدٍّ، وجهَّزت لوح لعبة الكاروم في الشرفة، وعصرت عشراتٍ من حبَّات الليمون، وأعدَّت العدس المقلي من أجل إناءٍ ضخم من طبق الكهچري الساخن.

كان نهارًا مشرقًا وحارًّا، لكنه لا يشي برياحٍ موسمية تُفسد الأجواء. وصل شوتو وسايما أولًا، يحملان طفلتهما حديثة الولادة ملفوفةً في وشاحٍ من القطن مُطرَّز بغُرزٍ تحمل ألوان علم بنجلاديش. سألت مايا، عالمةً بأن والدة شوتو تؤمن بالخرافات، وأنها قد حرَّمت عليهما تسمية الرضيعة قبل احتفال تسميتها عند عُمر ثلاثة أشهر: «هل اتفقتما على اسم؟».

أجابت سايما: «كلا، لم تمنحنا المرأة التنِّين إذنًا بالتسمية بعد».

علَّق شوتو: «أداوم على إخبار هذه الطفلة كم هي محظوظة لتُولد في بلدٍ حُرٍّ، ولكن كل ما تفعله هو الضراط والرضاعة، والرضاعة والضراط».

دخل بعضٌ من الفتيان في كتيبة سهيل يسيرون الهوينى، يتمنطقون بزيِّهم العسكري. ثمَّ أشار إليها كونا -الفتى صاحب المنكبين العريضين اللذين يملآن عرض زيه بأناقةٍ ووسامة- بتحيةٍ مقتضبة، وقال: «مرحبًا أيتها الأخت الصغيرة. أرى أنكِ لم تعودي صغيرة».

أخذت الحديقة تمتلئ بالضيوف. وراحت مايا تُمرِّر عصير الليمون والحضور يتفرَّقون إلى البقاع المُظلَّلة من الحديقة، يستندون إلى شجرة الجوافة، ويتسكَّعون في الشرفة. وصل قطاعٌ كبير من طلاب الكلية الطبِّيَّة زملاء مايا، ثمَّ ثلاثيٌّ من النسوة دومًا ما أظهرن اهتمامًا خاصًّا بسهيل. في الجامعة، عُرف هذا الثلاثي بالفتيات الحثيثات، ذوات بلوزات بلا أكمام، وشفاهٍ مبرومة دومًا في ابتساماتٍ مضيافة مُتقنة تُخفي الأسنان. راح كل شيءٍ يتآلف -الضحكات وعصير الليمون والفتيات الحسناوات- أما الشيء الوحيد المفقود هو سهيل. فحصت ساعة يدها: إنها الثالثة وما يزال مفقودًا. استشعرت مايا نوبةً من الهلع تغزو صدرها؛ ربما لن يحضر أبدًا. على الأرجح هو الآن في المسجد، نافرًا من الفكرة برُمَّتها. إذن ماذا ستفعل هي، ماذا ستقول لهؤلاء الضيوف الذين يلتهمون الفستق ويتبادلون القصص عن شقيقها؟

احتفت بطلاب الكلِّيَّة الطبِّيَّة، حاشدةً الكراسي معًا حتَّى يتسنَّى لهم أن يجلسوا في دائرة. في تلك اللحظة، لمحت أمها متشحةً بساري أبيض مُنشّى، تُمرِّر القليل من سلطانيات الأرز المنفوش، تبتسم وتحتفي بالجميع كلٌّ باسمه. وقف الفتيان منتصبين ووضعوا أيديهم على رؤوسهم أو انحنوا لملامسة قدميها تبرُّكًا. وشيئًا فشيئًا، ازداد الحديث حيويةً، والأجواء استرخاءً، ورغم تردُّد هُتافاتٍ عارضة بين فينة وأخرى، مثل: «أين هو فتى عيد الميلاد؟» بيد أنه ما من أحدٍ يمانع غياب سهيل.

قرَّرت مايا المُضي في حفلها، وتقديم الغداء. قطَّعت حبَّات الخيار إلى شرائح من أجل أطباق السَّلَطة، وأعادت تسخين الكهچري، وراحت تُكدِّسه في صِحافٍ كبيرة وتحشد الجميع في غرفة المعيشة. ولمَّا أوشكت على تقديم أطباق البيض المطهي بالكاري، رأته قادمًا من الطرف البعيد للحديقة. توقَّف على مقربةٍ هنيهة، حتَّى لمح أحدهم، ثمَّ لوَّح إليه. كان يرتدي بدلة كورتا بيضاء وطاقية، إذن هي مُحقَّة، لقد كان في المسجد. رمقت طبق البيض بالكاري بنظرةٍ غاضبة، ثمَّ أسرعت بالإناء إلى خارج المطبخ ومنه إلى غرفة المعيشة. التفَت الفتيات الحثيثات حول سهيل. ولامست إحداهن -أطولهن قامة- ذراعه بخفَّة، ثمَّ قهقهت بضحكةٍ تشبه صوت التقاء ملعقة بكوبٍ زجاجي.

شقَّت مايا طريقها في أنحاء الحديقة، داعيةً الجميع إلى طاولة الغداء. وفي غرفة أمها وجدت سايما مستلقيةً على الفراش تُرضع صغيرتها، ومصراعي النافذة مغلقين. فعرضت على الأم العناية بطفلتها حتَّى يتسنَّى لها تناول غدائها.

زفرت سايما تنهيدةً، وأجابت العرض: «أنتِ جنِّيَّة الأحلام. إنني أتضوَّر جوعًا! وهذا الوضيع قد رحل ليُعيد ملء كأسه. انتظريني حتَّى أُبدل حفاضتها».

- يُعيد ملء كأسه؟ مِن أين؟

لم ترَ مايا زوجها شوتو في المطبخ مطلقًا. لكن سايما أجابت ضاحكة:

- في سيارة مراد، فقد أحضر معه نصف زجاجة من الويسكي.

- ربَّاه!

تصوَّرت مايا غضب والدتها المتفاقم حين تكتشف الأمر.

جذبت سايما ساقي الرضيعة وخلعت حفاضتها القماشية من أسفلها، وأخذت تُهدِّئ من روعها لمَّا تذمَّرت اعتراضًا، وسألت: «أنتِ لا تُمانعين، أليس كذلك؟».

ما دام أحدٌ لن يكتشف الأمر.

أجابت مايا: «كلا، أفترض ذلك. أخبريهم فحسب أن يتوخُّوا الحذر، فأمي لن يُعجبها الأمر، وكذلك سهيل».

- لا شك أننا سنُخفي الأمر عن خالتي. ولكني رأيتُ سهيل يحتسي مشروبًا من قبل، مَن يدري، ربما يكون في سيارة مراد هو الآخر.

طوت سايما الحفَّاضة القماشية، وهي تقبض بأسنانها على دبُّوس أمانٍ كبير. هنا عجزت مايا عن تصديق عينيها، وعلَّقت: «صدقًا يا سايما، لا أدري كيف تفعلين هذا، أعني أمور العناية بالرضيعة. أنتِ خبيرةٌ بالأمر حقًّا».

كم شعرت مايا بالارتياح، لأن الأمر لا يقع على عاتقها هي، ولكن ما تنفكُّ تشعر بوخز الغيرة من حقيقة أن صديقتها باتت بالفعل ماهرة في فعل شيء، في حين أنها مُتخبِّطة، لا تُدرك كيف لها أن تعتاد حياةً دون حرب.

- إن الأمر بسيطٌ حقًّا. لا يمكن أن يكون بصعوبة الكلية الطبية.

أوشكت مايا على سؤال صديقتها ما إذا كانت ستعود إلى الجامعة، عدا أن سايما ناولتها الرضيعةَ على حين بغتةٍ، مُقمَّطةً في بطانيتها مستطيلة الشكل.

آثرت مايا أن تعود بدفَّة الحديث إلى سهيل بدلًا: «إنه مختلفٌ الآن».

استشعرت دفء يدها تحت رأس الرضيعة.

أجابت سايما: «لقد تغيَّروا جميعًا. لم يعد أحدٌ كما كان سلفًا».

جاهدت مايا لتوضيح الحقيقة: «اعتاد ارتياد المسجد. ويقول إنه وجد شيئًا».

- لا تقلقي. كل هذا سيمُرُّ.

- هذا ما تقوله أمي. ولكن أنتِ تعرفين طِباعه وشخصيته، يأخذ كل شيءٍ على محمل الجدِّ.

نهضت سايما عن الفراش، ولوَّحت بيدها كأنما تطرد ذبابة، ثمَّ أجابتها: «لن نسمح له بالتمادي كثيرًا. سأذهب لتناول طعامي الآن، هل ستكونين بخير مع هذه المتوحِّشة؟».

غطَّت الرضيعة في النوم مجدَّدًا بعينين منتفختين، وراحت تُعمِل قبضتيها في وجه عدوٍّ خيالي. حملتها مايا إلى غرفة المعيشة، حيث كانت أمها تمُرُّ بالأطباق على الضيوف. ثمَّ سمعت أحدهم يقول: «ليس كثيرًا يا خالتي، علينا أن نُحافظ على قوامنا!».

ثمَّ رأت سهيل إلى جانب شوتو، يُمسك بطبقٍ فارغٍ في يده. رأته مايا مقيتًا في بدلة الكورتا البيضاء، طويلًا نحيلًا، لا تشوبه شائبة. ثمَّ أدركت بغتةً تمام الإدراك أنه لا بُدَّ غاضب، أحكمت ذراعيها حول الرضيعة، ولملمت شتات شجاعتها لتقترب منه. فلمَّا رآها شوتو، صفع ظهر سهيل صفعةً عنيفة، وقال: «هذا الرجل مملوءٌ بالخير. لقد ظلَّ يُخبرني بأشياء رائعة. رائعة!».

قالت مايا: «تعالَ، وكُل شيئًا».

رمقها سهيل بتعبير عجزت عن فكِّ شفرته. كانت عيناه داكنتين مصوَّبتين عليها لا ترى غيرها. فأضافت باللغة البنغالية: «من فضلك يا أخي».

لكنه هزَّ رأسه نفيًا، وحطَّ الطبق الفارغ على الطاولة، ثمَّ شقَّ طريقه نحو ثلةٍ من الضيوف يُلوِّحون له عند مدخل الباب. سمعت أحدهم يقول: «آسفٌ لرحيلي بعد الغداء مباشرةً».

ثمَّ سمعت سهيل يُجيبه: «الله حافظ. عندما تستقرُّ شؤونك، سنتحدَّث ثانيةً».

انتابها شعورٌ بأنه قد تحدَّث إلى جميع من بالحفل، وأنهم يرحلون الآن حاملين بين طيَّاتهم بذور أفكارٍ زرعها سهيل، وأن هذه البذور ستؤرِّق جنباتهم على مدار بقية اليوم، وتحكُّ وجوههم، حتَّى تُغيِّرهم، ويتبدَّل حال كل شيءٍ رويدًا رويدًا. هذا ما سيُحدثه حديث سهيل، هذا ما أحدثه حديثه دومًا.

***

قال شوتو، وهو يدسُّ إصبعه في فم الرضيعة: «ها هي مَلِكَتي الصغيرة».

تشمَّمت مايا العبير المُكرمل للويسكي في أنفاسه، فسألت: «هل يداك مغسولتان؟».

تجاهل شوتو سؤالها، وجذب القِماط من بين يديها، وهو يقول: «أعطيني إيَّاها. كيف حال قنبلتي الصغيرة ذات الرائحة الكريهة؟».

جابت مايا الغرفة بناظريها بحثًا عن سهيل، لكنه خرج ليفتح البوابة الحديدية من أجل الضيوف المغادرين. ولمَّا شرع الجميع في تنحية أطباقهم جانبًا، أخذ المطر يُرَشُّ رشًّا. ركضت الفتيات الحثيثات إلى الخارج، يحتمين بالأطراف الرقيقة لسواريهن. واحتشد طلاب الكلية الطبية ورجال الجيش في غرفة المعيشة، يستندون إلى الحائط أو يُحشرون إلى جانب بعضهم على الأريكة.

قال كونا: «دعونا نُغني أغنيةً، هيا بنا؟ سهيل يا صديقي، تولَّ أنتَ أمر الجيتار».

هزَّ سهيل رأسه نفيًا، وبدا غضبه متأجِّجًا الآن، وهو يخلع طاقيته عن رأسه، ويطويها في جيبه.

ثمَّ شرع كونا في الغناء.

بنجلاديش، حُبي الأول والأخير،
بنجلاديش، حياتي ومماتي،
بنجلاديش، بنجلاديش، بنجلاديش!

انضمَّ الجميع إلى الغناء، عدا سهيل، الذي انتقلت عيناه من نقرات قدمي كونا إلى زخَّات المطر الغزيرة التي تسقط صافعةً النوافذ. لم تكن مايا وحدها مَن لاحظ تبدُّله، فبعد انتهاء الأغنية، خيَّم صمتٌ طويلٌ مطبق. وأخذت الرضيعة في البكاء.

قالت سايما، وهي ترفع الرضيعة إلى كتفها: «يا سهيل، لقد سمعتُ أنكَ أصبحت مولى».

قاطعتها مايا: «سايما، ليس الآن».

- لا عليكِ، يمكننا أن نرى جميعًا بأنفسنا. لا شيء تخجل منه. لماذا لم تُخبرنا الأمر؟

لم تُرد مايا أن يقُصَّ سهيل على الجميع خبره. بل أرادت أن ينقشع الأمر فحسب. في تلك الأثناء، نهض طلاب الكلِّيَّة الطبِّيَّة ليُغادروا، فاستبقتهم مايا بنبرةٍ واهنة دون إصرار: «من فضلكم، لا ترحلوا هكذا». لكنهم أشاروا إليها بالوداع، قاطعين لها الوعود بأن يروها في حجرة التشريح. وقالوا، مشيرين إلى إحدى جثثهم: «علينا استخراج كُلية هتلر».

أَوْلَى أحد الفتيان -بدا يُعاني سوء التغذية من مظهره، وله شعرٌ يُغطِّي أذنيه- اهتمامًا خاصًّا لمايا وهو يُلقي عليها الوداع، عاقدًا بصره هنيهة ازدادت طولًا، وهو يعضُّ على شفته السفلى. تجاهلته مايا، ولكن حين أُغلقت البوابة من خلفهم، سمعت الآخرين يُقرقرون ضحكًا، والقليل من صفعاتٍ ضعيفة وهم يتدافعون فيما بينهم.

ثمَّ لم يبقَ سوى شوتو وسايما وكونا والفتيان من كتيبة سهيل. وفي تلك الأثناء، كان سؤال سايما يجوب أرجاء الغرفة.

نهض سهيل فجأةً، وسوَّى بدلته، وأعاد تزيين رأسه بالطاقية، ثمَّ قال بصوتٍ رخيمٍ لا يخلو من الخشونة: «هذا صحيح، اعتدتُ ارتياد المسجد».

قال شوتو: «توخَّ الحذر، إنهم يسرقون الأحذية في المساجد».

- وقِف في المؤخِّرة، وإلا سيُفتن الرجال الآخرون بمؤخِّرتك. مع كل هذا الجثوم والانحناء.

أخذوا يضحكون، ونزل شوتو إلى الأرض، مستعرضًا مخاطر الانحناء الشديد إلى الأمام في أثناء السجود. وقال: «يمكن للسروال أن يسقط في أي لحظة!».

نشبت البراكين في الغرفة، هذا ما أرادته مايا تمامًا، لكنها أدركت حقيقة ما يحدث بعد فوات الأوان. ما من سبيلٍ أن ينضمَّ إليهم سهيل، ما من سبيلٍ أن يُشارك في السخرية من نفسه. تابع كونا العزف على الجيتار، وهو يُدندن بخفوت. لم يقعد سهيل، بل حدَّق إلى من في الغرفة مباشرةً، وقال: «ليس أمرًا شائنًا أن يجد المرءُ ربه».

صاح شوتو، رافعًا قبضته في الهواء: «الحمد لله!».

نحَّى كونا جيتاره جانبًا، وتحدَّث بجدِّيَّة: «أذكرُ يا سهيل أنكَ قلتَ لنا إن الدين يُصيبنا بالعمى، وفي التدريب تُحِث الجميع على ألا ينطقوا بكلمة التوحيد قبل أي عملية».

أجاب سهيل: «هذا صحيح. أنتَ تذكر جيدًا. وهل كنتَ تُنصت لما أقول؟».

- كلا.

- لأنكَ تعرف أني كنتُ على خطأ.

أجاب كونا باسمًا: «حسنًا، لم نُرد أن تُقتلع رؤوسنا، أليس كذلك يا فتيان؟».

دخلت الأم الحجرة حاملةً الكعكة. بيضاء مُربَّعة كانت، ومُزيَّنة بزهورٍ زرقاء. أعوامًا مديدة من السعادة يا أخي.

علَّق شوتو: «أيا صديقي، لم نعلم أن هذا حفل عيد مولدك».

أشعلت الأم الشموع، وقالت وهي تضع يدها على خد سهيل: «أقبل يا بُني، وقطِّع الكعكة».

ردَّد الجميع أغنيةً، وقطَّع سهيل الكعك إلى شرائح، ثمَّ أطعم الأم قطعةً صغيرة. عادةً ما كان يفعل الشيء نفسه مع مايا، عدا أنها اتكأت بظهرها إلى الحائط بعيدًا عن مرمى البصر. رأته يضع قطعةً من الكعكة في فمه، وعندها أدركت -في تلك اللحظة- أن هذه هي المرَّة الأخيرة التي ستراه فيها على هذا الحال، متظاهرًا بكونه شيئًا من الرجل الذي تذكره هي، سامحًا لأصابع نسوةٍ يتزيَّنَّ بأحمر `شفاه بالرقص على ذراعه، مُشتمًّا رائحة الويسكي في أنفاس أصدقائه، ومراقبًا إياهم يتململون جميعًا في غير ارتياحٍ لمَّا تحدَّث عن المسجد، قد يُغيِّر من نمط ملابسه، ويشرع في إطلاق لحيته، وربما يشدُّ رحاله إلى مكة ويتهيَّأ للاعتكاف. اتضح لها المستقبل فجأةً: إنه يمضي إلى طريق آخر، طريق بعيد يصعب الوصول إليه، طريق لا يتقاطع مع طريقها، وحتى لو لم تختفِ معالم شخصيته كُلِّيًا؛ بدءًا من اليوم، ستسقط هي في غياهب النسيان والهجران.

***

لاحقًا، لمَّا جفَّفت المرأتان الأطباق وكشطتا الكهچري من قاع الإناء، التفتت مايا إلى أمها وقالت: «ما كان يجدر بي أن أُقيم الحفل».

أومأت الأم في إيجاب، ودون أن تنبس بكلمة تابعت تقسيم بقايا الطعام في حاوياتٍ صغيرة، ومرفقاها يعملان بجدٍّ، يرفعان الحاويات، ويغرفان الطعام.

أضافت مايا متسائلة: «هل رأيته؟ أرأيتِ النظرة التي رمق بها الجميع، كأنه من عالمٍ آخر».

وانتظرت أمها لتُخبرها أنه ما من شيءٍ يثير غضبها، بل مُجرَّد مرحلة، وستمُرٌّ كغيرها. لكنها بدلًا أجابت: «إن الأمر جدِّيٌّ عمَّا ظننا».

- أأخبركِ هذا؟

- إنه يريد استغلال سطح البيت... للخُطب.

- خُطَب؟

- خُطَبٌ عن الدين. ويقول إنه ليس مولى، ولا يجدر بنا أن نُطلق عليه هذا اللقب. يقول إن ما يريده هو الصعود إلى سطح البيت والحديث عن الرب.

- لِمَن يتحدَّث؟

- لكل من سيُنصت له. وصديقه كونا سجَّل انضمامه بالفعل.

رفعت الأم يدها إلى شعرها، وأعادت ربط عُقدته، وهي تلف رسغها بإحكام. وفي الخارج، توقَّف المطر، مُخلِّفًا وراءه هواءً يعبق بآثاره، وبين فينة وأخرى، تُسمع أصواتُ الأوراق تتقاطر من عليها بقايا المطر الأخيرة.

تساءلت مايا: «ليس ثمَّة ما يمكننا فعله، أليس كذلك؟».

انحنت الأم لتلتقط الإناء الفارغ، ثمَّ أخذته إلى الصنبور الخارجي. بدت الأم حينها مُنهكة القوى وهي تُجيب: «لا، لا أظنُّ ذلك».

- حسنًا، إذن، هيا نأكل بقايا هذه الكعكة.

وجلست القرفصاء على حصيرةٍ من خوص إلى جانب أمها، ومرَّرت إليها طبقًا يضمُّ الركن الأخير من كعكة عيد الميلاد، اختفت الزينة الآن من الحواف، وصارت الكريمة المثلَّجة مُلبَّدة ومُلطَّخة.

***

أنشد سهيل كلماتٍ من التوراة، وغيتا[1]، والإنجيل. وأثنى على أنبياء العهد القديم، والإله راما[2] والقائد أوديسيوس[3]، وعيسى وأرجون[4]، وبوذا والغورو ناناك[5]. جميعهم رسلُ الله، كلٌّ بطريقته. يفصلهم الزمان، وتتنوَّع تعاليمهم، على أنهم يتساوون في رغبتهم في إصلاح الإنسان. تحدَّث إلى مَن هُم مثل كونا، إلى مَن لم يُفكِّروا بجدِّيَّة في أمور إيمانهم، وهكذا قرأ عليهم القرآن، وقصَّ عليهم قصصًا عن المكان الذي وُلِدَ به إيمانهم، في صحراء الجزيرة العربية، حيث تضافرت قبائل قريش المتناحرة في ظلال الكعبة.

للأديان الأخرى قدّيسوها ورموزها، لها كنائسها، وأناجيلها، ووصاياها، ونزاعاتها، ومعجزاتها، والمنبوذون منها. ثمَّ قال: ونحن لنا نبيُّنا وقرآننا، والقرآنُ هو المعجزة، معجزةٌ موغلةٌ في البساطة، وهذا هو مكمن قوَّة الرسالة. نشرت بينهم المؤاخاة، وجعلتهم إخوةً وأوصياء لبعضهم، ووعدتهم بالمساواة والتكافؤ. وعدتهم بالحرِّيَّة، فكانت بذلك الدعوة التامة.

خاطب القرآن أحزانه كلها، وجروح حياته جميعها. خاطب القرآن السكين الذي غرزه في عنق رجلٍ بريء، خاطب اليوم الذي مات فيه أبوه، ويده على قلبه المتوقِّف، خاطب صوت المدفع الرشَّاش يتردَّد في صدره، ليلةً بعد ليلة، وخاطب الحُفرة الجوفاء التي سقطت بها بيا. وخاطب كل فكرةٍ خطرت على باله بشأن هذا العالم بأكمله. الجميع سواسيةٌ أمام الله؛ كم كان غبيًّا حين ظنَّ أن ماركس هو مبتكر هذا المفهوم، وهو قديمٌ، بل قديمٌ قِدم الزمان، مغروسٌ في نواة كل إنسانٍ أينما كان. هذه هي مشيئة الله، وهذا هو خلقُ الله. ثمَّ بكى من جمال ما اهتدى إليه.

***

(1) البهاغافاد غيتا هو الكتاب المقدس في الهندوسية، وهو الحوار الذي جرى بين السيد أو الرب المبارك كريشنا وأرجونا عند بداية المعركة، وهو عبارة عن 700 بيت أو آية تقع في ثمانية عشر فصلًا، ويعود تاريخه إلى قرابة الألف الثالث قبل الميلاد. وتعني هذه الكلمة: «أغنية الرب المبارك» أو «نشيد الله» أو «نشيد المولى». (المترجمة)

(2) الإله راما هو إله هندوسي وبطل شجاع وتنسب إليه الملحمة الهندية المشهورة، الرامايانا. (المترجمة)

(3) بطل ملحمة الأوديسة. (المترجمة)

(4) أرجون هو أحد الأخوة باندافا الخمسة، أبطال الملحمة الهندية ماهابهارتا. (المترجمة)

(5) الغورو ناناك أو المُعلم ناناك هو المعلم الأول والمؤسس للديانة السيخية. (المترجمة)

1984
أكتوبر (تشرين الأول)

كانت مايا قد نسيت أمر زيارة السوق الجديدة لمَّا دخل عليها سهيل عبر الباب بعد بضعة أسابيع، مُحمرَّ الوجه، والهواء يشقُّ طريقًا وعرًا إلى خارج فمه، ويُمسك بحقيبةٍ ورقية صغيرة بين يديه.

جلس متثاقلًا، وسأل: «كيف حال أمي؟».

- إنها مريضة بالسرطان، كيف عساها تكون؟

لم تتعمَّد الظهور بتلك الحدَّة، لكنه لم يأتِ لزيارة أمه منذ ذلك اليوم في المشفى. وتسأل الأم عنه باستمرار، واضطرَّت مايا للكذب وإخبارها بسفره إلى مكانٍ ما لعملٍ مهمٍّ يخُصُّ الجماعة، وأنه يبعث إليها بمحبته ومباركاته. ثمَّ وصلت إليهما رسائل من الطابق العلوي، تُبلغهما أنهن قد ختمن قراءة القرآن الكريم ثلاث مرَّاتٍ باسم ريحانة. وبعثت خديجة بالطعام، وأحيانًا بكمِّيَّاتٍ هائلة، اضطرَّت المرأتان إلى التخلُّص من بقيته في القمامة، ذلك أنه ما مِن أحدٍ ليأكله.

- كنتُ أدعو لها.

- أعرف. سمعت بهذا.

تذكَّرت مايا خطبته، والكيفية التي عاتبها بها.

فرك سهيل وجهه بيديه، ثمَّ رفع الحقيبة الورقية. بداخلها كان صندل باتا، أزرق جديدًا. شعرت مايا بطوفان بارد من الذعر يغزوها. شبَّك سهيل أصابعه على شكل خيمة، وقال: «أودُّ أن أعرف كيف وصل هذا الصندل إلى حيازة ابني».

لاحظت مايا خاتمًا على إبهامه الأيسر، خاتمًا فضيًّا يُزينه حجرٌ أخضر رخيص. حدَّقت إليه وهي تُحاول أن تُحدِّد كيف لها أن تشرح له الأمر؛ أمر السوق، والبائع، والإهانة.

- إنها هديَّةٌ مني. كان صندله القديم مهترئًا.

- لم يكن مهترئًا. لقد رأيته بنفسي.

علَّقت مايا:

- أنتَ على حق، لم يكن مهترئًا. لكن مقاسه صغيرٌ للغاية.

- أنتِ تعرفين أنني أراعي التواضع والصدق قبل أي شيء.

- أراد...

- بالطبع سيريد. إنه طفل.

- بالضبط. إنه طفل.. وأنتَ لا تُعامله على أنه طفل.

تطلَّع سهيل إليها مباشرةً، نظرةً تشبه السيف في حدَّته. اللعنة، لطالما أدرك كذبها حين تكذب. ولهذا سألها: «هل أنتِ من أعطيته الصندل؟».

- كلا.

- إذن مِن أين حصل عليه؟

- لا أدري.

- لا أُصدِّقكِ.

أوضحت مايا:

- اسمع، لقد ذهبنا إلى السوق الجديدة، وأردتُ أن أبتاع له صندلًا، لكن البائع ظنَّ أنه خادم.

لم يحرَ سهيل جوابًا، بل تابع تحديقه إليها، فسألت هي: «هل سمعتني؟ خادم».

- ولماذا تهتمِّين لهذه الأمور؟

بدا مشدوهًا بحق. لماذا **اهتمَّت** بالأمر؟

- لأن الصبي تعرَّض للإهانة، هذا هو السبب. لأنَّ ابنكَ تعرَّض للإهانة. وهذا نفسه ما يحدث حين يسير في الشوارع بملابس رثَّة، أو يُحدِّق إلى الأطفال الخارجين من الملعب لمَّا يدقُّ جرس المدرسة.

سأل سهيل:

- لو لم تكوني أنتِ مَن اشتري الصندل، فمَن إذن؟

- لا أدري. ربما اشتراه بمصروف جيبه.

- تعلمين جيدًا أننا لا نعطي الصبي مصروف جيب.

لا ألعاب. لا مصروف جيب. لا صندل. خشخشةٌ في الصدر. وقشور جروحٍ قذرةٍ على ذراعيه.

أضاف سهيل وهو ينهض عن الأريكة بتثاقل: «عليَّ أن أفعل شيئًا».

ربما كان ما حدث أمرًا حسنًا، ربما سيُدرك أخيرًا ما يفعله بابنه.

علَّقت مايا:

- أجل، افعل شيئًا، من فضلك.

أبدى سهيل تردُّدًا، ثمَّ أخذ نفسًا عميقًا حادًّا، وقال: «سأرسله إلى مدرسةٍ إسلامية».

أجابت مايا بنبرةٍ مشدوهة: «ماذا؟».

- في «شاندبور».

شعرت باختناق صوتها، ورجفته، وهي تسأل: «وأين تقع شاندبور اللعينة هذه؟».

- على الجانب الآخر من مدينة «جامونا». ظننتُ أنكِ تعرفين كل شبرٍ في هذه البلاد.

عجز سهيل عن مقاومة السخرية منها، لكنها تجاهلته مُجيبة:

- لكنها تبعد أيامًا عن هنا.

- سمعتُ أن حضرة الناظر رجلٌ حسن.

تساءلت: «سمعتَ؟ ألا تعرفه؟».

- إنه موصى به بشدَّة. أحتاجُ إلى قضاء المزيد من الوقت في المسجد، ولا يسعني مراقبة زيد. إنه.. إنه بحاجةٍ إلى الإرشاد. حتَّى أنتِ يمكنكِ إبصار هذا.

- اسمح له بالبقاء معنا، أنا وأمي. لقد فقد أمه لتوه.

- أنا ممنونٌ لما بذلته من جهدٍ يا مايا، ولكني أظنُّ أن كلينا يعرف أن الوضع قد بدأ يخرج عن السيطرة. هل يمكنكِ أن تعديني ألا يسرق بعد الآن؟ زيدي على ذلك أنه يختلق قصصًا طوال الوقت، إن الصبي يعيش في عالم أحلامه الخاصَّة، وهذا ليس جيدًا.

لا يمكنها قطع وعد له بألا يسرق الصبي مجدَّدًا. ولا يمكنها قطعُ وعدٍ له بأي شيء، هي لا تعلم حتَّى أين يقضي زيد نصف وقته، ولا سبب عودته بالكدمات على ذراعيه، ولا سبب رائحة القيء التي تنبعث منه.

تابع سهيل مضيفًا: «إن أمي بحاجةٍ إليكِ، ولُبُّ واجبكِ يكمن فيها».

أجابت: «وزيد بحاجةٍ إلينا أيضًا. من فضلك يا أخي. (حُبس الهواء في حلقها) أعتذر لكَ عن أمر النعال، كان يجدر بي أن أطلب موافقتكَ أولًا. ولكن أمر المدرسة الإسلامية لا يُحتمل يا أخي، حتَّى أنتَ لن تحتمله».

صُبغ صوته بالقسوة، كأنما دسَّ شريطًا من معدنٍ خلال حلقه، وهو يقول: «إنه ابني. واتخذتُ قراري. سيغادر بعد ظهر يوم الأربعاء».

ما عاد هناك ما يُقال، لم تترك قسوة صوته مجالًا للنقاش. لكنها سألت: «وماذا عن أمي؟».

- أبلغي سلامي إلى أمي.

تراه يُجافي أمه.

- ألا تريد أن تراها؟

- أبلغيها أننا ندعو الله تعجيلًا بشفائها إن شاء الله.

ثم آثرَ الرحيل.

***

ما من شكٍ أن الصبي لن يوافق أبدًا على أمر المدرسة. سيرفض، وسيتعيَّن عليها خوض جدالٍ آخر مع سهيل. وفي هذه المرَّة، ستستعدُّ للمواجهة،

وستُقدِّم لها أمها يد العون فيما ستقوله. عدا أنها في اليوم التالي، وجدت زيد يرقص على سطح البيت، وهو ينتف الأوراق من شجرة الليمون التي تُلامس نوافذ الطابق الأول، ثمَّ ينثرها فوق رأسه. أخذ يهبط درجات السلم فرحًا مرحًا، مرتديًا تنُّورة لونجي جديدة، مُنشَّاةً بالمكواة، بدا فيها عريض الهيئة ممَّا هو عليه حقيقةً، وبدلة كورتا بنصف كُمٍ، وطاقية على رأسه. وصندوق صغيرة يحمله على ذراعيه.

- أتيتُ لأطلعكِ على حاجياتي الجديدة.

وضع الصندوق على الأرض، وبرفقٍ ووقارٍ أخذ يحلُّ مفصَّلاته. لاحظت مايا أظفار يديه المُقلَّمة، ويديه المتحمِّستين يكشفان الكنوز بالداخل: مشط للشعر، وسواك للأسنان، ومصحف نظيف الصفحات بلا طيَّات، وتنُّورتي لونجي جديدتين، وأخيرًا النعال، ملفوفًا في ورق جرائد. كان والده قد عاد إلى الدُّكَّان، ودفع ثمنه.

قال زيد مظهرًا المفتاح المُعلَّق بخيطٍ حول رقبته: «إن للصندوق قفلًا».

لم تجد شيئًا تفعله من أجله. أرادت أن تمنحه هديةً يضعها في صندوقه. ماذا عساها تُعطيه؟ الصور الفوتوغرافية ممنوعة. ولا يُسمح بكتبٍ أخرى عدا المُصحف الشريف. والألعاب أمرٌ غير وارد.

في النهاية، سوَّت له القليل من كُريات الأرز المنفوش المُحلَّى، وقالت: «إليكَ هذه، بعض المقرمشات تأكلها في رحلتكَ».

وضعها برفقٍ في الصندوق، حريصًا على ألا يُزعج ترتيب الأغراض الأخرى.

- هل ستكون بخير؟

افترَّ ثغره عن ابتسامة، ما يزال غارقًا في قبضة السعادة. إنها المدرسة.. الأطفال الآخرون. انتهى قلق نسوة الطابق العلوي من أنه صار يافعًا بما يكفي لئلَّا يدخل عليهن. ويدُ والده الثقيلة على مؤخِّرة رأسه.

- كيف ستذهب إلى هناك؟

- مع أبي. يقول إننا سنستقل قطارًا، ثمَّ العبَّارة. ثمَّ حافلةً، ثمَّ عربة ريكاشة.

أغلقت عينيها وتخيَّلت تفاصيل رحلته، ممسكًا بيد والده؛ هل ألفها من قبل، التشبُّث بيد والده؟ إنها الفردوس. والعبَّارة، الشاي المُحلَّى، ورياح النهر تُغلِّفه من كل جانب، والسماء الرحبة الشاسعة، وبهجة أن تمنح صبيًّا جزءًا صغيرًا من العالم. وإلى هنا بلغ خيالها حدود أفقه.

***

البناء! جدرانه اللبنية المتداعية، وبقع الأُشنة الخضراء المُرقَّعة. عظام الدجاج المتناثرة في الفناء، والبالوعة القذرة المسدودة بالبصاق. ازدرد الصبي خيبة الأمل، وانتفض قلبه هنيهة، من جلبةٍ تقترب من الفناء. سرعان ما أطلق أبوه سراح يده، وظهر حضرة الناظر فجأةً، مُقطَّب الوجه دون بسمة. أخذ المفتاح من الخيط حول رقبته، وفحص محتويات صندوقه، راميًا الأرز المُحلَّى في القمامة. أومأ حضرة الناظر إلى والده أن: أجل، ستجري نشأته على تعاليم الدين، ولن تُغريه الحياة الحديثة، وطوال كل هذا الوقت، كان الولد يراقب السحالي ذات اللون الأخضر الباهت وهي تهرول وتخدع بعضها وتفقد أذيالها، ثمَّ ينتقل ببصره إلى العصا القابعة أسفل طاولة حضرة الناظر، وركبتاه تنزَّان ألمًا وحديث والده لا ينقطع، لهذا شعر بالارتياح حين طُلِبَ منه النهوض، ولمَّا أُعطي البطَّانية والطبق، راودته الأحلام بما سيأكله من طعام فيه. ولمَّا عبر الفناء، تساءل عمَّا إذا كان سيلتقي بالطلَّاب الآخرين الآن، ثمَّ فُتح بابٌ آخر، وسمع صليل مفتاحٍ آخر، وصوتُ والده يُلقي بتحية الإسلام: «السلام عليكم»، ووجه حضرة الناظر يتراجع إلى اكفهراره، ثمَّ ينغلق الباب موصدًا.

ها هو وحيدٌ برفقة بطَّانيته وطبقه، والضوء الرمادي الآتي من شرخٍ بين قشِّ التسقيف والجدار، وصرير الفئران في الأنحاء، ولمَّا أُغلق الرتاج، هرول إلى الباب، وصرخ بصوته متوسِّلًا الخطوات التي تتلاشى مع كل ثانية، حتَّى لم يعد هناك من صوتٍ سوى صوت نحيبه، وتوسُّلاته للخروج، وقبضته الصغيرة على الحائط، وكل صرخة نحيب يتردد صداها في الأخرى: أبي! أبي! أبي! في تلك اللحظة، أكثر ما خشاه قلبه هو ما بداخل الحجرة، الوحدة والفئران وشعاع الضوء الضعيف المنعكس على الحائط، خشاه قلبه أكثر ممَّا هو آتٍ. وكان مخطئًا أيما خطأ.

***

1974

يناير (كانون الثاني)

أيما كان السبب الذي دفع سهيل لإلقاء خُطبه على سطح البيت -بيا، أو الحرب، أو الاعتيادية المُحبطة للحرِّيَّة- لطالما آمنت مايا أنها سيلفي، حُبه الأول والقديم، سيلفي التي أنهت آخر حضورٍ من نفسه القديمة.

ظلَّت سيلفي تسكن المنزل المقابل. وبعد وفاة زوجها، شرعت تُغطِّي رأسها، والآن، وفي مناسباتٍ نادرة حين تغادر المنزل، تخرج في شادور (إسدالٍ) أسود يُغطي كل شيءٍ فيها عدا عينيها. وتناقلت الشائعات أن أمها، السيدة تشودهاري، التي كانت صديقة مُقرَّبة إلى ريحانة في سالف الأزمان، قد أصبحت مهووسةً بغسلِ الأيدي؛ تقضي الساعات في دورة المياه وهي تفرك أصابعها بالصابون حتَّى يتقشَّر جلدها وتنزف يداها. وأُغلقت المزيد والمزيد من غرف المنزل الشاسع ذي الطابقين، حتَّى صارت السيدة تشودهاري تعيش في غرفة واحدة، وسيلفي في غرفةٍ أخرى.

أسقطهما الجيران الآخرون من حساباتهم، لكن مايا قنعت بأن سيلفي تقضي وقتها تتحيَّن الفرصة المناسبة. وأدركت أنه أيما طريقٍ سيتخذه شقيقها، ستكون سيلفي هي من تدفعه إلى التقدُّم طوال رحلته، ففي نهاية المطاف، توصَّلت سيلفي إلى خُلاصة علاقتها بالذات الإلهية. وأدركت مايا أن

الأخيرة تُراقب ما يحدث من نافذتها على الجانب الآخر. واستشعرت مايا أيضًا أن سهيل يشتاق لبيا سِرًّا، دون أن يُخبرها شيئًا قط، وأنه قد قرَّر وجوب محو هذا الاشتياق، وضرورة هزيمته ودحضه، حتَّى يتسنَّى له أداء واجبه، السبب الأوحد الذي آمن بأنه قد نجا من الحرب لأجله.

كان ما تنبَّأت به صحيحًا. أبقت سيلفي عينًا يقظة، والناس يجتمعون لسماع حديث سهيل. رأت الرجال والنساء يجلسون في صفوفٍ، جنبًا إلى جنب. لم تصل الكلمات إلى مسامعها، لكنها من فوق سطح بيتها ترى سطح بيته، والأجساد تتمايل على إيقاع صوته.

وفيما كانت سيلفي تُراقب سهيل، عكفت مايا على مراقبتها هي الأخرى. ورأت انفراج ستائر سيلفي كلما ظهر سهيل. رأت خيالها القاتم، وهي تُعلِّق الغسيل على أحبال السطح، فيتسنَّى لها أن تختلس النظر إلى سهيل وأتباعه. وفي أحد الأيام، بعدما انتهت الخُطبة، ورُفع الأذان، رأت مايا سيلفي تفتح بوَّابة منزلها وتعبر الطريق. ثمَّ لمحت امرأةً شابَّة في طريقها للخروج، فقالت وهي تُشير بيدها إلى المرأة: «تعالي إلى هنا». افتقر مظهر المرأة إلى التدين والتضرع، فقد ارتدت بدلةً بسيطة من سلوار قميص، ولم تُغطِّ رأسها حتى. وهكذا وقفت مايا خلف بوابة منزلها، واسترقت السمع إلى الحديث المتبادل.

سألت سيلفي: «ماذا يحدث في هذا المنزل؟».

أجابت المرأة باسمةً: «إنه رجلٌ حكيم. رجلٌ حكيمٌ ومتواضع».

حدَّقت مايا إلى عيني سيلفي مباشرةً، فأدركت أن سيلفي يُقَصُّ عليها كل شيءٍ تحتاج إلى معرفته، ذلك أن سيلفي لا بُدَّ متذكرةً النبرة التنويمية في صوت سهيل، والإقناع الذي يتحلَّى به فيجعل الناس يريدون تصديق كل شيءٍ يقوله، واليقين التامُّ الذي يمنحه لكل كلمةٍ ينطق بها، وحُمرةُ وجنتيه التي تزداد رويدًا، والكيفية التي يرفع بها يده، برفقٍ، لكأنه على وشك أن يُداعب وجهك، وثبات البقيَّة الباقية من جسده، كل طاقته، وكل عنفوانه، يتركزان في صوته، ووتيرته السائدة؛ نبرةٌ توَّاقة ثابتة.

بماذا كان يعظ أتباعه؟ هذا ما أرادت سيلفي معرفته.

أردفت المرأة التي بدت واقعة في الحب: «أعجز عن وصفه، أعجز تمامًا عن وصفه».

تركت المرأة سيلفي عند بوَّابة الكوخ الصغير، وهي تطأ بقدميها الأرض في ثقة، مستأصلةً جزءًا من فيض ذلك الصوت المُتدفِّق، رُقاقة الحيرة الضئيلة تلك. أوشكت مايا على مجابهتها، أن تُحذِّرها، أن تُخبرها أنها قد فطرت قلب سهيل قبلًا، وأنها ما عاد لها الحقُّ في المطالبة بحُبه. ولكن قبل أن تتمكَّن مايا من تحويل أفكارها إلى أفعالٍ، ارتقت سيلفي السُّلَّم الخشبي في عباءتها برشاقةٍ أثارت دهشة مايا. مايا التي لم تعرف قط ما حدث على سطح ذلك البيت، لم تعرف شيئًا عمَّا تبادله شقيقها وسيلفي من كلمات. حاولت تصوُّر حديثهما، فلم يستحضر ذهنها سوى هذا السيناريو: اقتربت سيلفي من سهيل، الذي كان ما يزال جاثمًا بركبتيه على الأرض بعد الصلاة، وقالت: «أتذكر العبد بلال بن رباح. عاقبه أُمية على إسلامه. وأجبره على الرقود في حرارة الشمس الحارقة وقد وضع حجرًا على صدره. بأي شيءٍ صاح في وجه الشمس، وهي تحرق جسده بلا هوادة؟».

أجاب سهيل: «أحدٌ، أحد».

هكذا وجَّهت سيلفي الضربة الأخيرة، فقالت: «واحد. واحدٌ ليس هناك سواه».

***

تزوَّج سهيل وسيلفي في مارس من العام التالي. وحضرت مايا الحفل العائلي شفقةً على أمها، التي تظاهرت بأن زواجهما قرارٌ صائب. ولمَّا عُقِدَ زواج سيلفي الأول في عُجالة، اقترحت الأم على سهيل أنه ربما أرادت سيلفي الاستمتاع بمظهر العروس هذه المرَّة، وأنها ربما تودُّ تصفيف شعرها، أو استئجار فتاةٍ لتزيين يديها وقدميها بالحناء. عدا أن سهيل وسيلفي لم يرغبا في أيٍّ من هذا. وقالا: «عقدًا هادئًا. لا نريد احتفالًا».

لهذا طبعت ريحانة بضعة كروتٍ، وأرسلتها مُرفقة بعُلبٍ من الحلوى لكل مَن تعرفهم. حلوى لودو البرتقال المُزيَّنة، وحلوى برانهارا المغموسة في خُثارة اللبن.

يسرُّ السيدة ريحانة حق أن تُعلن

زواج ابنها

محمد سهيل حق

على

ريحنوما تشودهاري (الشهيرة بسيلفي)

ابنة الراحل كامران تشودهاري

والسيدة عزيزة تشودهاري

بارك الله في الزوجين السعيدين

هكذا عبروا الشارع إلى الجهة المقابلة صباح يوم الجمعة في مارس، يحملون رزمةً من الملابس وزوجين صغيرين من الأقراط من أجل سيلفي؛ كان هذا كل ما استطاعت ريحانة تحمُّل تكلفته من الجواهر. انتابت مايا نيات طيبة وهي تستعدُّ لعقد القران، وحدَّثت نفسها ألا شيء يمكنها فعله، وأنه يجدر بها محاولة إصلاح علاقاتها مع الزوج السعيد قبل فوات الأوان، ولكن في منتصف طريقها عبر الشارع، بين الكوخ الصغير والمنزل المتهالك، تملَّك مايا شعور مفاجئ بالكراهية نحو سيلفي. ما أمقته من فعل! سهيل يكِرُّ عائدًا إلى المرأة التي رفسته وازدرته من قبل، تلك المرأة التي لم تقبل به إلا لأن مخاوفه قد تواءمت بغتةً مع مخاوفها الخاصَّة.

بدَّلت سيلفي ثيابها إلى الثياب التي أحضروها، وطُمِسَ القرطان أسفل وشاح الرأس المُحكم الذي لفَّته حول جبهتها. وجلس سهيل بمفرده في غرفة استقبال السيدة تشودهاري، حين احتشد بقيَّتهم في غرفة نوم سيلفي. جلست سيلفي محدودبة الظهر أسفل ساريها، بوجهٍ غير منظور. ولمَّا دُفِعَ إليها بعقد الزواج، أسرعت في توقيعه بيدٍ ثابتة.

ما انفكَّت مايا مشدوهةً كيف ظلَّ عالمهم الصغير على حاله. لم يحظوا بعلاقاتٍ متشابكة، لا أعمام ولا أجداد. كان هذا هو حالهم دومًا: يقضيان العيد هي وشقيقها برفقة أمها وصديقاتها من نادي سيدات الكونكان، يحتفون بأعياد ميلادهما مُتخففين، فيحضر القليل من الجيران. ومع ذلك، لا تذكر مايا شعورًا بالوحدة أو الغمِّ قد خالجها، إزاء عُزلتهم على جزيرتهم الصغيرة في حين أن الجميع يحتمون بدائرة علاقتهم المتشعِّبة. لا بُدَّ أن الأمر كان صعبًا على أمها: أن تتحمل مسؤولية إقامة عائلة من ثلاثتهم فحسب. ربما

كان هذا هو السبب وراء ارتباطها وسهيل -وأمها في نهاية المطاف- ارتباطًا وثيقًا بالمجهود الحربي. وعلى حين غرَّةٍ، لم يعد مهمًّا أن نشآ دون أب، وأن أقاربهما على بُعد آلاف الأميال، وأنهما منبوذان منهم، لأن كل المُحاربين، وأمهاتهم وأخواتهم تربطهم علاقة قرابة، باتوا عشيرتهم، كأنما يتشاركون الملامح والتواريخ والأنساب. عدا أن كل ذلك كان قبل عهد إقامة سيلفي وسهيل عائلتهما الخاصَّة، عائلةً تضمُّ أتباعهما ومُريديهما. ما عادا بحاجةٍ إلى الحرب، ولا حتَّى لأبناء من صُلبيهما.

بعد حفل عقد القران، قدَّمت السيدة تشودهاري الشاي وفطورًا من اللوشي-ألو، وهو خبز البوري المنفوش وكاري البطاطس الحارة. ثمَّ اقترحت الأم أن تُغني سيلفي أغنيةً لتسلية الحضور، عدا أن سيلفي هزَّت رأسها نفيًا وهمست معترضة أن لا. ولاحظت مايا كيف امتثلت أمها لما أملَته سيلفي. وجلس الجميع يأكلون فطور اللوشي-ألو في صمت.

حين انتهى الجميع من طعامهم، ظهرت خادمة السيدة تشودهاري تحمل حقيبة سفرٍ حمراء، سلَّمتها بدورها إلى سهيل. ثمَّ عبر الأربعة، ريحانة وسهيل وسيلفي ومايا، الطريق عائدين إلى الكوخ الصغير. لم ترافقهم السيدة تشودهاري إلى البوَّابة حتَّى، ربما لأن سيلفي نفسها لم تأسف على مغادرة المنزل أو هجر أمها.

بعدما نبت حُب ابنة الجيران في قلبه، بعدما شهد زواجها من رجلٍ آخر، بعدما غمَّض جفونه على القذى منتظرًا موته، لا يُضمر الشرَّ والخبث، وبعدما أخضع رغبته في الفتاة التي التقاها في الثكنات، نال سهيل عروسه أخيرًا. لا شيء من شأنه أن يُفرِّق بينهما الآن. ورغم إصرارهما على حفلٍ هادئ يخلو من البهجة، أدركت مايا أن سهيل ينعم بهذا السهم البسيط من الرضا.

وماذا عن سطح البيت؟ استمرَّت الخُطب، لكنها لم تعد تدور حول أوجه الرب العديدة. بل صارت تدور حول إلهٍ واحد. رسالة واحدة. قُرآن واحدٌ. ضاقت رحابة العالم. وأُسدلت الستائر بين الرجال والنساء. ورُسمت الخطوط على الرمال. وصارت سيلفي -وهي متشحة بعباءتها السوداء- تسود على قلب شقيقها.

***

1984

أكتوبر (تشرين الأول)

بحلول الصباح، حققت الزنزانة أغراضها. نفدت الصرخات من حلقه، ونضبت الكلمات من فمه. قبض على طبقه، وانقشع شعوره بالوحدة وانفطار القلب، الذي أحدثتهما ذكرى خطوات والده، وتضاءل إصراره على متابعة طريقه عائدًا إلى بيته. حلَّ الجوع محلَّ جميع أحاسيسه، ولم يسعه سوى التفكير فيما سيملأ طبقه.

اقتيد إلى الفناء، فطرفت عيناه من ضوء النهار، وعبير الصباح الرقيق الذي يشبه ريش الطير في خِفَّته. اتخذ الطلاب الآخرون مقاعدهم سلفًا، وغُمست الأصابع في أطباق الفطور أمامهم. ولما خرج عليهم، تتَّبعته زمرةٌ من الأعين وهو يجلس ويضع طبقه أمامه. ضحك الأولاد منه، قُبيل أن تُصفع مؤخِّرة رأسه بيدٍ قاسية ذات أصابع مضمومة. ثمَّ قال الصوت: «الوضوء، والصلاة، ثمَّ كُل طعامك أيها الوغد».

لمحت عيناه المُربَّع الأسمنتي الذي يتعيَّن عليه أن يُقرفص فيه، والصنبور الصغير الذي يبرز من جانب المبنى. كان معظم الأطفال قد عادوا إلى وجباتهم، لكن بعضهم ظلَّ يُراقب المشهد إذ أخذ يحطُّ الطاقية عن رأسه ويلفُّ يدًا حول الأخرى، ويستنثر ما بداخل أنفه ويغسل أذنيه. ثمَّ صلَّى.

سُمح له أخيرًا بتناول فطوره. كان الأرز باردًا مُفرطًا في طهيه، لكنه أخذ يتجرَّعه بكمِّيَّاتٍ كبيرة ملء فمه. ولمَّا كان يأكل لقمته الأخيرة، رشقه صبيٌّ بكومةٍ من الحجارة.

فوَّت درس الفجر. وبعدما انتهى الفطور، اقتيد إلى غرفةٍ ذات صفوفٍ طويلة من طاولاتٍ خشبية منخفضة. ولمَّا جلس متشابك الساقين على الأرض الطينية، كانت الطاولة تصل إلى صدره، وعليها فتح قُرآنه. جلس رجلٌ في مقدِّمة الغرفة إلى مكتبٍ مُربَّع يخصُّه. ورُفع مُصحفه الشريف برفٍّ مثلَّثي يُبقي عليه مفتوحًا. وفي يده عصا طويلة تتوهَّج في الضوء وتُلقي بظلال ثعبانية الشكل في أنحاء الغرفة.

تظاهر بالتلاوة، أصابعه الرقيقة على المُصحف، وجذعه يهتزُّ أمامًا وخلفًا، كأنما يسبح في البحر وأمواج المدِّ تُلاطمه من كل جانب. عدا أن ذهنه الآن قد عرَّج ثانيةً إلى ذكرى والده، والزنزانة، وركوب العبَّارة، ولمَّا تفاقم الغضب بداخله، خالجه شعورٌ مفاجئ بالإنهاك، وأخذ جفناه يُسدلان على بريق عينيه. ولكي يبقى مستيقظًا، ركَّز بصره على الهيكل النحيل للعصا، والتفكير في احتمالية أن تُلسع بها ساقيه. تساءل في قرارة نفسه عمَّا إذا أمكنه التسلُّل إلى حجرة حضرة الناظر، واستعادة مُقبِّلات الأرز المنفوش. إنه يفتقد مايا. جاب الغرفة بناظريه لعلَّه يرى أحدهم يُحاول أن يلفت انتباهه، لكنه لم يجد أعينًا تُقابل عينيه؛ يركبون جميعهم السفينة نفسها، وتُلاطمهم أمواج المد ذاتها.

لاحقًا، حاول الغطيط في النوم، بعدما أحصى الضوضاء المختلفة في الغرفة، صرير فئرانٍ، وهمهمات شخير، وخشخشة الناموسيات والأولاد يتدثرون في حصائر نومهمٍ. تجاهل أبوه أمر إعطائه ناموسية. وأصدر حضرة الناظر أمرًا للأولاد الآخرين بأن يفردوا ناموسياتهم لتُغطِّي حصيرته، لكنهم رفضوا. وأخذ يُحصي المرَّات التي هبطت فيها ناموسة بالقرب من أذنه، يصير طنينها أعلى من أي صوتٍ آخر سمعه طوال اليوم، حتَّى هدير حضرة الناظر لما اكتشف أن الصبي لا يعرف حروف الهجاء العربية. ماذا يأتي بعد الألف والباء والتاء والثاء؟ ماذا يأتي بعد الحرف الذي يشبه عصا المشي؟ لا يعرف. ضربه حضرة الناظر ثلاث مرَّاتٍ على راحة يده. واحد، اثنان، ثلاثة. كان طنين الناموسة أعلى من صوت ضرباته، وهي تضرب الهواء بجناحيها معًا، محمومةً، بطنينٍ مُجسَّم.

وغطَّ في النوم في صحبة الأجنحة.

***

1984

نوفمبر (تشرين الثاني)

وقف جوي مستندًا إلى سيارته. كانت مايا قد سمعت نفيرها، وأسرعت إلى الخارج لترى مَن الزائر، فاستقبلها مبتسمًا ويداه في جيبيه.

قال جوي: «لم أركِ منذ أسابيع».

- لم أتصل، لأنني كنتُ غارقةً في الانشغال مع أمي.

استرجعت مايا المرَّة الأخيرة، تلك المرَّة برفقة زيد والخدعة السحرية. وبعد انقضاء الزيارة، رفض الصبي الكشف عمَّا همس به في أذن جوي. ونادرًا ما غادرت مايا المنزل منذ ذلك الحين؛ في واقع الأمر، لمَّا ألقت نظرةً على نفسها الآن، غارقةً في بدلةٍ من سلوار قميص قطنية فضفاضة، تصوَّرت أنه يندم أشدُّ الندم على قرار مجيئه. نادرًا ما فكَّرت مايا في شيءٍ عدا العناية بوالدتها، كانت تقطع بها رحلة الذهاب والعودة من وإلى المشفى، وتُشرف على جلسات العلاج الكيمياوي، وأخذت دفعةً مُقدَّمة من المستأجر الألماني لسداد الفواتير الطبِّيَّة. وبما تبقَّى لها من جُهدٍ ضئيل، أخذت تتأرجح مُفكِّرةً في قرارة نفسها بشأن زيد. في بعض الأحايين، تتساءل ما إذا كان سهيل مُحقًّا حين أرسله بعيدًا إلى تلك المدرسة، فهو والده في نهاية المطاف،

والولد ليس سهل المراس. ربما كان بحاجةٍ إلى التأديب، ولقد التحق بمدرسة، مدرسةٍ مختلفة، لكن المدرسة هي كل ما أراده الصبي دومًا. وفي أحايين أخرى، يمتلأ قلبها بغضبٍ بارد، ترقد مستيقظةً في الليل وتتصوَّر نفسها تصرخ في وجه سهيل. غالبًا ما كان سبب غضبها هو رغبتها المؤلمة في رؤية الصبي، قد تستدير على الفراش لتُخبره شيئًا، ثمَّ تتذكَّر أن أسابيع أو شهورًا قد تمضي قبل أن يتسنَّى لها رؤيته مجدَّدًا. حاولت أن تسأل خديجة عن موقع مدرسته بالضبط، لكن لم يكن لدى أحدٍ من الطابق العلوي رغبةٌ في إخبارها.

قال جوي: «في الحقيقة، لديَّ موعد».

هل كان يُغازلها؟

- موعدًا مع مَن؟

- ليس موعدًا في حقيقته. لقد سمعتُ أنه يكون في المنزل في فترة ما بعد الظهيرة. بعد الساعة الثالثة.

إذن لهذا السبب جاء. قاومت مايا وخزًا بسيطًا من خيبة الأمل. وتذكرت تلك الليلة، أمام شهيد مينار، حين بكى وخلع حذاءه؛ بدا لها زمنًا بعيدًا. مهما كان ما بدا لها ممكنًا في تلك اللحظة فقد تلاشى الآن. تراه مختلفًا، وقد زالت عنه غرابته. سقطت عباءة السنين التي قضاها في أمريكا، وأعادت الهوية البنغالية فرض نفسها، أمكنها أن ترى ذلك في كل ما يُحيط به: كيف يقبض على مفاتيح سيارته من طراز تويوتا بيده اليسرى، ويُدير المفتاح حول إصبعه، وفي اللحية الخفيفة التي سمح لنفسه بإطلاقها.

أجابت مايا: «حسنًا، إذا كان قد أعطى لك موعدًا، فيحسنُ بكَ ألا تتأخَّر».

- ربما تصعدين إلى الأعلى، وتُعلنين وصولي. لستُ أدري بروتوكول المكان هنا.

قرأت في عينيه رغبته في السؤال عن مدى تغيُّر صديقه، والسؤال عمَّا إذا كان سيُرحِّب به بسرواله الجينز وقميصه قصير الأكمام، ورأسه غير المُغطَّى بطاقية، وعقله الذي ما يزال مُحصَّنًا ضد الدين.

***

تقدَّمته مايا عبر الطريق. وفي أعلى درجات السُّلَّم، جثمت رقية مجدَّدًا مستقبلةً الشمس، فأشارت مايا إلى جوي ليتوقَّف، وقالت: «انتظر هنا».

- رقية! إنه أنا، مايا.

كانت عينا رقية مغلقتين، فربتت مايا على كتفها. التفتت وفتحت عينيها، وهي تترنَّح ببطءٍ أمامًا وخلفًا في سُكر. ربضت مايا أرضًا، وتطلَّعت إليها من كثب؛ كانت خطوط العرق تتقاطع على وجهها، وشفتاها رطبتان مسترسلتان. ومن أسفل خمارها، أمكن مايا أن ترى ارتفاع بطنها.

ناشدتها مايا: «رقية، هيا ادخلي. ستصابين بضربة شمس».

أجابتها بابتسامةٍ خافتة: «عليَّ البقاء هنا. لا بأس».

واستدارت مبتعدةً مرَّة أخرى، كأنما زهرةً تستقبل الشمس.

- لقد أحضرتُ ضيفًا. رجلًا.

أسرعت رقية في إسدال نقابها على رأسها. وحدَّثت مايا جوي: «مِن هذا الطريق».

قاومت الأخيرة رغبةً في توضيح مشهد رقية الراكعة في الشمس، أو بقية المشهد، كالأكوام الصغيرة من القمامة المنتشرة في أنحاء السطح، والنوافذ المُعتَّمة بالورق، ورائحة شحم الطهي، وعطن البول النفَّاذ.

عند مدخل الحجرة الخارجية، رفعت مايا صوتها وطلبت لقاء حضرة الناظر. فجاءها الجواب: «مَن أنتِ؟».

- شقيقته، شهرزاد مايا.

كان النطق باسمها كاملًا، وهو أمرٌ نادر الحدوث، قد أضاف إلى غرائبية المناسبة.

جاء الصوتُ من الداخل مُجيبًا: «انتظري».

- أخبره أن صديقه جوي هنا.

ماذا كان اسم جوي الحقيقي؟ فرشاد؟ فرحان؟

- فرحان بشير.

انتظرا في ظلال مدخل الباب. مرَّت الدقائق، ولأسباب لا أحد يعلمها، لم ينبس أيٌّ منهما. ظلَّ جوي ثابتًا في مكانه، يقف موليًا ظهره للبناء، مُحدِّقًا إلى الطريق في الخارج. ثمَّ سمعا جلبة وقع أقدام. انفرجت الستارة وغادر بضع رجالٍ الحجرة، مختلسين النظر إلى مايا، وسرعان ما غضوا أبصارهم.

تجمع الرجال عند نهاية السُلَّم، منتظرين على ما يبدو إشارةً بالرجوع مرَّة أخرى.

قادهما رجلٌ إلى الداخل. كانت الحجرة أقل اتساعًا من حجرة النساء، لكن هواءها مُحسَّنٌ بالنوافذ على جانبين منها وطبقةٍ جديدة من الكِلس الأبيض. وغُطِّت الأرضية برُقع من سجادٍ غير متوافق وملاءاتٍ بيضاء سميكة.

وجدا سهيل بانتظارهما، ونهض عن جلسته لمَّا اقتربا، مُرحِّبًا بجوي بمصافحةٍ حارة، معانقًا إياه ثلاث مرَّاتٍ.

قال سهيل: «السلام عليكم». وجلس بتثاقلٍ في منتصف الحجرة، ثمَّ قال للرجل الذي كان يحوم بالقرب من أذنه: «أحضر عصير الليمون».

لم يُقدِّر سهيل وجود مايا، وتساءلت إذا كان يجدر بها المغادرة، لكن الفضول أبقاها ملتصقةً بمقعدها. أومأ جوي موافقًا على شيءٍ قاله سهيل. وتصوَّرت مايا أنه لا بُدَّ مقاومًا الرغبة في التطلع حوله، وعيناه تبحثان تلقائيًّا عن أمارات تُعرب عن شخصية سهيل القديمة. لا وجود لخزانة كتب أو فونوغراف مطوَّلي؛ هذا ما عرفه سلفًا، وهذا ما أُخبر به. لكن لا شك أن النبرة التي نطق بها سهيل اسم صديقه، أو الكيفية التي احتضنت بها يده كتف جوي وهو يُرحب به، كشفت عن بقايا ذلك الرجل الذي كان عليه، ومنذ أن تبدَّل حاله، تسلَّلت تلك البقايا إلى حجرها كأنها مخلَّفات بالية توارت في غياهب النفس.

استهلَّ سهيل الحديث: «تسعدني عودتك. كنتُ أُفكر فيكَ كثيرًا».

ومرَّر كأسًا خضراء صغيرة إلى جوي.

- كنتُ أُفكر فيكَ أيضًا.

بدا لقاؤهما أشبه بلقاءٍ عاطفيٍّ بين مُحبَّيْن. شعرا بالغرابة والارتباك في حضرة بعضهما، يتطلَّع كلٌّ منهما إلى كأس عصير الليمون. أعاد جوي دفَّة الحديث إلى أمورٍ اعتيادية، فقال:

- عملتُ سائق أجرة أول خمس سنواتٍ من إقامتي، بينما كنتُ أنهي درجتي العلمية. لم تكن التجربة سيئة. التقيتُ بأُناسٍ مثيرين للاهتمام. كانوا يقصُّون عليَّ كل شيءٍ في حياتهم، كما يعترفون للقساوسة.

علَّقت مايا: «إذن يجمعكما قاسمٌ مشترك».

تمنَّت بتعليقها هذا لو أنهما يتوقَّفان عن التحديق إلى كل شيءٍ من كثب عدا بعضهما. عدا أنهما تجاهلاها.

مدَّ سهيل يده ليُعيد ملء كأس جوي، وسأله: «لماذا عُدتَ؟».

- الجميع يطرح عليَّ السؤال نفسه. وجوابي هو لأن الحياة هناك ليست رائعة.

أردف سهيل: «نؤمن أحيانًا بأهمية أمر ما، ثمَّ يتضح لنا مدى تفاهته».

ثمَّ حطَّ الطاقية عن رأسه، كاشفًا عن رأسٍ كثيف الشعر بدرجاتٍ متفاوتة من الأسود والرماديّ يتوافق مع ذقنه. خلَّل خصلات شعره بأصابعه على عجلٍ، ثمَّ أعاد الطاقية إلى موضعها، مهندِمًا إياها ومُحكِمًا استقرارها حول قمة رأسه. ثمَّ أضاف: «ثمة أمورٌ تشبثتُ بها.. لوقتٍ طويل جدًّا.. طويلٍ للغاية».

تساءلت مايا ما إذا كان على وشك أن يتحدَّث عن الحرب، فمالت قليلًا إلى الأمام لتسمعه.

ثمَّ أجابه جوي: «لم أسافر إلى أمريكا من أجل المال. بل سافرتُ لأسبابٍ أخرى».

استشعرت مايا منازعة سهيل لنفسه أيسأل عن ماهيَّة الأسباب أم لا، ثمَّ قرر أن يُحجم عن السؤال، وهكذا طرح سؤالًا آخر مفاجئًا: «هل تزوَّجتَ؟».

- أجل، كيف عرفت؟

- على الرجل أن يتزوَّج. هل أنجبتَ أطفالًا؟

- كلا.

- يجدر بك الإنجاب.

- لكني مُطلَّق.

أومأ سهيل في تفهُّم، ثمَّ سأله: «لماذا لا تتزوَّجها؟».

استغرقت مايا هنيهة لتُدرك ما يعنيه سهيل. وظنَّت أنه ربما ينفجر ضاحكًا في أي لحظة، ممسكًا ببطنه من فرط الضحك ويعتذر عن سخريته، لكنه لم يفعل. وبدلًا، تابع حديثه: «لِمَا لا؟ إنها تتقدَّم في العُمر».

علَّقت مايا: «إننا لا نُحبُّ بعضنا. ألم تعد تؤمن بالحب؟».

ارتشف جوي من عصير الليمون ملء فمه، وأجاب: «حقيقةً، أنتَ على حقٍ يا سهيل، يجدر بي الزواج. لكن هذه المرأة لن تسمح لي حتَّى بالخروج معًا لتناول الفوتشكا».

- حسنًا، هناك أخريات.

علَّقت مايا: «أجل، العالم مملوءٌ بالنساء اليائسات».

كانت منزعجة، وأدركت ذلك؛ يجدر بها أن تتعامل مع الأمر بسلاسة، وأن تُعلِّق بشيءٍ لطيف ومُضحك. تراها دومًا تأخذ الأمور على محمل الجد.

خيَّم صمتٌ مُربك على الجمع الصغير. وأرادت مايا أن تنهض، لكنها شعرت بساقيها ثقيلتين؛ أرادت أن تعرف ما سيقولانه لبعضهما بعد ذلك، أرادت أن تعرف ما إذا كان جوي سيطرح السؤال الذي أدركت مدى رغبته في طرحه: ما الذي يفعله سهيل هنا، في تلك العُشة فوق سطح بيت أمه، يُربِّي ابنًا بلا حُبٍّ، ما الذي يفعله بهذه اللحية، وهذه الثياب، ووضعية السكون هذه؟ لكنه بدلًا استأنف سائلًا: «هل تُفكِّر في الأمر مليًّا؟».

- أُفكر في ماذا؟

- الحرب... تلك القُرى التي أنقذناها، وتلك التي لم يُحالفنا الحظُّ في إنقاذها.

لم يحر سهيل جوابًا. فتابع جوي:

- وشقيقي، هل تذكره؟

أجاب سهيل: «أذكره كل يوم. شقيقكَ ووالدكَ كليهما. وأنتَ أيضًا. لقد أنقذت حياتي. لن أنسى هذا أبدًا».

كان جوي قد وقع في براثن الأسر، في حين فرَّ شقيقها هاربًا.

قال جوي: «لم يكن أنا مَن أنقذ حياتك».

- الله فوق كل شيء.

لم يكن هذا مقصد جوي. بل كان مقصده هو أن الأمر محضُ مصادفة، وأن الجنود قد عثروا عليه هو، وليس على سهيل. غرق كلاهما في الصمت، يسترجعان تلك الليلة النوفمبرية الطويلة. ثمَّ سأل جوي أخيرًا: «لماذا فعلت هذا يا سهيل؟ لماذا صرتَ هكذا؟».

ظنَّت مايا أن سهيل سيُجيب بإجابةٍ سريعة تمرَّس عليها، شيءٌ حيال طريقه الذي هو الطريق المستقيم، وأن السؤال لا يكون عن السبب الذي من أجله أصبح على ما هو عليه الآن، بل عن سبب عدم انضمام جوي إليه حتَّى الآن. لكنه بدلًا من ذلك، بدا مترددًا، شبه مُرتبك، واحتضن كأسه براحة يده. وبدا أنه لا يملك جوابًا عن سؤال جوي.

أشاح جوي بوجهه بعيدًا، ووقعت عيناه على عيني مايا. خالج مايا حتَّى تلك الليلة ظنًّا بأن جوي يُلقي بكلماته عابثًا، وأنه ربما يودُّ الإيقاع بسهيل ليتفوه بسُخف الكلام، لكنها أدركت الآن مدى غضبه، غضبه الشديد، كأنما حال سهيل ذاك، وبقاؤه على قيد الحياة، يتعلَّق أيما تعلُّق بوفاة شقيقه.

- هذه ألغاز يصعبُ تفسيرها في عُجالة. لماذا لا تأتي إلى جلسة تعليم؟ ويمكننا التحدُّث عن الأمر حينذاك.

عاد الرجل وهمس في أذن سهيل قائلًا: «تسأل الأخت خديجة ما إذا كان ضيوفك سيبقون طويلًا».

- أخبرها أنهما سيغادران حالًا إن شاء الله.

كان هذا إعلانًا لوقت الرحيل، بدا أنه ما من شيءٍ آخر ليُقال. وقرأت مايا خيبة الأمل باديةً على وجه جوي. وأدركت أن جوي لا بُدَّ مستغرق بالتفكير مليًّا في سهيل، حينما كان بالسجن، ثمَّ بعد ذلك، وفي نيويورك، ولمَّا كان يقود سيارة الأجرة تلك.

خالجتها شكوك أن جوي بصفته سائق الأجرة لم يُسهب في الحديث عن تدجُجه بالسلاح، ولا عن ماضيه الذي يقرض في عقبيه، بل هذَّب نفسه على الكياسة الأجنبية، من قبيل «**احظَ بيومٍ سعيد إذن**» و«**إلى أين يا سيدتي**»، وتعلَّم مناقشة أحوال الطقس كأنه موضوع ملائم للمناقشة، وسبيل آمن لتجنُّب المناقشة في الآن نفسه.

إلا إنه في تلك المدينة الأجنبية، حيث كان سائق أجرة، وليس مناضلًا من أجل الحرية، كان أعظم أفعاله بطولةً هو الفرار من إشارة مرور حمراء عارضة، ومع تعاظم شعوره بالذنب للنجاة من فاجعته في شقيقه، مُسندًا إياه على جذع شجرةٍ وقذائف العدو تقترب، شاهدًا على الدماء تنفر من جسده مثل ماءٍ ينحدر من قمة جبلٍ شاهق من خلفه، لا شك أنه فكَّر في سهيل آنذاك، فكَّر في كتابة الخطابات وإجراء مكالماتٍ هاتفية عن بُعد، ليُعيد أوصال صداقتهما،

وتجمعهما صداقة من حُلَّةٍ جديدة تهوى تبادل الأخبار. إلا إنه عجز عن دفع نفسه لذلك. ثمَّ يبهته هذا، هذا اللغز. لم يُدرك جوي ما يتوقعه من هذا اللقاء، عدا أنه ربما شيءٌ بداخله، شيءٌ من الكِبر قد دفعه للاعتقاد بأنه سيلمح شيئًا من هذا اللغز عمليًّا، ويحتضه بين يديه، ذلك لأنه ما مِن أحدٍ على أيَّة حال يعرف مكنون سهيل أعمق معرفةٍ منه، وما من أحدٍ عداه أزال الحشرات من رغيف صديقه، أو فلَّى القمل من شعره، أو هرب معه وسط الدخان ورعدية الأعيرة النارية. وما من أحدٍ عداه اقتيد إلى السجن وهرب صديقه فارًّا بحياته.

نهض جوي ليُغادر، فنهض سهيل بدوره. تعانقا، ثمَّ قال سهيل بعينين برَّاقتين: «أنتَ دومًا بمنزلة أخٍ لي».

أجابه جوي: «وأنتَ أيضًا».

انقشعت غيوم الغضب عن وجهه، وحلَّ محلَّها شعور آخر؛ ضربٌ من الحنين، وشيء من الغيرة. ربما احتشدت غُصَّةٌ في مؤخِّرة حلق جوي، غصة تحمل شعورًا بأن هذا الرجل ينام ليله هانئ البال عنه، وأنه لا يحتاج إلى نزع المرارة من ذكرياته أو الهروب إلى مدينة ذات ناطحات سحاب ليفرَّ منها. لمَّا أخذ سهيل يُمسِّد لحيته التي برزت من ذقنه، بيد أنه لا يأبه للشيب الذي غزا شعراتها، وبيد أنه لا يأبه لوضاعة منزله، والبقع على السجَّادة، والأرضية الأسمنتية التي تخدش قدميك حين تخلع نعليكَ لتدخل غرفته. بيد أنه لا يأبه لشيءٍ مطلقًا؛ ليس في هذا العالم في الأقل.

قال جوي بالبنغالية، ويداه مضمومتان مجدَّدًا بين يدي سهيل: «الله حافظ».

فأجابه سهيل: «عُد إلى الزيارة قريبًا».

ثمَّ أولاهما ظهره، وانتاب مايا شكٌ أنها وجوي قد نُسيا، وقوَّضت ذكراهما المهام التي تقع على عاتقه؛ الصلاة والموعظة، والحياة الآخرة.

هبطا السلالم في صمت، ولمَّا وصلا إلى قاعدة الدَّرَج، تردَّدت مايا في أن تدع جوي يستقلَّ سيارته ويرحل. وأدركت اقتسامهما شيئًا من الشعور نفسه؛ اضطرابٌ وقلق نتجا عن لقائهما بشقيقها، والأسئلة المطروحة دون أن تلقى أجوبة. تقلدت مايا الزمام وبادرت بسؤالٍ يدور بخلدها: «أخبرني عن تلك المدَّة التي قضيتها في السجن، أريد أن أعرف ماذا حدث لك».

***

شُيِّدت على ضفاف نهرٍ أشاحت بوجهها عنه؛ مدينة دكًّا، المدينة التي لا يُوصي كثيرون بزيارتها. مدينةُ الطرق الضيقة، سرعان ما تغرق في الزحام، لا تُميِّزها شوارع شاسعة ولا جادات واسعة ولا مناظر تجعل القلب ينبض والشاعر يستلُّ قلمه. بعد الحرب، فاضت طرقها بأُناسٍ لا يتَّسع لهم مكان، وآخرون أكثر عددًا لا يجدون ما يسدُّون به رمقهم. عبق الهواء برائحة القشِّ المحترق في القرى، ونزح الكثيرون إلى المدينة هربًا منها، ثمَّ استقرُّوا في مأواهم الجديد، كما فعل كثيرون قبلًا، مولين ظهورهم لظلم غاشم لكي يستقبلوا أرجحية آخر. ورغمًا، فضَّلوا تلك الشوارع، الضيقة والمُغبَّرة، على ضفاف نهرٍ أقفل عليهم بكل زوبعةٍ من الرياح الموسمية، على مدار حياةٍ قضوها وهم يُحدِّقون إلى السماء الرحبة، آملين في انهمار المطر هذا الأسبوع، وبزوغ الشمس في الأسبوع الذي يليه، وأقدامهم مُبلَّلةٌ، وظهورهم تبكي ألمًا من الحرث في حقول الأرز.

أضمر قلبُ جوي مثقال ذرَّةٍ من العاطفة نحو المدينة، عدا في ذلك اليوم لمَّا أُطلق سراحه من السجن، وقع في حُبِّها بغتةً. في ذلك الصباح، حين فتح «السوبيدار»[1] قفل زنزانته، واستدار عائدًا في صمت، لينضمَّ إلى الجيش المُتقهقر. التفت جوي إلى شركاء زنزانته، رحيم وسلطان وعباس العجوز، وساعدهم على الوقوف على أقدامهم. تردَّد الثلاثة الآخرون عند عتبة الزنزانة، غير مصدِّقين أنهم لا يتعرَّضون لخداع كتيبة الإعدام أو غرفة التعذيب. لكن جوي كان قد تعرَّف إلى الضوضاء التي أحدثها مرور الطائرات الهندية المُحاربة، وأدرك أنهم على مشارف النصر.

طوال مدَّة الأشهر الثلاثة التي قضاها في سجنه، أعرض جوي عن الكلام. لم يصدر عنه لا كلمة إيجاب، ولا اعتراض، ولا إنكار، ولا حتَّى هزَّة رأسٍ ولا إشارة يدٍ. وفي أثناء ما كان في مخيَّم الفدائيين في «سونامورا» لُقِّنوا تعليمات -لا يتذكَّر لفظها الآن- بشأن وقوعهم في الأسر، ولكن كما هي حال بقيَّة تدريباتهم، كان حديثًا روتينيًّا، يُلقَّونه كيفما اتفق كأنما لن يحدث أبدًا. تبنَّى الضباط النبرة نفسها مع جميع أشكال الكوارث، وأخذوا يُقسِّمون التعليمات بنبرات صوتٍ جافَّة وجُملٍ قصيرة، كأنما رصاصةٌ لن تُردي أحدهم قتيلًا في

(1) السوبيدار هو ضابطٌ مُكلَّف حديث السن متوسط المستوى، وهي رتبة في الجيشين الهندي والباكستاني. (المترجمة)

منتصف العملية، كأنما لن يحتاج إلى جره من تلابيبه وإسناده إلى جذع شجرةٍ، حتَّى يتسنَّى لشقيقه أن يشهد موته، ويلتقط كلماته الأخيرة في صوان أذنه، كاظمًا إياها في قلبه حتَّى صار الوضع آمنًا لإخبار أمهما.

كانوا ثلاثةً وعشرين، اعتقلوا في صباح نوفمبريٍّ حار يتعطَّش للمطر. شَهِد استدعاءهم، واحدًا تلو الآخر، إلى الغرفة المجاورة، غرفة التعذيب. وبمُجرَّد أن يتحدَّثوا، ويقولوا: روحي حُرَّة، أجل، حاربتُ الجيش، أجل، خُنتُ البلاد، أجل، أجل، أنا خائن، أجل، أومن بوجود بنجلاديش، أجل، أغراني الشيخ مُجيب، الشيخ مُجيب خنزير، وأنا خنزير، أجل، أجل، أجل، يتوقَّف ما يُفعل بهم مهما يكن. أما بقيَّتهم الذين ربطتهم الكراهية المماثلة لإناء البول في زاوية الزنزانة، والضربات المُلقنة على الأقدام، وكلمة «نغل» التي تلحق بالنطق الخاطئ لأسمائهم، قد سكنوا إلى الليل الهادئ، مستيقظين في الصباح التالي على صوت أذان الصلاة، متبوعًا بأزيز طلقات الرصاص.

مال الجنود لإطلاق نيرانهم عند منتصف النهار، وهي عادةٌ أخرى من عاداتهم المستعصية على الفهم، مثل تناولهم اللحم في الصباح، وهو أمرٌ استمرُّوا على فعله يوميًّا دون فتور.

صمتٌ مُطبق تتبعه طلقات النيران. وكان هذا كل ما احتاج جوي إلى تعلمه. ولهذا حينما أخرجوه إلى الباحة، لم يصرخ أو يلعن أو يبصق أو يُبدي غضبه، بل تظاهر بعجزه عن الإتيان بأي صوت، وسرعان ما بات من العسير عليه أن ينطق بالكلمات ليلًا، وينساها نهارًا، ولهذا أقلع عن الحديث كُلِّيَّةً. وتعلَّم إيماءات الحيوانات؛ الأصابع في الفم، واليد أمام الوجه، والتلويح الذي يؤكِّد الصداقة المتبادلة. وبينما كان لسانه مُلجَّمًا، كانت يداه حُرَّتين ليُمسك برأس الصبي الذي فرَّ هاربًا للقتال، والجندي ذي الكتف المخلوعة، ذاك الذي خشي الموج أشد من خشيته من أي شيءٍ آخر، وأخيرًا ليُمسك بسوأته فيتخفَّف من آلامه. وبلحيةٍ طليقة ويدين ملتئمتين ولسانٍ معقود، قضى جوي شهوره الثلاثة في جوف زنزانة، عازمًا على أن ينجو من سجنه ليرى ما ستؤول إليه الحال.

كان الجنود يتعرَّفون الوقت من الأصوات التي يسمعونها عادةً. نداءُ الصلاة، وتناثر المياه في أثناء الوضوء، وبسط سجَّاد الصلاة، ونعيق الطيور وهي تتجادل طيلة إنهائهم لطقوس الصباح. فيُسحب السجين على وجهه، لا يقوى على الوقوف على عقبين مُنهكين، ويمثل أمام كتيبة الإعدام. ها قد حان الاستجداء الأخير لرحمتهم.

عدا أن هذا السجين لا يُحدث صوتًا؛ لا حين يُضرب كعباه، ولا حين تُطفأ السجائر في ظهره، ولا حين يُصعق فمه. عاملوه بقسوةٍ تفوق الآخرين جميعهم، يدفعهم الشك والأمل بأن صمته زاخر، وأنه ينطوي على سرٍّ مهم. لا بُدَّ أنه يعرف شيئًا، وقد تدرَّب على الاحتفاظ بهذا السِّرِّ. وصار كل ما يشغلهم هي مسألة تحطيمه وشرخ صمته. ولهذا تمهَّلوا في قتله، وسحبوه كل يوم إلى غرفة تعذيب الأرجل، والغرفة المقلوبة رأسًا على عقب، والكُرسي الكهربائي. فعلوا كل شيء؛ لكنه لم يبكِ، ولم يتكلَّم.

وأخيرًا، صار الوضع يفوق احتمال آسريه. وفي يومٍ مملٍّ مُحدَّد، ثأروا منه؛ فقد فشل السجناء الجُدد الذين يتوقَّعونهم في الوصول، وما عاد لديهم سوى الأخرس والعجوز الذي جفَّ لحمه منذ وقتٍ طويل، وما عاد يساوي ثمن طلقة واحدة. كانت الطيور تتفوَّق على الجنود في صياحها؛ تُزقزق وتُغرغر وتُقرقر، فأطلق أفتاب -الجندي الأصغر في الوحدة- طلقةً نارية على شجرة التمر هندي، مُفزعًا الطيور فأخذت تُرفرف أجنحتها وترفع أصواتها، ثمَّ انتقلوا إلى عتبات نوافذ الثكنات وأخذوا يلتقطون بقايا الطعام المُلقى بإهمالٍ عبر القضبان، وفُتات الخبز الجاف. سبَّه بقيَّة الجنود ولعنوه على إطلاقه النيران على الشجرة، وقالوا إن هذا سلوكٌ معتادٌ من السِّند، هذا لأنهم ربما يفقدون أعصابهم ويسهل استفزازهم عن بقيَّتنا.

سحبوا جوي على وجهه إلى المُجمَّع. ولكزه أفتاب بمؤخِّرة سلاحه، وهو يقول: «اجعل الطيور تتوقَّف عن الزقزقة. إنها طيورٌ بنغالية، ستستمع إليك».

ظلَّ جوي باقيًا على صمته وأجنحة الطيور تطوف من حوله، كأسرابٍ من ورق يدور في زوبعةٍ من ريح.

- افعل ما آمرك.

ثمَّ صفعةٌ تلقَّاها بالسلاح، تبعها مستطيلٌ صغيرٌ من الألم.

- الآن! أخرِس أفواه تلك الطيور اللعينة وإلا أُقسم إني سأحشر طلقةً في مؤخِّرتك.

رفع جوي جسده واقفًا على ركبتيه وأشار نحو الشجرة. لم يحدث شيءٌ لبضع ثوانٍ، واستمرَّت الطيور في احتشادها على أعتاب النوافذ، تلتقط الطعام وتضرب الهواء في سرعة وتُرفرف بأجنحتها. ثمَّ انفصل واحدٌ منها عن البقيَّة وأبحر في السماء بعيدًا عن المُجمَّع، وأخذ يدور حول محيط البناء.

تطلَّع الجنود بأعينهم إلى الطائر وهو يستدير ويعود أدراجه نحوهم، يحطُّ بقدميه في هدوءٍ على إصبع جوي المنبسط. وباليد الأخرى، أخذ جوي يُداعب الطائر وهو يتحرَّك على امتداد ذراعه، ويستقرُّ عند انحناءة مرفقه. كان هذا يومه الأخير الذي قضاه دون نقصان؛ ولاحقًا، انتزعوا إصبعه جزاءً لما حدث، فتخسر الطيور مكانًا قد تستقرُّ عليه، وتفقد سببًا يدعوها للزقزقة.

***

أُفرج عنه في فبراير (شُباط)، فوقع في حُبِّ المدينة. كانت دكًّا أول ما رأى حين فتح عينيه، وكان هواؤها هو أول ما نقل صوته وكلماته، المكان الوحيد الذي لطالما رغب البقاء فيه. سار عائدًا إلى دياره، شاقًّا طريقه إلى خارج ثكنة الجيش، وعبر الشوارع الحيوية، يُعانقه الغرباء الذين فزعوا حين رأوا ذراعيه المشوهتين، وإصبعه الغائبة.

ما إن وصل إلى دياره حتَّى عَلِم أن الحرب قد ابتلعت والده أيضًا. سار إلى داخل المنزل، ثمَّ رأى أمه ترتدي ساريًا أبيض، فأدرك من فوره. دفعته أمه إلى الرحيل بعيدًا، ثمَّ دفعته مجدَّدًا إلى الرحيل بعيدًا عن دكًّا بقدر ما استطاعت، فرهنت منزلهم ومجوهرات زفافها. أما هو فقبض على الفرصة بيدٍ من حديد، وفرَّ دون أن ينظر إلى الوراء، دون ندم أو عاطفة.

***

لم يُفكِّر يومًا في السبب وراء اعتقاله تلك الليلة، لم يأبه للأمر حتَّى. وفي ذلك الصباح النوفمبري حين أمسكت السماء أمطارها، كان قد ركض حُرًّا طيلة ستِّ ساعات، تخدشه الشجيرات القريبة ذات الأفرع الرفيعة، وتُلاحقه أصوات الكلاب حتَّى انقطعت أنفاسه، وفي غضون الثواني القليلة التي استغرقوها في الوصول إليه، كان لديه ما يكفي من الوقت ليُفكِّر في الاستئثار بالمسدَّس إلى نفسه، لكنه لا يكفي ليُوازن البندقية على رأسه. وهكذا، وحين انبثق ضياء النهار، دافئًا واهيًا، سار جوي عائدًا إلى المدينة بذراعين وساقين مُكبَّلة، حينها أعرب عن شكره للجنود على سرعة وصولهم إليه، هذا لأنه لم يكن مستعدًا للموت، ليس في ذلك اليوم، وليس في ذلك العام تحديدًا، ذلك العام الذي شهد فيه الدماء تسيل من شقيقه.

***

سيدي الناظر.. سيدي الناظر.. سيدي الناظر.. حضرة الشيخ.. حضرة الشيخ.. حضرة الشيخ. إن لكَ سوطًا كالثعبان. لماذا تُقيِّد رُسغي؟ لماذا إذن (بالبنغالية)؟ إنني أتحدَّث كل اللغات إلا العربية. وأنتَ تثأر من لغتي العربية.. تثأر من راحة يدي. كان زيد يتيمًا كفله النبي صلى الله عليه وسلم. وأنا يتيم. وكان النبي يتيمًا. صلاة الله وسلامه على النبي اليتيم. لمَّا ماتت أمي، قال القاضي: «**أنتَ يتيمٌ الآن**». عبر بي أبي النهر وأبلغك يا حضرة الشيخ: «إنه بين يديك الآن، وبين يدي الله». أخذ حضرة الشيخ بيدي. ووضع يدي في النار. إن له سوطًا كالثعبان. وثعبانه سوطًا. يداي في النار.. يداي في يدي حضرة الشيخ.. يداي في يدي الله. لأن يديَّ كانتا تشردان.. تسرقان.. العملات النقدية والأوراق المالية. لماذا تُقيِّد يدي خلف ظهري؟ لماذا إذن (بالبنغالية)؟ إنني دومًا أطلب منهم تلقيني ثلاثة أشياء: الترحيب والوداع، وبالأرض السلام، ثمَّ الأسباب. لا يودُّون تلقيني الأسباب. بل أنا مَن يدفعهم للنطق بها. أُكرر: لماذا.. لماذا.. لماذا. لماذا تركتني بين يدي حضرة الشيخ؟ لماذا اخترت يدي حضرة الشيخ؟ يداه تُعانقان يدي. ويداي تُعانقان يدي. هذا هو الحال دومًا مع المستجدِّين، أخبرني أحدُ الصبيان بهذا. إنه سعيدٌ بقدومي، لأن حضرة الشيخ لن يكون رفيقه. يقول: «أنتَ جميلٌ جدًّا، لكَ عينان أجنبيتان». أنا يتيم النبي. يُحبُّ حضرة الشيخ الأعين الفاتحة. يدا حضرة الشيخ تُعانقان يدي. كل الصبيان يضحكون. الأبواب دومًا موصدة. حضرة الشيخ يُعلِّق المفتاح

حول رقبته. والمرحاض في الخلاء؛ تجويف محفورٌ في الأرض. حُفرةٌ عميقة. تصبُّ في النهر. أنا قادرٌ على حبس أنفاسي لوقتٍ طويل.

***

1984

ديسمبر (كانون الأول)

قال الطبيب ستَّار: «لم يُجدِ العلاج نفعًا».

صار عليه أن يستأصل فلذةً من كبدها. ضحكت ريحانة حال سماع الخبر، وأدركوا جميعًا على الفور ما كان يُضحكها. كانت عبارة «***كوليجار توكرا***» البنغالية بمعنى «فلذة كبدي» تعبيرًا شائعًا عن التودُّد والتحبُّب، وكثيرًا ما أطلقتها على طفليها. كانت تُردِّد: حبيبي وحبيبتي، قلبي، وفلذة كبدي. وطوال هذه السنوات كلها، لم تُفكِّر يومًا أنها تتعهَّد بالتخلِّي عن جزءٍ من أعضائها.

أجابت الطبيب حين أعلن نياته: «احرص على أن تترك شيئًا من كبدي في موضعه يا دكتور ستَّار. أظنُّ أني لا أملك سوى واحدة».

تحدَّد موعد العملية الجراحية في الحال. وفي تلك الليلة، لمَّا كانت مايا تساعد والدتها على إعداد حقيبتها، وتحزم فرشاة الأسنان والمشط وسجادة الصلاة، واتاها شعورٌ أملى عليها إعداد قائمة بأشياء تقولها؛ كلماتٌ محفوظة حال مجيء هذه المناسبة تحديدًا. طوال تلك الشهور التي مرَّت منذ أن أبلغتها أمها بأمر الورم، كان يجدر بها تهيئة نفسها لتلك اللحظة. ولكن بدلًا من ذلك، ماذا فعلت؟ حلقت شعر أمها، وفرزت عقاقيرها، وصحبتها ذهابًا وإيابًا

إلى المشفى ومنه، وأجرت مكالماتٍ تليفونية مقتضبة لأصدقائها مُعلنةً لهم الأخبار: أجل، تشعر أمي بالتحسُّن، أجل، إنها تأكل. أجل، منحتها الطعام الذي أرسلته، وأحبَّته كثيرًا، أجل، أتفق، إنها بحاجةٍ إلى الحفاظ على قواها. هل يمكنك المجيء في قرابة العاشرة؟ إنها أفضل حالًا في الصباح.

احتضنت ووطَّدت قرابةً واهية بأُناس الطابق العلوي. يمكنها التفكير في شقيقها دون ذلك الغضب النافذ، يمكنها أن تُبصر الرجل المنعزل هادئ الطبع الذي صار عليه، ويمكنها الاضطجاع على فراشها والاستماع إلى خطوات الأقدام العشوائية في الأعلى، ويمكنها مراقبة أسراب من الرجال والنساء يصعدون السلالم ويهبطونها، أضف إلى ذلك، يمكنها حتَّى احتمال رؤية الحالة المتردِّية للصبي، يمكنها الإتيان بكل هذا، وتُقنع نفسها بأن هذا كله من خسائر الماضي.

حدَّثت نفسها أنها تتقدَّم في العُمر. تحيا منشغلةً بوجود أمها، وبمحاولاتها لإعادة التأقلم على المدينة، وافتقار تلك الحياة للجانب السياسي، وربما، ربما فحسب، يكون هناك بادرةُ هدنة بين سهيل وبينها. عدا أن هذا كل شيء. بصمتٍ أخذت تطوي ثياب أمها، منصتةً لخشخشة قطرات المطر على الأشجار لكي تحظى بأمرٍ تُميِّز به هذه الليلة، لكي يتسنَّى لها التعليق بأمورٍ حول الحديقة، كيف تفيض المياه فيها لو أنها شهدت حادث انهمار مطرٍ آخر. شرعت تخطُّ بضع عباراتٍ في رأسها، عدا أنه لم يبدُ أي منها صائبًا. ثمَّ تذكَّرت أمرًا قاله الطبيب ستَّار: «إن المرض لم ينتصر بعد» فتشبَّثت به.

***

كانت ريحانة تجلس على الفراش، عاقدةً ساقيها، ويدها اليُمنى مستقرَّةً على المُصحف. تقول مايا: «تحتاجين إلى الراحة يا أمي، أنتِ تعرفين كيف يسير أمر الجناح».

كان المطر قد أخذ أخيرًا في الهطول، والستائر الناعمة تُلقي بظلالٍ رمادية إلى داخل الحجرة.

- يقول القرآن «كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ». أتعرفين ما تعنيه هذه الآية؟
- كلا.

أغلقت ريحانة الكتاب، وقالت: «أنتِ لم تنتبهي إلى مُعلِّمتكِ قط».

ارتمت مايا بجسدها على الفراش إلى جانب أمها، وقالت: «بل هي التي لم توضح شيئًا لي قَطُّ. وقالت لي أن أحلق ما بين ساقي».

اتسعت عينا ريحانة على آخرهما، وقالت: «لا أُصدِّقكِ».

- أنا لا أمزح. بل قالت إن هذه المنطقة تصير أنظف بهذه الطريقة. ولكن ألا تذكرين يا أمي، لقد كانت دومًا تحكُّ هذه المنطقة؟

- كلا، لا أتذكَّر.

أردفت مايا: «أُقسم لكِ، ظننتُ أن ثمَّة رجلًا يختبئ أسفل خمارها، أو سربًا من الذباب».

- يا إلهي!

صفعت ريحانة ابنتها برفقٍ على خدِّها، لكنها أخذت في الضحك، وهي تهزُّ رأسها. ثمَّ قالت: «ما تزالين تلك الفتاة الصغيرة التي تتظاهر بالمرض في كل مرَّة تأتي المُعلِّمة. لقد أخبرتها أنكِ تحِيضين، أتذكرين، عندما كنتِ في الثامنة فحسب».

- أسرعت راكضةً إلى خارج المنزل!

- متى ستنضج ابنتي الصغيرة، ممم؟ ألن تمنحيني بعض الأحفاد؟

أجابت مايا:

- يتحتَّم عليَّ أن أتزوَّج أولًا كما تعرفين.

أرقدت ريحانة يدها على غلاف المُصحف، وأخذت أصابعها تتتبَّع الكتابة الذهبية، ثمَّ قالت: «كنتُ أعرف والدكِ بالكاد حينما تزوجنا. وبعد ترتيب أمر الزواج، كانت هناك صورةٌ فوتوغرافية له تلفُّ أرجاء المنزل، لكنني لم أحظَ بالشجاعة لطلب النظر إليها. ثمَّ جلبتها لي مارزيا ذات ليلة، وتطلَّعت إليها من كثب تحت ضوء الشمعة».

- وماذا كان رأيكِ؟

- كنتُ أتمنَّى لو أنني لم أرها. تحتَّم عليَّ الزواج منه على أي حال.

- هل سيكون أمرًا سيئًا لو أنني لم أتزوَّج قط؟

- كلا، لن يكون أمرًا سيئًا. انظري إلى حالي، لقد قضيتُ معظم حياتي دون زوج.

- يقدِّر للرجال أن يكونوا مُريعين.

كانت مايا تُفكِّر في نازية، وطفلها الذي وُلد بعينين ضيقتين ومسحةٍ أجنبية، وسايما وشوتو، وكل القسوة التي قد تقع عليها لو أنها وافقت على أن تصير زوجة أحدهم.

أجابت ريحانة: «هذا صحيح». وراحت تُمدِّد ساقيها ببطءٍ وتتكأ بظهرها على وسادتها، ثمَّ أضافت متسائلة: «ولكن لمَن ستُفضين بأحزانكِ يا صغيرتي؟».

كانت مايا قد استشعرت قدم أمها أسفل الغطاء، فأخذت تُدلِّكها، ثمَّ أجابت: «لا أدري. سأفعل مثلما فعلتِ».

أجابتها ريحانة باسمة: «إنني أستمدُّ راحتي من حُبِّ طفلتي».

آنست مايا تهيج المشاعر في تلك اللحظة، مشاعر الحاجة الدفينة في الأعماق، الحاجة إلى الحُب.

كان العلاج الكيمياوي قد أبطأ من دورة ريحانة الدموية؛ صارت قدماها باردتين، وسمعت مايا تنهيدتها وهي تفرك بطن قدمها براحة يدها. وفي الخارج، أوهن المطر من أصوات المساء الأخرى. أصدرت صراصير الليل والسحالي صريرها، لكن هطول المطر ابتلع نبرات صريرها العالية. وحدها أوراق الأشجار ما ارتفع حفيفه، فجعلت من خشخشتها مسموعةً كأنما تُصفِّق مع قطرات المطر يدًا بيد.

كانت قد حدَّثت نفسها عدة مراتٍ أن الزواج لم يُكتب لها، والأطفال لم يخلقوا من أجلها. هي التي راقبتهم يُولدون إلى هذا العالم كل يوم، متَّسمين بالأنانية والوحدة والقدرة، شهدتهم يبتلعون مَن حولهم، ثمَّ شهدت استنزاف قواهم البطيء والعالم يُبدي لهم نفسه أحقر ممَّا وُعِدوا به يومًا.

أغلقت ريحانة عينيها، وبدت بغتةً خائرة القوى، ثمَّ قالت: «اقرئي آية الكُرسي معي».

- حسنًا.

وبرغم ما أقنعت مايا به نفسها أن ما تفعله هو رأفةً بأمها فحسب، الشيء نفسه الذي أقنعت به نفسها بشأن زياراتها إلى الطابق العلوي، استشعرت إحساسًا بالسكينة يفيض بداخلها وهي تقرأ الآية. تلعثمت الكلمات بين

شفتيها في بادئ الأمر، ثمَّ تدفَّقت على لسانها بيُسر، كما ذكريات الطفولة، وأكلاتها المُفضَّلة، والزهور المخملية في المرج.

﴿اللَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾.

قالت ريحانة: «أودُّ منكِ أن تُصلي يا مايا. ولو مرَّة واحدة في اليوم، عند المغرب».

هزَّت مايا رأسها رفضًا، وأجابت: «تعلمين أني لا أستطيع فعل ذلك يا أمي، لن يكون فعلي مُنصِفًا».

- مُنصِفًا لمَن؟

- لكل المؤمنين.

كانت تبكي في تلك اللحظة، والدموع تتساقط دافئةً وناعمة على وجنتيها.

استطردت ريحانة: «الله أعظم من إيمانك. أنا أطلبُ منكِ هذا لأنكِ قد تحتاجين إلى شيءٍ يُطمئنكِ، إذا مت».

- أمي، أرجوكِ، لا تتفوَّهي بهذا الحديث.

أردفت ريحانة: «تتصرَّفين باستقلالية قوية. غادرتِ المنزل، وبنيتِ حياتكِ الخاصَّة. أنتِ فتاةٌ قوية. ولكن مَن سيعتني بكِ حين أرحل؟ أتمنَّى لو أنكِ تملكين عزاءً خاصًّا بكِ وحدكِ. كان أبوكِ ليرغب لكِ في ذلك».

عزاءً خاصًّا بها وحدها. أيُّ عزاءٍ قد تملكه؟ زواج، عائلة، إله؟ لم تتهيَّأ نفسها لأيٍّ من هذا. ثمَّ أدركت مايا أن أمها ظلَّت مُثقلةً بوحدة ابنتها طوال هذا الوقت كله. كان عليها أن تتحمَّلني بمفردها. تتحمَّلني وأعبائي كلها. فكَّرت مايا أنه ربما يجدر بها أن تُخبر أمها أنه لا بأس إن رحلت الآن، وأنها ستجد طريقةً أو أخرى لسدِّ الفراغ الذي ستُخلِّفه وراءها. لكنها عجزت عن الإتيان بهذا الحديث، ولم تكن مستعدَّة.

أجابتها مايا: «دعينا نقرأ المزيد من الآيات يا أمي، إن كان هذا سيُشعركِ بالتحسُّن».

- أنا مُنهكةٌ يا ابنتي. دعينا نخلد إلى النوم.

ظلَّت مايا يقظةً إلى جوار أمها، تُنصت إلى أنفاسها، ويداها على استعدادٍ تام لرجِّها إذا تباطأت أنفاسها، إذا أظهرت أي إشاراتٍ على استسلامها لما

هو مكتوبٌ على جبينها، لقدرها، أو لشعورها بأنها قد أكملت ما جاءت إلى الحياة لأجله.

ثمَّ قبعت تُفكِّر فيما طلبته منها أمها، الصلاة مرَّة واحدة في اليوم، عند المغيب، تلك الساعة المُقدَّسة. فكَّرت في التسليم، وتمنَّت بطريقة أو بأخرى أن لو فعلتها منذ أمدٍ بعيد، تمنَّت لو استسلمت وانقادت لممارسات الدين. لو أنها اختارت الانصياع الآن، ستكون صفقةً جوفاء، سطحية وواهية. ما مِن إلهٍ تحترمه قد يُبرم صفقةً كهذه، وهو عليمٌ بأن مؤمنًا يطرق بابه لا يرغب في شيءٍ سوى جنيٍّ، يُحقق له أمنيةً واحدة، وحتى لو رافق هذه الأمنية شعورٌ عميق بالاشتياق، ما مِن ضمانٍ يؤكد إيفاءها بوعودها.

***

في الصباح وجدت مايا زيد مُكوَّرًا على نفسه أسفل المنضدة الخشبية الصغيرة. انحنت ناظرةً أسفلها، ورأت ركبتيه مثبَّتتين بإحكامٍ إلى صدره. فتح عينيه، ومدَّ لها يديه، فجذبته مُخرجةً إياه من أسفل المنضدة. ثمَّ سألته: «كيف أتيت؟».

أجابها: «بالحافلة».

استطردت سائلة: «بمفردك؟».

ما كان له أن يختار أسوأ من هذا توقيتًا. كان عليها أن تُساعد أمها في حزم حاجياتها من أجل المشفى. وهو يفوح برائحة العرق وروائح أخرى لا يعلمها إلا الله. كان حليق الرأس كُلِّيًا حتَّى أمكنها أن ترى الأوردة الباهتة لرقبته، وهي تتسلَّق -أو بالأحرى زاحفةً- قمة رأسه. لقد انتظرته طوال هذه الأسابيع كلها، وها هو أمامها الآن، قذرًا، أصلع، ينفطر قلبها عليه.

أومأ لها بإيجابٍ وعيناه تزخران بالدموع، ثمَّ تمتم: «إنها العطلة».

سألته بنبرةٍ بدت أشدُّ قسوةً ممَّا قصدت: «هل أنتَ جائع؟».

كانت تُدرك أن علاج أمها لا يُجدي نفعًا، أدركت ما يعنيه انتشار سرطانها إلى الكبد. وزيد يبكي الآن، ويداه مشدودتان على وجهه بإحكام.

احتضنته، مُفرغةً رئتاه من الهواء، وأخذت تقول: «كنتُ أنتظرك طوال الوقت. هل تعلم ذلك؟».

أحضرت له قطعةً من خبزٍ مُحمَّص وبيضةً مقليَّة، فراح يتناول طعامه ببطءٍ، وفمه يرتجف وهو يمضغ أكله. استيقظت أمها، وصاحت تُذكِّرها بحزم سجَّادة الصلاة في حقيبتها. فالتفتت إلى زيد، وقالت: «عليَّ أن أصحب جدَّتكَ إلى المشفى».

كرَّر حديثه على أسماعها: «إنها العطلة. سمح لنا حضرة الشيخ بالعودة إلى البيت».

صدَّقته، لأن عليها أن تُصدِّقه.

أجابته مايا: «سأعود في أقرب وقتٍ ممكن».

ناولها الطبق الفارغ، وزحف عبر الغرف حاشرًا نفسه أسفل المنضدة مجدَّدًا. ثمَّ قال: «سأبقى هنا. سأبقى هنا فحسب».

حدَّثت نفسها أنه سيكون بخير، وأنها ستعود من المشفى وتجلبه، وسيذهبان إلى الحديقة معًا، وستتعافى أمها، وسيلعبون جميعًا اللودو، وسيغشُّ زيد في اللعب، كما يفعل دومًا.

***

عدَّت مايا ساعات نوم أمها: اثنتان وعشرون. سبعٌ وثلاثون. أربعون. في اليوم الثالث، طلب الطبيب ستَّار من مايا الاتصال بشقيقها، بكل مَن يودُّ رؤيتها. أجرت المكالمات الهاتفية، وحضر الجميع، أُناسٌ تتذكَّرهم من طفولتها، الجيران والأصدقاء. جلبوا أطفالهم معهم، أطفالهم الذين أخذوا يشدُّون فُرش السرائر ويتذمَّرون من رائحة المشفى. قالوا إنَّا لله، كما لو أنها ماتت حقيقةً. أجرت مايا مكالمةً هاتفية إلى الكوخ الصغير، تتوسَّل إلى سهيل، وأخذت تُردِّد في سماعة الهاتف: «**إنَّ أمي راحلة، افعل شيئًا**».

كان الطبيب ستَّار قد أبلغها: «لقد فعلتُ كل ما في وسعي. والآن ما علينا سوى الانتظار».

إنَّ ريحانة تتنفَّس، لكنها لم تستعِد وعيها بعد. وكُليتاها تُعانيان فشلًا. وأطراف أصابعها تستحيل إلى الزُرقة. كانت قد أُودعت في مقصورةٍ خاصَّة، بعيدًا عن الجناح والمرضى الآخرين. رحَّبت مايا بالزائرين، وكرَّرت على مسامعهم السطور التي حفظتها عن السرطان ورحمها وعن استئصال كبدها.

أبقت على تهذيبها، فما احتجَّت حين أحضرت السيدة رحمان قصاصة خيطٍ من «قديس الأحبال الثمانية» وعقدتها حول رُسغ ريحانة.

في اليوم الرابع، ناشد الطبيب ستَّار مايا أن تعود إلى البيت، لبضع ساعاتٍ فحسب، تغتسل وتُبدِّل ثيابها. ولمَّا رفضت عرضه، عرض عليها أن تستريح في استراحة الأطباء. أمسك بمرفقها وقادها عبر درجات السُّلَّم، وعبرا الفناء. كانت تعرف الطريق، عبر الأروقة الخضراء، وكان المرضى يصطفُّون بالخارج، قابضين على قصاصات مهترئة من الورق والحافظات ذات الحواف المسودة الممزَّقة.

- سأبعث بأحدهم ليُناديكِ. اخلدي إلى النوم الآن.

قالها الطبيب ستَّار، ثمَّ أغلق الباب وراءه، وأخذت مايا تُركز بصرها على شعاعٍ من ضوءٍ يأتي من أسفل الباب. بلونيه الأصفر والذهبي توهج بإشراق سرمدي، متناثرًا على الجانب الآخر، حيث ترقد أمها، بأطراف أنامل زرقاء، تلفظ أنفاسها الأخيرة. أخبرت شعاع الشمس أنها ستُحدِّق إليه حتَّى يتغيَّر لونه، حتَّى يستحيل من ذهبيته إلى الزرقة، حتَّى ينقلب النهار على الليل، لكن عينيها لا بُدَّ خذلتاها فأُغلقتا على نفسيهما، هذا لأنها حين فتحهما كان الضوء ما يزال في موضعه، ثابتًا لا تتزعزع له موجة، ملقيًا بطوله المحدود داخل الغرفة، ثمَّ استحضرت ذكرى والدها، وشريط حياته القصير، وكل الصبية الذين نزفوا دماءهم مختلطةً بالتراب، وأخاها، وطفله، وبغتةً تذكَّرت زيد، وتساءلت إن كان ما يزال مختبئًا أسفل المنضدة -أنَّى لها أن تتركه هناك؟- ثمَّ غشاها القلق ما إذا كانت ستحظى بطفلٍ من رحمها يومًا، ربما لأنها لن تقدر يومًا على منح الحب بما يكفي لأحدهم، وأن تُحبه حبًّا تتحمَّل معه تجرع وحدته وتأخذها على عاتقها.

توهج شعاع الشمس بإشراق سرمدي. وظلَّ النهار نهارًا، ثمَّ تمدَّد الشعاع، مكتسبًا ظلاله. رفعت يدها لتحمي عينيها، فرأت الممرِّضة عند مدخل الباب.

- كم مضى من الوقت؟

- بضع ساعاتٍ. ليس طويلًا.

عادت إلى غرفةٍ مملوءة بالغرباء، وحلقةٍ من رجال بمعاطف بيضاء. هل يستعدُّون لتسجيل الأمر؟ امرأةٌ في الثانية والخمسين من عُمرها، في المرحلة الرابعة من سرطان الرحم النقيلي. خضعت لجراحة استئصال كُلِّيٍّ للرحم،

واستئصال جزئي للكبد. ومن بين الحشد، رأت قدمَيْ أمها بارزةً من أسفل الملاءة، وأصابعها المُقلَّمة المُرتَّبة، وبقعة داكنة أسفل عظمة كاحلها.

انفصل الطبيب ستَّار عن البقية، وهتف: «أقبلي يا مايا وانضمِّي إلينا».

اتسعت الدائرة إيذانًا بدخولها. هل يريدون سماع رأيها الطبي؟ رفعوا أذرعهم وراحاتهم الآن إلى السماء، ففهمت كل شيءٍ في الحال، فهمت ما تعنيه هذه الإشارة. لا نقصد الأطبَّاء في نهاية المطاف. رفعتُ يدي إليك، وابتهلت: يا الله، إنني أستجديك، وأتضرَّع إليك. رفعتْ ذراعيها لأعلى، واستدارت لتجد شقيقها عند طرف السرير، حيث ترقد قدما أمها مبسوطتين منفردتين، يهمس بكلماتٍ لم تتبيَّنها. وردَّد الرجال ذوي المعاطف البيضاء وراءه، رافعين أصواتهم في جوقة. آمين. كانت تُدرك أن ما يحدث خطأ، الوقوف في دائرة، مستقبلين هذا الاتجاه وذاك، متضرِّعين إلى الله. لا يسير الأمر على هذه الشاكلة. كان سهيل قد أخبرها قبلًا أن هذه الدنيا فانية، وستحصد أمي ثواب آخرتها، ويا لها من أنانيةٍ أن نُبقيها هنا. كان يفعل ما يفعله لأجل مايا، ذلك أنها قد توسَّلت إليه ألا يترك أمها تموت. ولهذا أتى، وأحضر هؤلاء الرجال معه، فوقفوا في دائرة، وليس في صفٍّ باتجاه القبلة. عرفوا كلمات الابتهال والتضرُّع، وقرَّروا استخدامها.

التقت أعينهما، وتحرَّكت مايا لمعانقته، لكن وجهه حمل تعبيرًا أمرها بالبقاء بعيدًا، وأن بقاءهما بعيدانِ جزء من الرُّقية، ولهذا تراجعت وركَّزت على الاعتقاد بأن هذا هو العلاج.

رفع سهيل حاويةً بلاستيكية من الماء، وسكب قدرًا صغيرًا منها في كأس. كان الماء من بئر زمزم. رفع رأس أمه، وقرَّب الكأس إلى فمها، وأخذ يحشرها بين انفراج شفتيها البسيط. ولمَّا تسرَّبت قطرات الماء إلى شفتيها، لم يمسحها. تابع الرجال تلاوتهم للدعاء، وكفكف الطبيب ستَّار عينيه بمحرمة.

في أثناء الحرب، كان الجنود الباكستانيون يطلبون من أي صبي، أي صبي في الشارع، أن يفُكَّ أربطة تنُّورته. يقولون: أثبِت لنا. أثبِت لنا أنكَ واحدٌ منَّا. كان الصبي يتحسَّس عُقدة تنُّورته ويفُكُّ رباطها حتَّى يتسنَّى للجنود أن ينظروا إلى ما تحتها. قد يكون الوقتُ ليلًا، فيقول الجنود: تصعب الرؤية في هذا الظلام.. أخرجه وأرنا. أرنا قَطْع خِتانك أيها البنغالي القذر.

حرَّرت مايا نفسها من إيمانها. وتناست ما قرأته عليها أمها من السور، ومحت من ذاكرتها النفحة الناعمة للهواء على جبهتها حين كانت أمها تهمس بالدعاء وتنفخ البركة من فمها. ألقت بما ألفته من تعاليم الدين كلها في غياهب النسيان، وعادت بجسدها إلى اللحظة التي تسبق تعلُّمِه الركوع، والخرور ساجدًا.

خلال سنوات تجوالها السبع في الريف، شهدت على قالبٍ من الإيمان مختلفًا كُلِّيًّا. المساجد قليلة ومتباعدة، والمدينة التي ادَّعت أنها ذات طابعٍ تديُّني حديث كانت أبعد من ذلك بكثير. في القرى، يعبدُ الناس القدِّيسين والنبي محمد صلى الله عليه وسلم على حدٍّ سواء. تبرز عباداتهم في الصلاة، بلا شك، وكما يفعل الجميع، يصومون شهر رمضان، ويحتفظون بقطعةٍ من أرض جانبًا، لو أنهم يملكونها، لتُباع ذات يومٍ ويشرعوا في رحلة الحجِّ إلى مكة. أما في الغابات، فيُصلون إلى «بون بيبي»، إلهة الأشجار، ويستقدمون الباول (المنشدين الصوفيين) إلى قُراهم؛ رجالٌ نحفاء ذوو أصواتٍ مزمارية يُنشدون أغنيات «لالون»، يُحيلون كلمات القرآن إلى أغنيةٍ مُلحَّنة.. مواعدة بين مُحبَّين، فتلعب الذات الإلهية دور الحبيبة، ويلعب الشاعر دور مستجديها.

بين فينةٍ وأخرى، كانت تقف على أعتاب حفلٍ موسيقي، مفتونةً بصوت الباول الصوفي. عدا أنها عجزت عن حمل نفسها على المُضي إلى الداخل؛ لأجل هؤلاء الصبية على قارعة الطريق، وكل ما شهدته قبلًا من فظائع تُرتكب باسم الرب.

تقدَّم الرجال مُغادرين الحجرة في صمت مُطبِق. وحده سهيل مَن بقي، وأخذ يُمسِّد جبهة أمه بيده، هامسًا في أذنها. جلست مايا إلى جانبه، فمدَّ إليها يده الأخرى مستجديًا يدها. أخذت الظلمة تنشر ظلالها داخل الحجرة، واستحال ضوء النهار أخيرًا إلى زُرقة داكنة، وحمل النسيم إليهما شيئًا من البرودة. أقبل الشتاء؛ هكذا حدَّثت نفسها. وستغزو الكلمنتينا المدينة بعبيرها. كانت أمها قد زرعت القليل من الخضراوات هذا العام: الفاصولياء والقرنبيط والطماطم. كان طهيها أفضل دومًا في الشتاء، يُلائم أريحية الشهور الباردة. في الصباح، كانت تسلق القرنبيط والبازلاء، ثمَّ يأكلونها على حالها هذا، والقليل من شرائح البيض المسلوق المُفتتة فوقها. تذكَّرت أن سهيل قد يُغرق طبقه بصلصة الكاتشب. أحكمت قبضتها حول يده، فأحكم قبضته حول يدها هو الآخر، وشرعا في تلك اللعبة، لعبة قديمة، قوانين مورس للقبضات

المُحكمة، حتَّى حالت البرودة دون جلوسها، فصعدت إلى الفراش إلى جانب أمها، وتكوَّرت حولها، وأراحت وجهها على هيكل منكبها، حريصةً على ألا تلمسه.

غطَّت مايا في النوم، وغزت الأحلام منامها. في أحلامها، كانت أمها عطشى.. فقالت: ماء. أريد ماء. ثمَّ كرَّرها سهيل: ماء. إنها تطلب الماء.

فتحت مايا عينيها لتراه يسكب ماء زمزم في فم أمها. كان فمها مفتوحًا، وتجرَّعت الماء. ربما يُفسد عليها تلك اللحظة الآن فيُعلن أنها معجزة، لكنه اكتفى بالنهوض عن كُرسيه وتقبيل جبين أمه برفق. ثمَّ التقط طاقيته من على الطاولة وسار مبتعدًا دون أن يلتفت وراءه، كما لو أنها الطريقة الوحيدة التي يمكن لليوم أن ينتهي بها.

***

نست مايا البحث عن زيد حتَّى انقشعت الغُمَّة كلها. أخذت تُفتِّش عنه أسفل المنضدة وفي سقيفة الحديقة وخلف الستائر المنسوجة من خيوط العنكبوت عند قاعدة السُّلَّم. لقد رحل. ثمَّ سألت خديجة إن كانت تعرف مكانه، فأجابتها: «في المدرسة الدينية. لقد أعاده حضرة الشيخ إلى هناك».

***

الكتاب الثالث

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾

1985

فبراير (شباط)

في الشتاء، تنحسر الأنهار. تعود المياه أدراجها من سهولها الفيضية، وما كنتَ تراه ماءً يصير يابسًا مرَّة أخرى. وبالمثل، عاد الكوخ الصغير منغمسًا في عاداته. في الطابق الأسفل، تُهيِّئ ريحانة الحديقة استعدادًا لاستقبال الشتاء، وتتولَّى مهامَّ الحياكة، وصوفيا تُفرغ المطبخ من محتوياته كلها، وتفرك كل سطحٍ فيه حتَّى انعكس على تلك الأسطح بريق يديها القاسيتين وخطُّ فكِّها الحاد. وبدورها عادت مايا إلى أعمدتها، مهاجمة الديكتاتور، وموظَّفي الحكومة، وحزب الجماعة، وغلمان أعظم، ونظامي. كان شفاعة قد أخبرها أن عدد خطاباتها يتضاعف، ومحتواها يتكرَّر، يتساءل فيها القُرَّاء: «**مَن يكون ش. م. حق؟**» وفي الكلِّيَّة الطبِّيَّة، أبلغ الطبيب ستَّار مايا أن الطلَّاب قد نظَّموا رهانات ليُخمنوا مَن مِن أساتذتهم هو ش. م. حق، لكن لديه شعورًا بمعرفته. وفيما كانت تصحب والدتها إلى خارج مكتبه بعد آخر فحصٍ لها، أخبرها الطبيب: «لا أرى أيَّة علامات على المرض يا عزيزتي. بيد أن شقيقكِ قد أخافه فهرب». وبغمزة عينٍ لطيفة، مضى قائلًا: «توخِّي الحذر، ألن تفعلي؟». ثمَّ عرض عليها وظيفةً لو أنها أرادت. وأضاف: «لا جدوى من هدر تلك التدريبات كلها».

وفي الطابق العلوي، مضت الحياة كأدبها قبلًا. كانت مايا قد توقَّفت عن حضور جلسات التعليم. لم تهبط خديجة للأسفل طلبًا لحضورها، وكذلك لم تصعد مايا إلى الأعلى. لكنها أخذت تُفكِّر في عشراتٍ من تلك الزيارات، وتستحضر حجر خديجة الدافئ، وصوتُ التلاوة المحجوب. أدركت أنها تعرَّضت للإغراء، وأدركت أنها قد ارتكبت الخيانة في حقٍّ نفسها حين قبلت السلوان الذي عُرض عليها. وحملت بين حنايا قلبها خنجرًا من الشعور بالذنب، لما ارتكبته من جُرم الزيف، وأفعال الخداع. أما فيما يتعلَّق بما أتى به سهيل في المشفى، وكلماته التي ألقاها في أذن أمها، وترطيب فمها بماء زمزم، فلم يتسنَّ لها تصنيف فعله، وعجزت عن تسميته. وما خطر لها من تسمية -وهي المعجزة- كانت خارجة عن معقولية تصديقها.

***

نجح جوي في إقناع مايا بحضور اجتماعٍ آخر. إن چاهارانا إمام ستناقش موضوعًا مهمًّا، وستندم مايا لو لم تسمع ما جاءت لتقوله.. هكذا أقنعها جوي. وفي بداية الاجتماع، افتتح الممثل الطويل، علي رحمان، الذي لعب دور هاملت في جميع المسرحيات التي أنتجتها «بيلي روود برودكشنز Baily Road Productions»، الاجتماع بقراءةٍ من كتاب «قربان الأغاني». إلى جانبها، جلس جوي بهيئة ثابتة، ويداه مسترخيتان بحرصٍ على ركبتيه. لاحظت مايا ضخامته، وفلطحة أصابعه، وكثافة حاجبيه. كل شيءٍ يشي بالخضوب في هذا الرجل، كل شيءٍ ينضح بالوفور والحيوية. وانتابتها رغبة مباغتة أن تُنصت إلى الخُطب وذراعها متأبِّطة ذراعه.

بعدما انتهت فقرة الشِّعر، شرعوا جميعًا بالغناء: «**بنجلاديش الذهبية**». ثمَّ دفعت چاهارانا إمام بنفسها إلى المنصة، فنهضوا جميعًا هاتفين. تحدَّثت مجدَّدًا عن مُجرمي الحرب، وفي هذه المرَّة، أنصتت مايا لما يُقال. لقد أخفق كلٌّ من مُجيب الرحمن وضياء الحق في معاقبة القتلة، والديكتاتور لن يحُثَّ على إقامة محاكمة أبدًا. وقالت إن مُعاونيهم سيستمرون في العيش بين صفوفنا لو لم نفعل شيئًا. وصرَّحت أنها اتخذت قرارًا. إذا لم تمنحنهم البلاد العدالة الواجبة، فسيأخذونها بأيديهم. سيُقيمون محكمةً شعبية يخضع فيها القتلة والمُعانون للمحاكمة والحُكم عليهم.

استغرق الحضور هنيهةً ليُدركوا مقصدها، ثمَّ علا الهُتاف في الحجرة، متبوعًا بالتصفيق. سيُعلن الشعب حُكمه على غلام أعظم، وعلى نظامي، والرضاكار[1] الذين اغتصبوا بلادنا عام 1971. سيعقدون محاكمة للقتلة، محاكمةً مدنية. لا تُعقد من أجل الفتية الذين ماتوا في ميدان المعركة فحسب، بل من أجل النسوة اللاتي اغتُصبن أيضًا.

قالت چاهارانا إمام: «في هذه الأيام يتعايش آلاف النساء في جميع أنحاء البلاد مع ذكرى ما أصابهن من عار. والرجال الذين انتهكوا عِرضهن يجوبون القُرى في كامل حريتهم. لا يُذكِّرهم أحدٌ بما ارتكبوا من إثم. ولهذا من أجل هؤلاء النساء، ستُقام هذه المحاكمة. من أجلهن، لا بُدَّ للعدالة أن تسود. وإذا لم تشهد محاكم هذه البلاد على حُزنهن، فسنشهد **نحن**. **نحن** مَن سيحقِّق لهن العدالة. إنه لواجبنا، وإنه لأكثر واجباتنا قدسية بصفتنا مواطنين، وبصفتنا ناجين من الحرب».

لم يخطر ببال مايا سوى خاطرةٍ واحدة.

بِيا.

أنهت چاهارانا إمام خُطبتها. وبدأت المناقشة حول التفاصيل. مَن سيُقيم المحاكمة؟ وماذا سيقول الشهود؟ هل سيحضر ضحايا حقيقيون، للإدلاء بشهاداتٍ حقيقية؟ وكيف سيقنعون الناس باعتلاء المنصَّة للشهادة؟

استرجعت مايا ما قالته بِيا عن مِحنتها. لقد أتيتُ فعلًا.. فعلًا نادمةً عليه. فعلًا مشينًا. لقد أتيتُ **أنا** الفعل. كيف سمحت لبيا أن تصيغ الحقيقة على تلك الشاكلة؟ عادت ذكراها إلى مايا واضحةً ثاقبة. ثمَّ أجبرت نفسها على استرجاع تلك اللحظة في العيادة الطبِّيَّة، والنظرة اليائسة في عينيها وهي تطلب منها **إنهاء الأمر. اصرفي الفعل الشائن.** هزَّت مايا رأسها، محاولةً محو الذكرى، وقبل أن تُدرك شعرت بكتفيها يهتزَّان وخدَّيها يشتعلان من حرارة دموعها، ثمَّ تذكَّرت أمها وهي في المشفى، تحسب أنها ستموت، وتذكَّرت بيا، تلك الفتاة التي لجأت إليها للمساعدة، وكانت هي من خذلها.

---

(1) الرضاكار هم قوة شبه عسكرية معادية لبنجلاديش، نظَّمها الجيش الباكستاني في أثناء حرب التحرير عام 1971 في باكستان الشرقية، التي تُعرف الآن باسم بنجلاديش. (المترجمة)

حُلَّ الاجتماع، فنهض الحضور عن مقاعدهم والتفوا حول چاهارانا إمام. عدا مايا التي جلست متيبِّسة، والسوائل تنهمر سريعًا من أنفها وعينيها. حاولت مسح وجهها بظهر يدها، حين سمعت جوي يقول: «هيا بنا، سأصحبكِ إلى المنزل».

لم ترغب هي في العودة إلى المنزل. أجلسها جوي في السيارة وأسرعا تاركين الضاحية من ورائهما. وفي السيارة، فركت مايا وجهها في خشونة بطرف ساريها حتَّى تورَّم خداها. انعطف جوي إلى «طريق إليفنت» وصفَّ سيارته أمام مبنًى من طابقين، ثمَّ سألها: «هل نتوقَّف هنا ونتناول فنجانًا من الشاي؟».

كان ثمَّة مقهى في الطابق الأول، ذو عارضاتٍ زجاجية كبيرة كشفت عن دكاكين الأحذية في طريق إليفنت. جلس الثنائي قُبالة بعضهما في مقصورةٍ من مقاعد جلدية خضراء. مرَّ عليهما وقتٌ طويل دون أن ينبس أحدهما ببنت شفة. كان جوي قد منحها حرِّيَّة التطلُّع إلى خارج النافذة لبضع دقائق، وهي تمسح بيديها على وجهها حتَّى تتأكَّد أن دموعها قد توقَّفت. ثمَّ حدَّق إليها بنظرةٍ مشاكسةٍ لطيفة. وقال:

- الآن وقد حُزتُ انتباهكِ، ربما ترضين فضولي حيال أمرٍ.

أجابته بنبرة صوتٍ مماثلة: «لا أنطق حيال أمرٍ».

وأمعنت النظر في قائمة الطعام، يغمرها شعورٌ بالارتياح أنها في هذا المكان، وأمواج المشاعر التي خالجتها آنفًا تنحسر شيئًا فشيئًا. ثمَّ مضت قائلة: «لا أُخبرك أيَّ شيء».

من أسفلهما، مضت السيارات وعربات الريكاشة تتصارع في صمت على طريق إليفنت.

وبعد هنيهة أضافت مايا: «لا أُخبرك شيئًا حتَّى تحكي لي عن زوجتك الأمريكية».

- حسنًا، اتفقنا. ولكن دعينا نُبرم اتفاقًا. سأُجيب عن جميع أسئلتكِ؛ جميعها، وما عليكِ إلا أن تُجيبي عن واحدٍ من أسئلتي. واحدٍ فقط. اتفقنا؟

أشارت مايا إلى شيءٍ في قائمة الطعام، وسألته: «ما هذا؟».

- آه، لقد أخطؤوا كتابة البرجر بالجُبن. هل جرَّبته من قبل؟ أراه يشبه شطيرة الكيما. قد يكون البرجر بالجُبن بلا طعم. يمكنني أن أطلب منهم إضافة بعض الفلفل الحارِّ من أجلكِ.

- لا بأس بالفلفل الحارِّ. ولكن لا أريد جُبنًا.

- ألا تُحبِّين الجُبن؟

- يجعلني أضرط.

ضحك جوي، فسألته مستفسرة: «ما الأمر؟».

- يبدو لي أنكِ فوَّتِ درسًا في المدرسة حين كانوا يُعلِّمونكِ كيف تتحدَّثين إلى الفتيان.

أجابته بانفعال: «أنا طبيبة، والوظائف الحيوية لا تُحرجني. وما نوع تعليمك أنتَ؟ لا شك أن تعليمي لم يشمل أي دروسٍ حياتية».

- لقد ارتدتُ المدرسة نفسها التي ارتادها شقيقكِ. مدرسة القدِّيس جورج. هؤلاء اليسوعيين أخبرونا كلَّ شيءٍ نحتاج إلى معرفته بشأن الفتيات.

اقترب النادل وخطَّ طلباتهما. كان جوي مهذَّبًا مع الرجل، وناداه بـ«أخي»، وأعرب له عن شكره بعدما دوَّن طلبه. ثمَّ سألها: «هل تودِّين مشروبًا؟».

- أجل، عصير ليمون.

- إنه شديدُ الحموضة. واثقةٌ أنكِ تودِّين المخاطرة؟

- اصمت.

وضع جوي كلتا يديه على الطاولة، وشرع قائلًا: «والآن، ماذا تودِّين أن تعرفي؟».

- أخبرني عن نسائك.

- ليس هناك سوى واحدة.

- حقًّا؟ لقد سمعتُ شائعات.

أجاب جوي: «الناس دائمًا يُحاولون إيقاعي في مصيدة الزواج -كما تعرفين- المقاتل الحُرُّ الجريح المسكين بحاجةٍ إلى زوجة».

- ربما تستسلم لهم يومًا.

- ربما. والآن، أنتِ تودِّين أن أقُصَّ عليكِ أمر تشريل. ولكن ربما قبل أن تسمعي منِّي تلك القصَّة، يجدر بي أن أحدثكِ عن كل الوظائف الصادمة التي عملتُ بها حين كنتُ في نيويورك، حتَّى نُنهي الأمر برُمته، ونجري إفصاحًا كاملًا. غسلتُ الصحون لعامٍ كامل. وعملتُ سائق سيارة أجرة. آه، هذا أخبرتكِ به بالفعل. وقضيتُ فترة من الوقت أعمل في تنظيف غُرف الفنادق، ثمَّ انتقلتُ إلى تنظيف المنازل. أُناسٌ أغنياء، ومنازل في بارك أفينو، ما كنتِ لتُصدِّقين كل هذا. ومكاتب أيضًا. رأيتُ الكثير من الأشياء في تلك المكاتب، بعد هبوط الليل وما إلى ذلك. لكن الوظيفة الأخيرة التي عملتُ بها كانت لدى رجلٍ عجوز. كان الرجل يحتضر. توفَّر له الأطبَّاء والممرِّضون وكل شيء، لكنه كان بحاجةٍ إلى شخصٍ يعتني به في المساء، وكنتُ أنام في غرفته. هكذا التقيت تشريل.

سألت مايا: «هل كانت تعمل لديه أيضًا؟».

- بل كانت ابنته.

ارتفع حاجبا مايا دهشةً. فمضى جوي قائلًا: «أجل، هذا كان رأي عائلتها بالضبط. أتتزوَّجين الخادم. يا لها من فضيحة كُبرى! كنتُ أنا بحاجةٍ إلى جواز سفرٍ أمريكي، وكانت هي بحاجةٍ إلى التمرُّد، وهكذا تمَّ الأمر».

- هل أحببتها؟

تخيَّلت مايا حجرةً تغمرها الأضواء، ودخان السجائر عابقًا في الأثاث، وامرأةً هيفاء راقية ترتدي قميصًا رجاليًّا، بياقة عريضة حول رقبتها.

بيدا أنه يُفكِّر في السؤال قبل أن يُجيبها أخيرًا: «ربما أحببتها قليلًا. لم يكن زواجنا معاملة تجارية فحسب. كان علينا أن نعيش معًا، ونتعرَّف إلى بعضنا. ولكننا في النهاية عجزنا عن أن نظلَّ معًا».

- ولِمَ لا؟

- كانت علاقة غير مكتملة؛ لم أستطع أن أُخبرها كلَّ شيء.

رُصَّ الطعام على الطاولة؛ شريحة من فطيرة لحمٍ بين طبقتين طريَّتين من الخُبز. أخذت مايا قضمةً، فانساب الدهن على أصابعها. كان مالح المذاق، حارًّا بفعل الفلفل الحارِّ. حينها أعلنت مايا إعجابها به: «جيدٌ جدًّا طبقك الأمريكي هذا». ثمَّ مسحت فمها، وأضافت: «إذن، أنهيتَ الأمر».

- عُدتُ إلى الوطن.

- يا لها من فتاةٍ مسكينة. أن تختبر الهجر.

فكَّرت مايا في تشريل، تعيش الآن دون هيئته الجسدية القوية. لا بُدَّ وأن حياتها جوفاء الآن.

علَّق جوي:

- لن تقوى على المجيء إلى هنا معي.

- لا يلتقي الشامي بالمغربي.

رفع جوي كتفيه حائرًا.

- كيبلنج، أتعرفه؟ وفورستر أيضًا.

- لا أعرف عمَّا تتحدَّثين.

أجابت مايا:

- لا شيء. مُجرَّد خاطرة قرأتها في كتاب.

تذكَّرت في تلك اللحظة أن جوي لم يكن من النوع المُحبِّ للكتب قط.

علَّق جوي: «لستُ قارئًا نهمًا». وجعَّد المنديل في يده، ثمَّ ألقى به في طبقه، وهو يمضي قائلًا: «لستُ مثل أخيكِ».

- لا تقلق. لقد أحرق كتبه على أي حال.

- أحرقها؟

- أجل، على شاكلة أسلوب هتلر. لقد أحرقها في الحديقة.

لطم جوي فمه بيده مذهولًا، فأكَّدت مايا: «أجل، هذا حقيقي».

كانت الفتاة المسكينة قد عايشت الحادثة في رأسها الكثير من المرَّات، حتَّى نسيت كم كانت صادمةً لها.

جلس الثنائي صامتين هنيهة، يلتقطان بقايا وجبتيهما. وفي تلك الأثناء، لم يطرح عليها جوي سؤالًا عن السبب أو الكيفية التي من أجلها أحرق سهيل كتبه، وبدت مايا مسرورةً لعدم اضطرارها لوصف الأمر.

- أحسب أنني قد أجبتُ عن سؤالكِ. والآن أودُّ أن أعرف لماذا تركتِ المنزل، لماذا بقيت بعيدًا طوال تلك المدَّة؟ هل كان هذا بسبب حادثة الكُتب؟

حرَّكت مايا يديها ببادرة بتر، ثمَّ أجابت: «انتهى كل شيءٍ في تلك اللحظة».

- في أي سنة كان ذلك؟
- عام 1977. لقد انتظرتُ مدَّة خمس سنواتٍ عمَّا انتظرته أنتَ.
- هذا صحيح. كنتِ تتحلَّين بآمالٍ عالية.

أردفت مايا: «ضربت المجاعة البلاد، ثمَّ جاءت وفاة مجيب الرحمن، ومن بعدها دخول الجيش، بدا وكأن الحرب لم تنشب قط. ولكن حينما أحرق سهيل الكتب، أعني أنه لم يكن شقيقي فحسب. إن الناس يتطلَّعون إليه، كما لو أنهم يعبدونه».

أكَّد جوي حديثها: «وما زالوا يفعلون».

كان مُحقًّا، فأمَّنت مُجيبة: «أجل، لقد رأيتُ هذا بأم عيني».

- ولهذا هربتِ.
- عجزتُ عن التحمُّل. أتريد أن تعرف ما فعلته أنا؟ وماذا كانت الوظائف التي عملتُ بها؟ كنتُ أخضع لتدريب الجرَّاحين، كما تعرف، قبل أن أُغادر المدينة. وفي أحد الأيام، كنتُ أعبر مدينة صغيرة، لا أذكر حتَّى أين تقعِ تحديدًا، المهم، سمعتُ امرأةً تصرخ. كانت المرأة مقرفصةً في مؤخِّرة دُكان خياطة وفي طور المخاض. ساعدتُها في ولادتها، وشعرتُ.. حسنًا، انتابني شعورٌ لم أنعم به منذ وقتٍ طويل، كأنما صرتُ أخيرًا نافعة لفعل شيء. بعدما أنهيتُ التدريب، شرعتُ في العمل بدوامٍ كامل. فافتتحتُ عيادة طبِّيَّة، ودرَّبتُ الدايات على عدم استخدام سكاكين صدئة، وعلى غلي أدواتهن. وأقنعتُ الأزواج بإرسال زوجاتهم إلى المشفى حين تحدث مضاعفات في أثناء الولادة.
- هل دفعكِ هذا إلى التفكير في إنجاب أطفال؟

تململت مايا في مقعدها، ثمَّ أجابت: «لا، ليس تمامًا. أعني أنه يُفترض بي أن أعرف ما.. ما أتوقَّعه، ولكني لا أحسب أن الإنجاب قد كُتِبَ لي. ومع ذلك، كنتُ ماهرةً في عملي».

أنهت مايا عبارتها، وأشارت إلى النادل ثمَّ طلبت فنجانين من الشاي.

- هذا أفضل كثيرًا من تنظيف ملاءات مخضَّبة بالبول لرجلٍ عجوز.
- ثمَّة حظوة وشرف في فعلك هذا. لقد كنتَ ترعاه ليخرج من هذه الحياة كريمًا، وهذا فعلٌ نبيل.

علَّق جوي قائلًا: «ربما يحسب سهيل أنه يفعل الشيء نفسه؛ يُساعد الناس للفوز بالحياة الآخرة. وأظنُّ أنه يشعر بالنُّبل فيما يفعله».

- أتعلم أنني صعدتُ إلى الطابق العلوي وحضرتُ جلساتهم التعليمية حين كانت أمي مريضة؟

مال جوي برأسه جانبًا، واستطرد: «أنا مشدوه!».

- كان... شعرتُ وكأن هذا هو المكان الوحيد في العالم الذي أنبت في قلبي بذرة أملٍ بأنها لن تموت.

مدَّ جوي يده عبر الطاولة، وداعب براجمها ببراجمه. كانت ما تزال قابضة على فنجان الشاي، فحرَّك هو يده وأحاط رُسغها بأصابعه. استشعرت الدموع تنهمر من عينيها مجدَّدًا، فأخذت تُكفكف عبراتها بيدها الحُرَّة، وهي تُعلِّق: «مرَّتين في يومٍ واحد... ربما تحسب أنني أبكي طوال الوقت».

- كلا، بل يُخيَّل لي أنكِ بالكاد تبكين في الأصل.

حينئذٍ أمعنت النظر فيه من كثب، ولاحظت أن إحدى عينيه تكبر قليلًا عن الأخرى، وأن ابتسامته معقوفة. بيد الأمر وكأن أمه قد أحبَّت جانبًا واحدًا من وجهه حبًّا يزيد على الجانب الآخر. حدَّثت نفسها قائلة: «كنتُ لأحب وجهكَ بأكمله، كنتُ لأحب وجهك بأكمله، وأصابعك التسعة والنصف». فوجئت بنفسها تُحدِّق إلى شفتيه. الحقيقة هي أن مرض أمها وما حدث في الأشهر القليلة الماضية قد جعلها تنسى نفسها. تجرَّعت شايها، ونهضت عن كرسيها على نحو مُفاجئ، وهي تقول: «لا بُدَّ أن أرحل».

أصرَّت على سداد قيمة وجبتها، ولمَّا عرض عليها أن يصحبها إلى المنزل، رفضت عرضه، واندفعت إلى داخل عربة ريكاشة، ولم تتطلَّع إلى الوراء إلا بعدما ابتعد سائق الريكاشة، وقد لمحت ذراعه وهو يُلوِّح لها، وحاجباه يرتفعان في ارتباك.

***

تماثلت ريحانة للشفاء. ليس ثمَّة طريقةٌ أخرى لصياغة الأمر. وعلَّق الطبيب ستَّار أن العلاج الكيميائي قد أجدى نفعًا، وأنها في مرحلة التعافي. لقد شربت من ماء زمزم، ولهذا فرَّ السرطان هاربًا من جسدها، كما تهرب الطيور من على شجرةٍ حين تسمع طلقات نارية. وكان سهيل هو الطلقة

النارية المُدوِّية. تماثلت ريحانة للشفاء، وها هي تتجوَّل في الحديقة، وتقتلع الأعشاب الضارَّة من تخوت زهرات عباد الشمس وزهور الداليا. مدَّت يدها بين النباتات، واقتلعتها بعصرةٍ من رسغها، ثمَّ استقامت قامتها، وربتت على بطنها، كأنما تفتقده، كأنما تفتقد كائنًا ما كان بداخلها.

كثيرًا ما تفاجأت مايا بنفسها مُحدِّقةً إلى أمها، متسائلةً عمَّا فعلته لتستحقَّ الفرصة الثانية تلك. عادت إليها حلقات من حياتهما معًا: حيث تركا أمهما في دكَّا وأُخِذت هي وسهيل إلى لاهور، وحين تركا أمهما مرَّة أخرى ليُشاركا في الحرب، وأخيرًا حين كانت غاضبة على سهيل، فانتهى بها الحال متخلِّيةً عن أمها. الرحيل، دومًا الرحيل. الرحيل هو ما فعلته طوال حياتها. حدَّثت نفسها أن تُفكِّر في كل المرَّات التي عادت فيها إلى أمها، وإلى هذا البيت. وتذكَّرت ذلك اليوم، بُعيد الحرب مباشرةً، حين تفاجأت بأمها في غرفة النوم، تشقُّ سريرها إلى نصفين.

كان ذلك في اليوم الذي أعقب انسحاب الجيش. تفاجأت بأمها قابضةً بإحدى يديها على منشار، وباليد الأخرى تُوازن نفسها على السرير. كانت قد لفَّت الطرف الحُر لساريها حول خصرها، وربطت شعرها في عُقدة عالية، وأقدمت على القطع بعزم قوتها.

سألت مايا أمها عمَّا تفعله، لكن الأخيرة تجاهلتها وأخذت تُزمجر وتتحرَّك كأنما تتوقَّف حياتها على ما تفعله. امتلأت الشوارع بأُناس يحتفلون، وأوشكت مايا على الانضمام إليهم. كان بوسعها سماع المذياع ينفجر بالتهليل من نافذة أحد الجيران، وعلى مبعدةٍ منها، تردَّد الهتاف ودوت الألعاب النارية. وقفت مايا وتابعت المشهد، وهي على أتمِّ الاستعداد لترك أمها لِحس التدمير الجنوني ذاك الذي تملَّكها، متلهِفةً أيما لهفة للانضمام إلى حالة الهياج بالخارج.

كانت ريحانة قد قطعت الخشب عند مؤخِّرة السرير، وتوغلت في شقِّ لوح القاعدة. ولمَّا كان الخشب أرفع سمكًا في هذه البقعة، يسَّر هذا من عملها قليلًا، لكن الوضعية كانت غريبة. ثمَّ جاهدت لرفع الإطار بأكمله عموديًّا منتصبًا، حتَّى يتسنَّى لها أن تقطع خشبه على امتداد طوله. تفاجأت مايا بنفسها تُساعد أمها في رفع الإطار، مسندةً إياه إلى الحائط، ممسكةً به لتثبيته وأمها واقفةٌ على كُرسي ومنقضةٌ عليه بكل هيكلها.

قالت الأم وهي تقترب من لوح رأس السرير: «إنني أفعل ما أفعله لأجلكِ». وهبطت عن الكُرسي.

- ماذا؟

توقَّفت ريحانة عن العمل، ومسحت جبينها، ثمَّ قالت: «أحتاجُ إلى بعض الماء».

أجابت مايا وهي تشرح لها كيف تُبقيه ثابتًا: «امسكي بهذا. سأحضر لكِ كأس ماء».

لمَّا عادت مايا، كانت أمها ما تزال واقفةً حيث تركتها، وإحدى يديها على السرير المقلوب، والأخرى في خصرها. أخذت كوب الماء وتجرَّعته عن آخره.

كان السرير محفورًا بالنقوش المزخرفة، مصنوعًا من خشب الساج الثقيل. ظلَّ قابعًا في تلك الحجرة لما تسنَّى لها أن تتذكَّر، وكان واحدًا من هدايا الزفاف القلائل التي تلقَّتها أمها. إرثًا قديمًا كان، ولكن بيد أنها تستمتع أيما استمتاع بتدميره بلا مُبرر.

استغرق الأمر منهما ما يزيد على الساعة لقطع لوح رأس السرير، كان الخشب ثخينًا مقاومًا لما تبذلان من جهد. تبادلتا الأدوار في قطعه بالمنشار، وعلقت بُرادة الخشب الضئيلة بملابسهما، كما تعلق بها حشرات الحقل.

ولمَّا انتهتا، صار النصفان اللذان كانا يومًا سرير ريحانة أشبه بالقواطع المنزلة للسفينة، وحافتيهما تشيران نحو الأعماق. علَّقت ريحانة موضحة أخيرًا: «سيعود سهيل قريبًا، وسيتعيَّن عليكِ مشاركتي في هذه الغرفة مجدَّدًا. وفكَّرتُ في أنه يحسن بكِ أن تحظي بسريركِ الخاصِّ على الأقل».

- نحتاجُ إلى أرجل.

كان ثمَّة القليل من بقايا الخشب في سقيفة الحديقة، خرجت مايا لتجلبها. ولكنهما لا يملكان مسامير ولا غراءً من أي نوع، ولا حتَّى ورق صنفرةٍ لتنعيم الحوافِّ. ورغم أن نشرهما للخشب كان مستقيمًا على نحو معقول، فإنه كان بدائيًّا.

في تلك الليلة، أقامتا سريرهما على أرضية غرفة المعيشة. كان الطقس باردًا، ولا يفصلهما عن الأرض سوى سجَّادةٍ وحيدة، ونسيم ديسمبر يتغلغل في الأرضية الأسمنتية الحمراء.

أطفأتا الأنوار، وتدثرتا بالأغطية وحشرتاها أسفل أقدامهما، ثمَّ قالت ريحانة متسائلة: «سيعود، أليس كذلك؟».

أجابتها مايا: «سيعود».

يحسن به أن يعود. يحسن به أن يكون بخير، وأن يعود إلى الوطن، لقد ضحَّينا بالكثير ولا نقبل بأي نهاية أخرى.

فوَّتت مايا الاحتفالات، لكنها لا تُبالي، فقد كانت أمها تستعدُّ لحياة ما بعد الحرب: أسرَّة جديدة، وغرفة من أجل سهيل. ولما استقرَّت تلك المعرفة في قلبها، غطَّت في نوم هانئ مستشعرةً الارتياح في أحشائها.

***

نامت المرأتان على السرير المنشور إلى نصفين طوال السنوات القليلة التالية، مرورًا بوصول بيا إلى المنزل، وتحوُّل سهيل، وخلال زواجه وانتقاله إلى الطابق العلوي. وبينما كانت مايا غائبة، استأجرت الأم نجَّارًا وأعاد شقَّي السرير إلى وضعهما الأول مرَّة أخرى، وها هو سريرٌ كامل الآن، يخلِّل لوحَ رأسه خطٌّ رفيعٌ فحسب، مرئيًّا للناظر حين يُمعن النظر من كثب، ويُشبه صاعقةً رعدية طويلة مُلتوية.

***

«ثمَّة موضوع أودُّ المشاركة به في العدد القادم. باسمي الخاص».

خرجت هذه الكلمات من فم مايا، وقُبالتها جلس شفاعة محشورًا في كُرسيه.

- بالطبع يا عزيزتي، عن أي موضوعٍ تودِّين الكتابة؟
- عن الحرب...

قاطعها شفاعة قائلًا: «آه، هلا تتلطَّفين يا عزيزتي وتُحضرين لي فنجانًا من الشاي؟ إن حلقي يلتهب ظمأً».

النذل. قرَّرت مايا ألا تُجادل، وشقَّت طريقها إلى منضدة الشاي.. غلت الماء.. أعدت المنقوع.. خبطت الفنجان على المكتب بجانب مرفقه. فلم يرفع عينيه في وجهها.

سألته: «أين أديتي؟».

- في المطبعة. ستُحاول الحصول على سعرٍ أفضل، حتَّى يسعنا طباعة 800 نسخة العدد المقبل.

أنهى كلماته وأخذ ينقر بأصابعه على الآلة الكاتبة.

- كما كنتُ أقول.

توقَّف عمَّا يفعله، ورفع سبَّابتيه في الهواء، ثمَّ استطرد: «تريدين الكتابة باسمكِ الخاص؟ أحسب أن قُرَّاءنا سيُفضِّلون سماع آخر مستجدات خُطب ش. م. حق اللاذعة».

أخذ جرعةً كبيرة من الشاي، ثمَّ سأل: «هل أضفتِ إلى الشاي حليبًا مُكثَّفًا؟».

- حليبًا مكثَّفًا من السُّكَّر. حسبتُ أنكَ تُحبه مُحلًّى.

أجابها: «أجل. ولكني لا أُحب الحليب المُكثَّف. أعدِّي فنجانًا آخر من فضلك. حليبٌ وسُكَّر فحسب». ولمَّا رأى اسوداد وجهها غيظًا، مضى قائلًا: «هلم، لن يستغرق منكِ سوى دقيقة واحدة. إن الكاتب بحاجةٍ إلى فنجان شايه».

وبينما راح يرتشف محاولتها الثانية ويومئ لها في رضا، قالت مايا: «دعت چاهارانا إمام إلى عقد محاكمة.. لجميع مُجرمي الحرب».

حطَّ فنجانه على آلته الكاتبة، واستطرد سائلًا: «ألم تجرِ مناقشة هذا الأمر مرَّاتٍ كثيرة بالفعل؟ يجدر بنا أن نُقيم محاكمة، أنا لا أُنكر ذلك، ولكن فات الأوان الآن يا عزيزتي. فات الأوان».

- لا يفوت الأوان أبدًا على السعي وراء تحقيق العدالة.

- يا عزيزتي، إننا في عام 1985. ألا ترين ما يحدث؟ لدينا مشكلات أكبر. الديكتاتور لن يُقيم انتخاباتٍ عادلة، وعلينا أن نعزله. ثمَّ اتجهي إلى القلق بشأن الأمور الأخرى. تحتاج البلاد إلى المُضي قدمًا، لا الرجوع إلى الخلف.

تفاجأت مايا بنفسها تُفاوضه على مطلبها، وهي تقول: «مقالٌ افتتاحيٌّ صغير فحسب».

لكنه عاد إلى آلته الكاتبة، وأصابعه تنقر على المفاتيح. تساءلت ما إذا يحسن بها أن تهيم على مقربة منه، منتظرةً إياه حتَّى يُنهي ما يفعله، ولكنها

كانت غاضبة آنذاك، غاضبة من أسلوبه الذي جعلها تشعر بأنها امرأةٌ قديمة الطراز، ما تزال متشبِّثة بجراح الحرب. جمعت حاجياتها معًا، واتجهت نحو الباب، حتَّى إنها كادت تصطدم بأديتي في الممرِّ. كانت الأخيرة تحمل عُلبةً باللونين الأزرق والوردي، تلك التي تُميِّز حلويات علاء الدين، ووجها مُخضَّبٌ بحُمرة النصر. قالت أديتي: «مُبارك». وأخذت تفتح العُلبة كاشفةً عن كُريات الكالو جام[1]، ولفائف التشوم تشوم، وقطعةٌ وحيدة كبيرة جدًّا من حلوى اللادو. ثمَّ مضت قائلة: «لن ترحلي الآن، أليس كذلك؟ لا يمكنني تناول هذه الحلوى كلها بمفردي. هل تصدِّقين! حدَّثتُ ذلك الطبَّاع بكلامٍ معسول حتَّى اقتنع بأن يسمح لنا بطباعة 800 نسخة بسعر خمسة».

في تلك الأثناء، بقي شفاعة بعيدًا ينقر على آلته الكاتبة، وهتفت أديتي: «هيا يا مايا. دعينا نحتفظ بهذه العلبة لنفسينا. وسأعدُّ لنا بعض الشاي».

نظَّمت مايا الحلوى على الطاولة إلى جانب آلة اللينوتايب. لطالما أحبَّت الرائحة النفَّاذة هنا، ذاك الدفء الجاف الذي تصنعه الآلة.

علَّقت أديتي، وخداها متورِّدان بالبهجة: «أليس أمرًا مثيرًا؟».

لا بُد أنها استمتعت بالتحدِّي الذي تخوضه للحصول على أي صفقة من الطبَّاع. لا شك أنه تفاجأ لمرأى امرأةٍ ترتدي بنطالًا، وشعرها مضفورًا بعناية على مؤخِّرة رأسها، كما لو أن ضفيرتها هي سحَّابها.

تساءلت أديتي، وهي تقضم قطعةً من اللادو: «ما الأمر؟ هل أنتِ منزعجة من شفاعة؟ أخبريني ماذا فعل، طلب منكِ إعداد شايه، أليس كذلك؟».

أومأت مايا بإيجاب، فأجابت أديتي: «يا له من خنزير!».

أوضحت مايا قائلة: «أردتُ كتابة مقالٍ عن الرضاكار، كما تعلمين، عن ضرورة محاكمتهم».

علقت قطعةٌ صغيرة من اللادو بين شفتي أديتي، وهي تُجيب: «حقًّا؟».

- وشفاعة لا يؤيِّد الأمر.

- تعرفين طبيعته، لا يسعه أن يرى أبعد من إصبعي يده.

وراحت تُقلِّده، فنقرت بإصبعيها في الهواء.

- لكن يجدر به أن يهتمَّ للأمر. إن هؤلاء الناس لم ينسوا شيئًا.

---

(1) Kalo-Jamm.

- لا شك أنهم لم ينسوا. كل هؤلاء الناس الذين فقدوا عزيزًا.

- والنساء.

- والنساء كذلك.

- النساء المُغتصَبات.

سألت أديتي بالبنغالية: «أتقصدين البرانجونا (بطلات الحرب)؟».

- أجل، بطلات الحرب. ولكن وصفنا لهن بالبطلات يُمحي ما حدث حقيقةً لهن. إنهن لم يتطوَّعن إلى ميدان القتال، ويطلبن أن يُمنحن الميداليات. إنهن لسن سوى الخسائر، تذكارات الحرب. ويستأهلن منَّا أن نتذكَّرهن.

- ماذا لو لم يرغبن هن في التذكُّر؟

خلال سنين منفاها، التقت مايا بالكثير من النساء المُغتصَبات. أراد بعضهن الإجهاض، أو جئن من أجل الترقيع، أو يسألنها ببساطة ما إذا كان ثمَّة طريقة تُنظِّف بها أرحامهن ممَّا فيها. لم ترغب أيٌّ منهن أن يكتشف أحدٌ أمرها. لم ترغب أيٌّ منهن أن تتقدَّم بتقريرٍ إلى الشرطة أو تُخبر زوجها أو أباها. ربما أخطأت حين أرادت منهن أن يتكلَّمن. ولكنها عاجزةً عن إخراج صورة بيا من رأسها: بيا جالسةً القرفصاء في الشرفة، والكلمات تحتدم على شفتيها. كانت هي وسهيل قد تآمرا عليها في تلك الليلة، واستطاعا تهدئتها، وأخبراها أن الأمر قد انتهى، وأنها آمنةٌ الآن، لكنهما لم يُتيحا لها فرصةً للحديث. كان تصرفهما نابعًا من عطف قلبيهما، لكنه عطفٌ آل بكل شيءٍ إلى نهايته. أدركت مايا هذا كله بعد سنوات الآن. وما كان أمامها سوى طريقةٍ واحدة لإصلاح الأمر.

دفعت أديتي بما تبقى من قطعة اللادو إلى فمها، ومضت مُضيفة: «حسنًا، تعرفين كيف يسير الأمر. لا أحد يرغب في إثارة هذا كله».

- هذا ليس صحيحًا.

مسحت أديتي يديها في بنطالها الجينز، واستطردت: «اسمعي، إذا كان الأمر مهمًّا لكِ، فسأدخل إليه، وأمطره بالكلام المعسول لإقناعه، حسنًا؟ لا تتطلَّعي بهذه النظرة العابسة، ستحصلين على مقالك. سآخذ إليه هذا الكالو-جام، ولن يقدر على المقاومة».

تتبَّعت مايا أديتي بعينيها، وهي تُبحر إلى داخل الغرفة الأخرى، وعلبة الحلوى تستقر على راحتها، وأدركت مايا مدعاة كل شيء. الحلوى، والتظاهر بالتعاطف مع مايا، والمقال، كان هذا كله ليس سوى فرصةٍ أخرى لاستعطافه ومغازلته، وتحصل على مرادها منه. لم ترغب مايا أن تستجدي شفاعة لشيءٍ بالكلام المعسول. وحدَّثت نفسها أن ثمَّة ريحًا دنيئة تفوح من هذا المكتب، الرائحة العفنة لدخان السجائر، وعطن بقايا الجلود الذي تنفثه المدابغ القريبة. استرجعت تلك الأيام حين كانت هي وسهيل يتسامران حول أُناسٍ مثل أديتي وشفاعة، وأنهم يملكون الأفكار الصحيحة، لكنهم يفتقرون إلى شيء، ربما الجوهر الأخلاقي. استرجعت المحادثات التي كانت تجمعهما حتَّى الساعات الأخيرة من الليل، حتَّى يغفو سهيل ويداه في جيبيه، ورأسه مائلًا إلى الوراء. ثمَّ شعرت بطعنةٍ من الألم، طعنةٍ من الاشتياق إليه.

***

عادة ما تتصوَّر مايا اليوم الأخير الذي قضاه سهيل مرتديًا بنطالًا. لم تكن حاضرةً لتشهده، لكن لا بُدَّ وأن هناك يومًا أخيرًا، يومًا استيقظ فيه صباحًا، وفرَّش أسنانه، وزرَّر قميصه، ودفع بقدميه داخل بنطالٍ. وربما كان بنطاله الجينز العزيز، ذاك الذي منحه إياه صديقٌ لديه قريبٌ في أمريكا، وقد دبَّره خلال مزيجٍ من الالتماسات والرشوة، كما هو الحال مع أسطوانات أغنيات إلفيس، ونسخته من رواية «عشيق الليدي تشارلوت» التي دمَّرها.

تصوَّرت أن شقيقها قد تجوَّل في الأنحاء وساقاه تنتقلان عبر ذلك البنطال. كان ليجلس في عربة الريكاشة، ويُلامس بأصابعه لُحاء الأشجار، ويدس متعلَّقاته في جيوبه ويُفرغ محتوياتها. ثمَّ أتت عليه لحظةٌ في ذلك اليوم الأخير، حين قرَّر أن اليوم هو يوم التجدُّد والتغيُّر والانسلاخ من الجلد القديم؛ يومٌ لهجر الموضات القديمة، وتبنِّي موضات أقدم منها.

هل تنبَّأ بالأمر؟ هل علم به مسبقًا، واستمتع بلحظاته الأخيرة تلك، والقوام الأنيق الذي يذرِّع به الحرم الجامعي، ونظرات الإعجاب من زملائه، واللمحات الماكرة من النساء؟

لا تحسب مايا أنه تنبَّأ بشيء. ربما كان اليوم الأخير محض أحجية في نظره كما هو في نظر الآخرين. ما كان ليصير تغيُّره مُدبَّرًا مُتعمَّدًا، بل نزل على قلبه فجأةً، كما ينزل الوحي على قلوب الأنبياء: أن عليه أن يلبس على

طريقة المؤمنين، وأن مظهره الخارجي لا بُدَّ أن يواكب التغيُّرات التي تحدث لقلبه، وأنه لا يصحُّ أن يُشبه الآخرين في ثيابهم، أن يبدو وكأن بإمكانه حضور الحفلات والجلوس إلى المكتب والاتصاف بالذكاء.

كان ليتخذ قراره في ذلك اليوم، وليكن يومه الأخير. ما كان ليتريَّث في التخلُّص من البناطيل، أو يرغب في ساعاتٍ قليلة أخيرة للاستمتاع بها. وبمُجرَّد أن يعقد النِّيَّة، كان ليستجيب إلى نياته في الحال.

وبعد ذلك:

صار يرتدي جلبابًا أبيض مُنشًّى، ومن أسفله سروالًا فضفاضًا من القطن، وأزرارًا لؤلؤية على ياقته. وتمامًا كيد التبرُّك منقبضة الخنصر والبنصر، لم تُغادر تلك الطاقية رأسه قط. هذا ما كان يرتديه كل يوم بعد يوم البنطال الأخير ذاك.

***

عزمت مايا على أن الأمر خارج عن دائرة النقاش. لو لم يسمح لها شفاعة بكتابة المقال، فسترسله إلى جريدةٍ أخرى. ستُرسله إلى جريدة «أوبزيرفر». وهكذا عادت إلى المنزل وشرعت في الكتابة.

***

اسمي هو ش. م. حق، وأنا هنا لأخبركم بعض الحقائق عن حربنا. ليس منَّا من هو خالي المسؤولية تمامًا -ليس إذا كنَّا نعيش في بلدٍ هي مثالٌ حيٌّ لمَا نناضل ضده- الديكتاتورية، يقودها رجلٌ لا يهتم بشيءٍ في هذا البلد، ويرفض الاعتراف بالمجرمين الذين يعيشون بيننا. إذا تنحَّينا وسمحنا لجرائم الماضي أن تُفلت دون عقاب، فإننا شركاء مُتواطئون في تلك الجرائم. وإذا لم يعقد الديكتاتور محاكمة لمُجرمي الحرب، فهو أيضًا مُجرم حرب.

***

ثم وقَّعت مقالها باسم: «شهرزاد حق مايا».

***

1985

فبراير (شباط)

كان الإيجار الذي دُفع مُقدَّمًا من المستأجر الألماني يعني أنه ما من دخلٍ يأتي من المنزل الكبير طوال ستَّة أشهر. ثمَّ نفدت مدخرات مايا، وهكذا قرَّرت قبول عرض الطبيب ستَّار لوظيفةٍ في مشفى الكلية الطبية. طلب منها الطبيب أن تحضر من أجل مقابلة شخصية. وأشارت اللجنة إلى علاماتها العالية، وخطابات التميُّز التي خطَّتها في الامتحانات النهائية، لكنهم استشعروا الحيرة من سنوات خبرتها في الريف. لماذا تخلَّت عن برنامج الجراحة؟ أجابتهم بأفضل ما استطاعت، وجعلت ظاهر تلك السنين أنفع ممَّا هي عليه. نجحت في إحداث أثرٍ في نفوسهم، وستكون طبيبةً مبتدئة، مرؤوسةً من أطبَّاء آخرين في فصلها، ولكنها بداية. استشعرت مايا خفَّةً في صدرها وهي تمُرُّ عبر المشفى في طريقها للخارج. ستعمل هنا بنظامٍ مُحدَّد، وستتعامل مع المخطَّطات والسجلَّات ووصفات طبِّيَّة مكتوبة، وستترأَّس طلابًا تُملي عليهم الأوامر. لن تتحمَّل المسؤولية الفردية إذا تُوفي أحد المرضى، أو تتعرَّف إلى زوج المريضة وأطفالها الثلاثة الآخرون، وما اضطرُّوا لبيعه لتحمُّل نفقات الرحلة إلى المشفى. كان عالمها يتقلَّص ويتمدَّد: فكَّرت مبتهجةً في زملائها، وسياسات المشفى، والقيل والقال في الأروقة.

كانت هذه أفكارها وهي عائدةٌ إلى الكوخ الصغير في ذلك اليوم. ولمَّا رأت سيارة جوي في الممرِّ، استشعرت وخزًا بسيطًا في أحشائها.

فاحت غرفة المعيشة بأريج العطر. وجلست امرأةٌ ضئيلة البنية في منتصف عُمرها على الأريكة، وأخذت ترتشف الشايَ من الفناجين الجديدة. وجلس جوي إلى جانبها، وهو يملأ طبقه بالبسكويت وحلوى الشوندش. وقُبالتهما، جثمت الأم، ويداها متشابكتان في حجرها، وابتسامة تعلو مُحياها. ولمَّا استشعرت مايا أرجحية مقاطعتها لحدثٍ مهم، نقرت على إطار الباب قبل أن تدخل.

أجابت أمها الطرقات قائلة: «آه! أقبلي يا بنيتي، واجلسي. أُقدِّم لكِ السيدة بشير».

تجنَّبت مايا النظر إلى جوي، وركَّزت بصرها على المرأة التي نهضت عن كُرسيها وجذبتها نحوها في عناقٍ حميم. ثمَّ قالت: «يا فتاتي العزيزة، تسرُّني مقابلتكِ كثيرًا. إنني أعرف شقيقكِ، لكن هذه هي المرَّة الأولى التي أراكِ بها. دعيني أتملَّى في وجهكِ. آه، كم أنتِ جميلة، يا لهاتين العينين الواسعتين. ليستا لطيفتين كعيني شقيقكِ، ولكن لا عليكِ، إننا لا نهتم لهذه الأمور في عائلتنا».

أجابتها مايا، وهي تميل إلى الوراء مبتعدة عنها بقدر ما تستطيع: «مرحبًا!».

همست أمها: «تلمَّسي القدمين تبرُّكًا».

بادرت السيدة بشير قائلة، وهي تُحرِّر مايا من عناقها: «آه، لا حاجة لتلك الشكليات. اجلسي إلى جانبي، لا بُدَّ أنكِ مُتعبة. أخبرني جوي أنكِ طبيبة مشغولة للغاية. ولكِ عقل ورأي مستقلَّان».

قالت جملتها الأخيرة وهي تُلوِّح بذراعيها.

شبَّك جوي ساقيه ثمَّ حلَّهما مجدَّدًا. حاولت مايا في تلك الأثناء أن تلتقي عينيه، لكنه راح يتطلَّع إلى الجانب الآخر.

استأنفت ريحانة الحديث بصوتٍ دافئ دفء الحليب: «مايا، لِمَ لا تُخبرين السيدة بشير بما فعلته اليوم؟ هل تودِّين فنجان شايٍ آخر يا سيدة بشير؟».

أجابت مايا: «عليَّ أن أغسل يدي. لقد عدتُ لتوِّي من المشفى. وما كنتِ لتريدين الإصابة بالسُّلِّ يا خالتي».

رمشت عينا السيدة بشير في ذهولٍ، وابتسمت من بين نظراتها المشدوهة، ثمَّ قالت: «من فضلكِ يا ابنتي، افعلي الآن».

أمام الحوض، ألقت مايا نظرةً خاطفة على نفسها. بدت عيناها صغيرتين مُتعبتين، وصارت ضفيرتها شعثاء. ضربت وجهها بالماء، وأعادت تضفير شعرها.

كان جوي بانتظارها أمام دورة المياه، فسألها: «السُّلُّ؟».

- حسنًا، لقد تفشَّت موجة من الوباء. وأردتُ تحذير والدتك.

في غرفة المعيشة، قُدِّم المزيد من الشاي. وجلست مايا على مبعدةٍ كبيرة من السيدة بشير وحدَّقت إلى السقف. تطلَّعت السيدة بشير في أنحاء الغرفة بترقُّب، فالتقطت عيناها السلة إلى جانب كُرسي مايا. وسألت:

- هل تنسُجين يا مايا؟

- كلا، ليس أنا. (ألم يُخبر جوي هذه المرأة شيئًا؟) إنها تخُصُّ أمي.

أجابت ريحانة: «ما زلتُ مبتدئة. إنه شيءٌ أصنعه بيدي. وفكَّرتُ في أن أبدأ بنسج وشاح».

ارتجف صوتُ السيدة بشير وهي تُردف: «اعتدتُ أن أنسج أيضًا. من أجل زوجي».

لقد وجدتا قاعدة حديث مشتركة. وهكذا قيل لنا: «مايا، لِمَ لا تجلسان أنتِ وجوي في الحديقة لبعض الوقت بينما نتحدَّث نحن الأمهات؟».

في الخارج، حاول جوي أن يأخذ يدها، فاستهجنت فعله.

سألها: «أتودِّين التنزه بالسيارة؟».

- كلا، دعنا نتجوَّل سيرًا. إننا بحاجةٍ إلى شموع، فالكهرباء تنقطع في الليل.

غادر الثنائي المنزل عبر باب المطبخ. وبمُجرَّد أن عبرا الطريق، استدارت إليه مايا متسائلةً: «ماذا يحدث؟».

بحث في جيوبه وأخرج علبة سجائر، ثمَّ أجابها: «لا شيء. لقد أخبرتُ أمي أنني أريد الزواج بكِ، وقالت هي أن الخطوة الملائمة هو أن نأتي لزيارة منزلكِ. وأصرَّت على ذلك».

لقد أراد أن يتزوَّجها. **يتزوَّجها هي!** أُخمِدت موجة البهجة الضئيلة التي طفقت في نفسها من تلقاء نفسها. إن الزواج حُكمٌ مؤبَّد.

استطردت متسائلة: «أتفعل كل ما تمليه عليكَ والدتك؟».

- كلا.

لماذا لم يُخبرها شيئًا عن الأمر مسبقًا.

- وهل فكَّرت في مشورتي أولًا؟

- بالطبع. ولكني حسبتُ أنه من الأفضل أن أستميل خالتي.

- هذا مثيرٌ للشفقة.

أخذ جوي نفسًا عميقًا حادًّا، وقال: «اسمعي، لم أَحُكْ مؤامرة في هذا الموقف».

- إن الأمر مثيرٌ للشفقة، وأنتَ تحاول إشعاري بالذنب فحسب. تعلم جيدًا كم ترغب أمي في زواجي، وأنتَ تستغلُّ هذه المعرفة ضدِّي. إنها تحتضر كما تعرف.

- ظننتُ أنها في مرحلة التعافي.

- حسنًا، ما هي إلا مسألة وقت. ألم تعلم أنني فكرتُ في منحها بعض السكينة بالزواج والأطفال؟

أجاب متسائلًا: «حسبتُ أنكِ لا تريدين إنجاب أطفال».

- هذا ليس بيت القصيد. بل المقصد هو أنني لم أمنحها أي شيءٍ على الإطلاق.

لو أقدمت على الزواج، أيكون من أجل نفسها أم من أجل أمها؟ ربما لن تعرف الجواب مطلقًا.

- حسنًا إذن، كل هذه أسباب تستدعي ألا تؤجِّلي الزواج.

- أنتَ لا تهتم إن كنتُ أحبك أم لا، بل تريد استغلال موقفي فحسب؟

كانا قد وصلا بسيرهما إلى الحديقة الآن، حيث ينعطف الطريق. استدارت مايا، وسارت قاصدةً زمرة الدكاكين الصغيرة عند منعطف الطريق.

- مايا، من فضلك، أعلم أنكِ لا تقصدين ما قلتِه. لماذا تتحدَّثين دومًا بهذا الأسلوب؟

- لأنني امرأةٌ قاسية القلب، هذا هو السبب. لا يجدر بكَ أن ترغب... بل لا يجدر بكَ أن تُفكِّر حتَّى في الزواج بي.

- لكنني فكَّرتُ في الزواج بكِ، لا أستطيع منع نفسي.

- حسنًا، وأنا أيضًا لا يمكنني منع نفسي. لا يمكنك الزواج بي. لا يمكنك الزواج بي وتحويلي إلى واحدة من هؤلاء النساء، اللائي يرتدين الحُلي ويصنعن فطائر بارثا مُتقنة الاستدارة، ويفعلن كل ما يقلنه حمواتهن، ولا يسمحن إلا للكلمات اللطيفة تخرج من أفواههن.

- فكِّري في الكلمات اللطيفة كلها التي احتفظتِ بها في قلبكِ. بما أنكِ استنفدتِ الكلمات البغيضة كلها.

- لا تمزح.

نفض سيجارته بعيدًا وتوقَّف أمامها. كانا قد وصلا متتابعين إلى الدكان: متجر صغير ذو إضاءة خافتة أحدثها مصباح إعصار. تعرَّف عليها بائع الدكان، وأشار إليها، حين أخذ جوي يقول: «لا أمزح. أريد الزواج بكِ».

- لا يمكنك. اذهب الآن، عليَّ شراء الشموع.

وسارت مبتعدةً عنه حتَّى وصلت إلى طاولة البيع، وطلبت الشموع. سمعت وقع خطواته يبتعد، فتباطأت وابتاعت الزيت والصابون والبيض، وأنَّبت نفسها على استراق وقع خطواته، وعلى ما خالجها من أمل أن يعود، ويستجديها مرَّة أخرى.

حين وصلت إلى المنزل، كان هو متكئًا على غطاء المُحرِّك.

- قُد السيارة.

قالت كلماتها ودفعت بنفسها إلى مقعد الراكب. آثر جوي التمهُّل، وأبدى قدرًا كبيرًا من اللامبالاة، وهو يتراجع بسيارته إلى خارج الممرِّ. ألصقت مايا وجهها بالنافذة، فخرجت أنفاسها شديدة حامية كلهيب التنانين.

سألها: «إلى أين تودِّين الذهاب؟».

كانت إحدى يديه على عجلة القيادة، ومرفقه الآخر بارزًا إلى خارج النافذة؛ وضعية جسدٍ من شأنها أن تجعل الدماء تحتقن في أذنيها.

- قُد فحسب. لا أبالي.

ثمَّ حدَّثت نفسها: «لا تبكي. ستبدين حمقاء إن بكيتِ».

وعلَّقت بصوتٍ مسموع: «كان بإمكانك أن تسألني بنفسك كما تعلم».

- وددتُ أن أستميل أمكِ إلى جانبي أولًا.

- إنها في جانبك. الجميع في جانبك.

أجابها قائلًا: «ليس ثمَّة جوانب».

- لقد قلتَ لتوِّك أن ثمَّة جوانب.

- لا جوانب، لا انحياز.

- هل تُحبني حتَّى؟

تحوَّل إلى السرعة القصوى، مسترخيةً يده على ترس السرعات، خفيفةً سيارته على الطريق بخفَّة عسل الغابة.

- إذن أنتَ لا تُحبني حتَّى.

- هل تُضمرين عداءً للزواج؟

التفتت لتواجهه، ثمَّ سألته: «كم عُمري؟».

- لا أدري. ستَّة وعشرون؟

- بل اثنان وثلاثون عامًا لعينة. أتحسب أني سأكون في الثانية والثلاثين اللعينة تلك بلا زوج لو لم تكن لديَّ مشكلة مع الزواج؟

- ها أنا أرى أنها مسألة تتعلَّق بالعثور على الرجل المناسب.

- لا يوجد شيءٌ كهذا.

- أتقصدين الرجل المناسب؟

أجابته: «تبدأ أمور الرجال دومًا على ما يرام، ثمَّ بعد ذلك، وعلى مسار حياتهما معًا، تتحوَّل الأنا لديهم إلى زجاج رقيق، وحينها يتحتَّم على المرأة قضاء حياتها بأكملها وذراعاها حولهم، لتشعرهم بأنهم في أفضل حال، في حين أنَّ حياتها هي تستحيل إلى خراء».

وضربت بقبضتها لوح القيادة.

- هل الأمر يتعلَّق بشفاعة؟

- شفاعة، ماذا؟ آه، أنتَ غيران الآن. هذا تمامًا ما قصدته. الأنا في رقة قشر البيض. وتوقَّف عن الابتسام، اللعنة، هذا ليس أمرًا مضحكًا.

قال بهدوءٍ ورقة تُشبه المارشملو: «تلدغ مثل النحلة».

صارا الآن بالقرب من البالطان، فانحنت متطلِّعةً من السيارة لترى ميدان «بالطان ميدان»، تلك الساحة الشاسعة المفتوحة التي تعرفها جيدًا. انعطفت السيارة فرأت مايا لافتةً مُنارة بأضواء ساطعة. ضربت النافذة بقبضتها هي الأخرى، وهي تصيح: «توقَّف هنا... توقَّف. أوقف السيارة».

كبح الفرامل، فاهتزَّت السيارة، وهو يسألها: «ماذا هناك؟».

جذبت الباب بشدَّة فانفتح عن آخره وقفزت إلى خارج السيارة. قالت مستفهمة: «ما هذا؟».

كان الظلام حالكًا، وبدا من العسير رؤية ما هو أبعد من البوابة، لكنها لمحت ما بدا لها أشبه بأرجوحة ملاهٍ دوَّارة، ومن ورائها حيوانات بلاستيكية ذات وجوهٍ بشرية أخبرتها أن ما تشهده هو فناء لعب، فناءُ لعبٍ للأطفال. ثمَّ قرأت اللافتة «شيشو بارك».

صرخت مايا: «شيشو بارك! (قبضت على البوابة وأخذت تجذبها) أكنتَ تعرف؟».

أمكنها أن ترى جوي يترجَّل من سيارته ويتجه نحوها. لا بُدَّ أنه يعرف سبب بكائها الآن، وصفعاتها على البوابة. فسألته: «مَن فعل هذا؟ مَن فعل هذا؟».

وقف جوي على بُعد أقدامٍ قليلة منها، وأخذ يُدخِّن سيجارته. وهو يُجيبها: «لا أدري».

في بداية الأمر، فكَّرت في الجلوس هناك، هناك تمامًا أمام البوابة، تنتظر أحدهم ليأتي ويشرح لها لماذا تحوَّل ميدان «بالطان ميدان» إلى حديقة ملاهٍ. سارت بأصابعها على القضبان الحديدية، وفي تلك الأثناء، أنهى جوي سيجارته، وأقبل من خلفها ثمَّ أحاطها بذراعيه. ثمَّ عاد بها إلى السيارة، وفتح الباب من أجلها قبل أن يستقلَّ كُرسي السائق ويُشغِّل المحرِّك. وفي أثناء ما كانت السيارة تنعطف بهما، مسحت مايا وجهها بطرف ساريها. وعاودت الحديث: «إنه مُجرَّد مكان، مُجرَّد ساحة مفتوحة. كان بإمكانهم فعل أي شيءٍ بها، كان بإمكانهم تركها على حالها».

أخذت تتخيل في تلك اللحظة، ساحة اللعب، وما ستكون عليه في وضح النهار؛ تتبعثر فيه أقماعٌ صُنعت من ورق الجرائد لتحوي المُكسَّرات المُحمَّصة، والحبَّات الصغيرة للأرز المنفوش وزيت الخردل عالقٌ بها، وشرائط الساتان

التي تسقط من ضفائر الفتيات الصغيرة وهن يركضن من مصدَّات السيارات إلى الأرجوحة الدوَّارة، ويصحن في آبائهن ليُمسكن بأيديهن، وأشرطة الأحذية المتراخية، وقطع من شوكولاتة ميمي، وأغلفة البسكويت السكري الوردية. ساحةُ لعب. ميدان «بالطان ميدان»، أقدسُ الأماكن في البلاد بأكملها، المكان الذي ألقى به مُجيب الرحمن خُطبه كلها، المكان الذي استسلم فيه الجيش الباكستاني، والمكان الذي عاد هو إليه بعد تسعة أشهرٍ من النفي، وشرع بناء البلاد مجدَّدًا، يمسح دموع عينيه بمحرمة قماشية، لوَّح بها آنذاك إلى الحشود، آلافٌ والآف من الناس، كأنما كان يقول: لقد أتيتُ في كنف السلام، أنا أبوكم جميعًا.

هناك انتصروا في حربهم، ولو دام شعورهم هنيهة فحسب. أما الآن، يندثر تاريخهم أسفل أقماع المكسرات ورائحة غزل البنات.

***

أوقف جوي السيارة مجدَّدًا عند قارعة الطريق. ثمَّ حلَّ حزام أمانه، والتفت ليُواجهها. وعلى بُعد أقدام قليلة منهما، أُقيم كُشك سجائر رخيصة على جانب الطريق. غطَّ الرجل وراء الكشك في النوم، وكاحليه متشابكين، وذراعه تُغطِّي عينيه. أجهشت بالبكاء مجدَّدًا. الجميع يمرُّون بالحديقة كل يوم، ويشترون التذاكر ويدلفون إلى الداخل ويقضون وقتًا ممتعًا. بيد أن الغضب لم يتملَّك أحدًا غيرها.

أزاح جوي أصابعها عن وجهها، وقال: «لا بأس. المرَّة الأولى التي رأيتُ فيها الميدان، بكيتُ أيضًا».

ثمَّ مال مقتربًا منها. كان يفوحُ برائحة الليمون، فاستشعرت تأجُّج حواسها. أحاطت بيدها مؤخِّرة عنقه، وجذبته نحوها. ثمَّ استسلمت شفتاها. كان يقول شيئًا، لكنها عجزت عن سماعه. جذبته نحوها مُقرِّبةً إياه، حتَّى صار فمها يحكُّ خده. فوجدته ناعمًا، به مسحةٌ من زغب. أملس خشن. مرطِّب ما بعد الحلاقة بالليمون. استنشقت عبيره الحامض. وأمكنها سماعه في تلك اللحظة، لحظة التقاء شفتيه بأذنها.

قال: «دعيني أُخبركِ شيئًا عن الحب. لقد قطعوا إصبعي بساطور، أكنتِ تعلمين ذلك؟ لا أدري من أين حصلوا عليه، من أين حصلوا على سكِّين كبيرٍ ثقيل كهذا. ربما تحصَّلوه من جزارٍ أو ما شابه. ولكن أتعلمين ما كنتُ أُفكِّر

فيه حين فعلوا بي ذلك؟ كنتُ أُفكِّر في كل من أعرفهم، وكنتِ الوحيدة من بينهم التي لن تأبه لما فقدتُ. ولمَّا عدتُ إلى بيتي ووجدتُ أمي ترتدي ساريًا أبيض، أدركتُ أنك ستتفهمين ذلك أيضًا، لأنكِ عايشتِ ذكرى والدٍ مُتوفٍ طوال كل تلك السنين. لأنني أحببتكِ طيلة هذا الوقت».

انسحب من بين ذراعيها، وبدا جادًّا الآن، وهو يحتضن كتفيها بيديها ويُكرِّر: «طيلة هذا الوقت».

همست مايا: «عِدني».

- أعدكِ بأي شيء.

- عِدني بأنكَ لن تطلب منِّي النسيان. نسيان كينونتنا.

- أعدكِ.

أحكم قبضةً حول يديها. شكرًا لك. ثمَّ وضعها على جبهته. شكرًا لك.

***

شعرت مايا بهزَّة عنيفة من أحدهم.

- أختاه، أختاه.

كانت امرأةً تقف عند نهاية سريرها، تُشير بذراعين مُقفَّزتين، كفنانٍ صامت.

- مَن أنت؟

- أنا شقيقة رقية. اعذريني على إيقاظك بتلك الطريقة، ولكنها طلبت منِّي الإتيان بكِ. إنها تعاني ألمًا عصيبًا.

- اذهبي أنتِ، سألاقيكِ في الطابق العلوي.

- ليست في الطابق العلوي. إنها معنا في المنزل. أسرعي، عربة الريكاشة بانتظارنا.

ارتدت مايا بدلةً سلوار قميص مُجعَّدة، وحشرت قدميها في زوجين من النعال، وركضت عبر الباب الخلفي، مارةً بالقرب من صوفيا، التي اعتادت النوم إلى جانب الفرن حين تصير الليالي أكثر برودة.

وفي عربة الريكاشة، أخذت مايا تتفحَّص وجه شقيقة رقية. ثمَّ سألتها: «هل رأيتكِ من قبل؟ أنت لم تنضمِّي إلى الجماعة في الطابق العلوي؟».

اتجهت العربة إلى جانب الشمالي من المدينة، وسائق الريكاشة يُبدِّل بعجلته مسرعًا عبر الشوارع الخالية، وسيجارة رخيصة تتدلَّى من طرف شفتيه.

أجابت الفتاة: «أتيتُ مرَّة واحدة، ولم أرغب بالبقاء. وكانت خديجة غاضبة لأن رقية لم تُحضر بقيَّة العائلة».

كانت الفتاة مُغطَّاةً من رأسها حتَّى أخمص قدميها، وقصاصةٌ صغيرة من قماشٍ شفَّافٍ يُشبه لوح زجاجٍ متسخ، ترى العالم من خلالها. رفعت الفتاة قطعة القماش الشفاف وأظهرت وجهها، فسطع لمعانه في الظُّلمة، وجهًا شاحبًا مُتقن الخِلقة. ثمَّ مضت مضيفة: «خديجة، أو أيًّا كان ما تُسمي به نفسها، هي امرأةٌ متحجِّرة القلب».

سألت مايا: «ألا تُعجبكِ خُطبها؟».

وفكَّرت في الوجوه البهيجة للفتيات الأخريات، والطريقة التي أخذن يضربن الهواء أمام خديجة لتهويتها بأفواه فاغرة وأنفاسٍ متفانية.

- إنها تؤمن بكل كلمةٍ تنطق بها. هذا أمرٌ حسن، ولكن لا يسعني اتباع أحدٍ كما تتبع البغال أصحابها.

أجابتها مايا متسائلة: «إذن لماذا ترتدين هكذا؟».

- أتظنِّين أن بإمكاني المجيء للإتيان بكِ في منتصف الليل بأي ملابس أخرى؟

فكَّرت مايا في الأمر هنيهة. فتاةٌ كهذه، ربما ما كانت لتجرؤ على الخروج أبدًا لو لم تخرج متخفِّيةً أسفل عباءتها. أثار الجواب العمليُّ دهشتها. وبعد هنيهة، شدَّت على يد الفتاة وسألت: «كم مضى من الوقت منذ أن بدأ المخاض؟».

- ساعات قليلة. رفضت الذهاب إلى المشفى. كانت شبه جائعة حين عادت إلينا، وحسبنا أنها لن تنجو منها.

- ماذا حدث؟

- لا تقول شيئًا. أظنُّ أنها مُعاقبة على شيء.

تذكَّرت مايا رؤية رقية مرتين، راكعةً في الخارج تحت أشعة الشمس. لماذا لم تنطق بشيء؟ كانت مايا قد تصوَّرت أن رقية تفعل الأمر بإرادتها

الحرَّة، واعتبرته من بين تلك الطقوس الأخرى الغريبة التي يأتي بها سكان الطابق العلوي. والآن يوخزها شعورٌ بالذنب. فأردفت: «أنا آسفة، لم يكن لديَّ فكرة».

قالت الفتاة لسائق الريكاشة: «توقَّف هنا».

ثمَّ أضافت مُوجهةً حديثها إلى مايا: «سنسير بقيَّة الطريق».

كانت الفتاة قد أحضرت مصباحًا، وشقتا طريقهما عبر شارعٍ ضيِّق، يؤدِّي إلى منزلٍ صغير بستارةٍ مُنسدلة على فتحة الباب. كانت ثمَّة غرفةٌ أمامية، وأخرى خلفية، وفي مكانٍ ما بمؤخِّرة المنزل، يقع مطبخٌ ربما يتشاركونه مع الجيران.

ألقى والد رقية نظرةً خاطفة على مايا، وغضَّ عينيه عنها في تهذيب، ثمَّ قال بصوتٍ أجش: «سبحان الله. من فضلك، إنها بانتظارِك».

كانت رقية تكتم أنفاسها من شدَّة الألم، ولمَّا رأت مايا، أغلقت عينيها عن آخرهما، وقالت «كنتُ أعلم أنكِ ستأتين».

غسلت مايا يديها في إناء ماء، وتحسَّست بطن رقية. ثمَّ طلبت منها أن تتنفَّس بينما راحت مايا تفحصها. أجفلت رقية حين غمست مايا ذراعها عميقًا إلى داخل فرجها لتقيس مدى اتساع عُنق رحمها.

بعد هنيهة، قالت مايا وقد تلبَّس صوتها النبرات المُطمئنة التي تحتفظ بها من أجل النساء في مخاضهن: «استرخي الآن».

أسبرت داخلها بأصابع خفيفة، للوصول إلى القمة اللينة لرأس الطفل. وبدلًا من ذلك، لامست أصابعها مؤخِّرته. إنه طفلٌ مقعدي. كان حريٌّ بهم الذهاب بها إلى المشفى، ولكن فات الأوان الآن على ذلك، لقد تقدَّم مخاضها تقدُّمًا ملحوظًا. كانت مايا قد ولَّدت أطفالًا مقعديين من قبل، ولكن الأمر غاية في الخطورة، أضف إلى أنه يُبطئ من عملية الولادة. وماذا عن زوج رقية، أين هو؟ يبدو أنه لا أثر له. من الأفضل لها ألا تسأل، ليس الآن. أنهت مايا أفكارها، وقالت: «رقية، استمعي إليَّ. افتحي عينيكِ».

ارتجف جفنا رقية فانفرجا.

- إن وضعية طفلكِ مقلوبة. هل تسمعينني؟ أومئي لي إن كنتِ تفهمين. لقد فات الأوان على فعل أي شيء، وعليكِ أن تلدي هكذا. لا تقلقي، رأيتُ حالاتٍ كهذه من قبل. ستكون ولادة بطيئة، وستكون مؤلمة. أتفهمين؟

سيخرج الجزء السفلي من الطفل أولًا، ثمَّ الساقين. لن يسعها المساعدة في شيء؛ لو وضعت يديها على الطفل، ربما تُمدِّد ذراعيه ويعلقان في قناة الولادة.

أومأت رقية بإيجاب، واعتصرت عينيها مغلقةً إياهما مجدَّدًا.

لمَّا حان الوقت، جذبتها مايا وأقعدتها القرفصاء. ثمَّ قالت: «في نوبة الألم القادمة، ادفعي، اتفقنا؟ ادفعي بأقصى ما تستطيعين».

مع كل نوبة انقباضات، كانت رقية تُنكِّس رأسها وتزمجر، زمجرةً خافتة، أخفت ممَّا سمعته مايا من امرأةٍ مطلقًا. همست مايا بوابلٍ من كلمات التشجيع، عدا أن الفتاة بدت لا تسمع شيئًا، بل لا تفعل شيئًا عدا التنفُّس بصعوبةٍ خلال أنفها، وتشبيك يديها معًا حتَّى استحالت قبضتيها إلى بياض.

راحت شقيقتها تأتي وترحل، تغلي الماء من أجل رقية، وتحتضن رأسها. صارت الانقباضات أسرع الآن، ولكن دون أي مساعدة، لا ينزل الطفل من رحم أمه إلا بضعة ملليمتراتٍ فحسب في المرَّة الواحدة. مرَّت ساعة.. تلتها أخرى. ورقية تتهاوى على ظهرها، وهي تقول: «لا أستطيع. لا أستطيع فعل المزيد».

أمعنت مايا النظر فيما بين ساقي رقية، وأجابت: «لم يبقَ سوى القليل الآن، دقائق قليلة أخرى فحسب. يمكنني أن أشعر بخروجه».

هزَّت رقية رأسها في عصبية، وهمست: «لا أستطيع».

- عليكِ التحمُّل.. ما مِن طريقة أخرى.

حاولت مايا جذبها لتنهض مجدَّدًا، ولكنها سقطت مرَّة أخرى على المرتبة المطوية، تهزُّ رأسها في عنف. ثمَّ جاءت صرختها وحَملُ الطفل ينوء بها، جؤارًا خافتًا تحفُّه ظلمة الكآبة. فقالت مايا: «هيا الآن، الطفل يريد الخروج، يمكنكِ الشعور بهذا، أعرف أن بإمكانك الشعور به».

كانت رقية موغلةً في إرهاقٍ عجزت معه عن الحركة، فصعدت مايا من ورائها ودفعتها إلى وضعية الجلوس. ثمَّ جلست القرفصاء من خلفها، وأمسكت

بها من أسفل ذراعيها. قرَّبت مايا فمها من أذن الفتاة، وقالت: «أتعلمين؟ إنها فتاة. تأكَّدتُ من ذلك في أثناء الفحص. هذه هي فتاتكِ الصغيرة. أتعلمين كم هو صعبٌ أن تكوني فتاة صغيرة في هذا العالم؟ ألا تريدين لها أن تعرف أنكِ تُحبينها، الآن، وقبل حتَّى أن تأتي إلى هذا العالم؟ أخبريها. أخبريها الآن. ادفعي».

قبضت مايا على رقية بقوَّةٍ وهي تدفع، بيد أن قوتها قد عادت إليها والطفل يشقُّ طريقه إلى الأسفل. ثمَّ رأت مايا ساقي الطفل. ومع الدفعة التالية، خرج الجذع والكتفان. والآن مع تحرُّر الذراعين، أخذت مايا تجذب الطفل برفقٍ، وهي تُمسِك بالرقبة في موضعها. وقالت: «دفعةٌ أخرى فحسب». ولكن بيد أن رقية قد استعادت سيطرتها الكاملة الآن، وجسدها يُنظِّم كل نفسٍ يخرج منها. بدأ ذقن الطفل في البروز، ثمَّ أرنبة أنفه، ثمَّ عيناه المغطَّاتان بالصفرة والخضرة، بقايا عالمه القديم. رفعت مايا الطفلة لأعلى، كانت ذراعاها وساقاها متراخين على كلا الجانبين بينما راحت مايا تفرك الصدر الصغير، بانتظار صرختها الأولى، ثمَّ أتت، عاليةً ضخمة قوية. وقبل أن تضعها بين ذراعي أمها، همست، كما كانت تفعل في الولادات الأخرى كلها: «**مرحبًا أيتها البرمائية الصغيرة**». كان على أحدهم أن يُسلِّم بغرابة تلك الروح عن هذا العالم، والمسافة التي تجاوزتها، وملايين السنين التي قطعتها، حتَّى تصير هنا.

لقد شهدت ولادة الكثير من هذه المخلوقات، وأمسكت بأيديهم وهم يُغادرون المشهد البحري، ويصلون إلى الشاطئ، ولكنها لم تسمح لنفسها قط بالتفكير في أنه قد يكون يومًا مشهدها الخاص، مشهد انبثاق الحياة في هذا المخلوق. والآن، وفي تلك اللحظة الهادئة التي تلت خضم الأحداث، سمحت مايا لنفسها بشيءٍ من الخيال. شيء يخصها وحدها. فكَّرت في جوي، والطفل الذي قد يُرزقان به، مخلوقٌ صغير غريب سيكون لها تلك المرَّة، لها وحدها.

***

لُفَّت الطفلة في وشاحٍ، ثمَّ سُلِّمت إلى العائلة، بينما عادت مايا لتولي رقية عنايتها. أمسكت بإبرةٍ ووضعتها أمام لهب الكيروسين، ثمَّ أولجت بها خيطًا. وقالت لرقية: «ستتألَّمين مجدَّدًا. أنا آسفة».

عضت رقية على شفتها، وقالت وقبضتاها تتكوران على الفُرش: «عليَّ أن أُخبركِ شيئًا».

- الآن؟

فأجابت رقية: «أجل، يجب أن أُخبركِ الآن. إن الأمر يتعلَّق بالصبي».

أوشكت مايا على الإتيان بغرزةٍ أخرى، لكنها تماسكت وسألت: «زيد؟».

- هل تعلمين أنه هرب من المدرسة؟

أبقت مايا تركيزها على أصابعها، تصل شفتي الجرح ببعضهما، وتغرز الإبرة، ثمَّ ترفعها، لتُغلق الجرح. ثمَّ سألت: «هل هرب؟».

- حينما كانت أمكِ في المشفى.

إذن، كذب عليها. كم كانت حمقاء ألا تستشفَّ شيئًا كهذا. سألت مايا: «هل رأيته؟».

- لبضع دقائق فحسب، ثمَّ وجدته الأخت خديجة. سألته لماذا هرب. فقال إنه هرب لأن المدرسة وحضرة الشيخ كانوا يُجبرونه على الاضطجاع. ماذا كان يقصد بحديثه يا أخت مايا؟ لأنني رحتُ أُفكر وأُفكر في الأمر، ولا يمكن أن يعني هذا سوى معنًى واحد حقًّا. معنًى واحد فحسب.

خُيل لمايا فجأةً أن رقية قد اختزلت هواء الغرفة بأكملها في رئتيها. قبل أن تسأل: «أأنتِ واثقة أن هذا ما قاله؟».

- أعلم أن الصبي يكذب. ولكني صدَّقته.

لا يعني هذا سوى معنًى واحد. استنفدت مايا كل ذرةٍ في كيانها لتُنهي خياطة مزق رقية، وإعطائها التعليمات عن كيفية العناية بالجرح، ثمَّ تسلَّلت بهدوءٍ إلى خارج الغرفة، مفتعلةً الأعذار للعائلة، ثمَّ قفزت في أول عربة ريكاشة عثرت عليها، والفجر يبزغ بخيوطه في الأفق، والسماء ما تزال في ثيابها السوداء المُظلمة مُرصَّعةً بالنجوم.

***

1977

نوفمبر (كانون الثاني)

كان سهيل يتخلَّص من كتبه، رأته مايا وهو يضعها في الصناديق ويصنِّفها حسب الترتيب الأبجدي ويمسح الغبار عن أغلفتها. لكن ما أثار غضبها هو طريقته العطوفة في فعل ذلك، إذ كان يضع أوراق الصحف داخل الصناديق ثمَّ يرتب الكتب بلطف بداخلها. تراءى لها الصراع الذي نشب بداخله، وجعله يحني رأسه وهو يمرِّر يده فوق أحد العناوين على غلاف كتاب. يفتح الكتاب ويقرأ صفحة منه، تُلامس أنامله كلمة إبسن[1]، ربما يفكر بهيدا أو نورا[2]، ثمَّ يغلق كل مجلَّد بعنف. هؤلاء النسوة من عصرٍ مختلف، ومن عالمٍ مختلف، قد صرن محرَّماتٍ عليه الآن.

---

(1) هنريك إيبسن: كاتب مسرحيات نرويجي، يلقب بـ«أبي المسرح الحديث»، ويعد من أهم كُتَّاب المسرح على مرِّ التاريخ، كان ينتمي إلى التيار الواقعي وهو من أهم العاملين على ظهور الدراما الواقعية المعاصرة. من أهم أعماله: «بيت الدمية»، «البطة البرية»، و«هيدا جابلر». (المترجمة).

(2) بطلتا مسرحتي «هيدا جابلر» و«بيت الدمية» (المترجمة).

حينها قرَّرت مواجهته، واقفة عند باب غرفته، والكتبُ مكوَّمة عند قدميه مثل صيدٍ وفيرٍ من سمك. كانت تعرف الجواب، لطالما عرفته منذ البداية، ذلك التغير في ملابسه والغبار فوق جيتاره.

بادرت تقول إنها سيلفي.. أعلم أنها سيلفي هي السبب.

- إنها زوجتي، لا يحقُّ لكِ الحديث عنها بهذه الطريقة.

- إذن، هذه فكرتكَ أنت؟

أجابها وهو يمسك بمجلَّدٍ لريلكه[1] ويلوِّح به أمام وجهها: «إنه اختياري».

لم يكن جمع كل هذا القدر من الكتب بالأمر الهين. كان يبحث عنها في كل أرجاء السوق الجديدة، ويجلس على الكراسي خارج محلات الكتب، مطأطئ الرأس فوق الكتب المكسوَّة بالغبار وخيوط العناكب التي ملأت زواياها بحثًا عن الكتب التي ادَّعى الباعة عدم توفُّرها لديهم. لورانس[2]، فيتزجيرالد[3]. **الحرف القرمزي**[4]، كان يحبُّ البطلات المنبوذات: ليلي بارت وهيستر براين ومول فلاندرز. أما مجلَّد ريلكه، فقد علمت أنه سرقه من مكتبة الجامعة. كأن الكتاب قد التصق به وطالب بالعودة معه إلى المنزل، مدسوسًا في حقيبة الظهر المخصَّصة للجنود الفتيان، مُبلَّلًا بالمطر، وبالرياح الموسمية المثقلة بالمطر. قرأه على الضوء البرتقالي الخافت لمصباح الكيروسين، وعلى ضوء

---

(1) راينر ماريا رايلكه: شاعر نمساوي، ينتمي إلى الحركة البوهيمية والرومانسية والحداثية، ويعد واحدًا من أكثر شعراء الألمانية تميزًا. ركَّز في شعره على صعوبة التواصل في عصر الكفر والعزلة والقلق. من أهم أعماله «مرثيات دوينو» و«رسائل إلى شاعر شاب». (المترجمة).

(2) ديفيد هربرت لورانس: أحد أهم الأدباء البريطانيين في القرن العشرين، كتب الروايات الطويلة والقصص القصيرة والمسرحيات والقصائد الشعرية والكتابات النقدية. من أشهر أعماله «عشيق الليدي تشاترلي». (المترجمة).

(3) فرنسيس سكوت كي فيتزجيرالد: مؤلف أمريكي للروايات والقصص القصيرة ويعد أحد أعظم الكتاب الأمريكيين في القرن العشرين. من أشهر أعماله «جاتسبي العظيم». (المترجمة).

(4) الحرف القرمزي: رواية لناثانيال هاوثورن، تدور أحداثها في القرن السابع عشر في مدينة بوسطن المتزمتة. وتحكي قصة هستر براين التي أنجبت بعدما ارتكبت خطيئة الزنا، ثمَّ تتوب وتحاول أن تعيش حياة كريمة. (المترجمة).

الشموع الأصفر والذهبي، وبين وجباته من الخبز الأسمر وكاري الموز الأخضر. الضوء البرتقالي والأصفر والذهبي والموز الأخضر. هذا ما كان يلوِّح به في وجهها الآن، إحدى زوايا المجلَّد المسروق، المجلد الذي يوشك أن يُحبس في صندوقٍ مظلم، حيث لن يلمسه الجندي مجدَّدًا، ولن تعلق كلماته في حنجرته وهو يقرؤها جهرًا، لأن حبه الجديد لا يسمح له سوى بشاعرٍ واحدٍ فحسب.

- لا علاقة لها بالأمر.

- إذن صار لديك موقف مفاجئ ضد الكتب؟

- لا بُدَّ أن يكون هناك حدٌّ يا مايا.

- وأنا أتفق معك، يجب أن يكون هناك حد، ألم تلتحق بالقتال لهذا السبب؟

أجابها:

- لم تكن هناك أي فائدة من ذلك، أليس كذلك؟

- أعلم أن هذا هو شعورك الآن، لكن هذا الشعور لن يدوم إلى الأبد.

- لا يُهِمُّ، توجد حياةٌ أخرى بعد هذه الدنيا.

وضع مجلَّد ريلكه في الصندوق، ثمَّ أمسك بمجلَّد آخر من على الرفِّ وألقاه بجواره.

قالت مايا:

- أريد التحدُّث عن الحرب، أنت لم تخبرني أيَّ شيءٍ عنها.

- ماذا عساي أن أخبرك؟ قاتلنا وانتصرنا. ولم يُحدِث ذلك أي فارق في النهاية.

حطَّ عنه طاقيته واعتصرها بين يديه. كان شعره قصيرًا للغاية، وبدا جنديًّا للمرَّة الأولى، كما لم يبدُ يومًا في الحرب.

أدركت أنه قد يرحل عنها في أي لحظة. سيرحل إلى الأبد. ماذا عساها أن تقول لتبقيه إلى جوارها؟ غالبًا لا شيء. كان تأثير سيلفي عليه قويًّا للغاية، وكان الرب يعينها. يا لها من خصم جبَّار. لكن ثمَّة أمرًا واحدًا، أمرًا واحدًا لم تخبر به سهيل، وربما هذه هي اللحظة المناسبة لإخباره، أمرًا ربما يوقعه في صدمة الإدراك بأنه ليس الوحيد الذي يعاني بسبب ما فعل.

أردفت:

- أريد التحدُّث عن بِيا.

التفت ليتطلع إليها، وبصوتٍ خافت أجابها: «هذا أمرٌ انتهى الحديث فيه يا مايا».

أدركت أنه يحاول إقناع نفسه فحسب. أدركت أنه يفكر في بيا كل يوم. كل يومٍ يفكِّر فيها ويتساءل إلى أين رحلت، تمامًا كما كانت تفعل مايا.

أخذت طاقيته من يده وأفسحت لهما مكانًا للجلوس. وضع كفَّيه على أكوام الكتب وجلس مثل ملكٍ على عرشه، يقظ انتباهه بغتة. لم يعد بإمكانها التراجع الآن. وخطر ببالها أنها لو أخبرته لربما يُخرج الكتب من صناديقها ويعيدها إلى الرفوف، ويستبدل ملابس نومه القطنية ببنطالٍ آخر، ويشتري مشغل أسطوانات ليستمعا إلى سيمون وجارنفانكل.

ازدردت ريقها وشرعت في الحديث: «بُعيد التحرير، وبُعيد مجيء بيا، كنتُ قد بدأت العمل في مركز إعادة تأهيل النساء، وأمي كذلك. ذهبنا معًا إلى المكتب للتطوُّع، وكلفوها بوظيفة التحدُّث إلى أرامل الحرب، وفرز معاشاتهن وممتلكاتهن والتفاوض مع عوائل أزواجهن». أخذتْ نفسًا عميقًا، محاولة أن تُعِدَّ نفسها لما هي مقبلة على قوله، ثمَّ مضت قائلة: «وكما تعلم يا أخي بسبب عملي السابق في المخيَّمات كان لديَّ خبرة طبِّيَّة، لذلك أحالوني إلى العمل في العنابر، حيث كنتُ أجري عمليات الإجهاض».

راحت تطوي طاقية سهيل للصلاة، ثمَّ تفردها، ثمَّ تطويها مجدَّدًا.

أكملت: «لم أخبرك بذلك، ظننتَ أنني كنت أساعد المرضى فحسب، ولكن كانت لدينا عيادة كاملة في مؤخِّرة المركز، حيث تأتي النساء للتخلُّص من أطفالهن. أتذكر ما قاله الشيخ مُجيب؟ بأنه لم يُرد أولئك الأطفال اللقطاء في بلادنا؟ ولكن بالنسبة لبعضهن -لم يكن الأمر سهلًا، كما تعرف، لم أفكِّر بالأمر كثيرًا حينها- أراد هؤلاء النسوة التخلُّص من أطفالهن، وحين يأتي الوقت كنَّ يبكين، وأحيانًا يستيقظن ليطلبن منَّا إعادة الأطفال إلى بطونهن. وفي أحد الأيام، جاءت بيا إلى العيادة وطلبت رؤيتي، لم تكن أمي تعلم. جاءت مباشرة إلى العنبر وطلبت فحصًا، كانت حاملًا يا أخي هل كنت تعرف؟».

لم تستطع النظر إليه، حدَّثت نفسها بأن تنظر إليه وهي تخبره، لكنها لم تستطع، لم تستطع النظر إليه. بل آثرت النظر إلى الكتب، وقع نظرها على رواية **العودة إلى برايدزهيد**. ومتطلِّعة إلى ووه، مضت قائلة: «كانت في

الأسابيع الأولى من حملها، بالكاد تستطيع رؤيته. لا بُدَّ أن الأمر حدث في أواخر أيام الحرب».

أرادت الخضوع للإجهاض. وقالت إنها تريده حالًا، وظلَّت تُردِّد: «افعليها حالًا». كنتُ مشغولة، كان لديَّ عشر نساءٍ أخرياتٍ ذلك الصباح، فطلبتُ منها الانتظار، وأخبرتها بأني سأفعلها. راحت تكرِّر «اليوم. لا بُدَّ أن يتمَّ الأمر اليوم وإلا فلن أقدر على حمل نفسي على فعلها». ثمَّ قالت «سأخبره»، ولم أفهم ما كانت تعنيه، لكني تحدَّثت إلى الطبيب المسؤول وحجزت لها موعدًا، ولمَّا عدت إليها كانت متوتِّرة. وقالت لي إنها ليست واثقة من صحَّة ما تفعله. سألتْ عنك وطلبت منِّي الاتصال بكَ، لكنك كنت في المعسكر ذلك اليوم، هل تذكر؟ كنت قد ذهبت لتنسحب من الجيش. كأن هناك بعض الإجراءات الرسمية، وظللت غائبًا طوال اليوم. ظننتُ بأنها خائفة، خائفة فحسب مثل البقيَّة. فكرت بإحضارها إلى المنزل ولكني تذكَّرت كلامها بأن عليها إجراء العملية اليوم وإلا فلن تستطيع فعلها لاحقًا. كنت أعلم ما يجب عليَّ فعله، كنت أفعل ذلك طوال الوقت. كنت أقنع الفتيات بأنهن يتخذن القرار الصائب لمصلحة عائلاتهن والبلاد. فقلتُ لها: «إذا خضعتِ للعملية فسيمكنك العودة إلى بيتك، وستستقبلكِ عائلتكِ مجدَّدًا. أنتِ (بيرانجونا).. بطلة حرب...»».

اندفعت الكلمات إلى رأس مايا، الكلمات التي تعلَّمتها طويلًا، ومضت تقول:

هذه نجاسةُ العدو. إن الطفل في رحمك طفلٌ لقيط، قارورة من السُّمِّ. لا يجب أن تسمحي له بالمجيء إلى هذا العالم. لا يجب أن تعطيه من حليب صدرك. يمكن لما كان ألا يكون. لا يتوجَّب عليكِ العيش مع ما حدث طيلة حياتك، لا يتوجب عليكِ أن تكوني أمًّا لهذا الطفل. لا تفكري به كطفلك، إنه بذرة العدو. كان هذا ما قلته لها حتَّى وافقت أخيرًا».

***

كان سهيل يتعرَّق، وراحت خطوط رفيعة من الماء تتشعَّب على وجهه. لم يحرك ساكنًا ليمسحها. وراح يسترجع أحداث ذلك اليوم حين عثر عليها في ذلك السجن، وكيف حملها إلى الخارج، وخصلات شعرها الرفيعة تحُكُّ عظام ترقوته، وهي تقول له: «خذني إلى الديار.. أريد الذهاب إلى الديار، خذني إلى الديار».

صارا في حقل بامبو صغير، حاملًا إياها إلى أبعد ما يستطيع عن الثكنات العسكرية، لكن الأرض كانت مسطَّحة، وكلَّما لمحت عيناها ذلك المبنى كانت تبكي بحرقة، لذلك أسندها إلى جذع شجرةٍ، موليةً ظهرها إلى السجن. جلس أمامها على مستوى نظرها، حيث سطعت الشمس على وجهها، ملقيةً بظلٍّ طويل خلفها. ثمَّ قالت «تقع قريتي في الشرق».

كانوا قد أحضروها بسيارة جيب. وأضافت قائلة: «كانت هناك فتاةٌ أُخرى، لكنها ماتت».

أخبرته اسم قريتها، دانيكولا. ثمَّ سألته: «هل ستأخذني إلى قريتي؟». أخبرها أن الحرب قد انتهت، وأنهما سيقطعان الطريق سيرًا. وفي كل قرية يستقبلهما الناس بهتافاتٍ واهية وبقايا صغيرة من المحاصيل المتبقِّية بعد الحرب. قرية بعد قرية، باهارا.. مورمورا.. لالكيت. ترغب كل أم تراه في أن يكون ابنها، عائدًا إليها خائر القوى متصل الأطراف، وبرفقته امرأة بين ذراعيه.

كانت في الثامنة عشرة من عمرها، ولمَّا عرف قال:

- أختي بنفس عمرك.

- ألديك أخت؟

- أجل، مايا. ذهبت للعمل في مخيَّمات اللاجئين على الحدود.

- بمفردها؟

- إنها فتاة مفعمةٌ بالحيوية.

كانت بيا فتاة بعينين متباعدتين، وصوت واضح ممزوج بالألم. في اليوم الثالث خاضت في بركة ماء في إحدى القرى. وقف يشاهدها، خائفًا من أن تضلَّ طريقها بعيدًا. لفحت الشمس ظهرها، ممتدَّة إلى يديها اللتين تحرَّكتا في الماء، تدفعانها إلى الأمام. حين وصل الماء إلى عنقها، غمرت رأسها فيه. طاف ساريها على سطح الماء، مثل زهرة تتفتَّح. ولمَّا خرجت من الماء مجدَّدًا، كانت مختلفة، وكأنها نزلت تحت سطح الماء وأملت على عظامها أن تعيد ترتيب نفسها من جديد. وهكذا خرجت من الماء: مرتَّبة، ومنظَّمة، بعينين متباعدتين وبحَّة في صوتها. سألها إن كانت ستأتي إلى دكَّا، وإن كانت ستزورها. كانا قريبين جدًّا الآن، لا يبعدان سوى بضعة أميال فحسب عن قريتها.

وصلا إلى مشارف القرية، وكانت تمامًا كما وصفتها: رقعة من الأشجار تلقي بمسحة من الأخضر الباهت على منازل مُرتَّبة مبنية من القش والطين. أقراص روث مكوَّمة بجانب الجدران الخارجية، عليها بصمات كفوف الذين جمعوها، وبِركة. وكل شيءٍ غارقٌ في الهدوء. الضباب منخفض، يبتلع نداءات طائر الوقواق، وتموُّج المياه.

كتب لها عنوانه على قطعة من الورق، مع علمه بأنها لا تعرف القراءة، وأن كل جزء منها سيتم تفتيشه وفضحه، وبأنها سترمي الورقة في النار، ولن تأتي أبدًا.

وضع يده على جبينه وألقى عليها الوداع. وداعًا رسميًّا. كانت بِيا هي من اقتربت، وهي من وضعت راحتها التي تفوح برائحة المياه، هي مَن وضعتها على خده. هي من رفعت رأسها وطبعت قبلة رقيقة على شفتيه، بشفتيها الخشنتين الصغيرتين، كقِشر حبَّة الأرز.

كانت قد تعلَّمت بضع كلمات من الإنجليزية. فقالت له: سأراك مجدَّدًا، والمسافة بينهما تتسع مع كل مقطعٍ من لكنتها الغريبة المفكَّكة.

وجاءت حقًّا. جاءت إليه وقضيا ساعات في الحديقة، يتحدَّثان عن كلِّ شيء، ولا شيء. بدأت ذكرى الحرب تتلاشى. حتَّى تلك الليلة، هو يعلم الآن أنها كانت بعد ذهاب بِيا لرؤية مايا في المشفى، ولكن حتَّى ذلك الحين كان مُجرَّد يومٍ آخر. كان قد ذهب إلى المعسكر لتسليم سلاحه. في الأسابيع الأخيرة من القتال، كانوا قد أعطوه زيًّا مع شارة باللونين الأخضر والأحمر مُخاطة على الكُمِّ. في المعسكر، رأى الفتيان الآخرين في فرقته، فاروق وشاميك وكونا، جميعهم يوقِّعون الأوراق للبقاء في الجيش. أخبروه بأنهم لم يتفاجؤوا بانسحابه، وبأنهم لم يعتبروه يومًا رفيقًا. ومن دون سببٍ يقاتل لأجله، يرون أنه لا ينتمي إلى ذلك المكان. استمع إلى الخطاب الرسمي وتمَّ تسريحه من جيش بنجلاديش بلا خزي. عاد بالزي الرسمي بعد أن أخبروه أن بإمكانه إعادته لاحقًا.

كان الوقت متأخِّرًا والمنزل هادئ، والكل نيام، أو هذا ما ظنه، حتَّى لمح بِيا في الحديقة. بالكاد استطاع تبيُّن أي شيء في الظلام، ولكنه كان واثقًا أنها هي بلا شك، استقامة ظهرها هي ذاتها حين خرجت من البركة في القرية.

همس في الظلام:

- تزوَّجيني.

التفتت إليه، ونظراتها تنتقل إلى الجانب الآخر من الجدار. ثمَّ سألته وهي تشير بيديها إلى المنزل المؤلَّف من طابقين: «من يعيش هنا؟».

- لا أحد، علينا إيجاد مستأجرين جدد.

- هل هو ملكك؟

- بنته أمي، وبعد وفاة أبي أصبح الإيجار مصدر دخلنا.

- إنه كبيرٌ جدًّا.

- مكوَّن من طابقين.

- هل دخلته من قبل؟

- أجل، هل تريدين الذهاب؟

وفتح البوَّابة الحديدية المبنية في الجدار.

كانت واثقة الخطى، حتَّى في الضوء الخافت الآتي من نصف القمر، دخلت بخفَّة من البوابة تخطو على العشب في الجانب الآخر. صعدت على الدرجات الثلاث وانتظرته أمام الباب الكبير المزدوج.

- إنه مقفل.

- أجل، بالتأكيد. لقد نسيت، أنا آسف، لا أملك المفتاح.

وضعت يديها على الزجاج وألقت نظرة إلى الداخل.

- بِيا، هناك أمرٌ يجب أن أخبرك به.

- وأنا أيضًا.

حاول رؤيتها، لكن الضوء كان شديد الخفوت، ثمَّ راح يقول: «أريد الزواج... أريد الزواج بك، ما رأيك؟».

جلست على الدرجة العليا من السلم، وأجابت: «إذا كانت هذه أمنيتك».

- أهذا ما تريدينه؟

- ماذا سيقول الجميع؟

- من يهتمُّ؟

- سيقولون إني تزوَّجتك لأحصل على ممتلكاتك، كهذا المنزل.

- لا يُهِمُّ، أنتِ تحبينني، أليس كذلك؟

لم تحر جوابًا، اكتفت بالجلوس في هدوء تامٍّ، ونور القمر الأصفر ينعكس عليها. ثمَّ نطقت أخيرًا: «إذا كنتَ تريد ذلك، فسأكون زوجتك، ولكنني لستُ امرأة جيدة».

- ما حدث لكِ، لم يكن خطأك.

- أنا متعبة.

جلس بجانبها، وتشابكت أصابعهما، ثمَّ أردف: «لا بأس، أنا متعبٌ أيضًا. لا آبه لأي شيء، ولا آبه لما يقوله الناس. هل تفهمين؟ أنا متعب أيضًا، أنا منهك. أريد الاستلقاء ووضع رأسي على حِجرك، سامحيني، أريد تقبيلك مجدَّدًا. أريد نسيان كل ما مضى. أريد أن يعيش أطفالنا في هذا البلد، أطفالٌ أحرارٌ في بلدٍ حُر. لكن القرار قرارك. لا تختاريني لأنكِ هنا، ولأنكِ لا تستطيعين العودة لديارك. اختاريني إن كنتِ تحبينني، أتفهمين؟ هذا ما أومن به. يتعين عليكِ أن تحبيني أولًا».

اشتدَّت قبضتها على يده، ثمَّ باغتته بانبساطها، وأخذت تركض بخفَّة على العشب، كفتاةٍ شبَّت بلا حذاء. واختفت بين العشب.

طافية على ذرات الأرض، تخيَّل قفزها على العشب تعبيرًا عن فرحها، لكنه الرحيل بسرعة البرق، كان هذا وداعها بلا مراسم.

رحلت مع حلول الصباح. رحلت مع صُرَّة ملابسها الصغيرة، ومشطها البلاستيكي، وعود النيم الذي كانت تستخدمه لتنظيف أسنانها. والساري الإضافي، الذي كان يجفُّ ذاك الصباح على حبل الغسيل.

انطلق للبحث عنها. لم يكن ينوي ذلك، ولكنه تفاجأ بنفسه مسافرًا إلى قريتها، مستقلًّا الحافلة إلى ميمنسينغ، ثمَّ قاطعًا بقية الطريق على عربة ريكاشة. أخبرته امرأة عجوز، وهي تبصق أوراق التنبول، بأنهم لم يروها مجدَّدًا. لم تعد القرية جميلةً كما كانت، البيوت متهالكة وصدئة من الحرارة المتزايدة. عاد إلى المدينة وتجوَّل من شارع لآخر بلا مقصد، سائلًا الغرباء إذا رأوا فتاة شابة بعينين بُنِّيَّتين تسير وحيدة. كل الفتيات اللواتي يمشين وحدهن ذوات أعينٍ بُنِّيَّة؛ إذن ما اسم أبيها؟ ثمَّة فتاةٌ أغرقت نفسها في بحيرة دانموندي. لعلَّها هي. وصل متأخِّرًا إلى المشرحة، وكان أحدهم قد ميَّز الجثَّة. هل كانت على متن حافلةٍ متجهةٍ إلى الحدود؟ أم استقلَّت إحدى الطائرات

اللاتي ستعيد الجيش الباكستاني إلى إسلام آباد؟ أكان هناك نساء على تلك الطائرة؟ نساؤنا؟ نعم، هناك نساء على متنها. نساءٌ وُعدن بالزواج. وربما سافرت معهن.

***

قالت مايا بهدوء: «أخي، أكان طفلك؟».

انتفض ناهضًا، مصطدمًا بصندوقٍ مفتوح. ثمَّ قال: «كيف تسأليني سؤالًا كهذا؟ بعد كل شيء؟».

- لا بأس.

- لم ألمسها، أتفهمين؟ لم أكن لأفعل ذلك. ليس بعد كلِّ ما جرى لها.

راح جسده يرتعش، وذراعاه مرتخيتان بلا حراكٍ على جانبيه.

- أجريتِ لها عملية إجهاض دون أن تستشيري أحدًا منًّا؟ لا أنا ولا أمي.

- لكني لم أفعلها يا أخي. لم أفعلها. لقد غيَّرت رأيها.

بكى. أمكنها رؤية عينيه تفيضان بالدموع، فأشاح بنظره بعيدًا عنها.

- ظننتَ أني استمتعتُ بأيامي بعد نيلنا الحرِّيَّة. لكنها كانت أيامًا مشبعة بالدماء يا أخي، في نظر الجميع.

لوَّح بيديه أمام وجهها، كأنهما مبلَّلتان، وقال: «لكنني قتلت يا مايا. لقد قتلت».

لا شك أنها أساءت فهمه.

- لا بأس يا أخي، لقد فعلت الصواب. كانت حربًا فحسب، حربًا صادقة. حربًا لأجلنا، لأجل حرِّيَّتنا.

هزَّ رأسه نفيًا، ثمَّ أردف: «لم أقصد القتل، بل كنتُ غاضبًا جدًّا».

- لو أنهم سمحوا لي بالقتال، لكنتُ أطلقتُ النيران على رُكبهم، ولتركتهم يموتون ببُطء.

- كان بريئًا.

حدَّثته أنه لم يكن فيهم بريء.

- هل تريدين الحديث عن الإنقاذ؟ سيلفي أنقذتني بينما كنتِ أنتِ منشغلة بقتل أولئك الأطفال.

إذن هذا هو اختياره؛ زوجته ومستقبل بلا كتب. أشعلت الفكرة نيران الغضب داخل مايا، غضبًا حانقًا يحرق ما حوله. فاندفعت قائلة:

- ضع تلك الكتب في صناديق، وسأخرجها وأتركها مفتوحة أمامك. كل كتابٍ ستضعه في الصندوق سأخرجه وأضعه على عتبة بابك. سأقرؤها عليكَ جهرًا. أتذكر حين كانت أمي تقرأ عليك القرآن؟ سأفعل ما كانت تفعله. سأستمرُّ بإخراج الكتب حتَّى تعجز عن تجاهلها.

أدخل يده ببطءٍ داخل أحد الصناديق، وفي تؤدةٍ استقامت هيئته، ثمَّ قال برفقٍ: «عليَّ أن أفعل بها شيئًا آخر».

جال بخاطرها أنه سيُعطيها لأحد، سيمنحها كلها لأحدهم. سُحقًا. عندها انسحبت من الغرفة دون أن تنطق بأيٍّ كلمة، خرجت إلى الحديقة، تُفكِّك ضفيرتها وتمرِّر أصابعها بقوَّةٍ في شعرها المتشابك. حدَّثت نفسها أن افعلي شيئًا افعلي شيئًا. إنَّ أخاكِ يتغيَّر، يتغيَّر سريعًا. وقريبًا لن تتمكَّني من التعرُّف عليه. لطالما كان أقدم صديق لها، يتصف بكل ما ينبغي أن يكون عليه الشقيق الأكبر: حاميًا لها، متنمِّرًا، ودافعًا لها لتصير الأفضل. كان يعلم نقاط ضعفها، يعلم بميلها إلى الجنون والتزمُّت. يعلم أنها تغضب معظم الوقت. كان يحميها من نفسها. هي بحاجة إليه. لربما كانت حاجتها أنانية، لكنها بحاجةٍ إليه. بلى، ليست أنانية. إنهم جميعًا بحاجةٍ إليه. هو منارة عائلتهم. والوطن يحتاج إليه. لقد قال الشيخ مُجيب هذا بنفسه. آه، يا إلهي، لقد مات مجيب. لا يمكن لسهيل أن يرحل هو الآخر، هذا أمرٌ فوق الاحتمال. سينهار العالم. ماذا عساها أن تفعل؟ صارت سيلفي الآمرة الآن. سيلفي، بشفتيها الرقيقتين، وعينيها الأجنبيتين، قد حوَّلت رجلًا مجروحًا إلى نبيٍّ.

فكَّرت في كل الأشياء التي كان يحبها. قبل الحرب، وقبل بِيا وسيلفي. الاستماع إلى مباريات الكريكت على مذياع الموجة القصيرة. المانجو والمثلَّجات. دانتي وإبسن. جيمي هندريكس وجون لينون. صوتها وهي تعزف على آلة الأورغ. صوتها. متى كانت آخر مرَّة سمعها وهي تغني؟ يمكنها أن تغني له. قد تعزف على الأورغ وتغني. كانت تلمح نظرات الأشخاص حولها أحيانًا عندما تغنِّي أول نوتة، وبعد ذلك، حتَّى لو كانوا يعرفونها، تلاحظ أن شكلًا جديدًا من الكُلفة قد نشأ بينهم، لأن صوتها قد غيَّر من نظرتهم تجاهها. صوت بهذه النعومة يخرج من فتاةٍ بتلك الصلابة. امرأة ضئيلة، بصوتٍ جهوري.

لتذهب سيلفي إلى الجحيم. ستغني. أخرجت الأورغ من حقيبته. لقد مرَّ وقت طويل منذ أن نفخت في الأكوار عند مؤخِّرة الآلة، منذ أن بدأت الحرب، على الأغلب.

إنها في حربٍ الآن. حربٍ ضد سيلفي. تقف الكتب في صفها، والأورغ، وطاغور، وستخوض الحرب. غمرتها رعشة الانتصار من فورها، ويدها مكوَّرة في قبضة، وقدميها تذرعان الحديقة تخترق ذرات الهواء. لم يعد بوسعها الاعتماد على أصدقائها، ليس بعد أن ساهم سهيل في تحوُّل كونا من فوره. أرواحٌ ضعيفة! سيتعين عليها تقلد الأمور بنفسها. كان سهيل ما يزال في غرفته، ربما يتساءل عمَّا سيفعله بكتبه. هذه هي اللحظة المثالية للهجوم. أزالت الغبار عن سطح الأورغ، وبسطت حصيرًا في الحديقة. ستغنِّي في هذه البقعة تمامًا. ستعود أمي إلى المنزل لتجدها جالسة تغني في الحديقة، وستتفق معها بأن عليهم استخدام كل الأسلحة التي بحوزتهما لمحاربة سيلفي. سيقاتلون النار بالنار. شارفت الشمس على المغيب، وبدأت أصواتُ المساء تخيم على أصوات النهار. صراصير الليل، والبعوض. خلَّف البعوض بعض القرصات على ذراعها. لم تأبه بها. وأشعلت فحم البعوض. حسنًا، ها نحن أولاء. وشرعت تغنِّي واحدةً من مفضلات سهيل.

♫ *تعالَ وحدك .. إذا لم يسمع أحدٌ نداءك، تعالَ وحدك* ♫

اضطربت قليلًا في بداية عزفها، تشابكت أصابعها مع المفاتيح، ولكنها سرعان ما تداركت نفسها، تنقر على الأكوار باليد اليسرى، وتضغط على المفاتيح باليد الأخرى. إن طاغور هو الرجل المناسب لهذه المهمَّة.

انتهت الأغنية، ثمَّ سمعت حفيف سحلية تاكو، ونداءها المتقطع خافت التردُّد. أيجدر بها إحضار مصباح؟ استمرِّي بالغناء. أغنية ثورية، تقول: «*لغة احتجاجي، سلاحُ احتجاجي*». جعلت هذه الأغنية الدماء تنبض في عروقها. تحرَّكت أصابعها وتشابكت والتفَّت على المفاتيح. كثيرًا ما أحبَّ سهيل هذه الأغنية. وهي كفيلة لإعادة كل الذكريات إليه. أبقت عينًا ثاقبة على باب غرفته، لكنه لم يُصدر صوتًا قط، طيلة الأغنية. حان وقتُ القصيدة إذن. أنشدت كل ما تعرفه من قصيدة نذر الإسلام «التمرُّد»، محافظةً على الإيقاع

بأصابع ثلاث على الأروغ. حين شرعت في المقطع الثاني، تخيلت أنه سيخرج مندفعًا من الباب ليكمل البيت عنها. لكن، لا شيء. انتقلت إلى أرقِّ أغنية تعرفها لطاغور «**تيَّارُ السعادة**». حينها سمعت صوتًا. صرير بابه. ثمَّ شعاعٌ من ضوء، يتخلَّله ظلُّه.

كان خارجًا من الغرفة. صوتها مفعمٌ بالترقُّب. يحمل شيئًا بين ذراعيه، عجزت هي عن تبيُّن كنهه في الظلمة الحالكة. وحدَّثت نفسها أن أغمضي عينيكِ واستمرِّي في الغناء فحسب. «***يمتلئ العالم بالفرح***». إلى الخارج يسير، عابرًا الردهة، قاطعًا الطريق باتجاه موقف السيارة. حركة الأشياء.. الكتب. آه، كان ينقلها للخارج. لا تتوقفي، استمرِّي فحسب. هو يُنجز ما وعد بإنجازه فحسب. لا بُدَّ أن أحدهم قادم لأخذ الكتب. كائنًا مَن كان، ستُوقفه، وتُقنعه بترك الكتب أمام المنزل. ها! ماذا سيفعل حينذاك؟ ربما عليه أن يخبِّئها بعيدًا عن سيلفي فحسب، أجل، لعلَّ هذا هو الحل. إنه يحمي الكُتب. لا تهتمِّي لأمر الكتب، واصلي الغناء: «***خارج العالم***». داخلًا وخارجًا من غرفته، ذهابًا وإيابًا، كانت تسمعه من حين لآخر يلهث بسبب وزن الصناديق وهو ينقلها إلى موقف السيارة.

صارت تغنِّي الآن بلا هوادة، أي أغنية تخطر على بالها. تبدأ بواحدةٍ دون أن تنهي الأخرى. كان جسدها يتمايل مع إيقاعها، وأصابعها وأنفاسها ولسانها مطيعين لها. عيناها مغلقتان بقوَّة، ظنًّا منها أنها لو فتحتهما فستُضطرُّ إلى إغلاقهما على مشهدٍ آخر. مشهدٍ لا يجمعُ فيه شقيقها الكتب في صناديق. أشعل الغناءُ في الحديقة حرارةً. لا بُدَّ أن هذا ما تمنَّاه طاغور من حالٍ لإنشاد أغنياته. حالٍ تغرق فيه الروح والجسد في الدفء. وتخرج فيه الحروف مصحوبةً برائحة النيران ولهيبها.

غرقت الحديقة في أضواء برتقالية سوداء، ووقف سهيل في منتصفها، يُلقي بالكتب في كومة. ذراعه ترتفعُ عاليًا، يقذف بالكتاب، يراقب ارتفاع النيران، ويقذف بكتابٍ آخر. أما تزال تغنِّي؟ لقد توقَّفت. لا صوت يُسمَع سوى صوت الاحتراق الآن، عويلٌ خافت. أرادت أن تُحرِّك ساكنًا لكنها لم تقوَ على الحركة. كان السطل أسفل صنبور الحديقة، يمكنها محاولة ملئِه بالماء، وإطفاء النار. لكن لهيب النيران كان يُحدِّثها، لهيب النيران كان يُخبرها: ها هي نيراني أعظم من نيرانك، ها هي نيراني أسكتت نيرانك.

هذا حلم بلا ريب. غمرها هدوءٌ عارم، وشرعت في الغناء مجدَّدًا. وبينما كانت أمها تجرُّها إلى الداخل، وبينما كانت أمها تملأ السطل وتُطفئ النيران، ظلَّ صوتها موصولًا بالشِّعر. لم تستفق من شرودها إلا حين سمعت صراخ أمها، هذا لأن أمها كانت تقول بأن كل شيء كان خطأها، وهي تلملم الأجزاء المتطايرة من الأوراق من شعرها، وتفرك خدها الأسود من الطباعة التي استحالت بفعل الحرارة إلى حبر مجدَّدًا. عندئذٍ فحسب استوعبت ما حدث.

لقد أحرق سهيل كل الكتب.

كانت الأم تصرخ: «أنتِ من استفززته لفعل ذلك، واصلتِ الضغط عليه حتَّى فعلها». ثمَّ سمعت مايا نفسها تعارضها: «ماذا عساي أفعل؟ لقد كنتُ أغنِّي فحسب». لكن أمها في تلك اللحظة، بعينين متكوِّرتين الآن كالبيض راحت تقول: «هل استمعتِ لأيٍّ ممَّا قاله على السطح؟ هل استمعت؟ لا! بل سخرتِ منه، أوليتِ له أذنًا صمَّاء وسخرتِ منه».

- هذا لأنني كنتُ أعرف مآل الأمور.

- لم يكن هناك داعٍ لما حدث. لم يكن هناك داعٍ. أنتِ من دفعته إلى هذه النقطة، وأنتِ تُلقبينه بالمولى. لماذا؟ ألا تستطيعين تحمُّل فكرة أن أخاكِ مختلفٌ.

حتى أنتِ يا أمي!

أجرت مايا كل الترتيبات تلك الليلة. اتصلت بسلطانة وحزمت حقائبها، ورئتاها مشتعلتان بالنيران. وفي الصبح، اختفى أثرها. وبعد شهرين، توقَّفت الخُطب التي كانت تُلقى على السطح. ثمَّ ارتفعت سقائف القصدير الصغيرة، وبنى سهيل وسيلفي عالمهما فوق الكوخ الصغير. توفِّيت السيدة تشودهاري وفاةً هادئة، ودون دمعةٍ واحدة تذرفها عينا ابنتها. ثمَّ وُلِدَ زيد، شقَّ طريقه إلى العالم على يدَيْ قابلةٍ مغطًى وجهها بيشمَك أسود. هذا هو ما فتح عينيه عليه، على وجهٍ مطموسٍ بدلًا من آخر مبتسمٍ لاستقباله.

***

استقلَّت مايا الحافلة إلى تانجيل. ودون أن تفرغ حقائبها أو تحيِّي صديقتها، استلمت مناوبةً في العيادة. كان الطبيب المسؤول منزعجًا، إذ تلطَّخت ياقة قميصه ببقعة من الدماء، فبدا كما لو كان ينزف. رفع أكمام

قميصه وانحنى إلى حوضٍ مشروخ، ذي أُطرٍ رمادية، وسألها: «ما الذي تفعلينه هنا بمفردك؟».

أجابته: «أنا صديقة سلطانة من كلِّيَّة الطب».

بدا منهكًا لدرجةٍ أعجزته عن طرح المزيد من الأسئلة، لذا قال: «تفشَّت جائحة كوليرا».

كانت الممرَّات مزدحمة، والناس يفترشون أوشحتهم على الأرض، ويجلسون منتظرين.

- تعلمين ما عليكِ فعله، إمدادهم بأملاح الإماهة الفموية.

ناولها معطفًا أبيض، ثمَّ صرفها.

أنهت المناوبة الأولى، ثمَّ الثانية، مفعمة بطاقة لا تنضب، وبخوفٍ من أنها لو جلست، من أنها لو سمحت لنفسها بالتفكير بما فعلته، لربما تُضطرُّ إلى العودة إلى الكوخ الصغير. في الليلة الثانية، وجدت سمَّاعة طبِّيَّة، فطوَّقت بها عنقها، وحين تطلَّعت إلى نفسها في المرآة غمرها السرور بأنها قد تفاجأت بوجهٍ مسلولٍ يُحدِّق إليها، وجهٍ يكسوه الإنهاك الجسدي ويغطِّي على كل آيات انفطار قلبها.

حين التقت سلطانة في النهار التالي، كانت تترنَّح في أرجاء الجناح، تجاور المرضى على الأرضية، وبين الأسرَّة.

حدَّثتها سلطانة: «حان وقتُ التوقُّف عمَّا تفعلين».

طرفت عينا مايا، واستغرقت هنيهة لتُميِّزها، ثمَّ قالت: «لا يزال لديَّ القليل من العمل من الليلة الماضية».

- لقد مرَّت ثمانٍ وثلاثون ساعة. هيا لنعُد إلى المنزل.

طرفت عيناها مجدَّدًا، مستشعرةً حرقة الملح في عينيها، ثمَّ أجابت: «شكرًا لكِ». وأشاحت بوجهها لكيلا ترى صديقتها دموعها. ثمَّ أضافت: «إن حاجياتي في الجناح الآخر».

بقيت إلى أن منحتهم الكوليرا أسوأ ما كل ما لديها. ولمَّا حان وقت الرحيل، قال زوج سلطانة: «صديقي رنين لديه عيادة في «رانجاماتي»، يعانون هناك من نقص الأيدي العاملة على الدوام».

وبعد قضاء أسبوعين في كولنا، وأسبوع آخر في «كاجراشاري»، وجدت مايا نفسها تستقلُّ قطارًا إلى رانجماتي. وعلى متن العبَّارة، سمعت اللهجات الأخرى، والمقاطع الصوتية ذات النهايات الحادة، وعلى مدار رحلتها، رأت نساءً بتنانير طويلة وسترات، وجوههن ضئيلة مربَّعة، وأطفالهن مربوطين إلى ظهورهم بأقمشة مغزولة منزليًّا، بألوانٍ زرقاء داكنة وصفراء وحمراء. يُطلَق عليهم القبائل: قبائل الشاكما والمارما والسانتال، يسكنون أراضيهم قبل أي أحدٍ آخر، كانوا أقدم من أيِّ شيء، أقدمُ من الخرائط وباكستان والحرب. رأت فتاةً صغيرةً وأمها تأكلان بأصابعهما من صُرَّةٍ ملفوفة بورق الشجر. كانتا تضحكان ملء شدقيهما، وتضرب الواحدة منهما الأخرى بخفَّةٍ على خدِّها، برقَّة.. بعتاب.. بحُبٍّ.

أنهت مهمَّتها في رانجماتي، واستقلَّت القطار إلى الجنوب مجدَّدًا. حين توقَّفت عن التجوال، وجدت نفسها على حدود البلاد، عابرةً ميناء شيتاجونج، وراحت تتجوَّل على شاطئٍ مهجورٍ برمالٍ ذهبية. ثمَّ كوكس بازار. كان الماء غائمًا ودفئه بهيجًا، ولمَّا غمرت كاحليها في الماء، تفاجأت بأنها لم تعد تتذوَّق الرماد، ذاك القطران الأسود الذي التصق بأسفل لسانها وبين أصابعها. لقد أصبح لسانها نقيًّا الآن، وكلما غاصت في الماء، سامحةً لقميصها بالبلل، تفرك ما بين أصابع قدميها، وخلف ركبتيها. وفي دار الضيافة، واصلت فرك جسدها، هذه المرَّة بالصابون، ملقيةً بأسطالٍ من الماء فوق رأسها، ومهاجمةً الغبار المتجمِّع تحت أظفارها. خرجت من دورة المياه حمراء الوجه، بشعرٍ ملفوفٍ بمنشفةٍ مقلَّمةٍ خفيفة كانت موجودة في الغرفة.

فكَّرت، ولأول مرَّة منذ رحيلها، في أمها، وقرَّرت إرسال برقيَّة. وبعد تلعثم في الكلمات كتبت: «**أنا بخير. أرجوكِ لا تقلقي. الأمور أفضل هكذا**».

هكذا جرى الأمر. بضعة أسابيع هنا، وبضعة أسابيع هناك. رانجاماتي، باندوربون، كوشتيا. وأخيرًا سافرت عائدة إلى الشمال، متجنِّبةً المدينة، تُبحر عبر نهر الجامونا، ثمَّ براهامبوترا، إلى أن وصلت إلى راجشاهي حيثُ استقرَّت، وحيث راودتها أحلامٌ عن الأيتام، وحيث وجدت نفسها تأكل التوتَ البرِّيَّ تحت شجرة كاكايا، تنتظرُ ساعي البريد.

***

1985

فبراير (شباط)

لم يحظَ مسجد كاكريل بأي بهاء حظي به مسجدٌ آخر في المناطق القديمة من المدينة. لم يتعدَّ كونه بناءً خرسانيًّا، مستطيل الهيكل، ومئذنةٌ تبرز من منتصفه لأعلى. ومن خلال نوافذه ذات القضبان مُربعة الشكل، أمكنها رؤية الرجال كلٌّ منصرفٌ إلى عمله، منهم من يركع في صلاته، ومنهم من ينحني أسفل الصنابير لأداء الوضوء، وآخرين يقفون بأيدٍ متشابكة أمام صدورهم، يُنصتون إلى المناجاة. إذن هنا يقضي سهيل جُلَّ وقته. يستيقظ قبل الفجر، ويشقُّ طريقه عبر المدينة النائمة بملاحمها المطموسة في الظلمة، إلى هذا المكان الذي يضمُّ إخوانه من الرجال.

كانت قد أيقظت أمها وأخبرتها بوجوب لقائها بسهيل. فأجابتها الأم والنوم يُثقل لسانها: سهيل، لن تعثري عليه. أسرعت مايا إلى خارج المنزل، وهي ما تزال في بدلتها الرمادية القطنية التي ارتدتها في الليلة الماضية، وأحداث الولادة حية في ذاكرتها.

دخلت عبر البوَّابة، ووجدت قلَّةً من الرجال مجتمعين خارج البناء. تطلَّعوا إليها، وأشاحوا عنها، ثمَّ تطلَّعوا مجدَّدًا. استحالت نظراتهم المختلسة إلى تحديق، ثمَّ حكَّة خلف آذانهم. كبحت ابتسامةً من شفتيها، وأرادت أن تقول:

لا بأس، لن أقرضكم. وأخيرًا، اقترب أحدهم منها، وقال وهو يُنظِّف حلقه: «غير مسموحٍ للنساء».

أجابته: «لن أمكث طويلًا».

وأخذت تقاوم رغبةً في التحديق إلى وجهه، لتحمله على الإذعان. لا يزيد عمره على الخامسة عشرة أو السادسة عشرة. يبدو زغب لحيته طفيفًا نافرًا. ما تزال كتفاه ضئيلتين، وهيئته مطوية على نفسها. أوشك الفتى على إجابتها، لكن رجلًا أكبر سنًا قد ظهر من خلفه، ووضع يدًا ضخمة على كتفه.

- يا امرأة، أنا آسفٌ جدًا، ولكننا لا نملك مخصَّصات من أجل النساء. يجب أن ترحلي الآن.

كان صوت الرجل ثخينًا مثل يده تمامًا، عميقًا خشنًا، كأنما سُحِل الصوت على امتداد الطريق.

أجابته مايا: «لديَّ مهمَّةٌ هنا. أنا أبحث عن شقيقي».

- ستُقام صلاة الجمعة قريبًا. يجب أن ترحلي.

كانت خائرة القوى. ما مدى صعوبة أن تعثري على شقيقكِ؟

- سهيل حق. أنا أبحث عن سهيل حق.

ارتبك الرجل، وفُتح فمه وأُغلق مثل هوة عظيمة جوفاء يُحيط بها أهداب لحية.

- ليس هنا.

إنه يكذب.

- لكن هذا هو المكان الذي يأتي إليه كل يوم. كل يومٍ يأتي إلى هنا.

- لم يعد فردًا منًا.

حرَّك الرجل ذراعه، فأمكنها أن تحدس رغبته في دفعها، لكنه عجز عن الإتيان بالفعل، على الأقل ليس أمام الآخرين، الذين يتجمَّعون حولهم الآن ويوكزون بعضهم، وأخذ الحشد يتزايد لمَّا وصل الناس إلى المسجد من أجل صلاة الجمعة.

- لم يعد معكم؟ إلى أين ذهب؟

- لا أدري.

كان هذا آخر جوابه قبل أن يرمقها بنظرةٍ تحمل نفاد صبرٍ صريح. شرع المؤذِّن ينادي للصلاة. وبُعث صوتُ مكبِّر صوتٍ ضخم إلى الحياة. اللهُ أكبر.. اللهُ أكبر.

أخذ الحشد من حولهم يصطفُّون للصلاة. واحتضن الرجل مرفقها براحة يده وصحبها إلى البوَّابة. رفعت مايا صوتها وهي تُكرِّر كلماتها: «من فضلك، يجب أن أجد أخي. سهيل! سهيل!».

لكنهما وصلا إلى البوَّابة بالفعل، وبعزمٍ شديد، زجَّ مرفقها إلى الشارع فتبعته، وصفع البوابة من خلفها. ثمَّ سمعته يهدر: «إلامَ تتطلَّعون؟ عودوا إلى صلواتكم، عودوا!».

لا بُدَّ وأنه في موضعٍ ما بالداخل. فركت مايا مرفقها، فعادت إليها ذكرى الليلة الماضية، ورقية تجاهد مع طفلتها المقعدية. ثمَّ اعترافها. أعادت مايا النظر في احتمالية أن ألم المخاض قد نال من قواها العقلية، ولكن وفقًا لتجاربها وخبرتها، عادةً ما تكون النساء في أفضل حالةٍ من صفاء أذهانهن لحظة الولادة. لا، لا بُدَّ وأن ما قالته صحيح. بمُجرَّد أن نطقت به، أدركت مايا أنه صحيح. لقد حبس صدق كلامها الهواء في حلقها. لا شك أن زيد كذب حيال عودته إلى المنزل في عُطلة، وتذكَّرت كلمات خديجة واضحة: «**لقد أعدناه إلى المدرسة**».

سمعت أحدهم يُنادي من خلفها، فالتفتت لترى الشاب الذي التقته عند وصولها. مال عبر شِقٍّ في البوابة، وقال: «إن أخاكِ في مسجدٍ في «كولاباجان». خُذي طريق إليفنت إلى طريق «جوست روود». إنه مسجدٌ صغير، إلى جانب قطعة أرضٍ فضاء. بناءٌ جديد».

- مسجدٌ جديد؟ ولكن لماذا؟

أرادت أن تمدَّ يدها عبر شقِّ البوابة، لكنه رحل من فوره.

***

اتبعت مايا الاتجاهات، وأخذت طريق إليفنت وصولًا إلى طريق جوست. ثمَّ سألت عن المسجد الجديد، وهي تُشير إلى المارِّين عبر الطريق. أشاروا عليها بالطريق، مُوجِّهين إيَّاها إلى أزقةٍ أضيق فأضيق. كان أهل الضاحية منهمكين في أعمالهم، النسوة يدسسن أيديهن في السلال ويُخرجن ملابس

الغسيل، والرجال يحملون المتاع الثقيل بخفَّة ونشاط: أسطال المياه وطرود مُغلَّفة وأكياس أسمنت. حتَّى أن أسلاك الهاتف بدت متدلِّية على الأرصفة بخفَّةٍ ورشاقة.

حينما رأت مايا البوابة، عرفت أنه لا بُدَّ المسجد المعنيُّ. مسجدٌ بطلاءٍ أخضر، ونجمةٍ وهلال صغيرين منقوشين بطلاءٍ أبيض. أمكنها تشمُّم طبقة الأسمنت التي وضعت حديثًا، ومذاق الغبار الأبيض الذي تركه البناء في الهواء من حولها. لم تجد مايا جرسًا لتدقَّه، فسارعت بالطرق على البوَّابة. بلا استجابة. أعادت الطرق مجدَّدًا. ثمَّ انعطفت حول الزاوية، باحثةً عن مدخلٍ آخر. في تلك اللحظة، رأت رجلًا يمُرُّ بقربها حاملًا كومة من قوالب الطوب على رأسه، فسألته: «أهذا هو المسجد الجديد؟».

عجز الرجل عن الإيماء، لكنه صاح: «عليكِ الانتظار، إنهم لا يفتحون البوَّابة».

المزيد من الانتظار. وجدت مايا شقًّا صغيرًا في الحائط المرتفع الذي يُحيط بالبناء، فحشرت نفسها به، وهي تحمي عينيها بيدها من الشمس الحارقة. مرَّ بها سُكَّان ضاحية جوست روود، حينها فكَّرت في البحث عن هاتف والاتصال بجوي. ماذا ستقول له؟ سيقود سيارته الهوندا على الفور ويحاول إنقاذها. لكنها لا تريد من أحدٍ أن ينقذها. لفحت الشمس ذراعها، والجزء السفلي من ساقها الذي لم يُغطِّه الظِّلُّ. غفت، ثمَّ استيقظت بعينين عمشاوين مُجهَدتين لتحظى بنظراتٍ فضولية يُلقيها عليها من يمُرُّ بها من الناس.

ازدهرت شمس ما بعد الظهيرة، ثمَّ وجبت، والشوارع تغرق في الهدوء والرَّوية، والدكاكين تُغلق مصارعها أو تُنير أضواءها من أجل المساء، ولمعت المصابيح الفلورية ولمبات الكيروسين ونيران الحطب الصغيرة.

كل هذا ومبنى سهيل لم يُحرِّك ساكنًا؛ لم ترَ أحدًا يخرج منه أو يدخل إليه. ولم يُنادِ فيه المؤذِّن للصلاة، ولم تستشعر أي جلبةٍ يُحدثها المصلُّون استعدادًا للصلاة. لا شك أن أمها بدأت تقلق من غيابها. وأدركت كذلك أنها لم تأكل شيئًا طوال اليوم، وشعرت باضطراب معدتها. وفكَّرت مرَّة أخرى في أنه كان يجدر بها انتظاره حتَّى يعود إلى المنزل. ثمَّ تأرجحت البوابة منفتحة، وها هو أمامها الآن، ويداه متربِّعتان على صدره.

- منذ متى وأنتِ هنا؟

- منذ وقتٍ طويل. هل يمكنني الدخول؟ أنا ظمأى جدًّا.

- انتظري.

تراجع عبر البوَّابة ثانيةً ثمَّ خرج يحمل كوب ماءٍ من القصدير. تجرَّعته فإذا به ماءٌ فاتر ذو مذاقٍ معدني، لكنها شربته على أية حال.

- إذن، هذا هو مكانك الجديد؟ أي مكانٍ هذا؟

- بيت اجتماعات.

- هل يمكن لأي أحد الانضمام؟

- أجل، إذا رغبوا في ذلك.

زفر تنهيدةً مثقلة، ثمَّ فاجأها أن وضع يدًا على كتفها، وسألها: «هل من شيءٍ يثقل كاهلكِ يا مايا؟».

قرَّرت أن تتوخَّى الحذر قليلًا في جوابها، فاستهلت قائلة: «في ذلك اليوم حين كنا بالمشفى، بماذا همست في أذن أمي؟».

أجابها بصوتٍ رقيق، مملوء بالحب: «يس». ثمَّ أضاف بعد هنيهة: «والقرآن الحكيم. إنكَ لمن المرسلين...».

لا بُدَّ أن هذا هو ما شفى أمي، نداء بكورتها، وإعجازية صوته.

استطردت مايا: «إنها أفضل كثيرًا كما تعرف. تتجوَّل في البيت وما إلى ذلك».

توقَّفت عربة ريكاشة أمامها فجأةً، وسأل السائق وهو يدقُّ جرسه باللغة البنغالية: «توصيل؟».

أوشكت مايا على الإشارة للرجل بالرحيل، لكن سهيل أجابه: «انتظر هناك. ستحتاج الأخت إلى الوصول إلى منزلها حالًا».

- سهيل، من فضلك، دعني أدخل. أحتاجُ إلى الحديث معك.

لم يَجِر سهيل جوابًا، بل اكتفى بوقوفه أمام الباب كأنما يحرس ما بالداخل. وأدركت مايا أنه سيتعيَّن عليها أن تُخبره ما تريد في ذلك المكان، في الشارع. ثمَّ قالت: «إن الأمر يتعلَّق بزيد».

أمعنت النظر في وجهه لترى إن كان يعرف بالأمر، إن كانت لديه أي فكرة. ثمَّ أردفت: «سمعتُ أنه هرب. حين كانت أمي بالمشفى».

تنهَّد سهيل، وكانت يده ثقيلةً على كتفها.

تابعت مايا متسائلة: «هل أخبرك عن سبب هروبه؟».

هزَّ رأسه نفيًا.. هزَّة ضجرٍ واستسلام. ثمَّ قال: «قال حضرة الناظر ...».

قاطعته مايا: «إنه الناظر الذي أودُّ التحدُّث إليك بشأنه. هناك شيءٌ ما يحدث، شيءٌ غير قويم، لقد رأيتُ زيد، ولم يبدُ لي بخير. كانت أمي ذاهبةً إلى المشفى في ذلك اليوم، وإلا لكنتُ أتيتُ إليك».

كانت تختلق الأعذار عن نفسها. لو أن زيد لم يصل في تلك اللحظة، لو أنها صحبته معها إلى المشفى.

خرجت من أفكارها وتابعت: «المقصد هو أن عليك إخراجه من هناك. هذا المكان ليس آمنًا، ليس آمنًا على الأطفال. إن هذا الناظر يأتي بأفعال، لا أدري بالضبط حقيقتها، ولكن الأطفال لا يملكون أي وسيلة دفاعٍ ضده. هل تفهم ما أقوله؟».

أشاح بوجهه عنها. وعلى الجانب المقابل، كان سائق الريكاشة قد تكوَّم على كُرسي عربته. بيد أن معالم الحياة في المدينة تظهر وتتلاشى تدريجيًّا؛ شاحنات النقل تُسرع في طريقها من بعيد، وصفير عربات القطار على خط السكك الحديدية. مدَّت يدها لتُلامس يده، وهي تتصوَّر الصدمة التي تعتمل بداخله شيئًا فشيئًا. ولمَّا استدار إليها وتحدَّث، كان صوته جافًّا مخشوشنًا حين أجابها: «إنه يكذب، تعلمين ذلك. إنه يكذب طوال الوقت».

في تلك الأثناء، ظهر خطٌّ غضب عميقٍ بين عينيه.

- أعلم ذلك، ولكن لا يسعك المخاطرة. حتَّى لو أن ثمَّة احتمالًا وحيدًا ضئيل على أنه ينطق بالصدق، عليك أن تُخرجه من ذلك المكان. أقول لك إنه لم يبدُ بخير قط. وقالت رقية...

- هل التقيتِ برقية؟

- لقد ولَّدتُ طفلتها هذا الصباح.

- شعرت الأخت خديجة بالإهانة من الطريقة التي غادرت بها الجماعة.

ها هو الدليل يتزعزع ويصير أقل مصداقية وأشد هشاشة. فكرَّرت فكرتها الرئيسة:

- المدرسة ليست مكانًا جيدًا يا أخي.

- أراكِ بالكاد موضوعية في هذا الأمر.

أخذ يُخلِّل لحيته بكلتا يديه، والزبيبة الأرجوانية على جبهته تعكس الضوء المحتضر. يؤمن المتدينون أنه في يوم القيامة ستسطع الشمس مثل نبراسٍ وهَّاج، وها هي تتصوَّره الآن، ضوءٌ ينسكب من جبهته، مثل ضوء المصباح الأمامي الذي يرتديه المُنقِّب حول رأسه.

سألته مايا: «ستذهب غدًا إذن؟».

لاذ بالصمت، وأخذ يجذب شعيرات لحيته بقوة، ويُروِّض تجعيداتها. ثمَّ أجاب أخيرًا: «إنه ابني. وسأتأكَّد من سلامته».

- عِدني أنكَ ستذهب غدًا.

- لا يمكنني أن أعدكِ بذلك.

لا يُعقل أنه يقصد ما قاله! لن يذهب، لن يُنقذ ابنه من فُتحة الجحيم تلك التي أرسله إليها!

أجابته مايا: «أنتَ تريد منه أن يكون مثلك تمامًا، أليس كذلك؟».

أخذ سهيل خطوةً نحوها، وقد صار قريبًا، شديد القرب، ثمَّ أوضح: «بل أريد -أكثر من أي شيءٍ آخر في هذه الحياة- ألا يصير مثلي. لهذا السبب تحديدًا أرسلته بعيدًا».

لم يكن ما قاله منطقيًّا؛ هكذا أخبرته، فأجابها: «لن تفهمي ما أعنيه».

ثمَّ منحها قبلةً رقيقة، وقد أساء طبعها على جبهتها، فاستقرَّت شفتاه على حاجبها. تصنَّعت رباطة الجأش والتماسك، متسائلةً عمَّا ستفعله الآن. لقد وقفت تنتظره طيلة كل هذا الوقت على أمل أن ينبثق من فمه فعلٌ نبيل. في المشفى، حين واتاها هاجسٌ بالأمر. جاء إليها ومكث إلى جانب أمه، وقرأ لها الآيات. وفي ذلك الوقت، حسبت أن ما فعله قد يكون كافيًا. لكنه الآن لم يُصدِّقها، ولن يُنقذ ابنه أبدًا.

***

ما إن وصلت إلى منزلها حتَّى وجدت أمها تغطُّ في النوم. فأخذت تحزم حقيبةً صغيرة، بها فرشاة أسنان، وبعض الملابس للتغيير. تبادرت إلى ذهنها شقيقة رقية، فصعدت إلى سطح البيت وجذبت شادور أسود طويل ونقاب من حبل الغسيل. وكتبت رسالة إلى أمها تركتها على الطاولة الجانبية لفراشها، تقول فيها «عليَّ العودة إلى راجشاهي لبضعة أيام. هناك بعض الأغراض التي عليَّ جمعها».

وقبل أن تتسلَّل إلى النهار الذي يكشف عن خيوطه، والسماء ورديةٌ كهرمانية، هاتفت جوي. أجابها متسائلًا والنوم يبتلع وضوح صوته: «ما الأمر؟ هل غيَّرتِ رأيكِ؟».

- كلا.

- جيد. أتعرفين؟ يمكننا أن نهرب. إن مكاتب القضاة في جميع أنحاء البلاد. يمكننا أن ندسَّ بعض الدولارات في جيوبهم، وسينجزون أمر زواجنا على الفور.

أخبرته مايا من أمر ذهابها إلى راجشاهي لبضعة أيام.

- دعيني أذهب معكِ.

- لا. ولكن هلَّا أسديت لي معروفًا.

- أي شيءٍ تطلبينه.

- أريدك أن تعثر على شخصٍ من أجلي. شخصٌ فقدته في الحرب.

***

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

في اليوم التالي

لا ينطفئ هذا المشهد أبدًا: نهر الجامونا، تضرب مياهه الضفتين بقوةٍ ثائرة، حتَّى في انحساره في أثناء الشتاء. ومع أن مايا هرعت إلى النهر، فإنها توقفت هنيهة قبل أن تصعد على متن العبَّارة، متلذِّذةً بطميه وطينه البُنِّيِّ. قليلٌ هو في هذه البلاد ما يثير الذهول، عدا هذا النهر باتساعه وخطورته، كان أعجوبةً في نفسه.

تكدَّست العبَّارة بالرُّكاب في صباح يوم السبت ذاك. فأخذت مايا مقعدها على السطح السفلي من السفينة. دوَّت صافرة الانطلاق، فاتخذت العبَّارة سرعتها، متمايلةً مثل كُرسي هزَّاز وهي تضرب بقاعدتها مجرى نهر الجومانا.

قليلٌ هو كل ما تعرفه عن المدرسة، عدا القرائن القليلة التي استطاعت تجميعها معًا. كان سهيل قد أخبرها أنه سيصحب الصبي إلى شاندبور، وأخبرها زيد أن المدرسة على جزيرة خاصَّة بها في منتصف النهر. فألقت نظرةً على خريطة، ووجدت ثلاث مناطق مختلفة باسم شاندبور. واحدةٌ فحسب هي ما كانت بالقرب من نهر. وعند بزوغ الفجر، وقبل أن ترتحل في طريقها، صعدت إلى الطابق العلوي واستجوبت خديجة، فلم تَجِر الأخيرة بجوابٍ يُفيد. وكان ما قالته لها هو: «ما عدتِ تزورينَنا».

آنفًا، أباحت مايا لنفسها التعرُّض للخداع. كل تلك المساءات التي قضتها، ثملةً باحتمالية أن يكون ثمَّة وجود آخر له يدٌ في مرض أمها، يدٌ عليا سماوية قد يتسنَّى لمايا أن تُراوغها بمساعدة خديجة والجماعة. أنَّى لها أن تكون بهذه الحماقة؟ ما كان يجدر بها قط أن تدع سهيل يأخذ زيد إلى تلك المدرسة. شابَ مرض أمها قدرتها على الحكم على الأمور. ولمَّا جاء إليها زيد، ردَّته بعيدًا في عنف. أيُّ أمٍّ ستكون؟ لم يسعها حتَّى أن ترى ما كان جليًّا أمام عينيها.

تكدَّست المقصورة الآن، وصار هواؤها ثخينًا مثقلًا بالحرارة. دفعها البقاء بالداخل إلى الشعور بالظمأ. فتحرَّكت إلى السطح ومالت بذراعيها على السور، فسقطت قطراتٌ بسيطة من الماء على وجهها. ثمَّ وجدت كشكًا للمشروبات الباردة، به فتًى يُغطِّي نصفه السفلي بتنُّورة لونجي رجالية مرفوعةٌ حول فخذيه، يجلس القرفصاء أمام وعاءٍ من الثلج والمشروبات الغازية.

قالت مايا: «كوكاكولا، من فضلك».

بدا في الثانية عشر من عُمره، وذراعان قويَّتان تبرزان من صدرية كانت بيضاء ذات يوم. أخرج الفتى زجاجةً من الوعاء، ومسحها بخرقةٍ، ثمَّ فتحها بحافة الطاولة الخشبية المُتهالكة أمامه.

دفعت له مايا خمس تاكات. التقت عيناه بعينيها فابتسم ابتسامةً عريضة، ابتسامة أمل، حتَّى تفاجأت بنفسها تسأله لم لا يذهب إلى المدرسة.

رفع كتفيه ولم يَحِر جوابًا، وهو مُبقٍ على ابتسامته.

- أين تعيش؟

- على متن هذه العبَّارة. إن سائقها هو عمي.

اقتربت عائلةٌ كبيرة من الكشك، وطلبوا مشروباتهم. صاح الأبُ، منتشيًا بمزحته: «ثلاثة ميرندا، وسبعة 7 أب!». ثمَّ أضاف: «أسرع، ها». اندفع الفتى يُجهِّز طلباتهم، وهو يتصيَّد الزجاجات في الماء المُثلَّج، ويُلقي بأخرياتٍ جُدد من الصناديق المُكدَّسة جنبًا إلى جنب. تمهَّلت مايا وراحت تُتابع عمل الفتى. أخذ الرجل مشروباته، وألقى بنقوده إلى الفتى، وهو يراوغ القشَّات الرفيعة المُدبَّبة تتمايل في الزجاجات المفتوحة.

سأل الفتي: «هل تعيشين في دكَّا؟».

أجابته: «أجل، أنا طبيبة».

دفع بشفته السفلى إلى الخارج وأومأ مشدوهًا، ثمَّ قال بالبنغالية: «دكتورة».

صارت العبَّارة في عرض النهر الآن، واختفت الضفاف على الجانبين. نادى المؤذِّن لصلاة العصر. وبعد هنيهة، تباطأت سرعة العبَّارة، وحشرج المُحرِّك، ثمَّ توقَّفت بغتةً، وغرق كل شيءٍ في الهدوء؛ عدا خرير الماء يُلاطم السفينة.

قال الفتى: «يتعطَّل المُحرِّك أحيانًا».

ثمَّ سمعا صياحًا آتيًا من الأسفل، ووقع أقدامٍ تركض هنا وهناك. اختفى نسيم البحر، فاحتشد الرُكَّاب في الممرات، وهم يميلون بأجسادهم على السور.

قال الفتى: «تعالي معي. أعرف مكانًا أفضل من هنا».

هزَّت مايا رأسها رفضًا، وأجابت: «آه، لا بأس. حقًّا، الوضع هنا على ما يُرام. أضف أنه لا يجدر بك ترك الكشك؛ سيرغب الناس في شراء مشروباتهم».

كان قد شرع في إزاحة الوعاء أسفل الطاولة، وطيِّ الطاولة المكعبية الصغيرة. ثمَّ تبعته مايا وهو يقودها لأعلى صفٍّ من السلالم، ثمَّ قطعا العبَّارة من الداخل، حتَّى وصلا إلى سُلَّم متنقِّلٍ ضيِّق. تسلَّقه الفتى سريعًا، وقدماه الحافيتان تتكوَّران حول الدرجات المعدنية، ثمَّ استدار ومدَّ يده إلى مايا.

انفتحت عيناها على جوٍّ مشرق، والشمس تنعكس بأشعَّتها على السطح المطليِّ بالأبيض، لكن الجو أشدُّ برودةً من الأسفل، والرياح حارَّة عاصفة. كان ثمَّة إفريزٌ ضئيل عند الركن الشرقي، فافترشا الأرض عنده معًا. نادى المؤذِّن للصلاة مجدَّدًا. وكان هناك قلَّةٌ من الناس: رجلٌ فَرَدَ قطعة صغيرة من قماشٍ مستطيل وشرع في الصلاة، وهو يتجه برأسه نحو الغرب. ودونما وعيٍ منها، أفضت شفتا مايا بصيغة الصلاة. وتذكَّرت أمها وهي تُعلِّمها الآيات بأناةٍ وصبر، وكيف استسلمت على مضضٍ في المشفى. مرَّت عليهما ساعةٌ، ثمَّ قال الفتى وهو يستأذنها بالانصراف: «عليَّ أن أبيع المشروبات».

سألته مايا: «ما اسمك؟».

- كياكا.

- إلى اللقاء يا كياكا. (لوَّحت مودِّعةً إياه، ثمَّ أضافت) الله معك.

زفرت العبَّارة شهقة العودة إلى الحياة، وأخذت الصافرة تدوِّي لمَّا شرعت العبَّارة في حركتها. وسرعان ما اقتربت من الجانب الآخر، تطفو رويدًا نحو اليابسة لتُعانقها، وضوء الشمس مُفعمٌ بالحياة في الأفق.

***

ما إن غادرت مايا العبَّارة، حتَّى وجدت كياكا بانتظارها، يحمل صُرَّة صغيرة.

- دكتورة، إلى أين تذهبين؟ اسمحي لي بالمجيء معكِ. يمكنني المساعدة.

اتضحت لها معالمه الآن تحت الوهج التام لشمس ما بعد الظهيرة. كانت له عينان داكنتان لامعتان، وسيصير وسيمًا ذات يوم، لو أنه تغذَّى تغذية سليمة، لو أن كتفاه لم تحترقا وتُحدودبا من أثر الساعات الطويلة التي يقضيها على متن السفينة. لكنها لم ترغب في أن تُثقل كاهلها بأحدٍ؛ هذا الفتى سيطرح الأسئلة، ولن تقوى هي على تجاهلها. مدَّت يدها إلى داخل حقيبتها وأخرجت بضع ورقاتٍ نقدية، وقالت: «لا، لا بأس».

هزَّ رأسه رافضًا المال، وقد ظهر خجله بغتة.

ما إن وطأت قدماها مهبط العبَّارة، حتَّى وجدت نفسها محاطةً بالحمَّالين وبائعي الشاي، وباعة وجبات التشيبوتي، والبحَّارة، والناس من كل صنفٍ ولون ممن يريدون الشراء أو البيع أو الاستئجار. غربت الشمس إلى مغيب الشفق الأحمر، لكن لا يسعها أن تتوقَّف هنا، بل تريد بدء رحلتها شمالًا، نحو شاندبور. قبضت على حقيبتها، وراحت تمسح الشاطئ بحثًا عن قاربٍ ريفي فارغ. وما إن رآها البحَّارة، صاحوا بها منادين.

- أختاه، تحتاجين إلى الذهاب إلى مكانٍ ما، تعالي معي!

- نحو المنبع، نحو المصبِّ، أي مكانٍ تريدينه يا أختاه، تعالي، تعالي.

وقفت متردِّدةً إلى جانب أحد القوارب، وقد انتابها شعورٌ مفاجئ بعدم اليقين ممَّا عليها فعله. لقد سافرت بمفردها مرَّاتٍ عديدة، ولكنها تتطلَّع من حولها الآن ولا ترى سوى أنها المرأة الوحيدة في المرفأ، وتفاجأت بنفسها تتمنَّى لو أنها طلبت من جوي المجيء معها. بدأتِ تلينين أيتها الرفيقة حق.

ولمَّا أثار غضبها الضعف المُفاجئ لثقتها بنفسها، أشارت من فورها إلى أحد البحَّارة. ثمَّ أعلنت له: «أحتاج إلى الترحال نحو المنبع».

أومأ البحَّار بإيجابٍ، وهو يقول: «أجل، أجل. اسمحي لي بضبِّ حاجياتك».

- أخبريني ما هو السعر أولًا.

- لا تقلقي بشأن السعر يا أختاه.

ومدَّ البحَّار يده مجدَّدًا، فلامست حزام حقيبتها.

جذبتها إلى الوراء، وقالت: «لا عليك، لقد غيَّرتُ رأيي».

تجاوز الرجل قاربه بمسافةٍ قليلة، وأقبل ليقف إلى جانبها، ثمَّ أردف: «لا تقلقي يا أختاه، ستكون الأجرة معقولة. وعلى أي حال...».

تصيَّد الرجل شيئًا من زاوية فمه، ومضغها، ثمَّ بصقها، ومضى قائلًا: «لا ينبغي لامرأةٍ أن تسافر بمفردها».

استدارت مبتعدةً عنه، بعدما شكرته على مساعدته. وعلى مبعدة، كان البحَّارة الآخرون يُراقبون المشهد، فصاح لها أحدهم: «السيدة لا تعلم إلى أين تريد الذهاب! وتدعين رجلًا فقيرًا يتضوَّر جوعًا، يا عيب الشؤم عليكِ. على الأقل اتركي لنا شيئًا لقاء مشقَّتنا».

دفعها سُخف الطلب إلى الاستدارة لمواجهته، وتصفعه بردِّها: «أي مشقَّة؟ ينبغي لك أنتَ أن تدفع لقاء تحرُّشك بي هكذا».

اكفهرَّ وجه الرجل، وقال: «أتحسبين أن بإمكانك الحديث إليَّ بأي طريقة تُعجبكِ؟ (شدَّ على ذراعها ومضى قائلًا) ألأنكِ تملكين المال وأنا مُجرَّد بحَّار؟».

تفاقم غضبها وأخذت تُكيل له: «أتحسب أن بإمكانك الحديث إليَّ بأي طريقة تُعجبك لأنني مُجرَّد امرأة؟».

ثمَّ دارت على عقبيها واتجهت نحو العبَّارة، واستمرَّ صياح الرجل من خلفها. وعلى خلفية المشهد، توقَّف الناس عن غسل قواربهم وأخذوا يُحدِّقون إليها. كانت فُرجة المرفأ، تركض على امتداده ذهابًا وإيابًا بمفردها.

وفي تلك الأثناء، كان كياكا يحمل صندوقًا من زجاجات الكولا على كتفه. فلمَّا رأته، صاحت وهي تُحاول السيطرة على رعشة صوتها: «لقد غيَّرتُ رأيي. اعثر لي على بحَّار، بحَّار أمين، على استعداد ليصحبني أعلى النهر».

- فات الأوان يا دكتورة، لن يقبل أحدٌ باصطحابكِ الآن. إنهم جميعًا يُغادرون سلالم المرفأ، أترين، بدأ الظلام يحلُّ.

لملمت شتات نفسها، ومع أن صُفرة النهار تستحيل إلى رمادية الليل، كان الجو حارًّا حرارة لا تُحتمل، وتساءلت إن كانت تفعل الصواب أم لا، مستشعرةً مدى إلحاح الأمر، متوجِّسةً الذعر الحالك الذي يتملَّكها من عدم معرفتها بمكان زيد. وذاك الفتى، فتى المشروبات الباردة ذاك، إنه فتًى موغلٌ في فقرٍ مُدقع حتَّى إنه مضطرٌّ إلى قضاء يومه بأكمله مُحاصرًا بين مرفأ وآخر، يفتح الزجاجة تلو الزجاجة ولا يرتاد مدرسةً أبدًا. لكنه يحظى بتلك السماء الشاسعة من فوقه، ويمكنه السير على ساقيه، بإرادته الحُرَّة.

أجابته مايا: «أرجوك، يجب أن تعثر لي على أحدٍ. سأدفع له، أنا أملك مالًا. ولكن يجب أن نُبحر الليلة».

- حسنًا، سأحاول.

خفَّف وطأة الحقيبة على ذراعها، ثمَّ قادها إلى نقطةٍ أبعد على امتداد الشاطئ. كان البحَّارة يحزمون أمتعتهم، ويُنظِّفون مُحرِّكاتهم ويُصرِّفون المياه. ولمَّا وصلا إلى البقعة المنشودة، تركها عند دُكَّان صغير، ابتاعت منه كيس بسكويت وكوبًا من الشاي. ثمَّ عاد إليها بعد دقائق قليلة، مصطحبًا إياها إلى قارب ريفي بسيط. وهناك حيَّاها بحَّارٌ طاعن في السن، ثمَّ قال كياكا: «إن عمي سيعتني بكِ، أليس كذلك يا عمي؟».

مدَّ إليها كياكا يده لتستند إليها وهي تصعد إلى القارب. ثمَّ قال: «من بعد إذنكِ يا دكتورة، أودُّ المجيء معكِ».

- ألا تظنُّ أن بإمكاني قضاء تلك الرحلة بمفردي؟ أتعرف أني قد فعلتها من قبل. لقد تطوَّعتُ في الحرب.

أجابها: «هل تطوَّعتِ في الحرب حقًّا؟ عمي أيضًا كان بالحرب. ولديه ندبةٌ هنا. (ومرَّر إصبعًا على امتداد خده) من طلقة نارية أصابته».

وابتسم مجدَّدًا، كأنما ليس هناك أي مأساة قد حدثت في العالم لم يسمع بها، بل وهزمها. وعلى ذلك أجابته مايا: «حسنًا، تعالَ إذن».

بدؤوا رحلتهم والشمس تُوجب طيفًا نحو الأفق، يُبحرون عكس تيار الماء، والناس على الشاطئ يتضاءلون ويتضاءلون، حتَّى استحالوا إلى ذرات غبار صفراء لامعة، مثل سجائر مشتعلة في غرفة مُظلمة. ومن بين ألواح الخيزران

أمكنها أن ترى الماء يرتفع على جانبي القارب. مرَّت بهما الساعة الأولى في صمت، وأخذ البحَّار يُدندن بالأنغام وهو موغلٌ في التجديف. وبعد هنيهة، قال كياكا: «يا دكتورة، أعلم أنه لا يجدر بي السؤال، ولكن هل أنتِ واقعةٌ في مشكلة؟».

ارتبكت مايا قليلًا، وتساءلت في قرارة نفسها عمَّا إذا كان سيتفهم أي شيءٍ ممَّا هي بصدده. ثمَّ قرَّرت الإجابة: «أنا أبحث عن صبي. ابن أخي».

ولمَّا نطقت بأولى كلماتها، انسابت القصَّة من بين شفتيها، وقصَّت عليه من أمر عودتها إلى الكوخ الصغير في دكَّا بعد غيابٍ طويل، ومرض أمها، واختفاء زيد. كان وجه كياكا يتحرَّك مع كل فصلٍ في القصَّة. وأمكنها أن تستشفَّ من تعبيرات وجهه أنه كان يُفكِّر بنفسه، ويُقارن حياته ومآسيه بحياة الصبي الآخر ومآسيه. وكان يُلملم تفاصيل أفكاره: وفاة والديه، وأيامه الطويلة التي يقضيها حاملًا صناديق المشروبات صاعدًا وهابطًا درجات المرفأ.. وجراحه الأخرى الدفينة كلها. وإذ أوشكت على الانتهاء من سرد حكايتها، كادت أن تنسى أين هي في تلك اللحظة وهي تصف ما أفشته لها رقية، ثمَّ لقاءها مع سهيل. ولمَّا تطلَّعت من حولها، رأت عيني كياكا تلمعان. ثمَّ مال على جانب القارب، واغترف من ماء النهر بيده، ثمَّ نثره على وجهه.

لا يليق به أن يعانقها، ولكنه لمَّا مسح وجهه براحتيه في خشونة، بدا وكأنه عانقها، وكأنه قال لها وجودكِ هنا الآن هو الصواب، وجودكِ على هذا القارب، وسفركِ عبر النهر بحثًا عن ذلك الصبي هو الصواب. وحين تعثرين عليه، ستعثرين عليَّ أيضًا.

هكذا قضوا رحلتهم باتجاه مجرى النهر، ومياه جامونا تضرب ضفافه، تُطالب بمرورها، مُحطِّمةً مبتلعةً أجزاءً من الشاطئ في طريقها، تدفع بهما إلى وجهتهم، بوتيرتها الخاصَّة، وتحت قيادتها الخاصَّة.

***

أخبرت كياكا بكل ما تعرفه عن المدرسة.

- إذن أنتِ لا تعرفين اسمها؟

- لا. لستُ على دراية بهذه المناطق من البلاد.

- ولا تعرفين القرية؟

- لا. أنا آسفة.

- إذن سنذهب إلى كل مدرسة في كل قرية قُرب شاندبور وسنعثر عليه.

كان زيد قد أخبرها أن المدرسة مُحاطةٌ بالماء من كل جانب. لم تفهم مقصده آنفًا، لكنها الآن رأت بعينيها ما كان يعنيه. النهر شاسع وعنيف، يخلق الجُزر من تلقاء نفسه. لقد سمعت بتلك الظاهرة، لكنها لم ترها حقيقةً من قبل. وأخبرها كياكا أنها تُسمى «شار»، وأشار إلى تلك الأراضي الناتئة من أجلها، لترى قطعًا ضحلة عائمة من الأرض، ترتفع سنتيمتراتٍ عدَّة عن الماء، وتتناثر عليها بواكير حشائش مُصفرَّة. ثمَّ أوضح لها:

- تظهر تلك الجُزر كل عام بعد انقشاع الرياح الموسمية. ربما تبقى، وربما يأكلها الماء في غضون أشهرٍ قليلة. تلك الجزيرة هناك (وأشار إلى ما بدا أشبه بشاطئ) هي جزيرة قديمة، صامدةٌ في مكانها منذ سنوات. لا بُدَّ أن المدرسة التي تقصدينها مبنية على واحدة من الجُزر القديمة.

أنهى حديثه هامسًا بشيءٍ إلى البحَّار، وقال: «دعونا نتوقَّف هنا ونسأل».

أجابه البحَّار: «لقد تأخَّر الوقت، سنتوقَّف الآن ونُجرِّب غدًا».

فحصت مايا ساعتها. كانت تُشير إلى السابعة مساءً، ولكن الظلام حلَّ، والنهر صار رماديًّا مُغلَّفًا بالسواد والهدوء المُفاجئ.

***

راح البحَّار يسلق الأرز على موقدٍ بدائي إلى جانب المُحرِّك، في حين عكف كياكا على قلي القليل من الروبيان الذي التقطه آنفًا من على جانب القارب. تناولوا ثلاثتهم الطعام في صمت، ودُهشت مايا من المذاق الشهيِّ الذي خلَّفه الروبيان المالح المُقرمش في فمها. وبعدما انتهوا من طعامهم، قال كياكا: «يريد البحَّار أن يطرح عليكِ سؤالًا يا دكتورة». ثمَّ قاد العجوز نحوها. كانت طيَّات جلده العميقة قد قسَّمت وجهه وأضفت عليه العطف واللُّطف. لمَّا مثل البحَّار أمامها، استهل قائلًا: «إن زوجتي تُعاني شيئًا في حلقها». وحرَّك يده أعلى وأسفل رقبته المترهِّلة، ثمَّ أضاف: «إنه مُكوَّر، هكذا».

- أتقصد إنه مُتورِّم؟

- تبدو كمَن ابتلع يقطينة.

كانت شفتا العجوز نفسه مُحدَّدةً بصبغةٍ برتقالية من بذور التنبول، وفمه أسود.

أجابته مايا: «يُسمى هذا بمرض الدُّراق أي تضخُّم الغدة الدرقية. إنها بحاجةٍ إلى اليود. عندما تذهب إلى البقَّال لشراء الملح، أخبره أنك تريد ملح اليود».

- هل ثمنه مُكلِّف؟

- تكلفته تساوي تكلفة الملح الآخر.

سنَّ القانون بوجوب أن تحوي كل أنواع الملح عُنصر اليود، ولكن لا يمتثل للقانون جميع المُنتجين. ولمَّا كانت في راجشاهي، أقنعت باعة الملح أن يتحوَّلوا إلى بيع ملح اليود. وما عاد هناك حناجر متورِّمة في قريتها قط.

رفع البحَّار يده اليمنى إلى جبهته، مُعربًا لها عن شكره، ثمَّ أشار لها لتُمدد جسدها على طول القارب، في حين أنه وكياكا سيجدان بقعةً جافة على الشاطئ ليناما. سرعان ما غطت مايا في النوم، محتضنةً نفسها بذراعيها، ومُعمِّمةً الخمار على جسدها كالغطاء.

في الصباح، حيَّا كياكا جمعًا من الرجال يتجهون نحو الحقول. أخبروهم أن ثمَّة مدرسة هنا. فمشيا مُثقلين بين قلةٍ من حقول الأرز، حتَّى وصلا إلى بناءٍ مدرسي أزرق أُسس بأكمله من صفائح قصدير مُموَّجة. كان ثلةٌ من الأطفال يرتعون في رقعةٍ خشنة من الحشائش خارج المبنى. فلمَّا رأتهم مايا، ارتدت على أعقابها قائلة: «لا يمكن أن تكون هذه هي المدرسة».

- ألا تريدين البحث عن المدير؟

فأجابته وهي تُشير إلى الأطفال: «انظر، إنهن فتيات».

تابعوا ثلاثتهم الرحلة في النهر، والبحَّار يُجدِّف عكس التيار. ثمَّ توقَّفوا مرَّاتٍ أخرى قليلة، ساعين نحو مبانٍ مدرسية بدائية ومبانٍ ملحقة أُقيمت على أراضي المساجد. بيد أن الجُزر قد حملت في طياتها طابع المؤقتية حيالهم، فظهر ساكنوها خفيفي الروح رخي البال ورياح النهر تعبث بسواري نسائهم وتنانير رجالهم فتنتفخ بالهواء. وفكَّرت مايا في قرارة نفسها، وشمسُ يومٍ آخر تغوص مجدَّدًا أسفل أفقها المائي، أنها ربما تعود يومًا إلى هذا المكان بقلبٍ سعيد.

***

في الصباح التالي، توقَّفوا أمام جزيرة شاسعة ترتفع عن مستوى النهر عدَّة أقدام. شقَّ مايا وكياكا طريقهما سائرين على الدرب المُمهَّد وشرعا في رحلتهما عند حافة الماء، وأصابع قدميهما تغوص في الطمي. وبعد بضع خطوات ارتفعت الأرض شيئًا فشيئًا وصارت جافَّة، ثمَّ صار السير مريحًا، وكياكا يؤرجح حقيبتها وهو يسير إلى جانبها، وطيور الوقواق والبلابل تُغني في جوقة متآلفة، تُغني لهما.

استغرق الأمر منهما بدايتين خاطئتين حتَّى يصلا في نهاية المطاف إلى بابٍ أزرق صغير أُعمل في حائط صلب بلا نوافذ. شعرت مايا باضطرابٍ أجوف في أحشائها، وحدَّثت نفسها: «لا بُدَّ أن هذه هي المدرسة». ثمَّ أخرجت الخمار من حقيبتها وأسدلته على رأسها. وربطت النقاب حول رأسها ووجهها، مشدوهةً بإحساس أنفاسها تُلامس خديها. ولمَّا انتهت، حدَّثت كياكا: «انتظر عند القارب. ربما نحتاج إلى المغادرة في عُجالة».

حامت مايا حول المبنى كاللصوص، فوجدت سورًا عاليًا يُحيط بالمُجمع كاملًا، وعدَّة مبانٍ أصغر حجمًا تُحيط بفناءٍ مركزي. ورائحةٌ نفَّاذة لصبيةٍ لا يعرفون للاغتسال سبيلًا، وثمار موزٍ تعفَّنت وكست البناء مثل سحابة غائمة. وأخيرًا، استجمعت شجاعتها وطرقت الباب. فتح صبيٌ -أكبر من زيد- الباب على الفور. فقالت متسائلة: «أين حضرة المدير؟ خُذني إليه».

ارتبك الصبي، وهو يسألها مترددًا: «حضرة المدير الكبير أم نائب حضرة المدير الصغير؟».

لم تكن تدري مَن تريد مقابلته، فأجابته: «لا يُهم. أفترض أنه الكبير. كائنًا مَن كان مسؤولًا هنا».

انتصبت قامة الصبي، كأنما تذكَّر أمرًا، ثمَّ قال: «لا يُسمح للنساء بالدخول».

- لا بأس يا فتى، إنه يتوقَّع قدومي.

ومدَّت يدها وربتت على طاقية الصبي، لكنه ازداد تصلُّبًا، وتراجع إلى الوراء حتَّى اختفى في الظلمة. ثمَّ قال: «كلا». وأوشك على إغلاق الباب.

عاجلته مايا ممسكةً بكتفيه، وقالت: «إن حضرة المدير سيقابلني، أدخلني إليه».

دفعها الصبي، وصفع الباب في وجهها. فأخذت تطرق بقبضتها على الباب، عالمةً بانتظاره على الباب الآخر، وهي تُردد: «افتح الباب!».

حامت حول المبنى مجدَّدًا، وهي تُنقِّب عن مدخلٍ آخر. فبدا لها مهجورًا، لا وقع أقدام، لا أصوات من أي نوع. عادت إلى الباب الرئيسي، وطرقت بقبضتها مجدَّدًا. شعرت داخل نقابها بعتمة قاسية وحرارة تلفح جلدها. وخرجت الأنفاس من رئتيها كزئير الأسود.

لا جواب.. لا شيء. ارتدت على عقبيها، وركضت عائدة إلى النهر. كان مرسى القارب مفكوكًا، وكياكا والبحَّار ينتظران والمجاديف على حجريهما. فقالت لهما: «لم يسمحوا لي بالدخول».

سألها كياكا: «كم عددهم؟».

- مُجرَّد صبي. لا بُدَّ وأن حجرات الدراسة في مؤخِّرة المبنى، ولكن لم يتسنَّ لي التأكُّد من الأمر.

أجاب كياكا: «اسمحي لي أن آتي معكِ. يمكنني المحاولة وإيجاد طريقة للدخول».

وخاض في الماء حتَّى وصل إلى الشاطئ.

جرَّبا الطرق على الباب مرَّة أخرى. ولمَّا فتح الصبي الباب، كان كياكا هو من تولَّى الحديث.

- نحتاج إلى الدخول. إن الأمر مهمٌّ جدًّا.

أشار الصبي إلى مايا، وأجاب: «غير مسموح للنساء».

دفع كياكا الفتى جانبًا، وخطا عبر الفتحة في الباب. أوشكت مايا أن تتبعه، لكن كياكا أغلق الباب من خلفه. وهي على الجانب الآخر، سمعت عراكًا بالداخل، ووقع أقدام، وأصواتًا مكتومة تحمل نبراتٍ مُتبرِّمة. سمعت أحدهما يقول: «**الآن. الآن**».

فُتح الباب، وكياكا قابضًا على مرفق الصبي، ثمَّ قال: «ادخلي. وسأبقى أنا هنا».

همست سائلة: «ماذا قلتَ له؟».

- قلتُ له إنكِ شقيقة حضرة الشيخ حق، وإنكِ أتيتِ إلى هنا لعملٍ مهمٍّ، وإنكِ حين تخطين إلى الداخل، ستُغدقين على المدرسة بالعطايا العظيمة.

- حقًّا؟

- سامحيني يا دكتورة، لقد أخبرتُ الصبي أنني سأبرحه ضربًا حتَّى تفرَّ الدماء من أذنيه لو لم يفعل ما آمره به.

تنشَّق الصبي غاضبًا، واستدار ليقودها عبر الممرِّ ومنه إلى الفناء المفتوح. ثمَّ سألها أن تنتظر بينما يتحدَّث هو إلى حضرة المدير. فقالت له: «أخبره أنني السيدة حق». ووقفت تنتظر، محاولةً ألا تتململ حنقًا من حرارة الجوِّ. ثمَّ خرج الصبي وقادها إلى داخل غرفةٍ صغيرة. ولمَّا دخلت، تراءى لها رجل نحيف ذو لحية مُهذَّبة يجلس إلى مكتبٍ ويُمسك قلم حبرٍ في يده، والنظَّارة الطبِّيَّة تستقرُّ مرتفعةً على أرنبة أنفه.

بادرت مايا قائلة: «أودُّ التحدُّث إلى حضرة المدير. مَن منكما هو؟».

- أنا نائب حضرة المدير الصغير.

- أين هو حضرة المدير الكبير؟

- على سفر.

قيَّمت مايا الرجل أمامها، وأقرَّت في نفسها أن شقيقة رقية على حق بشأن أمر الخمار: من الداخل، يمكنها التحديق بحرِّيَّة دون أن يُلاحظها أحد. وهكذا لاحظت أظفاره المُدبَّبة غير المُقلَّمة، ومحجري عينيه الداكنتين، ومسحة الكُحل (السورما) فيهما، ثمَّ لاحظت جلبابه الطويل الذي يتمسَّح بكاحليه. ازدردت غُصَّة خوف وتوجُّس، مسترجعة ذكرى الرجل الذي وضع السكين على رقبتها.

وضع نائب المدير قلمه، ومنحها ابتسامة بأسنان نصف منكشفة، وهو يسأل: «كيف أخدمكِ يا أختاه؟».

اقتربت مايا منه، ووضعت يديها على الطاولة أمامه، ثمَّ قالت: «أريد أحدهم. صبيًّا».

أطرق حضرة المدير ناظرًا إلى حذائه، وأدرك فجأةً أنها لا تخشاه، وعرف سبب ذهابها إليه، عرف بهذا كله من الوضعية التي وقفت بها وهي تُحدِّق بوجهها إليه. ارتعشت أصابعه واهتزَّ القلم في يده، مثل خطٍّ يشي بدقات قلب ناشزة.

مضت مايا مُضيفة: «لن أمكث طويلًا. لقد أتيتُ لاصطحاب زيد حق. ستُحضره لي، ولن أتسبَّب لكَ في أي متاعب أخرى».

هيَّأت نفسها لجدالٍ طويل، لكنه جلس متصلِّبًا إلى مكتبه، والقلم يُحلِّق في الهواء. أضف إلى ما لاحظته مايا آنفًا، أنها رأت أظفاره مطليَّة بحناء حمراء. فأعادت مطالبها على مسامعه، ورفعت صوتها. سمعت صوتها يُلقي عليه بالتهديدات، ويُخبره أنها ستشي به إلى حضرة المدير الكبير، وسيُخبر هو بدوره رؤساءه. ومن ثمَّ سيُوصم بالعار. ثمَّ ستُخبر هي الشرطة وتتسبب لهم في قفل المدرسة تمامًا. وسيُقبض عليه. هل رأيتَ ما بداخل السجن يا حضرة المدير؟ نهض آنذاك عن كُرسيه وسدَّ الباب، فتقدَّمت بخطواتها نحوه، ووضعت يديها على صدره، وقالت: «أعلم بأمر فعلتك. أعلم بأمرها والله يعلم وستُحرق في الدرك الأسفل من النار على فعلتك». ثمَّ استشعرت مايا رجفةً في صوته وهو يُشير إلى مؤخِّرة المُجمَّع، ويُتمتم بشيءٍ حيال كوخ وباب مُقفل. فردَّدت على مسامعه مجدَّدًا وهو يخلع المفتاح عن رقبته: «أعلم بأمر فعلتك. أعلم بأمرها والله يعلم».

***

سارت حذو البناء، ثمَّ استدارت في عطفةٍ لتجد نفسها على طريقٍ يقودها عبر الأحراش. ثمَّ رأت مبنى المدرسة، حجرةً مستطيلة ذات سطحٍ من القصير. ومن الداخل علا أزيز أصواتٍ كثيرة يُشبه طنين النحل.

وكما وصف لها الرجل، كان هناك كوخٌ صغير مُربع، بحجم حظيرة دواجن. لم يكن لها من سقفٍ، لكن جدرانها عالية. أخذت تطرق بقبضتها على الباب قبل أن تُحاول فتح قفله. خشيت مايا أن تصرخ، وخشيت أن تُسمع، وخشيت ممَّا ستسمعه. وفي خضم طرقاتها، أجاب الباب. لم يكن جوابه صوتًا إنسيًّا، بل مُجرَّد قرعٍ ضعيف، لا يصدر حتَّى من براجم الأصابع، بل أشبه بيدٍ مسندةٍ إلى الباب. ولمَّا رأت القفل متصلًا بمزلاجٍ مُثبت على الباب، استخدمت المفتاح.

تأرجح الباب منفتحًا، وها هو بالداخل، يجلس القرفصاء على جزءٍ بسيطٍ مكشوف من الأرض. فردت ذراعيها، فقفز معانقًا إيَّاها، وظنَّت أنه يُنادي باسمها: مايا، مايا، مايا. أُطرب قلبها لسماعه، ثمَّ اتضحت لها الكلمات، وتذكَّرت أنها ما تزال متخفيةً أسفل خمارها، وأنه أخطأ في التعرُّف إليها وظنَّها والدته: ماما، ماما، ماما.

أودعته القارب، وظلَّ هو متشبِّثًا بها، وأخذ يُردِّد: «**الأبجدية العربية. ألف باء تاء ثاء. أعرفها**». وصل بهم القارب إلى «جايباندا». وفي ظلمة الليل مجدَّدًا، توسَّلت مايا لزيد أن يأكل شيئًا. لكنه رفض، وأخذ يُحدِّق عبر شبكة الخيزران الرفيعة المُقنطرة على القارب، وعيناه تبحثان عن سماء الليل. يُكرِّر كلماته: «**أعرف الأبجدية العربية.. أين أمي؟**» فتُجيبه مايا: «إنها ليست هنا، وأنتَ تعرف ذلك». ثمَّ يشرع قارئًا الكلمات التي تعلَّمها: «**بسم الله الرحمن الرحيم**». ثمَّ وجدت عظاءةً صغيرة طريقها على سطح المركب، وأخذت تعدو ذهابًا وإيابًا بين ألواح السقف المعقوف. فارتضى بها تسليةً وراح يُطاردها بإصبعه.

أخبرته مايا أن جدته بانتظاره في المنزل، وأنها ستسعد لرؤيته. وسيسعد والده أيضًا. لكن لمَّا ذُكر والده قال الصبي: «**لا أريد العودة إلى المنزل. أعرف الأبجدية العربية. ألف-باء-تاء-ثاء. بسم الله الرحمن الرحيم**». في تلك الأثناء، تكشَّف لمايا جُرح على خده، وكدمة عند انحناءة مرفقه.

اعتصرها الشعور بالذنب الآن، كمدًا على النعل الذي لم تبتعه من أجله قط، وسماحها له بأن يُقبض عليه متلبِّسًا بالسرقة، وحزنًا على عدم معاملتها له كما لو أنه ابن لها، كما لو كان يخصُّها هي. وتوقَّعت أن تكون حانقةً أيضًا على والده، وتوقَّعت أن يعصف الغضب بها كما يعصف الرعد بالسماء، عدا أنه في هذه اللحظة تحديدًا، لم يتسنَّ لها سوى تأنيب نفسها فحسب.

أما كياكا فعجز عن إشاحة عينيه عن الصبي. وأخذ يُحدِّق ويُمعن التحديق إليه، وهو يلحق بيد زيد التي تلتقط العظاءة، وتُمزِّق ذيلها، ثمَّ تُلقي بها في الماء.

لمَّا قاربوا المرفأ، ازداد إلقاء زيد حدَّة بعد حدَّة. وأخذ يقول: «**أنا أُحبُّ البرتقال. أحضري لي برتقالة. أحضري لي درَّاجة**». ثمَّ راح يُردِّد كلمات الأذان: «**أشهد الله أن محمد رسول الله**». ونهض عن مجلسه، وراح يميل بثقله هنا وهناك، فتمايل القارب. وكان المرفأ مزدحمًا بالبحَّارة والصيادين وأُناسٍ أمثالهم، أُناسٍ مُمزَّقين بين مكان وآخر. اقترب القارب الآن، وشرع هو في النحيب، وهو يضرب بقبضته جسد مايا التي أحاطته بذراعيها.

- أتريد البقاء في القارب يا زيد؟ أهذا ما تريده؟ أتريد قضاء الليل هنا؟ حسنًا، حسنًا.

استدار القارب عائدًا أدراجه إلى الماء، مبتعدًا عن مرفأ العبَّارة، والبحَّار يُرسي بهما القارب حذو ضفَّة النهر. شقَّ كياكا والبحَّار طريقهما إلى الشاطئ، تاركين مايا بمفردها مع زيد. صار الجو باردًا، فأحكمت شدَّ خمارها، وطوَّقت الصبي به. أولاها ظهره، ثمَّ تكوَّرت على نفسها حوله، وخلَّلت شعره بيديها في رفق، فتباطأت أنفاسه.

قالت: «سنعود إلى الديار. غدًا سنكون في الديار».

- لا أريد.
- لا تقلق، لن يكون الأمر كسابق عهده.
- لقد حاولتُ الهرب.
- أعلم ذلك، أخبرتني رقية به.
- لكن أبي أعادني إلى المدرسة.
- لن يُعيدك مرَّة أخرى ما إن تحكي له كل شيء. لن يُعيدك إلى هناك أبدًا. نَم الآن. غدًا سنكون في الديار.

إنها مُتعبة الآن، مُنهكة القوى. ظنَّت أنه يقول لها شيئًا، لكنها لم تكن واثقة ممَّا سمعته.

«أريد درَّاجة. لقد أخبرته بالفعل».

غمغمت مايا مُجيبة: «لا تقلَق. سأتحدَّث إليه. ولن يحدث لكَ أي مكروه الآن».

«ألف-باء-تاء-ثاء».

لم تمضِ سوى دقائق قليلة من النوم، لكنها ستتذكرها دومًا بأعذب ما خبرت من لحظات النوم، لأن الصبي يتنفَّس إلى جانبها، وخبايا السنين مجهولة من أمامه.

***

كانت تحلم لمَّا سمعت الصوت، صوتُ الترشاش الضعيف، يعدو كونه مُجرَّد حازوقةٍ في الماء. ولكنها عرفت، عرفت أنه هو.. فقفزت في الماء، وخمارها يطفو على الماء من حولها، والتيار يجذبها بعيدًا عن القارب في الحال. نادت باسمه، وفتحت عينيها تحت الماء، وهي تُحاول أن تُبصر شيئًا

خلال ظلمة الجامونا وطميه السائل، وأخذت تسبح إلى الأعمق والأعمق في ظلمته السائدة، ثمَّ شعرت بيدين قويَّتين على كتفيها. لمَّا فتحت عينيها، لم ترَ سوى كياكا. جاهدته وأخذت تدفعه عنها، لكنهما صارا على القارب الآن. كم كان قويًّا إذ أنقذها! وكم كان التيَّار قاسيًّا، جائعًا يلتهم الولدنة!

***

استيقظت مايا على ضربةٍ على رأسها، ويدان تُمسكان بها، وتُباعدان ذراعيها. تذكر أنها استشفَّت شيئًا حيال الشرطة في تلك اللحظة: وهي أنهم يُقسِّمون الجسد فلا يلتحم أحد الجوانب مع الآخر. أنهضوها على ساقيها، وأخذت هي تصرخ: **أين زيد؟** قبل أن يرتطم رأسها بأرضية الشاحنة ويغرق عقلها في سواد.

***

برودةٌ قارسة وظلامٌ مُعتم. تحسَّست مايا وجهها في الظلمة. أنفٌ مكسور. وشفاهٌ مثل ثمرةٍ ممزوقة. ضغطت بأصابعها على وجهها، وفحصت جروحها، فانتشر الألم إلى خدَّيها، ومنهما إلى صدغيها.

شدَّت على خمارها، ويا لها من مزحة مُوحشة، إذ تشبَّثت بهذا الثوب أيَّما تشبُّث. كانت السجينات الأخريات قريبات منها، لكنها عجزت عن سماعهن. رافقتهن في بادئ الأمر، وحُشرت في غرفةٍ تنام النساء فيها بالمناوبة. ثمَّ بدأت في صراخٍ لم يتوقَّف، والتفَّت النسوة حولها، يُصدرن همهماتٍ لتهدئتها، وظلَّت هي على حالها تصرخ.

«زيد! أين زيد!».

وفي آخر الأمر، دخل رجلُ شرطةٍ إلى الزنزانة، وطرحها أرضًا وسحقها في ظلمةٍ دامسة. ثمَّ فتحت عينيها على هذا: غرفة أشبه بالكفن، ليس بها من تصرخ في وجهه. ثمَّ ألفت أصابعها شريحةً معدنية.. طبقًا.. وكوب ماء.

تجرَّعت الماء، ولكن حين جاؤوا لأخذ الصينية، ألقت بها في وجوههم. وتركت جسدها يذوق مرارة الجوع. بدا لها أنه من الأفضل لو خفَّ عقلها، وثقلت أطرافها، من الأفضل لها ألا تتذكَّر أصوات المياه العميقة.

ثمَّ أرسلوا لها امرأةً، ذات صوتٍ ناعم، أخبرتها بحقيقة أنها لم تأكل شيئًا منذ ثلاثة أيام.

أين زيد؟

هل أنتِ مُضربةٌ عن الطعام؟ أخبرينا لماذا أنتِ هنا؟

لا شك أنهم يعلمون سبب وجودها عندهم. فما من سببٍ آخر يدفعهم لإحضارها إلى هنا، سوى ضربة استباقية نفَّذها ذاك المدير ذو الأسنان المُعوجَّة.

أين زيد؟

كم كانت حمقاء! رغبت بإلحاح شديد في أن يعود إليها شقيقها حتَّى إنها تجاهلت قَسَمَها الخاص. أولًا.. لا. تؤذي. أحدًا.

التحمت يدٌ صغيرة بخدها، وانفرجت الشفاه مجدَّدًا، لتنطق: «كُلي أيتها الفاجرة. لن تُخضَّل يديَّ بموتك».

***

لاحقًا بعد أيام، أو ربما أسبوع ما عاد يمكنها تبيُّن الوقت، حُشرت في شاحنة، بيدين مُكبَّلتين معًا بحبلٍ، ورائحة الريف تغزو أنفسها بحشائشه وحقول الأرز المتناثرة وأرواث البقر الجافة تمتدُّ على أطراف المدينة. ثمَّ كتب أحدهم اسمها في دفتر سجلات.

حينما كانت في راجشاهي، أحاطها الأطفال من كل جانب، حتَّى إنها فقدت القدرة على إحصاء عدد مَن ساعدت في ولادتهم ليخرجوا إلى العالم، لكنها احتفظت بسجلٍّ يضمُّ أعداد مَن واره التراب منهم، مَن مات منهم بسبب الكوليرا، أو لدغات الثعابين، أو الفيضان المُفاجئ لنهرٍ قريب، أو بسبب غلاء عُلب الحليب حين جفَّ لبن الأم، أو مَن مات منهم دون أيِّ سبب على الإطلاق. ولهذا السبب الأخير -ألا وهو وفاة دون سبب- شهدت مايا موت مئة وسبعة وثلاثين طفلًا، وواراتهم التراب.

أحبَّت كل واحدٍ منهم، حتَّى مَن عرفتهم لفترة لا تتعدَّى مدَّة النطق بوفاتهم. كانت تضع أذنها على صدورهم الصغيرة وتُخبر أمهاتهم أن الأمر قد انتهى، وأنه ما من شيءٍ ليفعلوه. ولكن لم يقفز أحدٌ منهم -الأحياء منهم أو الأموات- إلى قلبها بتلك السهولة.. عدا الصبي ذا اللسان الملتوي، الذي يغشُّ في لعبة الورق، الصبي ذا الطيف الغائب.

***

سجنُ دكًّا المركزي. كانت حجرةً كبيرة مُكدَّسةً بالنسوة، تفوح برائحة البول والهواء مُعبَّق بغيومٍ أحدثتها أنفاس الكثيرات. كم يشبه سجن المدينة ريفها! الجميع فقراء، والموت لا يبعد سوى أقدامٍ قليلة. والمواليد كذلك، فقد سُحلت امرأةٌ حُبلى بعيدًا ورأسها متدلٍ. أمكن مايا المساعدة، لكنها لم تفعل. ثمَّ جاءت امرأةٌ عجوز تُمشِّط شعرها؛ كان فعلًا مؤلمًا حين ضجَّت الكدمات في رأسها بالألم، فأمرتها أن تتوقَّف. ثمَّ تناثرت المياه على عينيها. ومُرِّر إليها الطعام بأصابع مُجعَّدة ذات مذاق ملحي. وحين فتحت عينيها، رأت المرأة ظلًّا داكنًا، وزهور السوسن البيضاء مرسومةٌ على وجهها.

***

عادت إلى ذاكرتها قصاصاتٍ من حياة سابقة: السباحة في البركة مع نازية.. عبير أشجار السمسم.. الكتب المحترقة في الحديقة.. صوتُ سهيل، وهو يقول «**لقد قتلت يا مايا، قتلت**». ثمَّ صوته وهو يقول «حتى لا يصير مثلي».. لم تكن بِيا هي السبب، بل سيلفي. إنها الحرب. وصلت الحرب إلى أعتابه متأخِّرة. ثمَّ صوته وهو يُردِّد «**لقد قتلت**». الآن تُدرك سبب كل شيء.. إنها وطأةُ الموت.

نادى أحدهم باسمها، ثمَّ اقتيدت إلى القضبان في مقدِّمة الزنزانة. كان جوي يجثم على الجانب الآخر. وحين رفعت عينيها رأته يبكي. فكَّرت في تلطيف الأجواء، أن تقول شيئًا مثل أنهما الآن متساويان، كلاهما خريجُ سجون، لكن الكلمة الوحيدة التي أرادت أن تنطق بها هي: «أين هو؟».

طأطأ جوي رأسه وأجاب: «لم يجدوه بعد».

تحرَّك الضوء، فأمكنها أن ترى قامته بطولها، وكتفيه المتصلِّبتين، وحذاءه ذا النعل السميك. لم تعِ مدى خوفها طيلة هذا الوقت، والآن ها هي تمدُّ أصابعها وتفطن خوفها وهي تقبض على قضبانٍ ترتعد لها الحيوانات.

أردف جوي: «سأخرجكِ من هنا. سيستغرق الأمر أسابيع قليلة».

توقَّفت عن التفكير. في الخارج، سيتعيَّن عليها مواجهة الأمر. تخشى أن تسأل عمَّا قالته أمها حين سمعت بالأمر. وماذا عن سهيل. ماذا سيقول سهيل؟

- لا أريد أن أخرج. أريد البقاء هنا.

- لا تتفوَّهي بالهراء يا مايا. لقد عيَّنتُ محاميًا جيدًا يعمل على قضيَّتكِ.

- لست مضطرًّا للزواج بي بعد الآن، وأنا أعلم ذلك. ماذا ستقول أمك؟

- إنها تعرف كل شيء. لقد أخبرتها أنكِ ما أردتِ سوى إخراج الصبي من هناك. لم يكن هذا خطأكِ.

أحاط أصابعها بأصابعه، فباغتها سؤال قفز على شفتيها.

- أكنتَ غاضبًا بعدما تُوفِّي والدكَ؟

- لماذا؟

- أريد أن أعرف فحسب.

- كنتُ غاضبًا لدرجة أني خرجتُ إلى الشارع حاملًا مسدَّسي، على استعدادٍ لأقتل أي شخصٍ يبدو بهاريًّا أو باكستانيًّا. لهذا أرسلتني أمي إلى أمريكا، لأنها خشت أن أقتل أحدًا.

أدركت مايا في تلك اللحظة سبب رحيله المُفاجئ، ومدى قسوتها في الحُكم عليه. حقًّا تلدغ مثل النحلة الزنانة.

أردف جوي: «إن المحامي يهمُّ في الإجراءات من أجل الحصول على محاكمة مستعجلة. هل تحتاجين إلى أي شيء؟».

- كلا.

- تيقَّنتُ من أنهم سيفحصون طعامكِ. لا بُدَّ أن تأكلي.

كان يحاول ألا يبكي مجدَّدًا، فضاق وجهه بغصَّة البكاء.

تبعه ضوء المصباح لبضع خطواتٍ، ثمَّ تلاشى طيفه وقد ابتلعه فوه السجن.

***

في المرَّة التالية، أحضر إليها أمها. سُمح لها بلقائهما في غرفةٍ ذات طاولة وكُرسيين. كانت أمها ترتدي ساريًا أزرق داكنًا، ووجهها ينبثق من الظلمة شاحبًا مستديرًا. ثمَّ لمحت طيف النظَّارة الطبِّيَّة على وجه أمها. استكانت أمها بروية على كُرسي، ولاطف جوي رأس مايا بيده، ثمَّ قال: «سأنتظر بالخارج».

بادرت أمها الحديث: «لقد أتيتُ لأخبركِ أمرًا».

عجزت مايا عن لقاء عيني أمها. مدَّت يدها إلى رأسها، وأسدلت النقاب على وجهها. لا أتحمَّل رؤيتكِ لوجهي.

أردفت الأم: «أعلم أنكِ لطالما ألقيتِ اللوم على سيلفي لما حدث مع أخيكِ».

سيلفي. سيلفي التي مدَّت يديها عبر الطريق وطوَّقت بها رقبة سهيل.

- هل تعرفين الحاجَّ مدثر؟

بحثت مايا عن صوتها لتُجيب، فما وجدت شيئًا، لكنها أومأت بإيجاب.

- إنه الإمام الذي يُقدِّسونه في كاكريل. ولكن سابقًا في عام 1972، كان يخطب في المسجد الذي يقع على الطريق 13.

إنه المسجد المُطلُّ على البحيرة. عيد گاه، ساحة الصلاة التي يجتمع فيها رجال الحي للصلاة في أيام الجمعة.

- بدأ سهيل في التردُّد على هذا المسجد بُعيد الحرب.

خرج صوت مايا واهنًا من أسفل نقابها، وهي تُعلِّق مقاطعة: «ماذا تقولين؟».

- كان الحاجُّ مدثر بمنزلة أبٍ لسهيل.

- لم يخبرني أي شيء عن هذا الرجل قط.

أسندت الأم مرفقيها إلى الطاولة، ومضت قائلة: «أتعلمين؟ دومًا ما تساءلت أيكما افتقد والده أكثر من الآخر».

أنا مَن افتقدته أكثر. أنا مَن افتقدته أكثر.

- في البدء ظننتُ أنكِ أنتِ مَن افتقدته أكثر. فتاةٌ تحتاج إلى أبيها.. أعرف ذاك الشعور أفضل من أي شخصٍ آخر. ودومًا ما ظننتُ أنه لو كان أبوكِ حيًّا، ما كان ليسمح لكِ بالانضمام إلى الحرب، أو الذهاب إلى راجشاهي. كنَّا لنبقى معًا، جميعنا معًا. ولكن حين تُوفِّي أبوكِ كان سهيل في الثامنة فحسب كما تعرفين. كان في الثامنة فحسب وقد صار الرجل الوحيد في المنزل. اعتدتُ أن أرسله ليأتي إليَّ بالبطاقة التموينية، ويُسدِّد الفواتير في مصلحة الكهرباء. لا تتذكَّرين بالطبع. وأنا.. كما تعلمين، ليس لديَّ أحد. وبعد ما حدث في الحرب، التقى سهيل بالحاجِّ مدثر.

- ماذا تقصدين بـ «بعد ما حدث»؟

أجابت الأم: «كان في طريق العودة، والتقى رجلًا على الطريق. حقًّا كان الأمر أشبه بالمصادفة».

لماذا هي آخر مَن يعلم؟

أردفت الأم: «لقد أخبرني أنكِ تعرفين. لقد أخبركِ في تلك الليلة حين أحرق الكتب».

كلا، لم يُخبرني قط. لم يُخبرني أي شيءٍ قط. «**لقد قتلتُ يا مايا. قتلت**».

- على أي حال، السبب الذي دفعني لإخباركِ هذِه الحقيقة يا مايا.. السبب الذي دفعني لإخباركِ هو أن شيئًا كهذا قد يُدمِّر رجلًا. شيئًا كهذا قد يلتهم سنين، يلتهم حياتكِ بأكملها.

هذا لا يشبه ذاك. إن زيد مُجرَّد صبي.

- وهناك أمرٌ آخر.. بشأن سيلفي. لا يجدر بكِ أن تُلقي بهذا القدر من اللوم عليها. أظنُّ أنها تفهَّمت وأدركت قرابة النهاية.

تُسامح سيلفي؟ كانت هي بداية كل شيء. كانت مايا قد حدَّثت نفسها: «ليس هناك من أحدٍ سواها». ضاقت بها الأرض، ولم يدفعها ذنبها قيد أنملة نحو التسامح.

همست مايا: «هل عثروا عليه؟».

تسلَّلت أصابع الأم لتُعانق أصابع ابنتها، فشعرت بقبضة أمها قوية وهي تُجيب: «كلا، لم يعثروا عليه بعد. (أحكمت قبضة الأم) أنتِ لم تُصدِّقي زيد حين أخبركِ أن أمه كانت تلعب معه اللودو ووعدته أن تُلحقه بالمدرسة. لكن هذا كان صحيحًا».

لم تُرد مايا من أمها أن ترحل، بل تشبَّثت بها وكان عليهم أن يُخلِّصوها من بين ذراعي مايا.

***

أخبرتها أمها كلَّ شيء. والآن باتت تعرف. كان سهيل قد أنقذ بيا من ثكنات الجيش، حرَّر قيودها ورافقها إلى قريتها. وحينئذٍ، فكَّر في العودة إلى الديار. مشى جنوبًا على طريق «جيسور روود»، واللاجئون يحتشدون على جانبيه. كان السلام ما يزال في مهده، لا يبلغ عُمره سوى أيامٍ قليلة، وها هم يفيضون الشوارع عائدين إلى الديار. أخذ يمشي طوال اليوم، ويرتاح على قارعة الطريق مثل الجميع، وذراعاه مطويتان أسفل قميصه ذي المربعات الزرقاء والحمراء تُخفيان كنزًا، كان ينتمي يومًا إلى صديقه عارف. وبعدما

قضى ليلةً حالكة الظلمة، رأى رجلًا على الطريق. لم يشبه الرجل أيًّا من الآخرين في شيء، بدا بصحَّةٍ جيدة، مرتديًا جاكيتًا صوفيًّا سميكًا، ووشاحًا قد التفَّ بإحكامٍ حول رقبته وذقنه. لماذا كان يسير بتلك الثقة، لدرجة أنه يتبختر في مشيته؟ أراد سهيل أن يُلقي عليه نظرةً من كثب. هل كان ضابطًا من جيش العدو، يُحاول الاندماج مع الحشد؟ هل هو الضابط الذي احتجز بيا؟ حقيقةٌ لا يُهِمُّ. لقد احتجزوا جميعهم بيا في غرف التخزين في مؤخِّرة ثكناتهم، كلٌّ بطريقته.

اقترب سهيل من الرجل، فتطلَّع الرجل بدوره إلى سهيل. وظنَّ سهيل أنه سمع الرجل يُتمتم بشيءٍ بدا تمييزه صعبًا، هذا لأن فاه الرجل كان مُحكمًا بالوشاح الصوفي الملتفِّ حول رقبته. اقترب سهيل منه، ويده قابضةٌ على زناد بندقيته. قال الرجل: «**بيتا، بيتا (بُني، بُني)**» كانت هذه كلمة اعتادت الأم أن تُنادي بها سهيل، كلمة رقيقة، كلمة من الماضي.. كلمة أردية. وقبل أن يُدرك ما يفعله، حرَّر بندقيته وعانق الرجل، عانقه كما لو كان والده المُتوفَّى منذ زمنٍ بعيد، وفي اللحظة التالية أخرج السكِّين المُخبَّأ في تنُّورته، ولما رأى الرجل السكِّين ركع على ركبتيه وطوَّق ذراعيه حول ركبتي سهيل وقال «بسم الله الرحمن الرحيم». استرحمه الرجل للإبقاء على حياته. استرحمه مرارًا، ولكن كل ما أمكن سهيل سماعه هو حروف كلمة التوحيد وهو يقبض على رقبة الرجل ويُجيبه «لا إله إلا الله»، وقبل أن يُدرك ما حدث، كانا يتحدَّثان معًا مثل جوقة موسيقية، لغات القتل والموت، الموتُ والقتل، وراحة كفه ثابتة بينما يقبض على السكين، وفي نصله رأى عيني الفتاة في ثكنات الجيش، ورأسها المستدير وشعرها المُغبَّر. وفجأةً استحوذ عليه كل ما رآه وما أمكنه أن يتصوَّره، كل ما ألزم يده لتجُزَّ رقبة الرجل، وهو يُردِّد «الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر».

سالت الدماء من رقبة الرجل، فأمسك سهيل بطرف الوشاح وحلَّ اللثام عن وجه الرجل. ولمَّا أطرق ناظرًا إلى الجثَّة، باغته الإدراك بقوَّة طلقة نارية. «**بُني**». لم يكن الرجل جنديًّا. لم يكن جنديًّا ولا بهاريًّا ولا عدوًّا من أي نوع. كان مُجرَّد رجل عجوز، تغزو ذقنه غير المحلوقة شعرات بيض وسود. كان يملك وجه أبٍ، وجهًا عطوفًا قلقًا لا يُميزه شيء. يملك وجه نكرةٍ في بحر البشر.. وجه رجلٍ لم يرتكب جرمًا.. يعود إلى الديار بعد الحرب مثلما يفعل البقيَّة.

كانت حياة سهيل مقابل هذا الموت. الموت الذي راح يُسدِّد ديته بلحمه ودمه. لا بُدَّ أن شعوره بالذنب موجود.. يوخز قلبه وروحه. لهذا السبب تجنَّب

أمه، لأنها لم تُربِّه تربية حسنة. لو أنها قد منحته الكتاب عاجلًا، لربما اكتسب حكمةً وتعقلًا.. ولربما نأى بنفسه عن فعل ما فعله.

***

في اليوم التالي، زارها رجلٌ مكتنز الجسم قوي البنية، حُشر في بدلةٍ ضيِّقة. قدَّم إليها نفسه بوصفه مُحاميها. ثمَّ بادر قائلًا: «والآن أخشى أن الوضع معقَّدٌ قليلًا عمَّا ظننا. لقد احتشد الموالي ضدَّكِ».

كانت على حق إذن. إنه حضرة المدير ذاك، يدعي التواضع وهو يطعن السكين في ظهرها.

- المشكلة هي أن الديكتاتور يحاول طلب ودِّهم وتملُّقهم، ولهذا لا يقف في صفِّك. وأنتِ لم تُفيدي القضيَّة حين جعلته يبدو كالأبله.

- الديكتاتور؟ (بدت مشوشة) ظننتُ أنني في السجن لأجل اختطاف زيد، ابن أخي.

- لقد سمعتُ بالأمر يا سيدتي. أُعرب لكِ عن أسفي، ولكن ما نحن بصدده أجدُّ وأخطر بكثير.

أيُّ أمرٍ هذا أجدُّ وأخطر؟

- يُحاول اتخاذ قرار بشأن ما إذا كانوا يتوجَّهون إليكِ بتهمة الافتراء والتشهير أم بتهمة الخيانة. وكما تعلمين، عواقب تهمة الخيانة ستكون أسوأ بكثير. ولحسن حظِّكِ أن الرأي العام في صالحكِ. وستخرج مسيرة احتجاجية من شهيد منار غدًا، من أجلكِ ومن أجل شفاعة.

شفاعة؟ لقد اتضح لها الأمر الآن. إنها في السجن بسبب كتابة ذلك المقال، لأنها وصفت الديكتاتور بأنه مجرم حرب. أخبرها المحامي القصَّة كاملة، وأبلغها أن شفاعة وأديتي قد أُلقي القبض عليهما أيضًا. هل شعرا بالغضب لإلقاء القبض عليهما؟ هذا ما أرادت أن تعرفه. ضحكت ملء شدقيها، لأن هذا تحديدًا ما أراده شفاعة دومًا؛ أراد أن يُلقى القبض عليه. وها هو الآن بطل، لقد أسدت إليه معروفًا بلا شك.

دفنت وجهها في يديها. لم يأتوا إليها بسبب زيد. لم يهتم أحدٌ لأمر الصبي الصغير هذا. حينها ذاقت شفتيها المرارة مجدَّدًا، مرارة الدموع الأرجوانية الداكنة.

***

في دار القضاء، كانت يداها مُكبَّلتين، وتلقَّت أمرًا بالجلوس إلى جانب المحامي. وجلس جوي في الصفِّ الأمامي مرتديًا بدلة كورتا مُكرمشة. طيلة الأسابيع القليلة الماضية، شعرت أنها تستحيل إلى شيء ضئيل الجوهر، صار رسغاها هشَّين، وخدَّاها أجوفين شاحبين. كم بدت قبيحة! التقت عيناها بعينيه وهو يُحدِّق إليها.. دون أن يطرف له جفن.

اعتمر المحامي قبعةً ذات شعراتٍ مُجعَّدة. ثمَّ دخل القاضي إلى القاعة ونهض الجميع من فورهم.

استهلَّ المحامي مرافعته بإنجليزية طليقة تعلَّمها بالخارج: «سيادة القاضي، أُطالب بالإفراج عن الآنسة شهرزاد حق بكفالة».

قال القاضي: «هذه تهمة لا يُقبل فيها الإفراج بكفالة».

ثمَّ نظَّف حلقه، وبدا كمَن يُوشك على البصاق.

لا شك أن التهمة لا تقبل الإفراج بكفالة.. لا يجدر بها أن تكون كذلك من الأساس.

مضى المحامي قائلًا: «يا سيادة القاضي، إننا نسجِّل اعتراضنا على تهمة الخيانة. إن الآنسة حق -لو كان كاتبُ المقال حقًّا هو الآنسة حق- لم تقدم على شيءٍ سوى ممارسة الحرية التي كفلها لها دستور بنجلاديش».

- إننا نعقد محاكمة بموجب القانون العسكري يا سيدي، هل عليَّ تذكيرك؟

- بلى يا سيادة القاضي، ولكني أبحثُ لنفسي الافتراض بأن سيادتكم تمتثلون لسلطةٍ أعلى يا سيدي. دستورنا الديمقراطي.

صمت القاضي هنيهة، مستديرًا إليها، ثمَّ قال: «وكيف ستترافعين يا آنسة حق، لو أن الأمر بيدكِ؟ فالخيانة كما تعلمين تهمةٌ غاية في الخطورة».

تفاجأت مايا بصوتها يدعمها وهي تُجيب: «لم أرتكب أي خيانة يا سيادة القاضي. بل أنا مذنبة بقول الحقيقة فحسب».

تابع المحامي: «إن حرمان مواطنٍ حقه في التظاهر لهو جريمة خطيرة يا سيادة القاضي. فالمقال كما يعلم سيادتكم قد كُتب في أساسه كمناشدة لمحاكمة مُجرمي الحرب، وليس استخفافًا بالديكتاتور».

اكفهرَّ وجه القاضي، وهو يقول: «ما الذي تطلبه من المحكمة تحديدًا؟».

رفع المحامي ذراعيه ومضى قائلًا: «إن شقيق الآنسة حق كان مناضلًا من مناضلي الحرية. وكذلك والدتها كانت واحدة من الأبطال المجهولين للثورة. وكانت هي تحذو خُطى عائلتها. وما أحاول إلا مناشدة المُثل العليا للعدالة التي تلتزم بها المحكمة الموقرة».

بدا القاضي يُفكِّر في الأمر مليًّا. ثمَّ سألها: «هل كنتِ مناضلة من أجل الحرية يا آنسة حق؟».

- كنتُ وما زلتُ يا سيادة القاضي.

أمعن النظر فيها مليًّا، كمَن يتيقَّن من مصداقية تصريحها، ثمَّ قال: «إذن سندعُ المحكمة تُقرِّر مصيركِ. تُقبل الكفالة. (ثمَّ تابع بصوتٍ أجش) آنسة حق، يمكنكِ الخروج».

***

بعدما أدلى القضاء بقراره، اختلست مايا النظر إلى الوراء بحثًا عن جوي. وفي مؤخِّرة القاعة، كان عليها أن تُدقق النظر مرَّتين.. ثلاث مرَّات. رأت سهيل يجلس في المؤخِّرة، بعينين ورأسٍ مُنكَّس، فلا يسعها سوى رؤية قمَّة رأسه، والعمامة السميكة التي استبدل بها طاقية الصلاة. كان يُتمتم بشيءٍ في نفسه، ثمَّ رفع ناظريه، فالتقت بعينيها. شعرت حينذاك بساقيها تتهاويان من أسفلها، تحت وطأة عبئها الثقيل. وجَّهت حديثها إلى المحامي: «عليَّ الذهاب، أسرع في الإجراءات من فضلك». ثمَّ شقَّت طريقها نحو سهيل، ولمَّا وصلت إليه قبضت على يده وقالت: «زيد؟ هل وجدوه؟».

- في الماء، السبت الماضي.

كانت عيناه داكنتين مُقنَّعتين. لقد أخفوا الأمر عنها. لقد دفنوه، وهمسوا بصلواتهم أمام قبره.

إذن هذا هو مآل حياتها. جسدُ صبيٍّ جرفه الموجُ على ضفاف الجامونا. كم ودَّت لو تُلقي بنفسها على قدمي سهيل وتستجدي رحمته، لكنها لا تستحقُّ الرحمة حتى. انتظرت منه أن يصفعها.. أن يفتح شفتيه مجدَّدًا. ودون وعيٍ منها، خرجت كلماتها بصوتٍ مرتفع: «كنتُ أحاول إنقاذه».

أجابها بهدوءٍ: «لم تكن مسؤوليتكِ لتُنقذيه».

لم تكن مسؤوليتها. لم تكن مسؤوليتها قط. لمَن كان ينتمي إذن؟ أينتمي إلى ذلك الأب ذي الثوب الأبيض الذي يعيش خلف حائطٍ عالٍ، خلف سلسلةٍ من الآيات؟ استشعرت المرارة تغزو حلقها. فعاجلته قائلة: «لقد عرَّضته أنتَ للخطر يا سهيل. وحاولتُ إخبارك بهذا».

- ماذا كنتِ تظنِّين يا مايا! أظننتِ أنني لن أُخرجه من هناك؟

ثقل لسانها وتلعثمت كلماتها وهي تقول: «ولكني ظننتُ.. ظننتُ أنكَ قلت...».

- قلتُ إنني سأتأكَّد من سلامته.

كان ليذهب بنفسه. كان ليذهب ويُنقذ ابنه، كان ليُعيده إلى الديار. وفي تلك الأثناء، كانوا ليقضوا وقتهم في الحديقة، يستخلصون الزهور من شجيرات الإيكسورا.

- إذن أنا السبب.. أنا المسؤولة عن موته.

- الله وحده يتخيَّر ساعة المرء.

لم تُصدِّقه. لم تكن على استعدادٍ للتملُّص من مسؤوليتها، وأوشكت على إبلاغه بذلك، إنه بحاجةٍ إلى تفسير كل شيء -كلاهما يحتاجُ إلى ذلك- ولكن شيئًا ما بداخلها أوقفها، أبلغها حدسها أن تقبل بما يعرضه عليها من طريقةٍ تجعل الأمر معقولًا، طريقة للصفح عنها. ومع أنها لا تريد الصفح -لا، لا تريد منه أن يصفح عنها- غمرها شعورٌ بالارتياح أنه قد قدَّم إليها الصفح، وأن ثمَّة مثقالَ ذرَّةٍ من احتمال أن يكون هناك أمرٌ أكبر منهما، أكبر من قلبه وقلبها. «**الله يغفر الذنوب**» تذكَّرت تلك الكلمات من الكتاب الكريم.. «**للمسلمين والمسلمات. والمؤمنين والمؤمنات**».

جرؤت على ملاقاة عينيه، وكم أرادت أن تسأله ما إذا كان سيقدر على حُبِّها مرَّة أخرى، لكنها لم تستطع. وبدًلا من ذلك اكتفت بجوابها: «أصدِّقك».

أومأ إليها، فتساءلت عن سبب مجيئه. ربما ليراها في حبسها.. أو ليُضيف تهمته إلى تُهمها الأخرى. إنني بموجب هذا القانون أوجِّه إلى شقيقتي مايا تُهمًا بالجرائم التالية: عدم تصديقي حين عُدتُ إلى كتاب الله، السخرية من صدق إيماني وتمسُّكي به، ومحاولة استدراجي إلى حياتي القديمة، والتخلِّي عنِّي وهجري للشياطين التي راحت تلاحقني بعد حربنا، بعدما عادت أيادينا إلى الأرض مجدَّدًا. أتهمها بعدم محبتها لي.. بمحبَّتها لابني.. وأتهمها بقتله.

مضى وقتٌ طويل قبل أن يستأنف الحديث: «سأرحل. بعد انقضاء الأربعين يومًا، سأسافر إلى السعودية».

- إلى متى؟

- أشهر قليلة، وربما عام.

إذن جاء إلى هنا ليُلقي الوداع.

- وماذا عن أمي؟

- سيجدر بكِ الاعتناء بها.

سألته مجدَّدًا:

- وماذا عن نسوة الطابق العلوي؟

- سترافقني خديجة.

أومأت له في تفهُّم. لا حصر لعطايا الله.

أرادت أن تُخبره أنها قد عرفت بشأن الرجل الذي قتله، وأنها تعرف أن هذا ما أوصله إلى ما هو عليه الآن، وما يحمله في جعبته أينما ذهب، مثل قلادة من الآثام تلتفُّ حول عنقه، وأنه أخيرًا قد تراءى لها معقولية كل ما يحدث. عدا أن الأوان قد فات الآن، فات وانقضى. لم يعد هناك ما يربط بينهما من شعورٍ. سيظلُّ هو مُجرَّد هلوسات تختبرها، شبحُ رجلٍ اعتادت أن تُحبه. وستظلّ هي غريبة عنه. كان مُجرَّد استعداده لقبول تلك التسوية دون عقابها كافيًا بالنسبة إليها.

- أنا آسفة يا أخي. أنا حقًّا آسفة.

ونكَّست رأسها، تنتظر وطأة يده على قمَّتها، تنتظر مباركته.

أجابها: «ليس موكَّلًا لي أن أغفر لكِ... ليس موكَّلًا لي».

***

ستعود بذاكرتها إلى ذلك اليوم. وستستحضره في كل ذروةٍ ونقرةٍ من حياتها. ماذا لو لم يحدث مع حدث؟ لو أنه لم يفعل ما فعل؟ لقد قتل سهيل رجلًا. سلبه حياته وذبحه كما تُذبح الماشية. وفي كل يومٍ يتردَّد صدى تلك اللحظة في أذنيه، ويستشعر وطأة السكين في يده، وتمزُّق اللحم بين يديه، ولزوجة الدم على أصابعه. وستتذكَّر هي الأخرى، ستتذكَّر رحلتها عبر العبَّارة،

وطرقات يديها على باب المدرسة، وإخراجها الصبي من زنزانته وتطويقه بذراعيها وإغلاق عينيها. ثمَّ ستهدهد روحها لتنام، لكن النوم سيُجافيها، وفي كل مرَّة تفتح عينيها سيكون الأوان قد فات. ماذا لو لم يحدث ما حدث؟ لو أنها لم تفعل ما فعلته.

***

تُراودني أحلامٌ وراء أحلام. إننا في الكوخ الصغير، سهيل وأنا. في وقتٍ ما قبل أمر الكتاب، وقبل الحرب. تُزيل أمي قشور المانجو عن ثمرتها، ونحن ننتظر بائع المثلجات ليدق جرس دراجته ويصيح بأعلى صوت: مثلَّجات.. مثلَّجات.. مثلَّجات. عُدنا لتوِّنا من الجامعة. ويتراءى لها ما ينتشر في عروقه الآن؛ فكرة أن هناك شيئًا أعظم من حياته. وبينما أنا غارقةٌ في الأحلام، يستيقظ زيد ليلًا، لا يتذكَّر أين هو، بل كل ما يعرفه هو أنه على وشك أن يعود إلى والده، الأب الذي سيُعيده إلى المدرسة، وتظلُّ حياته على منوال الحلقة المُفرغة. يستشعر نعومة الرمال على ضفَّة النهر، فيُكوِّر أصابع قدميه ويغرسها في الطمي. ثمَّ يُردِّد في نفسه: «**ألف، باء، تاء، ثاء. أعرف حروف الأبجدية العربية**». تُراودني أحلامٌ عن المثلجات والمانجو. تُراودني أحلامٌ بها ثلاثتنا، ويا له من جمالٍ هادئ، لأنهم أخبروا أمي أنها عاجزةٌ عن تنشئتي وسهيل بمفردها، ولكن ها نحن أولاء، نحمل في جعبتنا رغباتنا وسياساتنا، وتلمع وجنتانا بحُمرة تحمل صخب الاحتمالية. ولكن أين هو، زيدي الصغير، إنه يجلس على جانب نهر الجامونا ويغرس أصابع قدميه في مياهه الثخينة.. كم هي دافئة. تُراوده الأحلام أيضًا، وآماله تنزلق إلى حياةٍ أخرى، على الجانب الآخر من النهر، حيث تتردَّد الضحكات وتصخب الدراجات ويصدح التلفاز طوال اليوم. المدرسة. الحب. أقطاب الشوكولاتة. بائع المثلجات. يصل بائع المثلَّجات على دراجته المُزوَّدة ببرَّاد، وتتكوَّر ألسنتنا تلذُّذًا بهذا المزيج: ثمار المانجو الدافئة من الشجرة، وشمس ما بعد الظهيرة عالقةٌ بداخلها، ممزوجةٌ بمذاق الشتاء، المذاق السُّكَّري البارد. إن شقيقي رجلٌ وسيم، وسيمٌ لدرجة أن الفتيات تُمرِّر رسائلها الصغيرة إليه في الصفِّ الدراسي، والحبر يسيل من كفوفهن التوَّاقة المُخضَّبة بالعرق. إنه شابٌّ جادٌّ، شديد الاعتزاز بنفسه، يأكل من ثمار المانجو ضعفي ما نأكله أنا وأمي، ولكنَّا لا نهتمُّ، فدومًا ما كان له شيءٌ من الامتياز في هذا المنزل. الرجل يستحقُّ هذا. زيدٌ يخشى سِنَّه

المُتقلقلة، يمدُّ يده إلى فمه، ويلعقها. لم تنضح سِنُّه بعد، ولمَّا اقتلعها من جذورها، تخضَّب فمه بالدماء. فراح يبصقه.

تراها تُشبه أمه، لكنها ليست بأمه. ها هي تُعيده إلى المنزل. وتعده بأنه لن يعود إلى المدرسة مجدَّدًا، وأنها ستتحدَّث إلى والده. ولكن ماذا ستقول له؟ **لقد أخبرته بالفعل**. في بادئ الأمر، مال نحو الماء، واغترف بعضًا بيده، ثمَّ مضمض فمه. كان مذاق الماء أشد مرارة من الدم. الجانب الآخر، الجانب الآخر.. حيث لا تفسد الأسنان، حيث لا أحد يقبض على رسغيه. المثلجات والمانجو. دبس السُّكَّر. يهزُّ جذع شجرة التمر، ويتجرَّع من عصارتها. يُحدِّث نفسه: «لا يبدو بعيدًا، ذلك الشاطئ لا يبدو بعيدًا». ربما نصف ميلٍ. دومًا ما سينتصر والده. وسيعيده إلى المدرسة. لكنه لن يعود. لن يعود. لا يبدو بعيدًا، ذلك الشاطئ لا يبدو بعيدًا. يمكنني أن أحبس أنفاسي طيلة المسافة. مال بجسده، ينقصه سنٌّ واحدة، فغلَّفه الماء وأحاطه. يمكنني أن أحبس أنفاسي طيلة المسافة.

***

الخاتمة

1992

يا له من يومٍ رائع! ما تزال نفحات الشتاء تُغطي الأشجار، وضوء الشمس شاحبًا برَّاقًا في آن. غُلِّفت الحاملة الخشبية بقماشٍ أحمر وأخضر، وفي منتصف المنصَّة منطقةٌ مسوَّرة بسياج مُربَّع ذات منبرٍ مرتفع. عُرفت باسم مقصورة الشهود.

قريبًا ستحتشد الوجوه في ميدان «سهروردى فيلد». وسيصطفُّون على المنصَّة واحدًا تلو الآخر. وسيسرد كلٌّ قصَّته واحدًا تلو الآخر. علي أحمد.. شاهجاهان سلطان... چاهارانا إمام. سيتحدَّثون عن الحرب، وعن الأطفال وعن الرفاق الذين فقدوهم. سيتحدَّثون عمَّا شهدوه، وعما فعلوه. وسينطقون بالكلمات التي لم يتفوَّهوا بها سوى لأنفسهم طيلة هذه السنوات.

وابنةُ مايا -زبيدة ذات الأعوام الخمسة- ستُمسك بيدها والخُطب مستمرَّة طيلة ما بعد الظهيرة. ستتعرَّق كفيهما، لكنهما ستتشبَّثان ببعضهما، وستتعشَّق أصابعهما، ثمَّ تهمس الطفلة: «أمي، هل سيعدمون غلام أعظم الآن؟».

- ليس بعد يا بُنيَّتي. يجب أن يُقدَّم للمحاكمة أولًا.

حينما تنهض چاهارانا إمام لتسرد قصَّتها، ستبحث مايا عن أمها في الحشد. لن تراها، فالحشود كثيرة، لكنها تعرف أن أمها ستكون حاضرة.. ستكون حاضرة كما وعدت. سيُنصت الحشد، ويقطعون الصمت بإيماءاتٍ وتصفيق، يرغبون في أن تقُصَّ عليهم چاهارانا إمام مجدَّدًا كيف دفعت بابنها المراهق إلى ميدان المعركة. بدافعٍ من واجبها كأم.

ثمَّ يحين الوقت.

تنهض امرأةٌ من كُرسيها، وتسير نحو المنصَّة، تتطلَّع إلى الأمام مباشرةً، كأنما تشخص ببصرها إلى الأفق. كل شيءٍ غارقٌ في الهدوء، وحدها الأشجار تُصدر حفيفها. عَطيَّةٌ من الحشد، كأنما يحبسون أنفاسهم من أجلها.

أضفت الأيام عليها صبغةً ملكية. بدت أثقل وزنًا، لكن جمالها ما يزال سرمديًّا. ثمَّ رافقها شابٌّ إلى المنصَّة، وهو يُحيط مرفقها بكفه.

وبإيماءةٍ إليها، تشرع مايا سائلة: «من فضلك أخبرينا باسمك».

- بيا إسلام.

- أخبرينا عن سبب قدومكِ إلى هنا يا سيدة إسلام.

افترَّ ثغر المرأة عن ابتسامة، ثمَّ أجابت مُصحِّحة: «بل آنسة».

ضحك الحشد مُؤمِّنًا على كلامها.

- آنسة إسلام، أخبرينا عن سبب قدومكِ إلى هنا اليوم.

- لقد وقعت في أسر الجيش الباكستاني في 26 يوليو 1971. كانوا قد نزلوا على القرية في غارة، فقد أخبرهم أحدهم أننا نُخبِّئ الفدائيين. ثمَّ قتلوا والدي.

صمتت هنيهة، وأخذت تُنظِّف حلقها. مرَّر إليها الشاب كأس ماءٍ، فتجرعتها. ثمَّ تابعت:

- وضعوني في شاحنة. كانت ابنة جيراننا معي أيضًا، لم تتعدَّ الرابعة عشرة. بكت وتقيَّأت كثيرًا في الشاحنة.

- قيَّدونا بالسلاسل إلى الحائط. كانت إحداهن موجودة من قبلنا، فقد رأينا خربشات اسمها على الحائط. كانت قد شنقت نفسها، ولهذا حلقوا شعورنا وانتزعوا سوارينا.

- هلَّا أخبرتنا عن عدد مَن كانوا هناك؟
- اثنان وثلاثون جنديًّا. يتناوبون علينا. ولمَّا ماتت الفتاة الأخرى، لم يتبقَّ أحدٌ سواي.
- وإلى متى بقيتِ في الأسر يا آنسة إسلام؟
- حتى نهاية الحرب.
- شكرًا لكِ يا آنسة إسلام. هل من شيءٍ آخر تودِّين إخبارنا به؟
- أجل.

ثمَّ استدارت إلى الشاب بجانبها، وتابعت: «هذا هو ابني. اسمه هو سهيل. أسميته تيمُّنًا بالرجل الذي أنقذني من ذلك المكان. الرجل الذي أنقذ حياتي».

***

تنحَّت بيا عن مقصورة الشهود. فمدَّت إليها مايا يدها، وأمام هؤلاء الناس جميعًا، هؤلاء الناس الذين جاءوا ليشهدوا الحكايات، وهؤلاء الذين جاءوا ليقصوا قصصهم، تعانقتا. اجتمع الخير في شقيقها، والخير فيها، في هذا الميدان، في هذه المرأة التي أسمت ابنها تيمنًا بشقيقها، وفي الفتاة التي سُميت تيمنًا بابنه. زيد. زبيدة. اسمٌ مستغلَقٌ في اسم. في كل مرَّة تضحك ابنتها ببهجةٍ تلازمها أعجوبة الفرح بها، تجدُ مسحة من ألم، ذكرى تحمل في طيَّاتها اللغويَّ الصغير سارق الأوراق. إنها تفتقده. في كل يومٍ تفتقده. زيد وسهيل. تشعر بوحشتهما هنا، أسفل حناياها إلى جانب قلبها النابض تمامًا. وهنا في صدغيها، وفي كل مرَّة تغلق عينيها، وترى صورة سهيل لما أصبح عليه سهيل، وهي تُدرك تمامًا أنه لن يطأ السينما أو يجلس إلى الطاولة برفقة أمها أو يشاركها نكتةً أو كتابًا (ليس هناك من أحدٍ سواها، ليس هناك من أحدٍ سواها). سينفطر قلبها ألمًا لهذا. لكنها تتعرَّف الجرح في تاريخه، جرحًا لا يمكن مُداواته، لأنها تملك جرحًا مثله أيضًا. إن جرحه هو جرحها. ولمَّا أدركت هذه الحقيقة، تفاجأت بنفسها ما عادت تتمنَّاه مختلفًا عمَّا صار عليه.

***

شكر وعرفان

أتوجَّه أولًا بالشكر لوالديَّ شاهين ومحفوظ أنام، اللذين استمرَّا في الوقوف إلى جانبي طوال تقلُّبات حياة الكتابة. يذكِّرانني دومًا بما أنا بصدده عندما أكتب، يعلمانني بالقدوة، من خلال عيش حياة المشاركة والنزاهة والعناية. امتناني لهما لا حدود له. وأختي وحليفتي الكبرى، شاڤينا، التي تُمطرنا بالحب والفكاهة والصفاء في كل لحظة معًا. أشكرها بشكل خاص على بصيرتها وقراءتها المبكرة لكتبي. وجدتي مُصلحة إسلام التي ما تزال مصدر إلهام لي. أودُّ أن أعرب عن شكري لكل عائلات فاروق/ إسلام على السماح لي بتوثيق بعض الصور والحوادث في تاريخنا المشترك.

***

شكر من المترجمة

أعرب عن امتناني لزوجي الذي رافقني رحلة ترجمة هذه السلسلة، يُنقِّب في المعاني هنا وهناك بين أصدقائه من شعب البنغال.

ولطفلتي الصغيرة «هَنا» التي لأجلها يتجدَّد طموحي.

وأتوجَّه بجزيل الشكر للمترجمة «دعاء الصغير» على معاونتها المثمرة.

***

ثلاثية بنجلاديش

عظامُ المجد - الجزء الثالث

لقد رأيتك اليوم يا إيلاجا. كنتَ تعبر الشارع. ورأيتُ مبنًى عند ناصية «ماس أفي» و«هارفرد ستريت» يشبه نسخة مصغرة من مبنى «فلاتيرون» في نيويورك. كنتَ موليًا ظهرك للمبنى، وحينما ومضت شارة الرجل الأبيض الصغير، ترجَّلتَ عن الرصيف إلى الشارع، في تلك اللحظة رأيتك. أشرتَ بإيماءة بسيطة من يدك دعتني للظنِّ بأنك رأيتني بدورك، وكأنك تلوّح لي، لكنها كانت حركة بسيطة من رسغك لا تعني شيئًا، بل كنت تضرب هواء نوفمبر البارد وحسب، وقبل أن تلتقي أعيننا، تراجعتُ أنا.

أعلم أنها مسألة وقت فحسب قبل أن نتصادف؛ إن كامبريدج بلدة صغيرة والطرق بها محدودة. لقد عدتُ منذ ثلاثة أشهر، وفي كل يوم، كنتُ أتلصص بأركان عيني، آمل ولا آمل، والأيام الدافئة تستحيل إلى برودة الثلوج، أن تكون أنتَ الرجل ذو المعطف الأسود الفاحم، وأن هاتين ساقيك تتشحان بالسروال الفضفاض، وأن هذا صوتك يطلب القهوة قبلي.

لقد أعادتني ديانا. إنها هنا -أو على الأقل، جزء ضئيلٌ منها هنا- بين يدي. بدت عظمة كاحلها أشدُّ شحوبًا وأخف وزنًا ممَّا تصوَّرت؛ أرى أن الزمان قد سلب منها ثقلها. عدا أن وجودها معجزةً إلهية، هنا في هذا المختبر.. في

هذه المدينة، حيثما بدأت أحلامي عنها وأحلامي عنك. حين تركناها في «ديرا بوجتي»، لم أظن قط أني سأراها ثانيةً. بل ظننتُ أن لغز الحوت السائر سيظلُّ مدفونًا إلى الأبد، كأحد الأسرار التي ما كان لنا أن ننبشها. ولكن في وقتٍ مبكر من هذا العام، تلقَّيتُ رسالة، كُتبت بالأردو وترجمتها أمي رغمًا عنها:

الآنسة العزيزة زبيدة حق،

هذه هديةٌ من صديقنا الراحل. لا أفهم السبب الذي يدفع رجلًا للتضحية بحياته مقابل شيءٍ كهذا، ولكن ربما أنتِ تفهمين. لقد ترك خطابًا، وطلب منِّي أن أستردَّ كنزه وأرسله إليكِ.

وما من خيارٍ لديَّ سوى الإسراع في تأدية واجبي نحو أخٍ ورفيق. جُبنا الصحراء بحثًا عن ديانا، وها أنا الآن أبعث بها إليكِ، جزءًا وراء آخر. لا أدري ما تعنيه هذه العظام، ولكن إن كنتِ تقرئين هذه الرسالة، فستعرفين أن لصديقنا أمنية وداع، وقد حرصتُ على تحقيقها.

لم أُصدِّق أن الرسالة حقيقية؛ بعد سنواتٍ من الصمت، أيُعقل أن زمزم كان يساعد في إنهاء ما بدأناه؟ ليس ثمَّة تفسيرٌ آخر، ولا سبب آخر معقولًا لرسالة الغريب هذه، أضف إلى ذلك أنه استخدم اسمها: ديانا. أجبتُ الرسالة، مُدرجةً تفاصيل القسم، عارضةً المساعدة في تغطية تكاليف النقل، والإجراءات الرسمية التي يتعين إنهائها لكي تجتاز الحفريات القديمة الحدود. ثمَّ استقللتُ طائرةً، وأتيتُ إلى هنا، وانتظرت.

حين وصل الصندوق، كان مغلَّفًا بعدَّة طبقات من الشريط اللاصق، وفي الداخل، بين طيَّاتٍ من ورق الجرائد، كانت عظمة كاحل ديانا مزدوجة المفصل، محفوظة في طبقةٍ من نسيجٍ خلالي أحمر. قبضتُ بأصابعي على البطانة، وشعرتُ بوخز الدموع في عينيَّ. أدركتُ من فوري أن هذا ليس مُجرَّد تحقيقٍ لحُلم بِتُّ أحلم به طويلًا ومع ذلك علّمتُ نفسي التخلي عنه؛ بل كان أيضًا وسيلةً ساعدتني لكي أبعث إليكَ بمناشدة أخيرة. كانت ديانا هي السبب وراء رحيلي عن هذه البلدة، وديانا هي السبب في عودتي إليها. أراها طيفًا يرمز للذهاب والإياب، منارةً تقودني بين القارات وعبر الزمن. وأعيش الآن على أمل أنها ستُعيدني إليك.

أظنُّ أني قد اختلقتُ هذه القصَّة في رأسي لبعض الوقت، ولكن حين قبضتُ بيدي على عظام ديانا، فاضت رأسي بكلمات، فأسرعتُ إلى البيت ودوَّنتها. إني أعيش في حالة من الانتظار يا إيلاجا، انتظار لهذه اللحظة، وهذه الفرصة لتصفية الحسابات؛ وزمزم قد حقق لي أمنيتي بعد موته. ديانا هنا، ثمَّ رأيتك، والآن يمكنني التفكير في الأمر برمته -لا أنتَ فحسب، الحب الأعظم في حياتي، ولا **آمبولوستوس** فحسب، بل في أنور أيضًا، الرجل الذي أرشدني إلى أمي، وفي جريس، السفينة التي هلكت حطامًا أمام أعيننا. كان هناك حوتًا، وامرأةً تخلَّت عن طفلها، وبيانو، ورجلًا يبحث طويلًا بحثًا مضنيًا عن حبيبته حتَّى وجدني. لكنكَ قاطعتني سريعًا. أنا لم أنتهِ بعد، وحتى أفعل، ليس ثمَّة طريق يجمعنا مجدَّدًا.

لقد استبقتَ الأحداث يا إيلاجا، ووقفتَ عند مفترق الطرق قبل أن يُقدَّر لكَ هذا.

***

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

The Good Muslim

المسلمة الحسنة

إن نثر أنام الفصيح ورؤاها الثاقبة تكون في أفضل حالاتها حين يتفرق السرد ويتعدد... إلى الطرق السريالية التي تجمع الإيمان والحُب معًا فينجحان تارة، ويفشلان أخرى.

- The New Yorker

تمتلئ رواية "المسلمة الحسنة" بسرد آسر، وتاريخٍ استيعابي وألغاز شكسبيرية أخلاقية ... فحص دقيق للبقاء والتسامح.

- Los Angeles Times

خلال أقصى درجات العنف والمأساة في الرواية، تسمح أنام دائمًا للإنسانية المطلقة للشخصيات بالتألق.

- Kirkus Reviews

روايةٌ لافتة ومكتوبة بشكل جميل. ومن مأساة تاريخية وسياسية واجتماعية، ابتكرت أنام قصة ساحرة تستعرض ثقافةً وزمنًا.

- Publishers Weekly

تهميمة أنام

كاتبة وروائية حصلت على جائزة كُتاب الكومونولث وجائزة أوه. هنري O. Henry Award، ثم أتى ذكرها في مجلة جرانتا البريطانية كواحدة من أفضل الروائيين البريطانيين الشباب Granta's Best Young British Novelists. تعينت مُحكّمًا في جائزة مان بوكر الدولية 2016. وفي عام 2015، ترشحت قصتها القصيرة "الحرامل" إلى القائمة القصيرة لجائزة بي بي سي الوطنية للقصة القصيرة BBC National Short Story Award. وفي عام 2017، انتُخبت لتصير زميلًا في الجامعة الملكية للآداب Fellow of the Royal Soci-ety of Literature.

ولدت في دكّا، بنجلاديش، وتلقت تعليمها في كلية ماونت هوليوك وجامعة هارفارد. تعيش الآن في لندن. تلقت الأحداث التاريخية التي وقعت في بنجلاديش إبان حرب الاستقلال من والدها الذي كان محاربًا في الحرب المذكورة.
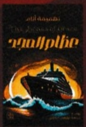
أعمال أخرى للكاتبة: